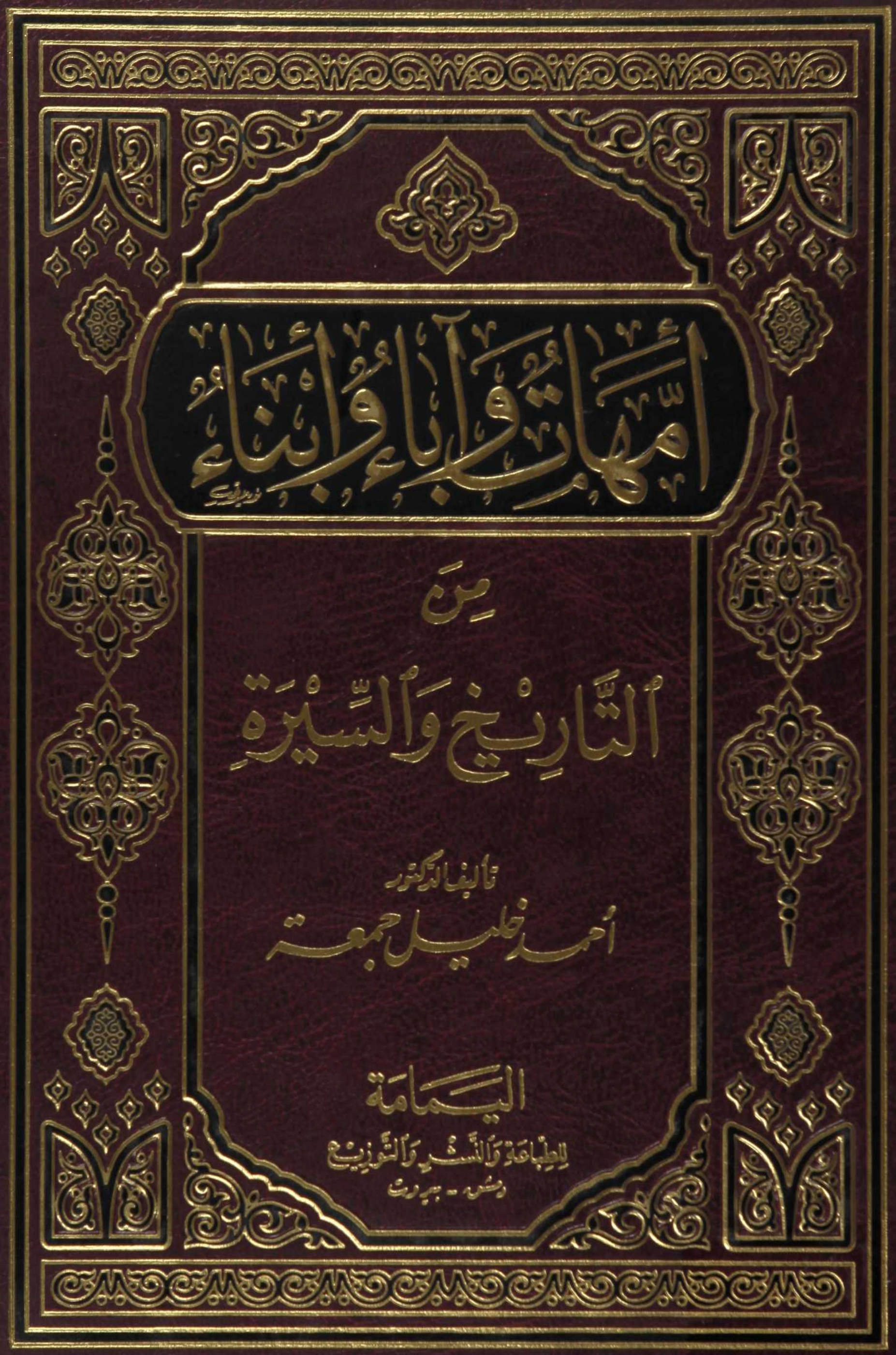

أمهات وآباء وأبناء
من
التاريخ والسيرة
تأليف الدكتور
أحمد خليل جمعة
اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

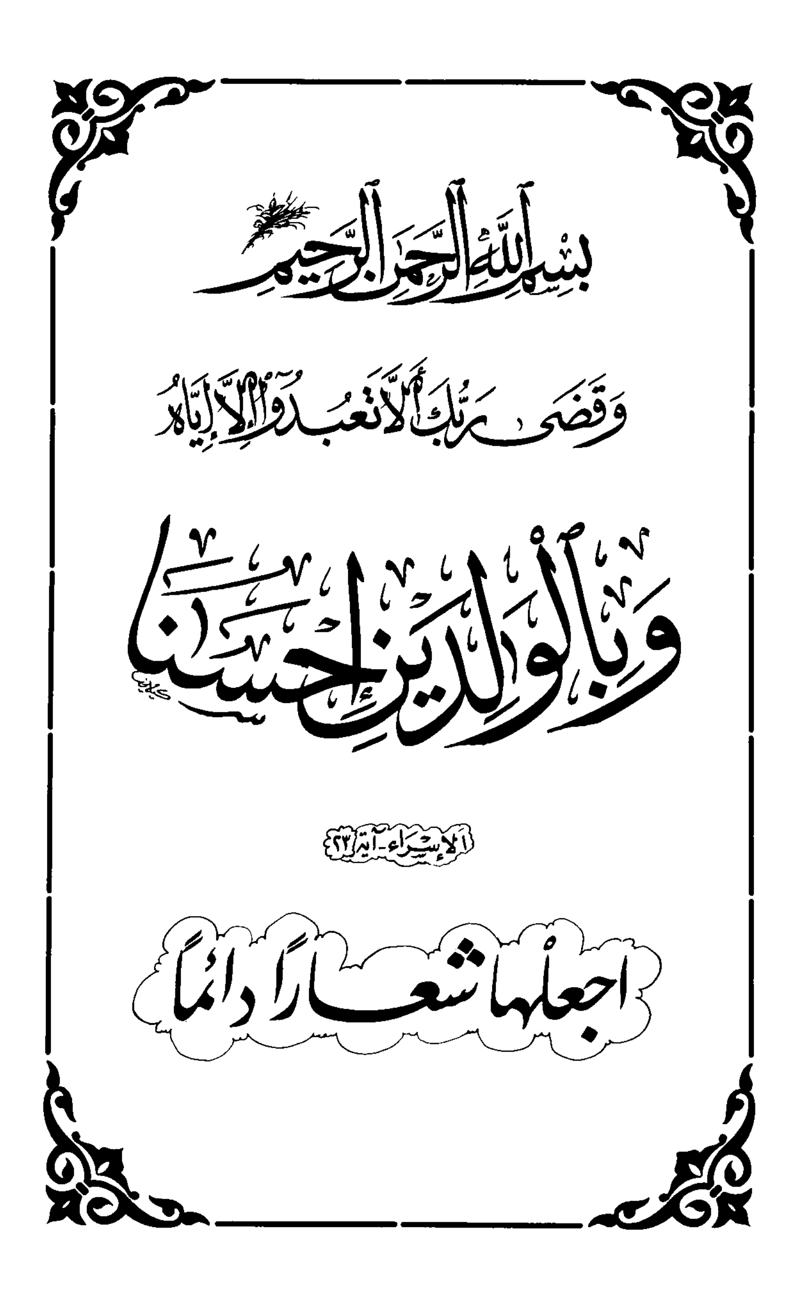


دمشق ـ برامكة ـ جانب الهجرة والجوازات ـ ص.ب ٣٧٧ ـ تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ ـ ٢١٢٣٢٤٥

بيروت ـ ص.ب ٥٤٨٨/١١٣ ـ تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ١٠ ـ جوال ٨٥٣٥٨٦ ٣٠

Http://www.dar-alyamama.com

e-mail: alyamama@scs-net.org



بسم الله الرحمن الرحيم
وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه
وبالوالدين إحسانا
الإسراء - آية ٢٣
اجعلها شعاراً دائماً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

* الحمدُ للهِ الذي نوَّرَ بكتابهِ القُلُوب ، وأنزلَه في ألطفِ لفظٍ وأوجزِ أسلُوب ، فهو الذي تقومُ به المعَالِم ، وتثْبُتُ الدّعائم ، وهو العِصْمةُ الواقية ، والنّعمةُ الباقية ، والحجّةُ البالغة ، والدّلالةُ الدّامغة ، والكلامُ الجَزْل ، والفَصْل الذي ليس بالهَزْل ، فسبحان مَنْ سَلَكَه ينابيعَ في القُلُوب ، وصرَّفَهُ بأبدع معنى وأنصعِ أُسْلُوب ، فهو يملأُ النُّفوس بِشْراً ، ويبعثُ القرائحَ عبيراً ونَشْراً ، و:

أَنْدىٰ عَلَى الأكْبادِ مِنْ قَطْرِ النَّدىٰ وأَلَذُّ في الأَجْفَانِ منْ سِنَةِ الكَرىٰ

* أحمدهُ إذْ علَّمَ بالقَلَمِ ما لمْ نَعْلَم ، ونبَّه بحكمتِهِ إلىٰ سلوكِ الطَّريقِ الأَقْوم ، وجعلَ مفتاحَ ذلك رضَاء الوالدَيْن كيفما كانَا ، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

* والصّلاةُ والسَّلامُ على رسولهِ المُصْطَفى ، ونبيّه المُرتَضَى ، معلّم الحِكْمة ، وهادي الأمّة ، أرسلهُ بالنّور السَّاطع ، والضِّياءِ اللامع ، فأرشدَ إلى الخيرِ الأبْناء ، ودَعَاهم إلى طاعةِ الأُمّهات والآباء.

* ورضيَ اللهُ عن صحبهِ الباذلين مُهجهم ، في طاعةِ ربِّهم ، وبرِّ أمّهاتهم وآبائهم ؛ وبعد:

* لا ريبَ في أنَّ الكلامَ عن الأمّهاتِ والآباءِ يسْحَرُ الألباب ، ويَغْمُرُ قلوبَ الأحباب ، ويحرّكُ لطائفَ النّواسِم ، ويجعلُ الثّغورَ بَوَاسِم ، و:

كَـلامٌ كـالجَـواهِـرِ حيْـنَ يبـدو ... وكَـالنَّـدِّ المُعَنْبَـرِ إذْ يَفُـوحُ
لـهُ فـي ظَـاهِـرِ الألْفَـاظِ جسـمٌ ... ولكـنَّ المعَـانـي فيـهِ رُوحُ

* ويزدادُ الحديثُ حلاوةً وطلاوةً إذا كان في ضوءِ القُرآن وظلالِ السُّنَّة ، وأفياء التاريخ وواحاتِ الأدبِ ، فهو يندّي الأرواحَ ، خصوصاً إذا كان مُنبعثاً من القلوبِ ، فإنَّه يقعُ موقعاً حسناً في القُلُوب ، لأنَّ عذوبةَ الكلماتِ ونَغَماتِها الماتعة ، تروي النُّفوس وتوردُها مواردَ الأحْلامِ اليانعة.

* ونحنُ نعيشُ الآن في زمنٍ متمّوجٍ مُتَلَوِّنٍ قد اضطربت فيه القِيَم اضطرابَ العِيْسِ في الصَّحراء يقتُلها الظّماُ ، فلمْ يَعُدِ الأبناءُ يُقيمون وزْناً لاحترامِ الوالدين اللذين قضى ربُك بالإحسان إليهما ، وقد صَرفَهم عن ذلكَ صَوارِفُ كثيرةٌ منها: وسائلُ الإعلامِ بأشكالِها وألوانِها ، وعُجرها وبُجرها؛ وتقليدُ الغَرْبِ والمُستَغربين تقليداً أعمى دون تأمُّلٍ أو تفكير ، وكثرةُ الأفلامِ والمُسلْسَلات الخاوية التي تُسْهِمُ في تغذيةِ العُقوق ، وتساعدُ على إنعاشهِ ونفشِهِ ، وتجعلُ الأبناءَ غيرَ مُبالِيْنَ بما يتصرّفون ، ولا يقيمونَ وزْناً لما يتكلّمون بل إنَّ وسائلَ الحضاراتِ وأسبابَها قد أفْسَدتِ الأبناءَ بسرعةٍ مذهلةٍ ، وجعَلَتْ من الاستهتارِ بالوالدين وعقوقهما «موضةً» (Mode) محبّبةً إلى نفوسِهم يتفاخرون بها في نواديهم ومُسامراتهم ، وفي أُنْسِهم وسهراتِهم ، وفي حلِّهم وترحالِهم؛ وفي همّهم وفراغ بالِهم ؛ كما جعلتْ منهم جيلاً لا يشعرُ بقيمةِ الأمومةِ ومكانتها لوجودِ المُربيّاتِ غير المُربّيَات وغير المُباليات، والغريبات في الدِّينِ والآداب والتقاليد والعادات ، وإذا ما راحتِ المربيةُ ـ بزعمها ـ ترعى الأبناءَ فإنَّ الإهمالَ شعارُهَا ، واللامبالاة دثارها ، فهي لا تهتمُّ بالتّربيةِ ولا تعرفُ ما التّربية ، ولا تمتلكُ أدنىٰ مقوّمات الأمومة ولا الإنسانية ولا المودّة ، ولذا فإنَّ قلوبَ الأبناء هؤلاء تكونُ دائما في خفوق واضطراب ، وعيونَهم في سُهوم ووجُوم ، أمّا حالُهم:

فَنكُـولٌ عَـنْ طعَـامٍ ... مـنْ أَفـانيـنِ الهُمُـوم

وذُهُــــولٌ عَــــنْ مَصيـــــرٍ قَـــد تـــردَّىٰ بــــالغُيـــوم
ذاكَ جُـــــرْمٌ أيّ جُـــــرمٍ مِـــنْ «حَضَــاراتِ» الخُصُـــوم

* إنَّ قلبَ الأمِّ الحنونِ ذو انفعالٍ وثَّاب حسَّاس ، ويَنْبوعٌ ثرٌّ لا ينضَبُ ، ولا يمكنُ أنْ يحلَّ مكانَه قلبُ مربيةٍ مهما بلغَتْ من رقي وحضَارة وذَوق ، فهل يعرفُ الأبناءُ قيمةَ ذلك؟ حَسَناً ، فَلْنَتَغَنَّ مع «خير الدِّين الزِّركلي» وهذه الكلماتُ الموحيةُ العذبةُ المنوّعةُ الخواطر عن قَلْب الأمّ ، هذا القلبُ الكبيرُ الحاني هُوَ. . . هُوَ. . . هُوَ. . . :

حَولي وفي قَلْبِي وفي سَمْعِي وفيْ بَصَرِي وبينَ يَدي في جَذْلي وغمّي
نَجْـمٌ يضـيءُ شعـاعُـهُ سُبُلـي إذا غَفَتِ العيونُ وغابَ عنّي كُلُّ نَجْم
هـوَ مـأْمَنِـي إمّـا جـزعْـتُ وقبْلَتـي أنّى اتّجهتُ ورَوْعَتي وجلاءُ همّي
هُوَ مُؤْنسي في وحْدتي هوَ موئلي في كُربَتي هو منْبتي هو قَلْبُ أمّي

* إنَّ الخادماتِ ـ مَهْمَا كُنَّ ـ بلاءٌ ووباءٌ على الأبناءِ عامّة ، وعلى الفتياتِ خاصّة ، فما حالَةُ الفَتَيات مع الخادماتِ والمُربّيات؟ وهل يصحو الآباء وتصحو الأمّهات لهذا الخطر الآت؟!! هذا ما تصفُه هذه الهمسَاتُ الحرّى في هذهِ الرّائيةِ التي تكشفُ عن زيفِ الحضارةِ المجلوبةِ الجوفاء ، التي خلّفَتِ الشَّرَّ ودمّرتِ الفضيلةَ وأَطَارتِ الحياءَ :

الخَادِمَاتُ غَرسْنَ في فَتَيَاتِنا حُبَّ السُّفور
وزَرَعْنَ في أبنائِنا عشْقَ الخلاعةِ والفُجور
فإذا البَنَاتُ وقد كشَفْنَ عن المفاتِنِ والنُّحور
لا هُنَّ ربّاتُ الحِجَالِ ولا عفيفاتُ الخُدور
وإذا بفتيــانِ التّفــرنُـجِ لا تَغَــارُ ولا تَثُــور
والأُمّهاتُ لَهَوْنَ في حُبِّ التَّفاخرِ والظُّهور
وكـذلـكَ الآبـاءُ أُنْسُـوا شَـرَّ هـاتيـكَ الأُمـور
فـإذا بنـا قـدّامَ جيْـلٍ لا حيـيٌّ ولا غَيُـور

* إنَّ حياةَ الأبناء في ظلالِ الأبوَيْن نعمةٌ عظيمةٌ لا يدركُ كنْهَهَا إلاّ الأوفياء المخلصون ، لأنّهما يفيضان بالحنَانِ على الأبناءِ ، ويغرسان فيهم محاسنَ

الشَّمائل وكريم الخصائل ، ويجعلان البيتَ جنّةً وارفةَ الظِّلالِ يتفجّرُ بالمودّةِ والحبّ والعطف والإيثار ، و:

هَلْ يغرسُ الأخلاقَ في نَفْس البَنين أو البَنات
إلاّ رجــالٌ صــادقــون وأمّهــاتٌ حَــانيــات؟

* من هذا المنطلق المهمّ حرصتُ أنْ أرسمَ في هذا الكتاب لوحاتٍ تربويةً واضحةَ المعَالم ، تُظْهِرُ مكانةَ الأبوين ، وأثرهما في حياةِ الأبناء. وقد جعلتُ الكتابَ في ثلاثةِ أبوابٍ رئيسة ، وكلٌّ بابٍ يحتوي بضعةَ فُصُول ، وذلك على النّحو الآتي:

البابُ الأولُ: في هذا البابِ الذي افتتحتُ فيه الكتاب تحدثْتُ عن علاقة الأمّهاتِ بالأبناء ، وعرضتُ نماذجَ هادفةً من القرآنِ والسّيرةِ والتّاريخ والأدبِ توضّح دورَ الأمّهات في تربيةِ الأبناء وتوجيههنَّ الموفّق لهم في شتّى مجالاتِ الحياة ، واخترتُ نماذجَ مباركةً من سِيَرِ الأمهات وقصصهنّ في القُرآنِ الكريم والتَّاريخ القديم ، ثم تحدثتُ عن أمّهاتِ المؤمنين ودورهنّ في بناءِ صَرْحِ التّربيةِ في شتّى النّواحي ، ثم أشرتُ إلى بعضِ أمّهاتِ الصّحابةِ وأثرهنّ التّربوي والتّاريخي في بناء نفوسِ أبنائهنَّ في عَصْر النّبوّة ، وختمتُ البابَ بِشَذراتٍ أدبيةٍ هامسةٍ ، ونسماتٍ تربويةٍ تلثمُ أفئدةَ الأبناء في سعادةٍ لتوقظَها ، ومن ثمّ تجعلُها تهفو إلى ظلالِ الأمومةِ لتأنسَ بها ، وتنعمَ بدفئها وتقدّرها.

البابُ الثَّاني: وفيه تحدثْتُ عن الآباءِ والأبناءِ من خلالِ أحْسَنِ القصص ، وأوردتُ نماذجَ من قَصَصِ الأبّوة وآثارِها الميمونة في تربيةِ الأبناء ، وبَـيَّنْتُ الدّروسَ المستفادةَ من ذلك ، ولم أتعرضْ للحديثِ عن «آباءِ الصَّحابةِ» ، لأنّي أفرْدتُ في هذا الموضوع مجلداً كبيراً مستقلاً سيصدرُ قريباً بإذنِ اللهِ عزّ وجلّ ، وبصحبتِهِ كتابان آخران وهما: «عُلماءُ الصَّحابة» ، و«أمّهاتُ الصَّحابة» ، وكلاهما سيصدرُ في مجلدٍ فاخرٍ بإذن اللهِ ومشيئته.

البابُ الثَّالثُ: ويحملُ هذا الباب عنوان: الأبناء وأمور الوالدين ، وتحدثتُ من خلالهِ عن برِّ الوالدين مع قصصٍ ونماذجَ عن بعضِ البررة خلال التّاريخ في عصوره المختلفة ، ثم إنّي ثنَّيْتُ الحديثَ عن عقوقِ الأبناء مع ذكْرِ

نبذةٍ عن أشهرِ العَقَقَةِ في التاريخ ، وتحدثتُ عن مساوئهم ونهايتهم الوخيمة؛ وختمتُ الكتابَ بِحِلْيَةِ الوصايا النَّافعة التي صدرتْ عن الأمّهاتِ والآباءِ إلى الأبناء ، والتي منحوهم فيها محضَ التّجارب وخلاصة الودّ ، لتكونَ لهم مشاعل نورٍ تضيء لهم الطّريق.

* كانتِ المصادرُ والمراجعُ التي عدْتُ إليها كثيرةً ومتنوّعةً وهي منثورةٌ في ثنايا الكتابِ وطيّاته تروي للقُراء بهدوءٍ مدىٰ العناءِ الذي لقيتُه وأنا أكتبُ كلمات هذا الكتاب وفصولَه وأبوابَه حتّى أينعَ ، وغدا داني القطوفِ ، شهيَ الثَّمرِ ، جميلَ المنظرِ والمَخْبرِ بإذن الله تعالى.

* ومن يمْنِ هذا الكتابِ أنّي وشّيتُ شطراً منه بقصصٍ من القرآنِ الكريمِ ، إذ كان القرآنُ الكريمُ المصدرَ الأوّلَ في هذا العملِ ، وكذلك علومه المتنوعة ، بالإضافةِ إلى عشراتِ التّفاسيرِ التي وضّحت كثيراً من القضايا المهمّة التي تفيدُ الأبناء أولاً وتفيدُ الأمهات والآباء في مجالات التربية والتقويم والإرشاد.

* وتأتي كتبُ السُّنّةِ النّبويةِ لتتمّ يُمْنَ العمل ، فكان صحيح البخاري ومسلم في مقدمة المصادر الحديثية ، وقد أسهمت شروحهما في حلّ وإيضاحِ كثيرٍ من الإشكالات ، وكان للتّوجيهاتِ النّبويةِ الأثرَ الكريمَ في تربيةِ الأبناءِ وربطهم بالوالدين بحيث إنّهم يصلون إلى شاطىء الأمان.

* وفي شروح كتبِ الحديث غذاءٌ للألباب ، وترويحٌ للقلوب ، إذ ساعدت هذه المصادر في ضبطِ الأحداث والأسماء والأمكنة ، وحلّتْ كثيراً من المبهمات التي تستعصي عادة على الباحثين ، وسيجد القراء الكرام أمثلة كثيرة في متن الكتاب وحواشيه توضّح ما قلناه.

* وكانت كتبُ التّاريخ روضةَ هذا الكتاب وبستانه ، فمن نفائسها رحتُ أقطفُ ما يزين هذا العمل ، فكتب التاريخ تقرّب المفاهيم إلى العقول ، وتثري الباحث في ضبطِ الزّمان والمكان؛ وكان في مقدمةِ المصَادرِ التّاريخية: تاريخ الطبري ، وكامل ابن الأثير ، والبداية والنهاية ، وتاريخ مكة ، وتاريخ الإسلام للذّهبي ، وغيرها كثير.

* أما كتب الأدب والأمالي والمسامرات والدّواوين فكان لها النّصيب الوافي ، وسيجد القارىء الكريم مصداق ذلك ، وهو يتصفّحُ الكتاب ويقرأ بعضَ النّوادرِ الأدبيةِ والأخبارِ المفيدةِ ، بالإضافة إلى بعض الأشعار النّادرة التي تسهم في تعزيز المعلومات والأحداث من مثل: سادة السُّودان ؛ وأفضلية أبي بكر الصّديق رضي الله عنه ، وحكمة لقمان ، وغيرهما ، مما نثرناه في أردان الكتاب وثناياه ، وبين فروعه وأغصانه .

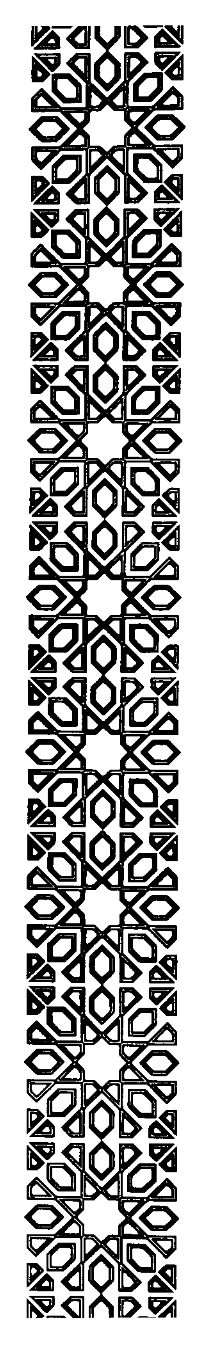
* وفي كتب اللغة واللسانيات شفاء للألسنة من العِوَجِ واللحنِ والخطأ ، وقد أبحرتُ مراراً في القاموس المحيط ولسان العرب ومجمل اللغة لاستخراجِ جواهرِ الألفاظِ وضبطِها وتقديمها للقارىءِ في حليةٍ جميلةٍ ، وقد أصبحنا الآنَ في حاجة ماسّة إلى هذا الأمر الذي لم ينتبه إليه كثيرون حتى من مشاهير الدّعاة ، فتجد تشويه الألفاظ والأسماء بشكل مضحك أحياناً ، وتجد الكسرة مكان الفتحة ، والضمّة مكان السُّكون وهلم جرا ، وأنتَ تعلم أنَّ ضبط كلمة بشكل غير صحيح يعطي معنى غير صحيح ، أضف إلى ذلك كلّه لفظ أسماء المشاهير والأعلام لفظاً سقيماً ملتوياً ، وهذا اللفظُ الخاطىء يتلقفه السَّامع بالقبول ودون تحقق ، فينتشر الغلط بين النّاس ويصبح الخطأ هو الصّح لأنَّ فلاناً من النَّاس قاله على الشَّاشات الصغيرة والأشرطة المثيرة ، وإذا ما أردْتَ أنْ تصحّح ما اعوجَّ من الخطأ قيل لك: «هل أنتَ أعْلَمُ من فلان؟» ؛ ثم يُسَفَّه رأيك وإن كان صحيحاً لأنّك صححتَ لمن يلحنون ، وإن المصيبة الأدهى والأشدّ أن هؤلاء الذين يلحنون يرطنون بكثير من الكلمات المجلوبة ويسهمون في إنعاش العامية حتى كأنَّ الفصحى غدت «موضة» قديمة لا تصلحُ لشيء ، نسأل الله اللطف ونسأله أن يلهمنا جادّة الصَّواب ، وأنْ يعلمنا ما ينفعنا ، وأن يزيدنا علماً وفهماً وحباً للحقّ والخير ، لينتشرَ الحقُّ والخير ، فما أجملَ الحقّ والخير! .

* وختاماً ، أرجو من القارىءِ الكريم أنْ يخصَّني بدعوةٍ طيّبةٍ صافيةٍ منه بِظَهْرِ الغيْبِ ، وأنْ يتجاوزَ عن الزَّللِ ، فكلُّ إنسانٍ خطّاء ، ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلّها؟ والكمالُ للهِ الكبيرِ المُتَعَال .

* اللهم تقبَّلْ منّا إنّكَ أنْتَ السَّميعُ العليمُ ، وتَبْ علينا إنّكَ أنْتَ التّوابُ الرّحيمُ ، واختمْ لنا بخيرٍ أجمعين. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتب
الدُّكتور أَحْمَد خَليْل جُمُعَة
دمشق ـ حرستا
حي الشيخ موسىٰ
١٥/ ٨/ ٢٠٠٣ م

* * *



الباب الأول

أمّهات وأبناء

الفصل الأول

الأمهات عبر تاريخ العصور

* هذا فصلٌ جميلٌ ومفيدٌ ، نُبْصِرُ من خلالهِ ملاحةَ الأمومةِ والبنوّة معاً ، ونلمسُ حنانَ الأمومةِ الورديّ ، ولطافتها الجميلة التي تشبهُ برعمَ الزَّهْر الغَافي على ورقِ الوردِ ، تُندّيهِ قطراتُ الحبِّ التي تصافحُ نسيم السَّحَر في صباحٍ ربيعيٍّ أنيق.

* تأتي عذوبةُ هذا الفصل منْسَابة كحنانِ الأمّ على الوليدِ ، وكابتسامِ الوليدِ لأمّه ، فهو يلملمُ خطراتِ الأمومةِ والبنوّة عبرَ العُصور ، وهل هناك أجملُ من التَّغَنّي بالأمومةِ ، بهذا اللحنِ الذي يُوقظُ الحنانَ في النُّفوس ، ويرسمُ الحُبَّ في لَوْحَةِ شِغَافِ القُلوب؟!.

* ومَنْ منّا لا يعرفُ النَّغَمةَ الموسيقيّةَ العذبةَ التي تنبعثُ مِنْ لفظة الأُمّ؟! مَنْ منّا لا يعرفُ أنَّ جزءاً من صرحِ التَّاريخ الأدبيّ والحضَاريّ قد شيّدته الأُمّ؟!

* إنَّ كَلِمَةَ الأمِّ من أوائلِ الهمساتِ الطُّفوليةِ ، والنَّغَمات البريئةِ التي ينطقُها الإنسانُ في حياته ، إذ إنّ كلمةَ الأمّ تحملُ الحبَّ ، والدّفء ، والسَّخاء ، والصِّدق ، والوفاءَ ، والمواساةَ.

* وقبلَ أنْ ندخلَ رحابَ الأمومةِ النَّابِضَةِ بالفضلِ والعطاءِ ، لا بدَّ أنْ نَتساءل: هل توجدُ أمومةٌ في الدّنيا دونَ أبناء؟ أم هل يوجدُ أبناء دون أمومة؟!

* إنَّ الأمومةَ والبنوّةَ شيئان متلازمان كتلازمِ الرُّوح مع الجسدِ ، ولا وجود لأحدهما دونَ الآخر.

* فالأمومةُ المتمثّلةُ بالوالدةِ التي تضمُّ جناحَيْها على صغارِها ، وتسكبُ حنانَ قلبِها في حنايا قلوبهم ، حتّى تراهم بعد رحلةٍ تربويّةٍ كِباراً ينفعُون مَنْ حولَهم ، ويبنون صَرْحَ الحضاراتِ ، وهم منطلقون وعارفون أنَّ الجنَّة تحتَ أقدام الأمّهات.

* تروي كتُبُ التّاريخ القديمة أنَّ الأمّ كانت تحتلُّ المرتبةَ العُليا في بعضِ المجتمعاتِ العربيّة؛ بل إنَّ كثيراً منَ العربِ الأقحاح اعتزّوا بالانتسابِ إلى الأمّ ، وكانوا يرونَ في ذلك مفخرةً لهم ، وتخليداً لها واحتراماً لذكراها ومكانتها.

* وتلمعُ في جبينِ التَّاريخ أسماءٌ شهيرةٌ تنتمي إلى الأمّهات ، من مثل: بنو خنْدَف؛ وخندفُ هي ليلىٰ بنتُ عمرانَ القُضَاعيّة ، وعن هذه المرأة الأمّ انبجستْ بطونٌ عديدةٌ من مشاهيرِ بطونِ العرب كَهُذَيل ، وكنَانة ، وأسَد.

* وبنو جديلةَ بنتُ مدركةَ بنِ إياس ، وإليها تنتسبُ قبيلةُ عدوان. والعبلاتُ ـ وهم رهْطُ الثُّريا بنتُ عبد الله التي تَغَزَّلَ بها عمرُ بنُ أبي ربيعة ـ نُسِبُوا إلى أمِّهم عبلةَ بنتِ عُبيد الله بنِ جاذِب. وكذلك بنو بجيْلَة ، وبنو جَنْدلَة ، وبنو العبديّة ، وبنو رقاش ، ومزينة ، وعَفْراء ، وباهِلَة ، وسَلُول ، وغير هؤلاء ممنْ وَعتْهم لنا ذاكرةُ التَّاريخ في الأمومةِ.

* وتبلغُ الأمُّ منزلةً مرموقةً عند قدماء العرب ، إذ تمتَّعَتْ بعضُ نِسَائِهِمْ بمكانةٍ ساميةٍ متفردةٍ ، فكُنَّ يخترنَ الزَّوج ويتركنه إذا ما أساءَ معاملتهنّ ، وبلغَ من سمو منزلة بعضهنّ أنّهن كُنَّ يحمين مَنْ يستجيرُ بهنَّ ويلوذُ بِحَماهُنّ.

* ذكرتْ كتبُ الأدبِ والأسمار ما يدلُّ على ذلك ، وأوردتْ بأنَّ فُكيهةَ بنتَ قتادةَ ـ وهي خالةُ طرفةَ بنِ العبد البكريّ الشّاعر الجاهليّ المشهور ـ قد أجارتْ مرّةً السُّلَيكَ بنَ السُّلكة ـ الشّاعر الأسود الجاهليّ وهو منْ شياطين

العرب ـ وحَمَتْهُ من بكرِ بنِ وائل لمّا استنجدَ بها ، فأجارته ، وعندها خلّدَهَا بقولهِ يمدحُها:

لَعَمْـرُ أبيـكَ والأنْبـاءُ تنْمـى ... لَنِعْـمَ الأخـتُ أخت بني عـوارا

عنيـتُ بهـا فكَيهـةَ حيـنَ قـامَـتْ ... لِنَصْـلِ السَّيـفِ وانتـزعُـوا الخِمـارا

مـنَ الخفـراتِ لـم تَفْضَـح أخَـاهَـا ... ولـم تـرفَـعْ لـوالـدِهـا شَنَـارا

* وحكوا أيضاً ما يدلُّ على مكانةِ الأُمّ ، وما يشيرُ إلى رأيها الصَّائب إذا ما ادلَهَمَّ خَطْبٌ ، وعَظُمَ أمْرٌ ، وقالوا: «هجا بشرُ بنُ أبي خازم الأسديّ ، أوسَ بنَ حارثةَ الطائيَّ ، وذكرَ أُمَّه سُعدى ، فأغارَ أوسُ عليهِ ، وحرَّضَتْهُ القبيلةُ على قَتْلهِ ، فلمّا دخلَ على أمّه سُعدى ، قالت له: يا بنيّ؛ ماتَ أبوكَ فرجوتك لقومكَ ، فأصبحتُ أرجوكَ لنفسِكَ ، زعمتَ أنّك قاطعٌ رجُلاً هجاكَ ، فَمَنْ يمحو ما يقولُه غيره؟

قال أوسُ: فماذا أصنعُ؟

قالتِ الأمُّ: تكسوهُ حُلَّتَكَ ، وتحملُه على راحلتِكَ ، وتعطيه مئة ناقة؛ فإنَّه لا يَغْسِلُ هجاءَه إلاّ مدحُهُ. ففعلَ أوسُ ما أمرتْ بهِ أمُّه سُعدى ، وعندها قال بشرُ بنُ أبي خازم لأوس: واللهِ لا مدحتُ أحداً حتّى أموت غيركَ ، ومن ثمَّ مدحه بقصيدةٍ يقول فيها:

إلـى أَوسِ بـنِ حـارثـةَ بـنِ لأمٍ ... لِيقضـيَ حَـاجَتـي ولَقَـدْ قَضَـاهـا

فَما وطِىءَ الحصَا مثْلُ ابنِ سُعْدى ... ولا لَبِـسَ النِّعـالَ ولا احتَـذَاهـا»[1]

* وبلغَ من علو قَدْرِ الأمّ ومنزلةِ الأمومة الحقّة أنَّ كثيراً من المشاهيرِ ومن الشُّعراء خاصّة كانوا يذكرون الأمّ في قصائِدهم؛ وقد شاعَ قديماً نَسَبُ الابنِ إلى أمّه ، بل كان كثيرٌ من الأبناءِ يفخرون بنسبهم إلى أمّهاتهم ، إلى جوارِ نسبهم لآبائِهم ، ومن بين هؤلاء «القَتال الكلابي» الذي يقولُ في فخره لأمّه عمرةَ بنتِ حرقةَ من ربيعة:

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (١/ ٢٦٣) بتصرف يسير، وبهذا كسب أوس بن حارثة بشر بن أبي خازم برأي أمه سعدى.

لَقَـدْ وَلـدتْنـي حـرّةٌ مـنْ ربيعـةٍ	مِنَ اللّاءِ لَمْ يحضرْنَ في القيظِ دَنْدنا

* ويقول امرؤُ القيس مُفاخراً بنسبِ أمّه واسمُها «تَمْلِك» مع أنَّ أباه مَلِكٌ:

أَلا هَـلْ أتـاهَـا والحَـوادِثُ جمـةٌ	بأنَّ امرأَ القَيْس بنَ تملكَ بَيْقَرا[1]

* وكما أسلفنا قبل قليل، فقد كان للأمّ دورٌ بارزٌ في الحياةِ الاجتماعية في المجتمعِ القديم، وعن طريقها تشيعُ وشائج القُربى وأواصرها، وتتوارى الحروبُ وتخبو نارها، ولذا نزع بعضُ العرب إلى الانتساب لأمّهاتهم، لتكون الأمّ ذات دور مهمّ في الرّباط الوثيق بين القبائل.

* ولعلَّ الحرصَ الشَّديدَ على مكانةِ الأمومةِ في عَصْر الجاهليّة وغيرِه، هو ما حَدَا بالعَربِ قديماً إلى أنْ يحرصوا على كرَمِ الأنسابِ، وطهارةِ الأعراقِ والأرحامِ، عندما ينتخِبون لأولادهم أمّاً لا تهُون، وتجعلُ الرّأْسَ عالياً في مواقفِ الفخرِ والمباهاةِ حتّى جعلتْ هذه الميزة الطيبة أحدَ الآباء الأدباء يقولُ لبنيه: «يا بَنِيَّ، إنّي قد أحسنتُ إليكم صغاراً، وكباراً، وقبل أنْ تُولدوا. قالوا: وكيف أحسنْتَ إلينا قبل أنْ نُولد؟ قال: اخترتُ لكم من الأمّهات مَنْ لا تُسَبُّون بها»[2].

* هذه شذرات عن منزلةِ الأمومةِ في المجتمع القديم، وتلك إشارات عَجْلَى إلى مكانةِ الأمّ عَصْر ذاك، ولا ريبَ في أنَّ البنوّةَ امتدادٌ للأمومةِ، وكانتِ البنوّة روحَ وريحانَ العربيّ في قديمِ الزَّمانِ خلا بعض الأقوامِ الذين وَارَوْا في التُّرابِ طفولاتٍ نسائيّةً، فقد وأَدَ بعضُ الجاهليين طفولةَ البنتِ إذا بُشِّرَ بها، في حين أن بعضهم كان يرىٰ في صغيراتهِ وبُنيّاتهِ عالَماً جيّاشاً منَ العواطفِ والأحاسيس النَّبيلة التي تحبّبُ إليه الحياة من أجلهنّ، فاستمعْ إلى أحدهم يشدو قائلاً:

لـولا بنيّـاتٌ كَـزُغْـبِ القَطـا	رُدِدْنَ مـن بعـضٍ إلـى بعْـضِ

---

(١) «بيقر»: يعني أقام في الحَضَر، وترك أهله في البادية.

(٢) عيون الأخبار (٤/ ٣). ولله درّ الرّياشي عندما قال:

وأوّلُ إحسـانـي إليكـم تخيّـري	لمـاجـدةِ الأعـراقِ بـادٍ عفـافُهـا

لكـــانَ لـــي مضطـــربٌ واســـعٌ في الأرضِ ذاتِ الطُّـولِ والعـرضِ
وإنّمـــــا أولادُنَـــــا بيننَـــــا أكبـــادنُـــا تمشِـــي علـــى الأرضِ
لـو هبَّـتِ الـرّيـحُ علـى بعضِهـم لامتنعَـــتْ عَينـــي عـــن الغمْـــضِ

* فالأمومةُ والبنوة صنوانٌ عند العربيّ قديماً ، لا فَرْقَ بين هذهِ وتلك إلّا بمقدارِ ما تتباين الغرائز البشريّة ، إذِ الأمومةُ تحملُ الاحترامَ والتّوقير والإعزاز ، والبنوة تحملُ العطفَ والحبَّ والتَّضحيةَ. فالمجتمعاتُ القديمةُ أعطتْ للأُمومةِ والبنوة ما يستحقّان من مكانةٍ وتكريمٍ وعطف.

* ولما انبلجَ صُبْحُ الإسلامُ بنورهِ ، وأشرقتِ الدُّنيا بتعاليمه ، صحّح ما كان مضطرباً وصقلَ ما كان مناسباً ، وأظهرهُ بصورةٍ أكثر إشراقاً ، وفي حلْيَةٍ غنيةٍ بالمكارم ممزوجةٍ بالأجْرِ والثَّواب منَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الدُّنيا وفي الآخرة.

* ورسمَ القرآنُ العظيمُ صورةَ الأمومة بطريقةٍ باهرةٍ حكيمةٍ ، وتحدَّثَ عن الأمومةِ وعن البنوّة وعن العلاقةِ بينهما مرّات ومرّات ومرّات ، تُرَىٰ هل نستطيعُ أنْ نعيشَ أويقات ميمونة مع هذه العلاقةِ الطَّيبة في ضَوءِ القُرآن الكريم وأنْ نستفيدَ منها؟! إذن إلى الفصل الآتي نستجلي محاسنه.

* * *

الفصل الثاني

أمهات وأبناء من القرآن

* في القرآنِ العظيمِ خبرُ مَنْ قبلنا ، ونبأُ مَنْ بعدنا ، وفيه ما فيه منْ خيرٍ ومن حكَمٍ ؛ ومنْ قَصَصٍ وعظَات ، فهو الجامعُ لخيرِ بني آدم إن استقامُوا على هُداه ، وفيه أحداثٌ وأحوالٌ ناصعةٌ تروي الغلّة في عَرضهِ للأُمومةِ والأمّهات والبنوّة ، إذ بلغَ ذِروةَ البهاءِ والعطاءِ والرّواء بذلك .

* وليس ذا بعجيبٍ ، فالأُمّهاتُ ـ أحبائي ـ نبعُ حنانٍ ، ومرفأُ دفءٍ ، ومصدرُ حياةٍ ، بل مصدرُ عطاءٍ للأبناءِ الذين يأتون إلى الوجودِ وقلوبُهم وأنظارهُم متعلّقةٌ بالأمّ. ولعلّي أذكّرُ المربّين والآباءَ هنا بأنَّ القرآنَ العظيمَ حرصَ أشدَّ الحرص على تزكيةِ الأمومةِ وتكريمها ، فجعلَها في مكانٍ سامقٍ سامٍ نبيل ، وأكّدَ على احترامِها في مواضعَ كثيرة من آياته وسُوَره المكّيّة والمدنيّة .

* لقد جاءَ الحديثُ عن الأمومةِ مرّات ومرّات في القرآن ، كما دار مراراً عن الأمِّ والأَبِ معاً تكريماً واحتراماً لهما وتنويها لفضلهما .

* إنّ كلمةَ «أمّ» في القُرآن ذات ظلالٍ وأنداء ترطّبُ القُلوبَ ، كأنّها توحي إلى المكانةِ السّامية التي تحتلّها الأم ؛ فعندما نقرأُ قولَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] ، وقوله : ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩] ، وقولُه : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

[الأنعام: ٩٢] ، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشُّورى: ٧].

* ويشعرُ القارىءُ للآياتِ أنَّ في لَفْظَتَي ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ تكريماً للْمَواطِنِ والأشياءِ يحسُّهُ من خلال هذه الكلمة الهامِسة الدَّافئةِ ﴿أُمَّ﴾ .

* وكلمةُ «أمّ» واشتقاقاتها تكررت في القرآنِ أكثرَ من مئة وبضع عشرة مرّة ، وكلُّها تثيرُ كوامنَ الشَّفَقة والرِّقَّة ، وتدلُّ على المودّة والحبّ وما شابَه ذلك.

* أمّا تخصيصُ كلمة «أمّ» في القُرآن ، فهو تعبيرٌ يجعلُ الإنسان يحسُّ بعمقِ هذه اللفظة الحانية الموحية ، كقولهِ تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] ، وقوله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠].

* ما أجملَ صوتُ القرآنِ وهو يهمسُ في وجدانِ النَّاس جميعاً ، ليبهرهم بقيمةِ الأمّ وروعةِ جلالَها وقَدْرها ! اقرأْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ وهو يكرّرُ مراراً كلمة ﴿ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ في سُورٍ مختلفةٍ وآياتٍ متعدّدة؛ تجدُ الحنانَ والكمالَ فيها ، تجدُ قُدرةَ اللهِ في هذهِ الكلمة؛ وتجدُ الجلالَ الإلهيّ فيها أيضاً والإعجازَ وحسنَ الصَّنْعةِ والصِّبْغَةِ ، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] ، وقال: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الزمر: ٦] ، وقال: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

* وفي القرآنِ الكريمِ مجالاتٌ واسعةٌ تتألّقُ فيها كرامةُ الأمّ وفضائلها ، وتدعو هذه المجالات الأبناءَ أجمعين إلى تكريمِ الأمومةِ والاهتمامِ بالأمّهات ، لأنَّهنَّ حاضناتُ الأبناء وراعياتُ الصِّغار في الليل والنهار ، وفي الحلّ والتّرحال.

* إنَّ الحديثَ القُرآني عن الأُموماتِ وعن الأبناء يبرزُ لنا ضخامةَ الأمومةِ ، ومدى الاحتفاءِ القرآني بالأمّ التي نهضت بأعباء كثيرةٍ ، وقامتْ بِأعمالٍ مضنيةٍ

في مواقفَ صعبةٍ ، وفي الصَّفحات الآتية نعيشُ مع ثلاثِ أُمّهاتٍ مَثَّلْهنَ الأُمومةَ بامتيازٍ وَكُنَّ الذِّروة في كلّ مكْرُمةٍ وهُنَّ: أمُّ إسماعيل ، وأمُّ موسى ، وأمُّ عيسى ، عليهنَّ السَّلام.

أولاً: أمّ نبيّ الله إسماعيل:

أَهْــــلاً بِــــإِسْمَــــاعيــــل المُــــرسَــــلِ النَّبيْــــل
ذِكْــــرٌ لَــــهُ قَــــدْ جَــــاء فــــي مُحْكَــــمِ التَّنْــــزيْــــل

* إسماعيلُ عليه السَّلام واحدٌ من أنبياءِ اللهِ الذين وردَ ذكْرهُم مِراراً في القُرآنِ العظيم ، وهو نبيٌّ كريمٌ ابنُ نبيّ كريم ، ووردتِ الإشارةُ إلى قصّته مع أمّه «هاجر» ، إذْ إنَّ قصَّتَهُما تمثّلُ الصَّبْرَ والاستسلامَ لله عزَّ وجلَّ في أقسى الظُّروفِ وأعتى الأحداثِ ، ومن ثمَّ تنبثقُ الأمومةُ «الهَاجريّة» الخالدةُ ، لِتَظَلَّ البنوّة «الإسماعيليّةُ» خالدةً في دنيا المؤمنين والمؤمناتِ إلى يومِ الدِّيْن ، وفي دُنيا مناسكِ الحجّ إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

* وأمُّ نبي اللهِ إسماعيل هي هاجرُ ، تلك الجاريةُ الأمينةُ الكريمةُ التي جاءتْ بها سيّدتُنا «سارَّةُ» زوجُ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ من مصرَ ، وقدمتْ بها إلى بلاد الشَّام ، بعدَ رحلةٍ طويلةٍ ميمونةٍ مع زوجها إبراهيم ، حينما خرجَ بِدِيْنِهِ إلى مصرَ ، وكان حاكمُ مصرَ وقتذاك قد أهدى هاجر للسَّيّدة سَارّة.

* كانتِ السَّيّدةُ النّبيلةُ الأصيلةُ الكريمةُ سارّة عاقراً عقيماً ، فلم تحملْ ، ولم تلِدْ ، ولعلّها كانتْ حزينةً بعضَ الحُزنِ لهذا السَّبب؛ بيدَ أنَّ هذه السيدة الحصيفة كانت تحبُّ زوجَها نبيّ الله إبراهيم ، وترغبُ في أنْ تُكْرِمَه وتحقّقَ له السَّعادة كلّ السّعادة ، وبدافعٍ منَ الإيثارِ الفريدِ في التّاريخ النّسويّ ، قررتِ السَّيّدةُ سارّة أنْ تَهَبَ لزوجها إبراهيم جاريتَها الأثيرة هاجر ، وأشارتْ عليه أنْ يبنيَ بها ، لعلَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يهبهُ منها غلاماً زكيّاً يضفي من خلالهِ المسرَّةَ على البيت الإبراهيميّ المبارك.

* في سكونِ العابدين المُخبتين لأمْرِ العزيزِ الرَّحيم ، استجابَ نبيُّ اللهِ

إبراهيم لهذهِ الرّغبة السَّارّة من زوجه الكريمة سارّة [1]، وكان ما كان منْ أمْرِ اللهِ المقدّر، فحملتْ هاجر، ثمّ ولدت له غلاماً وسيماً جميلاً كريماً سمّاه إسماعيل، ولدتْ هاجرُ هذا الغلام فولدَتْ وتولَّدت معه البركاتُ، وكان جدّ خيرِ الكائنات النبيّ العربيّ محمدِ بن عبد الله ﷺ؛ وبسببه تفجّرتْ زمزمُ لترويَ الطَّائفين بالبيتِ والطَّائفات، والعاكفين والركّع السّجود.

* وتمضي الأيّامُ وتصدرُ الأوامرُ الإلهيّة تأمرُ إبراهيم أنْ يأخذَ هاجر وابنها وينطلقَ بهما إلى عندِ الرَّبْوةِ الحمراء عند البيتِ المحرّم، البيت العتيق.

* استجابَ إبراهيمُ للأمرِ الإلهي الكريم، فحَمَلَ هاجر وابنها، وانطلقَ ثلاثتُهم سائرين ترعاهُم عنايةُ اللهِ، حتّى وصلُوا الأرضَ المباركةَ عند البيتِ المحرّم بمكَّةَ المكرّمةِ.

* كانت مكّةُ يومَ ذاك وادياً لا ماءَ فيهِ ولا زَرْع، ولا يسكنُها إنسانٌ، وفي ذلك المكان المُقْفر، تركَ إبراهيمُ هاجرَ وإسماعيل، وما كان لدى هاجر سوى جرابٍ فيه تَمْرٌ، وسِقَاءٍ فيه ماءٌ.. ولا بُدَّ للتَّمرِ أنْ ينفدَ، والماء أنْ تشربَه هاجرُ وابنها، وماذا عسى أن يكونَ بعد ذلك؟!!.

* إنَّ الأبوَّةَ والأمومةَ لا تقِفَانِ أمامَ الأوامرِ الإلهيّة، فأمْرُ الله أوّلاً، وهو يفعلُ ما يشاءُ، وهو العليمُ الخبيرُ. في تلكم السَّاعات التي كانت أشعّةُ الشَّمس تلامسُ رمالَ مكَّة، تركَ إبراهيمُ هذَيْن الضَّعيفَيْن: هاجر وإسماعيل، وتوجَّه

---

(١) في منطقة الخليل بفلسطين عين ماء تسمّى «عين سارة»، وهي عين نَضَّاحة بالماء المعين الفرات، وفي هذهِ العين يقول الشيخ إبراهيم بن زقاعة:

يـا حبَّـذا جَبَـلٌ فيـه الخليـلُ ويـا ... مـا أطيـبَ العيشَ فيـه تحـتَ زيتـونِ
وعيـنُ سَـارةَ لا أنسـىٰ مـواردهـا ... وعيـنُ حلحـولَ أعنـي عيـن ذا النّـونِ

(الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية ص ٢٤٨).

ولإبراهيم بن زقاعة أيضا في عين سارة قوله:

ولـمْ أنْـسَ الطّلـولَ وديـرَ مجّـا ... وأعـلامـاً بـدتْ مـن عيـنِ سـارا
وطيفـاً زارنـي فـي جنـحِ ليـلٍ ... فـأنعشنـي وأحيـا حيـن زارا
وغـاراً كـم أغـارَ علـى فـؤادي ... فضـوَّعَ نشـرَةُ نـدّاً وغـارا
وأنـوارُ الخليـلِ تلـوحُ فيـه ... وإسحـاق المفـدّى ثـم سـارا

راجعاً من حيثُ قدم مستجيباً لأمر الله ، طائعاً له .

* رأتْ هاجرُ إبراهيمَ عائداً ، فتبعَتْه وأخذتْ تسألُه في لهفةٍ وحيرةٍ: «أينَ تذهبُ وتتركُنا في هذا الوادي الذي ليسَ فيه أنيسٌ ولا شيء»؟! وكرَّرتْ هاجرُ هذا القول مراراً ، وإبراهيم صامتٌ لا يردُّ ، فقالت له: «آللهُ أَمركَ بهذا»؟ قال: «نعم ؛ اللهُ عزَّ وجلَّ أمرني بهذا».

* وثِقتْ هاجرُ باللهِ ، وعلمتْ بأنَّ إبراهيمَ مُمتَثِلٌ لأمْرِ ربّه فقالت له: «إذن لا يضيّعُنا الله». ثمَّ رجعَتْ ، وانطلقَ إبراهيمُ ، حتَّى إذا كان عند الثَّنيّة حيثُ لا تراهُ هاجرُ وإسماعيلُ استقبلَ بوجههِ البيتَ ، ثمَّ دعا بِهؤلاء الدَّعوات ، ورفعَ يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

* في استسلامِ العَابداتِ وهدوئهنَّ ، سكنَتْ هاجرُ إلى أمْرِ الله العزيز العليم ، وجعلتْ تقومُ بشأْنِ وحيدهَا ، وترضعُه ، وتشربُ من ذلك الماء ، حتّى نفدَ ما في سقائِها ، فعطِشَتْ وعطشَ إسماعيل ، وجعلتْ تنظرُ إليهِ وهو يتلوّىٰ من شدّةِ ما حلَّ بهِ من جهْدٍ ، فتركَتْهُ مكانهَ وانطلقتْ كراهيةَ أنْ تنظرَ إليهِ لما حلَّ به من العطَش ، فوجدتِ الصَّفَا أقربَ جَبلٍ في الأرضِ يليها ، فقامت عليه ، ومن ثمَّ استقبلتِ الوادي تنظرُ لعلَّها ترى أحداً ، بَيْدَ أنَّه لم يكن منْ أحدٍ في هاتيك الأرض وقتذاك ، ولم ترَ أحداً. فهبطتْ من علىٰ الصَّفا ، حتّى إذا ما بلغتِ الوادي رفعتْ طرفَ درعها ثم سعَتْ سعيَ الإنسانِ المجهود حتّى جاوزتِ الوادي ، ثمّ أتتِ المروةَ ، فقامت عليها ، فنظرتْ هل ترىٰ أحداً ، فلم تَرَ أحداً ، فَعَلَتْ ذلك سَبْع مرّات.

* قال سيّدنا عبدُ الله بنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: قال النَّبيُّ ﷺ: «فلذلك سعىٰ النَّاس بينَهما» ، فلَمَّا أشرفَتْ على المروةِ سمعتْ صوتاً ، فقالت: صَه ، ـ تريدُ نَفْسَها ـ ، ثم تسمَّعَت ، فإذا هي بالمَلَكِ عند موضعِ زمزم ، فبحثَ بعقبه ، حتّى ظهرَ الماءُ ، فجعلَتْ هاجرُ تخوضُه ، وتغرِفُ منه في سقائِها وهو يفورُ بعدما تغرفُ ، فشربتْ وارتوتْ وأرضعتْ وليدها. فقال لها المَلَكُ:

«لا تخافوا الضَّيعةَ ، فإنَّ هذا بيتُ الله ، يبنيهِ هذا الغلامُ وأبوهُ ، وإنَّ اللهَ لا يضيعُ أهْلَه . . » .

* وكان البيتُ آنذاك مرتفعاً من الأرضِ كالرّابية ، تأتيه السُّيول فتأخذُ عن يمينه وعن شماله .

* فكانتِ السَّيِّدةُ هاجر كذلك مع ابنها الأثير الوحيد إسماعيل تحوطُه بعنايتها ، وظلّت كذلك حتّى مرّتْ بهم قافلةٌ من قَبيلةِ جُرهُم مقبلين عن طريق كَدَاء ، فنزلُوا أسْفل مكّة ، وأرسلُوا واردهم فرأىٰ الماءَ ، فرجعَ وأخبرَ القومِ بوجودِ الماءِ ، فأقبلُوا ، وأمُّ إسماعيل عند الماءَ ، فقالوا لها : «أيتها السّيّدةُ الكريمةُ ، أتأذنين لنا أنْ ننزلَ عندك قربَ الماء»؟

فقالت هاجر : «نعم ، بَيْدَ أنَّه لا حقَّ لكم في هذا الماء ، إلا إذا رعيتم هذا الغلام» .

فقبلُوا ، ونزلُوا ، وشبَّ سيّدنا إسماعيل بينهم ، وتعلَّم العربيّةَ منهم ، وأعجبَهم ، فلمّا أيفعَ واكتملَ وغدا شاباً زوّجُوه منهم .

* وإلى هذا الحدّ نتوقّفُ عند الأمومةِ المهاجريّة وبنوّة ابنها إسماعيل ، وهذه القصّةُ العجيبةُ ، قصّة هاجر وابنها التي ترويها الأجيالُ كلّ يوم ، ويتمثّلُها الطّائفون والسَّاعون عند البيتِ العتيق كلّ لحظة ، يتذكّر حجّاجُ بيتِ الله ، والمعتمرون وزائرو البيت العتيق أمّ إسماعيل وهي تسعىٰ بين الصَّفا والمروة باحثةً عن الفَرَجِ القريب منَ اللطيفِ المُجيب ، يتذكّرون هذا كلّه وهم يتصوَّرون مودّةَ الأمومةِ وجمالَها ، وبراءةَ الطُّفولة ودلالَها ، ورحمةَ الله وَسَعَتَها ، نَعَمْ رحمة الله القريبة من المُحسنين والمحسناتِ والصَّابرين والصَّابرات . يتذكّرون هاجر الأمّ الكريمة التي قامَتْ وحدَها بتربيةِ نبيّ الله إسماعيل ، نبيّ الله الذي يأتي من ذريّته خاتم الرّسل وختامهم ، سيّدنا وحبيبنا محمّد صلى الله عليه وسلم . .

ثانياً: أمُّ نبيّ الله يُوسُفَ:

* قصّةُ نبيّ اللهِ يوسُف من أشهرِ قصصِ الذّكْرِ الحكيم، ومن عجيب الإعجاز القرآني أنّ قصصَ الأنبياء معظَمَها قد تفرقت في القرآن، بينما جمعَ اللهُ عزَّ وجلَّ القصّةَ اليوسفيّة جميعها في سورة واحدة، وسمّى السّورة باسمه ﴿يُوسُفَ﴾، وذكره عزَّ وجلَّ باسمهِ في خمسةٍ وعشرين موضعاً، وقد مرّ يوسفُ عليه السلام بعشْر محن، وكوفىء بعشْر منح آخرها أنّه مَلَكَ خزائن مصر؛ و:

إذا مَا أتاكَ الدّهرُ يوماً بنكبةٍ ... وأصبحتَ منها في حُزونٍ من الحزنِ
فلا تيأسَنْ فاللهُ ملَّكَ يوسُفاً ... خزائنَه بعْد الخَلاصِ منَ السِّجنِ

* وقصّةُ نبي الله يوسف مع أمِّه تداعبُ الوجدان وتحرك العقول، وتصقلُ النّفوس، فقد حِيْل بينهما سنوات طويلة كانت عجافاً صعبة لِمُرِّ الفراق ومقاساة الآلام، ولكنْ شاء اللهُ عزَّ وجلَّ أن يجتمعَ يوسف بأمّه وأبيه، وكان في ذروةِ المجدِ والقوة والمكانة، قد أكرمه اللهُ تعالى بجليل كَرمهِ وفضله:

وقد يجمعُ اللهُ الشَّتيتَيْن بعدما ... يظنّان كلّ الظّنِّ أنْ لا تلاقيا

* وفي أواخرِ سورة يوسف وردتْ قصّتُه مع أمّه وأبيهِ وإخوته واجتماعهم في مصرَ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩ و١٠٠].

* والمقصودُ بأبويه: أبوه يعقوب عليه السّلام، وأمُّه، وقد ذكرتْ كتبُ التّفسير وغيرها من كتب التّاريخ أنَّ اسمَ أمّ نبي الله يوسف: راحيل، وهذه الآثارُ مروية عن بني إسرائيل ولا يضرّ جهلها، ولا تنفعُ معرفتها.

* ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ قصَّة مقْدمِ أمّ يوسف وأبيه ومعهما إخوته إلى مصرَ، ودخولهم جميعاً على يوسفَ عليه السّلام، فلما دخلُوا عليه ضمَّ إليه أبويه، واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته، وقال لوالديهِ وإخوتهِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ

مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] ، والمعنى: اسكنوها واستقرّوا فيها وأنتم آمنون علىٰ أنفسكم وأنعامكم من الجوعِ والهلاك ، لأنَّ سنواتِ القحط كانت لا تزالُ باقية.

* قال المراغي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ [يوسف: ٩٩]: «وظاهر الآية يدلُّ على أنَّ أمَّه كانت لا تزالُ حيّةً»[1].

* أجلس يوسف أمّه وأباه على سريرِ الحكم تكريماً لهما واحتفاء بهما[2]، فقابله جميعُهم بالسّجود له على سبيل التّشريف ، لا على سبيلِ العبادة. وبهذا تكون رؤيا يوسف قد تحققتِ مِنْ قبلُ ، إذ رأى أحد عشرَ كوكباً والشَّمسَ والقمرَ يسجدون له ، وكان لا يزال إذ ذاك فتى في عمر الزّهر.

* استقرّ إخوةُ يوسف وأبواه في مصر ، وانتقلوا من سكْنَى البادية وعنائِها إلى سكنى الحاضرة ونعمائها ، وهذا كلّه من فضلِ اللهِ ولطائف مننِهِ على يوسفَ عليه السَّلام ورحمته بأمه وأبيه.

* إنَّ على المربّين أنْ يلفتوا نظرَ الأبناء إلى عظيم فضْل الوالدين ، والأمّ خاصّة ، فقد صبرت أمّ يوسف صبراً جميلاً على فراقه ، وكذلك أبوه حيث نوّه

---

(١) تفسير المراغي (٦/ ٣٥).

(٢) إنّ قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ دليلٌ على حرارةِ اللقاءِ ، لأنَّ الفراقَ استمر عمراً طويلاً ، يوسف مشتاق إلى أبيه وأمه و وهما مشتاقان إلى ابنهما ، وعندما يحدثُ اللقاءُ تكونُ هناك انفعالات ، وكلُّ شيءٍ له تقنين في الدنيا إلا عواطف البشر فلا تقنين لها ، إنّما هي انفعالات خاصّة مليئة بالود والمحبة والاحترام تخرج ممتزجة مع بعضها بعضاً ، لتوجدَ نوعاً من الشّعورِ لا يحسُّه إلا مَنْ يمرُّ بهذه التجربة ، وهي على درجاتٍ مختلفةٍ ، فاللقاء أحياناً يكون مصافحة باليد ، وأحياناً لا تكفي المصافحة لإعلانِ الشّعورِ فتحتضنه ، ثم بعد ذلك تقبّله ، وتكرر هذه العمليّة عدّة مرات تكراراً لا شعورياً غير محسوب ، وتجري على لسانك الألفاظ والانفعالات التي لو طُلِبَ أنْ تعيدَها لعجزتَ ، كل هذا يحدث تلقائياً دون إعدادٍ سابقٍ.
قال ابن عطية الأندلسي في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: «معناه: ضمَّ وأظهرَ الحماية لهما والحفاوة بهما» (المحرر الوجيز ٣/ ٢٨١) بتصرف.
قال أبو حيان: «أي ضمّهما إليه وعانقهما ، والظّاهر أنهما أبوه وأمه راحيل». (البحر المحيط ٦/ ٣٢٦).

القرآنُ الكريمُ إلى ذلك ، وكشفَ عنهما الغمّ والحزن ، وتلاقوا بعد غياب كان طويلاً طويلاً .

* وينبغي على المربّين أيضاً أن يؤكّدوا على منزلةِ الوالدين وأنها من أعلى المنازل وأشرفها ، فمنزلةُ أمّ يوسف وأبيه أعلى من إخوته فقد رفعهما يوسفُ على العرش وأكرمهما بما يليقُ بهما ، لأنَّ الوالدين بالنّسبة إلى الأبناء بمنزلة الشّمسِ والقمرِ في النّور والنفع والعطاء .

* إنَّ نعمَةَ اللهِ عزَّ وجلَّ على العبدِ نعمةٌ عظيمةٌ على من يتعلّق به ، ويتّصل من أهل بيته ، ثمّ أقاربه ، ثمّ أصحابه ، ولا ريب في أنّ الأمَ مِنْ أولى مَنْ ينتفع به ، ولهذا لما تمتِ النعمةُ على يوسفَ عليه السّلام أنعم على أمِّه ، ونالَها من العزّ والتّمكين اليوسفيّ ما لم تكنْ تناله من قبل .

ثالثاً : أمّ نبي الله موسى :

* قصَّةُ نبيّ اللهِ موسى وأمه من أبرز القَصَصِ القُرآني الكريم ، وقد ذكَرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في مواضعَ كثيرةٍ متفرّقةٍ من القرآنِ الكريم ، وذكر قصّته مبسوطةً مطولةً ومفصّلةً ، وغير مطوّلة . وهو من أكثرِ الأنبياء ذِكْراً في القُرآن الكريم .

* قيل : سُئِل النَّبيُّ ﷺ : ما بال الله أكثَـرَ ذِكْـرَ موسى في القُرآن؟ فقال : «لأنَّ الله يحبُّه ، ومن أحبَّ شيئاً أكثر ذكْره»[1] .

* ذكرَ الفيروز أبادي ـ رحمه الله ـ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد دعا موسى في القُرآن الكريم بخمسين اسماً تصريحاً وتعريضاً ، ومنها : هادي ، وداعي ، وناجي ، وساقي ، وصادِق ، ومُصطفى ، وشاكر ، وصابر ، ومذكُور ، ومُخْلَص ، ورسـول ونبـيّ ، ومختـار ، ومستمـع ، ومُسبِّـح ، وقـرّة عيـن ، وكبيـر ، ومُرسل ، ومبارك ، ووجيه ، وظهير ، وقوي وأمين ، وآمِن ، وغالب ، ومهدي ، ومُحسن ، ومُؤمن[2] ، و . . . وذكره الله في القُرآن باسْمِهِ في (١٣٦) موضعاً في السُّور المكيّة والمدنية .

---

(١) انظر : بصائر ذوي التمييز (٦/ ٦١) .

(٢) المصدر السابق (٦/ ٦١ و٦٢) باختصار .

* بيد أنَّ حديثَنا هنا ليس مقصُوراً على نبيّ الله موسى وحده ، وإنّما الحديثُ موصولٌ عن أمِّه أيضاً ، وما أدراك ما أمُّ موسى مع ابنها موسى؟! .

* وسيرةُ أم موسى مع ابنها موسى من شَهير أدبِ القَصصِ القُرآني النَّفيس الذي يشنّفُ الآذان ، ويغذّي النُّفوس ، ويَصِلُ القلوبَ بخالقِ القلوب علاّمِ الغيوب .

* كانت أمُّ مُوسى امرأةً مؤمنةً باللهِ على أساسٍ صحيح ، فلم تعبثْ بها العواطفُ المتباينةُ ، ولم يلْهِهَا شيءٌ عن امتثالِ وحيِ الله عزَّ وجلَّ ، بل أسرعتْ واستجابتْ لأمرِ الله الذي ربطَ على قلبها ، وأيقنتْ بأنَّ وعْدَهُ كان مأتياً ، وأنَّ الفَرَجَ بيده وسيأتي بعد الشّدة ؛ و :

عَسَى فَرجٌ منْ حَيْثُ تأْتي مَكَارهي	يَجِيءُ بِهِ مَنْ جَاءَني بِالمكَارِهِ
سَيَرتَاحُ لي ممّا أُعَاني بفرجةٍ	فَيَنْتَاشُني منه بحُسْنِ اقتدارِهِ
عَسَى منْقذٌ موسى بحُسْنِ جوارِهِ	وقَدْ طرحتْه أُمُّهُ بالمكَارِهِ

* في ثنايا القُرآنِ الكريم وردتْ قصّةُ أمِّ موسى مع موسىٰ في موضعَيْن اثنَيْن؛ وكان الحديثُ شائِقاً في كلا الموضعَين ، وإن كان أكثر تفصيلاً في الموضع الثَّاني .

أمّا الموضعُ الأوّلُ ، فكان في سورةِ طه ، حيث قال ربُّنا جلَّ وعزَّ في حديثهِ عن موسىٰ وأمّه : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٧ ـ ٤٠].

* قال المفسِّرون في إيضاح هذه الآيات ما محصّله : «لقد أنعمنا عليكَ مرةً أخرى قبلَ هذه المرّة ، حيثُ ألهمنا أمّك ما يُلهم ممّا كان سبباً لِنَجاتِك ، إذ اتّخذتْ تابوتاً وجعلَتْ فيه قُطناً محلوجاً ، ووضعتْكَ فيه ، وأحكمتْ بالقَار شقوقَ التّابوت ، ثمّ ألقتكَ في اليمّ ، فبينما فرعونُ جالس مع امرأتهِ آسية ، إذ

بصرَ بالتّابوت ، فأمرَ الغلْمَان والجواري بأخذِهِ ، فلمّا فتحوهُ رأوا صبيّاً من أصبحِ النَّاسِ وجهاً ، فلمّا رآهُ فرعون أحبَّه حُبّاً شديداً؛ ثمّ جاءتْ أختُ موسىٰ ودلّتهم على مُرضعٍ ، فقيل لها: ومَنْ هي؟

فقالت: أمّي.

قالوا: وهل لها لَبَن؟

قالت: لبنُ أخي هارون ، فأرسلُوها ، فجاءتْ بالأمّ فَقَبِل ثديَها ، وهكذا ردَّ اللهُ موسىٰ لأمه وقرَّتْ بهِ عينُها»[1].

* وأمّا الموضعُ الثَّاني ، فقد جاءَ في سورةِ القَصَص ـ وكلتا السُّورتَيْن سورة مكيّة ـ يقول اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة القَصَص في معرضِ الحديثِ عن أمِّ موسى وموسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٧ ـ ١٣].

* في هذه الآياتِ المباركة وردتْ قصّةُ أمِّ موسى مع ابنها موسى ، وقد ذكرتْ كتبُ التّواريخ وبعضُ كتبِ التَّفسير أنَّ اسمَها يوحانذ أو يوخابذ[2] أو لوحا وقيل غيرُ ذلك ، وهذا غيرُ ثابتٍ وغيرُ مهمّ في معرفةِ اسمها.

* لكنَّ المهمَ هنا أنَّ العلماءَ والفقهاءَ أجمعُوا على أنّ أمَّ موسى لم تكنْ

---

(١) انظر: زاد المسير (ص ٩٠٤ و٩٠٥) بتصرف طبعة المكتب الإسلامي الجديدة والأولى عام ١٤٢٣ هـ ، وتقع في (١٦٤٨ صفحة).

(٢) انظر مثلاً زاد المسير (ص ١٠٥٧).

نبيّة ، بَيْدَ أنّهم اختلفُوا في وحي الله لها ، هل كان من بابِ الإلهامِ أو الإعلام؟!

* ذهب جمهورٌ منَ العُلماء إلى أن وحيَ اللهِ إليها كان إلهاماً[1] ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا. . .﴾ [النحل : ٦٨].

* وذهب آخرون إلى أنَّ جبريلَ عليه السَّلام قد أتَاهَا بذلك. وقال بعضُهم: إنّه كان رؤيا منَام ، وعلى هذا هو وحْيُ إعلام لا إلهام[2].

* قال القُرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: «وأجمعَ الكلُّ على أنَّها لم تكن نبيّة ، وإنّما إرسالُ المَلَكِ إليها على نحوِ تكْلِيم المَلكِ للأقرعِ والأبرصِ والأعمى في الحديثِ المشهور ، وغير ذلك ممّا رُوي منْ تكليمِ الملائكة للنّاس من غيرِ نبوّة ، وقد سلّمتْ على عمرانَ بنِ حُصَين[3] فلم يكنْ بذلك نبيّاً»[4].

* وقال الألوسي: «والظّاهر أنَّ الإيحاءَ إليها كان بإرسال ملك»[5].

---

(١) المصدر السّابق نفسه، وانظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٦) ، وروح المعاني (١٦/ ١٨٧).

(٢) المصادر السّابقة عينها.

(٣) عمرانُ بنُ حصين بن عبيد الخزاعي ، الإمامُ القدوةُ صاحب رسولِ الله ﷺ ، أسلمَ هو وأبوه وأبو هُريرة في سنة سبع في وقتٍ واحد ، وولي قضاء البصرة ، وكان عمرُ رضي الله عنه قد بَعَثَه إلى أهل البصرةِ ليفقّههم ، فكان الحسنُ البصري يحلفُ أنّه: «ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمرانَ بنِ حُصين».
وقد كانت الملائكةُ تسلّم على عمرانَ كما جاء في صحيح مسلم والمسند ، فقد قال مطرّف بنُ عبد الله الشخّير: قال لي عمران بن حصين: «أحدّثكَ حديثاً عسى الله أنْ ينفعَك به: إنَّ رسولَ الله ﷺ جمعَ بين الحج والعمرة ، ولم ينْهَ عنه حتى مات ، ولم ينزلْ فيه قرآن يحرّمه ، وأنّه كان يُسَلَّمُ علي ـ يعني الملائكة ـ فلما اكتويت ، أمسك ذلك ، فلما تركته ، عاد إليّ». وغزا عمران مع النبي ﷺ غير مرّة ، وكان ممن اعتزل الفتنة وله أخبار كثيرة ، وروي (١٨٠ حديثاً) وتوفي سنة (٥٢ هـ) رضي الله عنه (سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٠٨ ـ ٥١٢).

(٤) انظر: تفسير الفرطبي (١٣/ ١٦٦).

(٥) انظر: روح المعاني (٢/ ٤٥) طبعة دار الفكر ـ بيروت.

ومن الجدير بالذّكر أنَّ «الوحيَ» في عموم اللغة معناه: إعلامٌ بطريقٍ خفي لكنَّ الوحيَ الشّرعيَ هو: إعلامٌ من اللهِ لرسولهِ بمنهجه لخلقه. وهناك وحي للملائكة ، ووحي للأنبياء والرسل ، ووحي للمؤمنين و كما أنّ هناك وحي إلى النّحل ، وإلى الجماد ، فهذا إعلام من الله إلى كل الأجناس. إذن: فالوحي على إطلاقه: إعلام بطريق خفي إلى أي مخلوق في أي موضوع. =

* أمّا سببُ اشتهارِ قصّة أمّ موسى مع ابنها موسى ـ عليه السَّلام ـ ما حدثَ في زمنهما ، فقد كان فرعون مصر يقتلُ الذّكور من بني إسرائيل حين ولادتهم؛ فلما وُلدَ نبيُّ الله موسى ـ عليه السَّلام ـ خافتْ عليه أمُّه منَ القَتْلِ ، فألقى اللهُ عزَّ وجلَّ في قلبِها أنْ ترضعَهُ فإذا خافت عليه ، فعليها أنْ تلقيه في اليَمّ ـ وهو نهرُ النّيل ـ.

* وهكذا فعلتْ أمُّ موسى ، فقد وضعَتْه في تابوت ، ومن ثَمَّ ألقته في نهر النّيل ، فالتقطَه بعضُ جواري فرعون ، فاحتملْنَه وذهبْنَ به إلى امرأةِ فرعون ، فأحبَّتْه وعطفَتْ عليه ، وأراد فرعونُ قَتْلَه ، فمنعَتْه زوجتُه وجادلَتْ عنه وقالت له: هذا الغلامُ قرّةُ عينٍ لي ولك ، لا تقتلوهُ عسى أنْ ينفعنا إذا كبر أو نتّخذه ولداً ، لأنَّه لم يُولدْ لها من فرعونَ ولد ، وهم لا يشعرون ولا يدرون ما أرادَ الله عزَّ وجلَّ منه بالتقاطهم إيّاه من الحكمة[1].

= وأما الوحي الشّرعي: هو منَ اللهِ تعالى للذي اصطفاهُ من رسلهِ بمنهجٍ يهدي به خلقه ، فالوحيُ إلى أمّ موسى من المرتبة الرابعة ، لكن هل الوحي إلى أمّ موسى كان نفثاً في الروع وإلهاماً؟

وهل كان بواسطة رؤيا؟

وهل كان بواسطة مَلَك كلّمها وأرشدها إلى هذا الفعل؟

كل هذا جائز ، والمهمُّ أنَّ الذي أوحى بذلك إلى أمّ موسى هو الله سبحانه وتعالى.

كما أنَّ الله عز وجلَّ لم يتّخذ نبياً من الإناث ، قال سراج الدين علي بن عثمان الأوشي الفرغاني المتوفى سنة (٥٦٩ هـ):

وما كانَتْ نبياً قطّ أنْثَى ... ولا عبدٌ وشخصٌ ذو افتعالِ
وذو القرنَيْن لم يُعْرف نبيّاً ... كذا لقمانُ فاحذر عن جدالِ

(مجموعات مهمات المنون ص ٢١)

(١) لابن كثير ـ رحمه الله ـ تعليقٌ نفيسٌ على هذه الحادثة يحسن ذكرها لأنَّ كلامه قطعةٌ أدبية جميلة يقول ابن كثير: «القدرُ يقول ـ لفرعون ـ: يا أيهذا الملكُ الجبّار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتّساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لا يُغَالَب ولا يمانع ، ولا تخالف أقداره ، أن هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلتَ بسببه من النفوس ما لا يعدّ ولا يحصى ، ولا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك ، وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفدّاه ، ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون في منزلك ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق=

* ولكنْ ما حالُ أمّ موسى بعد موسى وبعد إلقائه في اليم ولا حولَ له ولا قوّة؟!

* أصبحَ فؤادُ أمّ موسى فارغاً من كلِّ شيءٍ من أمور الدُّنيا ، إلاّ من موسى[1] الذي ملأَ فؤادها وشُغفَتْ به ذلك الشَّغف الشَّديد بحيث كادتْ من شدّةِ ولَهِها وحزنها على فراقهِ لتظهر أنَّها فَقَدتْ ذهبَ لها ولداً صفته كَيْت وكَيْت ، ولكنَّ اللهَ العليمَ الخبيرَ ثبّتَها وصبّرهَا لتكونَ من جماعةِ المؤمنين الصَّادقين الذين رضوا بقضاءِ اللهِ وتصريفه للأمور.

* ثمّ إنَّ أمَّ مُوسى استعانَتْ باللهِ ، وقالَتْ لأخته ـ وهي ابنتها الكبيرة ـ: «يا بُنية ، اتّبعي أثرَ أخاكِ موسى ، واطلبي لي خبرَهُ». قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ١١]. ومعنى «قُصيه»: تتبّعي خط سيره ؛ وانظري أين يذهب؟ وما يحدثُ له؟

* وقوله عز وجل: ﴿ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ ﴾ دليلٌ واضحٌ على سرعةِ الحدثِ وأهميّته ، وهذا هو الإيجازُ المعجزُ ، لأنَّ المتحدّثَ هو الله عز وجل ، وكلمة ﴿بصرت﴾ مثل «رأت» ، ولكنّها أقوى منها ، لأنها رأته دون أن يراها أحد أو يعرفَ أنَّها رأته.

= المبين ، وتكذيبك ما أوحي إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق ، أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشيئة التي لا مردّ لها». (قصص الأنبياء ص ٣١٠).

(١) عندما تلقي أمٌّ ابنَها في اليم يأتي على بالِها في هذه السَّاعةِ أنّه سيضيعُ أو يغرقُ أو يُعرّضُ للخطر ، غير أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد طَمْأَنَ أمّ موسى فقال لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧] أي: لا تخافي على موسى لأنّه سيذهبُ إلى تربيةٍ خير من تربيتكِ أنتِ في هذا البيت الفقير لأنّه سيتربّى في بيتِ الملوكِ ، ولا تحزني للفراقِ ، واطمئنّي لأنّه سيعيشُ عيشةً طيبةً ، وسيتربّى تربيةً صحيحةً و لأنَّ عينَ اللهِ ترعاهُ وتحرسُه فكونه بعيداً عنكِ لا يحزنكِ ، لأنَّ هذا الفراقَ سيعوضك خيراً ، بل ويعوّض الأمّة كلّها خيراً ، لأنَّه سيقضي اللهُ به على طاغية عاتٍ ، ويُحيي به منهج الله في الأرض. ففي الأمان أرضعيه ، فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليم ، فالله عز وجل يحافظ عليه لأنَّ له مهمّة وهي أنه سيكون رسولاً أميناً من أولي العزم من الرسل.

* وتتجلَّى حكمةُ أختِ موسى وذكاؤُها في أنَّ أمَّها قالت لها: «قُصّيه»، ولم تقل لها: إياك أنْ يراكِ أحدٌ، أو توارى عن الأنظار، ولكنْ هي منْ نفسِها قدّرت الموقفَ و لم تعطِ فرصةً لأحدٍ أنْ يراها وهي تتبعه، وفي هذا يقولُ الشّاعر:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسلاً فأرسل حكيماً ولا تُوصهِ

فهذه الأختُ الحصيفةُ الذّكيةُ لم تكن محتاجة إلى مَنْ ينصحها أنْ تتوارى عن عيونِ القومِ وهي تتبعُ أثر أخيها، عرفت ذلك من نفسها، ولكنّه قلبُ الأمّ الموسويّ، قلبُ الأم التي أصبح فؤادها فارغاً بعد إلقاء موسى في اليم وكان طفلاً نَضِرَ الطفولة بريءَ القَسَمات جميلَ المحيا.

* امتثلت ابنتُها الأمرَ، وراحتْ ترقُبُهُ عن بعدٍ، وآلُ فرعون لا يشعرون بأنّها تعرفُ حالَه. وذلك أنَّ موسى ـ عليه السَّلام ـ لما استقرَّ بدارِ فرعون أرادوا أنْ يرضعُوه فأبى أنْ يقبلَ ثدياً ولا أن يأخذَ طعاماً، فحاروا في أمرِهِ حيرةً شديدةً، فخرجُوا به من الدار الفرعونيةِ لعلَّهم يجدون امرأةً تصلحُ لرضاعته، فلما رأته أختُه وهم حائرون فيمن يرضعُه، لم تظهِرْ أنَّها تعرفهُ، بل اقتربتْ منهم على حَذَرٍ واستحياءٍ، ثم قالَتْ لهم بصيغةِ الإبهام والاستعلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؟!.

* قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لما قالت ـ أختُه ـ ذلك، قالوا لها: ما يُدريك بنصْحِهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في سرور الملكِ ورجاء منفعته»[(١)].

* ثم ائتمروا بينهم فيما قالته أختُه، وصدّقوها، وذهبوا معها إلى منزلِ أمّ موسى، فدخلُوا به عليها، فلمّا أرضعته، التقمَ ثديَها، وأخذ يمصُّه ويرتضعُه، هنالك هجم عليهم السُّرور وفرحوا بذلك فرحاً شديداً، وانطلقَ البشيرُ إلى السَّيدة آسية يخبرها بذلك، فاستدعتْ أمّ موسى لترضعه عندها،

---

(١) انظر: قصص الأنبياء (ص ٣١٣). ويُروى أنَّ هامان سمعَ أخت موسى، فسألها إنْ كانت تعرفُ شيئاً عن هذا الطِّفل، قالت: «لا، ولكنّهم ناصحون محبّون للملك ومخلصون له».

عرضتْ عليها أن تكونَ في القَصْر الفِرعوني ، وأوحت إليها بأنّها ستحسنُ إليها ، فأبَتْ أمُّ موسى وقالت والأملُ يرفرفُ أمامَ عينها: «أيتها السَّيدةُ الكريمة ، إنَّ لي بعلاً وأولاداً ، ولستُ أقدرُ على هذا إلاّ أنْ ترسليه معي فيكون عندي ، وأحْسِنُ رعايتَه».

* قبلتِ امرأةُ فرعونَ السّيدة آسيةُ بذلك ، ورضيتْ بأنْ يذهبَ موسى إلى بيتِ مرضعته ، فأرسلَتْه معها ، ورتّبَتْ لها رواتب ، وأجرت عليها النَّفقات والهِبات؛ وهكذا ردَّ اللهُ موسى إلى أمّه ، لتقرَّ به عينُها ، وقد جمعَ اللهُ شَمْلَه بشملِها ، فلم تحزنْ ، وعلمت أنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ في ردِّ ابنها إلى حوزتها وفي بيتها ، وعرفَتْ إحسانَه إليها وامتنانه عليها[1] . قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]. وكلمة ﴿فَرَدَدْنَـٰهُ﴾ تدلُّ على أنَّ الأسباب في يدِ المسبّب ، فالله عزَّ وجلَّ ردّه، لأنَّ اللهَ يجري الأمورَ وفْقَ إرادته ومشيئته ، ويحول بين المرء وقلبه ، ولتعلمَ أنَّ وعد الله حقٌّ في قوله: ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . .﴾ [القصص: ٧] ، فحفظه الله وردّهُ إليها كما وعدَهَا من قبل ، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون.

* رجعت أمّ موسى بولدها تدلّله وتقبّله ولعلها خشيت البقاء في بيت فرعون حتى لا ينكشف أمرها بفرط حنانها عليه وحينئذٍ تعرضه لما حاولتْ وقايته منه ، ولعلها بعد أنْ ردَّ إليها ولدها تأكّدتْ أنّه سيكونُ نبياً ورسولاً ، فخافت عليه أنْ يربّى في القصرِ الفرعوني ، فينشأ على ما كان فيه من الفسادِ والوثنية ، ولكنّها تذكّرت وعْدَ الله لها بردّه إليها وجعله من المرسلين ، وأكرم الله أم موسى بألوان عجيبة من فضله ، فأجْرَتْ لها امرأة فرعون النفقات والكساوي والهبات ، وجمع الله شمله في بيتها. وفي هذا قال ﷺ: «مثَلُ الذي يعملُ ، ويحتسبُ في صنعته الخير ، كمثَلِ أمّ موسى ترضعُ ولدها وتأخذُ أجْرَها»[2] .

---

(١) للمزيد من إيضاح قصة أم موسى راجع التفاسير القديمة والحديثة للآيات [٧ ـ ١٣] من سورة القصص.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٢).

* هذه هي قصّةُ موسى مع أمّه ، وإلى هنا نتوقّف عند هذه المرحلةِ ، وما أجمل أنْ نترنَّم بهذه المزيّة في هذه الهمزيّة عن موسى عليه السّلام؛ وما أجمل الأدب إذا عبّر عن السَّبب!

أين موسىٰ مَنْ جاء فِرْعَوْن طفْلاً ... ترقُبُ النَّجمَ عينُه النَّجلاء
أُودعَ اليمَّ خوفَ بطشِ عدوٍّ ... وتولّى مَهْدَ الكليمِ الماء
أكرموهُ إذْ قيلَ قُرّةُ عينٍ ... تَمَّ حقّاً ما قدَّرتْه السَّماء
إنَّ فرعونَ قد طغىٰ وتَعَالَى ... بئسَ عَهْدٌ أُبيْحَ فيهِ الدِّماء
آلُ فرعونَ عذّبُوا قومَ موسىٰ ... فاستجارتْ رجالُهم والنِّساء
ودعوا ربَّهم فأَرسلَ سَيْفاً ... كانَ حصْناً عزَّتْ به الأَبْرِيَاء

* وهذه أهزوجةٌ أدبيةٌ جميلةٌ تصلحُ للأبناءِ الأعزّاء ليطالعوها ويحفظوها ، وهي تحكي جانباً من قصّة موسى مع أمِّه :

فرعَونُ تأَلَّهَ وتجبَّر ... وتَمَادىٰ في فِعْلِ المنكَرْ
وعَلاَ في الأرضِ بغيرِ الحـ ... ـقّ وعاثَ فَسَاداً وتجبَّرْ
يضْطَهِدُ النَّاس بلا ذنبٍ ... يَسْجُنُ أو يقتُلُ أو يَقْهرْ
ويقُولُ لهم أَنَا سيّدكُم ... يا ناسُ وربُّكُمُ الأكبَرْ

* * *

في هَذا الجوّ أتى مُوسى ... مولودٌ وَفَد على الدُّنيا
يصنعُه اللهُ بِقُدرتِهِ ... ليحقّق أهدافاً عُليا

* * *

الأمُّ تخافُ عَليهِ منَ الـ ... ـفرعونِ الفظِّ وأَعْوانِه
لكنَّ اللهَ يطمِئنُها ... بِكَلامٍ منْ فيضِ حَنَانِه
هَيّا ألقيهِ بلا خَوفٍ ... يتأرجَحُ في موجِ اليمِّ
سُبحانَ الله برحمتِه ... قد ربطَ على قلبِ الأمِّ

* * *

في داخلِ تابوتٍ وضَعَتْ ... موسى كي يُقْذَفَ في البحر
قالتْ لابنتها قصِّيهِ ... فامتثلَتْ حَالاً للأمْر

ذهبَــتْ تــرقُبــهُ عــن بعــدِ هــي تخشــىٰ مــنْ بطْــش الجُنْــدِ
والتقـــطَ الجنْـــدُ الصّنـ ــدوقَ لِقَصْـرِ الفـرعـونِ الـوغـدِ

* * *

فـي القَصْـرِ الفخـم أتـى الخَـدمُ والحَـرسُ الحـاشِـدُ والحشـمُ
وجَـدُوا فـي الصّنـدوق رضِيعـاً وعليـهِ البهجـةُ تـرتَسـمُ
امـرأةُ الفـرعـونِ تُنـادي هــو قــرّةُ عَينــي وفــؤادي
هــذا المــولــودُ سـأجعلُـه فــي القَصْـرِ حيـاتـي ومـرادي
كــلا لــن يقتــلَ لــن يقتــلْ هــو عنــدي فــي القَصْـرِ الأوّل
مــا أجملَــه مــن مــولــودِ قــد ينفعُنــا فــي المستقبــل

* * *

جــاؤوا بــالمــرضعــةِ إليــه تحنــو بــالإشفــاقِ عليــه
فــأبــىٰ مــوســى أنْ تــرضعَـه بــل نــامَ وأغمــضَ عينيــه
فــأتــوه بمــرضعــةٍ أخــرى فــأبَــاهَــا فــانصــرفَـتْ حَيْـرىٰ
وإذا بــالأخــتِ تنــاديهــم قــد جئــتُ إليكــم بــالبُشْـرىٰ
فــأنــا أعــرفُ مَــنْ تــرضعُـه بحنــانٍ حتّــى تُشبعــه
أخــذَتْــه إلــى الأمّ وهــذا تقــديــرٌ ربُّــكَ يصنعــه
الأمُّ تــردّدُ فَــرحَــانــه سُبحــانَ إلهــي سُبحــانــه
قــد ردَّ وليــدي محفــوظــاً مــنْ بطــشِ الفـرعـونِ وصَـانَـه

رابعاً: أمُّ مريمَ بنت عمران:

* هذه أمٌّ عظيمةٌ من بيتٍ كريمٍ حسيبٍ مباركٍ، من بيتٍ يُذكَرُ فيه اسمُ اللهِ كثيراً، من بيتِ تقىً وصلاحٍ وعبادة اصطفاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ واختارهُ واجتباهُ، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ و٣٤].

* هذه الأمُّ الكريمةُ هي أمُّ السّيدة الطّاهرة المُصطفاة مريمَ بنتِ عمران، وقد أشارتْ كتُبُ التّفسير والمبهمات إلى أنَّ اسمَها «حنّة بنت فاقوذ»، وهي جدةُ نبيّ الله عيسى عليه السلام.

* كانت هذه السّيّدةُ الطّاهرةُ العفيفةُ عاقراً لا تَلدُ ، وهي من آل عمران ، وقد عُمِّر قلبُها بطاعةِ الرّحمـٰن ، وهي امرأة عمران ، وأمّ مريم عليها السّلام.

* ولعلَّ أمَّ مريم كانت تُعاني مثلما تعاني أي امرأة عندما تجدُ أنَّها قد حُرمتِ الطِّفْلَ ، وحرمتْ من هذه الهِبةِ الرَّبانيةِ التي يختصُّ بها الله وحده مَنْ يشاء من عباده.

* شاء اللهُ لهذه السَّيدةِ العابدةِ أنْ تَحملَ ، ولما شعرت بذلك نذرتْ أنْ تحرِّرَ ما في بطنِها للهِ عزَّ وجلَّ ، وأنْ تجعلَه خادماً لمعبدهم ، وقد صدَّرَتْ نذرها بنداءِ اللهِ عزَّ وجلَّ بوصفِ الرّبوبية ، وتضرَّعَتْ إليه سبحانه بهذه القربة التي يحبُّها ، لما فيها من تعظيمِ بيتهِ وملازمة طاعته؛ وسألتِ اللهَ تعالى أنْ يتقبّل نذْرهَا ، بأنْ يجعله مؤسساً على الإيمانِ والإخلاصِ مثمراً للخير والثواب.

* توجّهت أمُّ مريم إلى اللهِ بهذا النَّذْر برغبةٍ شديدةٍ بتوكيدِ قولها بـ﴿ إِنَّ ﴾ ، وتوسّلت في طلبها أنْ يتقبّل الله نذرها باسْمَي اللهِ عزَّ وجلَّ وهما: السَّميع ، والعليم؛ ليتفضّل اللهُ عليها بإحسانهِ لعلْمه عزّ وجلّ بصحّةِ نيّتها وإخلاصها ، فقد كانت موقنة باللهِ وصفاته ، إذ أكدّت ذلك في قولها: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥][1].

* إنّ قولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران: ٣٥] جاء من دافع اجتماعي ، فالدافعُ لهذه لمناجاةِ لله عز وجل أنّها كانت موجودة في بيئةٍ ترىٰ الناس يعتزّون بأولادهم ، وأولاد الناس يحكمون حركة الناس ، والناس يحكمون حركة أولادهم ، فأرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها محرراً من كل ذلك.

* إنَّ امرأةَ عمرانَ لا تريدُ ما في بطنها أنْ يكون قرّة عين ، أو أنْ يكون معها ، إنها تريده محرراً لبيت المقدس ، وطلب امرأة عمران يقتضي في التصور البشري أن يكون المولود ذكراً ، لأنَّ الذين كانوا يقومون بخدمة البيت هم الذكران.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٢٦) تصرف يسير.

* ونحن نعلم أنّ كلمة «الولد» تطلق على الزَّوجَيْن الذَّكَر والأنثى ، بَيْدَ أنَّ الاستعمال الشائع بين الناس أن يطلقوا كلمة «ولد» على الذَّكَر فقط ، ولكن «الولد» كلمة معناها المولود سواءً أكان ذكراً أم أنثى .

* قال ابن منظور في «اللسان» : «الولد : اسم يجمع الواحد والكثير ، والذَّكَرَ والأنثى» .

* كانت امرأة عمران تقيةً ورعةً ونَذَرَتْ لله عز وجل من أجلِ خدمةِ بيت الله ، وهذا يدلُّ على حبّها للهِ عزَّ وجلَّ ، لأنَّ النَّذر يُظهر حبَّ العبدِ لربّه ولأوامره ، لذلك تقبل الله عز وجل هذا النّذر الميمون الخالص له ، واستجاب الله دعاءها ، وكان القبولُ وكان الرضا .

* وولدت امرأةُ عمران ، ولكنْ كان ما ولدته أنثى ، فتوجّهت إلى الله عز وجل وقالت على جهةِ الاعتذار : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران : ٣٦] ؛ لأنّه إنّما كان يُحرّرُ الغلمان دون الإناث[1] .

* وفي «مفاتيحه» نقلَ الفخرُ الرّازي قولَين شهيريْن في المرادِ بقول أمّ مريم : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ فقال :

«**القولُ الأوّلُ** : إنَّ المرادَ به تفضيل الولد الذَّكَرِ على الأنثى ، وذلك من وجوه :

أحدها : أنّه يجوزُ بشرعهم تحريرُ الذّكور دون الإناث .

ثانيها : أنَّ الذكرَ يصلحُ أنْ يستمرَّ على خدمةِ موضع العبادة ، ولا يصلحُ ذلك في الأنثى لما يعرض لها من الحيض ونحوه .

ثالثها : أنّ الذكرَ يصلح لقوّته وشدّته للخدمة دون الأنثى ، فإنّها ضعيفة لا تقوى على الخدمة .

---

(١) انظر : تفسير الطبري (٣/ ٢٣٧) .

رابعها: أنّ الذكرَ لا يلحقهُ عيبٌ في الخدمةِ والاختلاطِ بالناس، وليس كذلك الأنثى.

خامسها: أنّ الذكرَ لا يلحقُه من التّهمةِ عند الاختلاط ما يلحقُ بالأنثى، فهذه الوجوهُ تقتضي تفضيل الذّكَر على الأنثى في هذا المعنى.

القول الثّاني: إنّ المقصودَ من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكرِ كأنّها قالت: الذّكَرُ مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبةُ الله تعالى، وليس الذّكرُ الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبةُ الله تعالى، وهذا الكلامُ يدلُّ على أنَّ تلك المرأة كانت مستغرقةً في معرفةِ جلالِ الله، عالمةً بأنَّ ما يفعله الرّبّ بالعبد، خيرٌ مما يريدهُ العبد لنفسه[1].

* إنَّ قولَ السَّيدة التّقية امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] نوعٌ من التّضرعِ لله عزَّ وجلَّ، لأنها أرادت ذَكَراً لخدمةِ البيت، فلما جاء المولود ﴿أُنثَىٰ﴾ فهمَتْ أن ذلك لا يؤدّي إلى الغرضِ المطلوبِ الذي أرادتْه وهو خدمة البيت، فكأنها قد قالت: «ربّ؛ إنْ لم أُمكَّنْ من الوفاء بنذري فلأنَّ قَدَرَكَ سبق في أنَّه غير منذور».

* ولكنَّ اللهَ عز وجل يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، إنَّ هذا القول يعني أنَّها لا تعترضُ على قَدَرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولكنها تريدُ أنْ تظهرَ التَّحسُّر؛ لأنَّ الغايةَ من نذرِها لم تتحققْ، إذ ليس الذّكَر كالأنثى وكأنَّ الله عز وجل أرادَ أنْ يخبرَها الذي كُنْت تتمنّينَه سيصلُ إلى مرتبة هذه الأنثى ومكانتِها، إنَّ لهذه الأنثى شأنٌ عظيم ومقامٌ كريم.

* إنَّ نيّة امرأةَ عمران في طاعتها لله عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ المولودُ ذكَراً، وشاءَ قَدَرُ الله سبحانه أنْ تكونَ أنثى، وتكون هذه الأنثى الطّاهرةُ أسمى من تقديرِ امراة عمرانَ في الطّاعةِ، لذلك قال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: أنَّ الذَّكر لنْ يصلَ إلى مرتبةِ هذه الأنثى المصطفاة الرّضيّة مريم.

* ثم إنَّ امرأةَ عمران قد سمَّتِ المولودة مريم، ومعناه: «العابدة»،

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٨/ ٢٩).

وأرادت بهذه التّسمية التّفاؤل لها بالخير ، والتقرّب إلى اللهِ تعالى ، والتّضرع إليه ، وأن يكونَ فعلُها مطابقاً لاسمها ، كما أنّها أعاذَتْها من الشَّيطان الرّجيم ، فما تودُّ لوليدتها خيراً من أنْ تكونَ في حياطةِ اللهِ لها من الشَّيطان الرجيم ، وقد قصدت ديمومة الاستعاذة والتكرار كما يفيده الفعلُ المضارعُ في قولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾ [آل عمران: ٣٦].

* وقد مَنَّ الله عزّ وجلّ على امرأةِ عمران بتخصيصِ مريم بقبولها في النّذر دون غيرها من الإناثِ ، كما قال اللهُ عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقد استجاب اللهُ عز وجل دعاءها في إعاذتِها كما بيَّنَ حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما منْ بني آدم مولود إلا يمسُّه الشيطان حين يُولَدُ فيستهلُّ صارخاً من مسّ الشَّيطان غير مريم وابنها». ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]»[(١)].

* قال القرطبُي: «قال علماؤنا: فأفادَ هذا الحديثُ أن اللهَ تعالى استجابَ دعاءَ أمّ مريم ، فإنَّ الشَّيطان ينخسُ جميعَ ولد آدم حتّى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها»[(٢)].

* وكان لأمّ مريم كبير الأثرِ في تأديبِ ابنتها وتربيتها على مكارمِ الأخلاق ، ومنذ أنْ ولدت سمّتْها بهذا الاسم ، وقد أثبتَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك ، وكانت تسميتُها يومَ أنْ وضعَتْها.

* وعلى الآباءِ والمربّين أنْ يربّوا الأبناءَ على هذهِ القيم الرفيعة ، وأنْ يعلّموا الأبناء آدابَ الدعاءِ كما فعلت أمّ السّيدة مريم ، وأن يلفتوا نظرهم إلى الاسم الحسنِ الجميل ، ويعرفوهم بأنَّ معنى اسم مريم «العابدة» ، ولا ينسوا أنَّ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٣١ و٤٥٤٨)؛ ومسلم برقم (٢٣٦٦). قال النّووي رحمه الله: «هذه فضيلةٌ ظاهرةٌ ، وظاهرُ الحديثِ اختصاصُها بعيسى وأمّه ، واختارَ القاضي عياضُ أنَّ جميع الأنبياءِ يتشاركون فيها».

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٤٤).

يذكّروهم بقولِ النّبي ﷺ: «إنكم تُدعونَ يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسِنوا أسماءكم»[١].

* قال ابنُ قيم الجوزيةِ رحمه الله عن تحسينِ اسم الأبناء: «وبالجملةِ، فالأخلاقُ والأعمالُ والأفعالُ القبيحة تستدعي أسماء تناسبها، وأضدادها تستدعي أسماء تناسبها، وكما أنَّ ذلك ثابتٌ في أسماءِ الأوصاف، فهو كذلك في أسماءِ الأعلام. وما سُمّي رسول الله ﷺ محمد وأحمد إلا لكثرة خصالِ الحمْدِ فيه، ولهذا كان لواءُ الحمدِ بيده، وأمته الحمادون، وهو أعظمُ الخلق حمداً لربّهِ تعالى، ولهذا أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بتحسين الأسماء فقال: «حسّنوا أسماءكم»، فإنَّ صاحَب الاسمِ غير الحسنِ قد يستحي من اسمهِ، وقد يحمله اسمُه على فعلِ ما يناسبُه وترك ما يضادّه، ولهذا ترى أكثرَ السُّفَّل أسماؤهم تناسبهم، وأكثرَ العلْية أسماؤهم تناسبهم»[٢].

* وينبغي أنْ يؤكّد المربّون على الأبناء أنَّ الله عزّ وجلّ يستجيبُ لدعاءِ أوليائه، كما استجاب لأمّ مريم ورزقها الولد، وأعاذَ ابنتها وذريتها من الشَّيطان الرجيم، فللدعاء شأنٌ عظيم.

خامساً: أم نبي الله عيسى:

* إذا كانت أمُّ نبيّ الله مُوسى لم يُذْكَر اسمُها صراحةً في القرآنِ الكريم، فإنَّ أمّ نبيّ الله عيسى قد ذُكِرتْ صراحةً في القُرآن الكريم، بل هناك سورةٌ مكّيّة باسمِها تعدُ (٩٨ آية) وهي سورةُ مريم.

* ومن اللطيف في هذه السُّورة الجميلةِ التي حملت اسم أمّ نبي كريم أنّنا نحسُّ ـ ونحنُ نتلوها ـ لمساتِ الرحمةِ المنداةِ بالرفقِ اللطيف في كلماتِها وعباراتها، وكذلك في موضوعاتها وسردها الجميلِ الذي ينقلُنا إلى مَهْدِ البنوَّةِ والأمومةِ والرفق وخصوصاً في صدر السّورة المباركة.

* ومن الممتعِ أيضاً أنّ كثيراً من محبّي الأدب والشّعر، وكذلك مَنْ شُغِفَ

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) تحفة المودود (ص ٨٦).

بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه قد اتّخذ من هذه السّورة مادةً طيّبة لأدبِهِ ، واقتبسَ كثيراً من كلماتِها وجملها ، وجعلَها في شِعْر أنيقٍ ، ونظمٍ رقيقٍ يتحلّى به في مجالسِ الأدب ، ومجالسِ الصَّفاء الرّوحي ، فهذا أحدُ مَنِ استهوتْهُم هذه السُّورة قد نظمَ هذه الأبيات الغزليّة الرقيقة المُوحية فقال:

لَسْتُ أَنْسى الأَحْبَابَ ما دمْتُ حيّا ... مُـذْ نَـأَوْا لِلنّـوىٰ مكـانـاً قصيّـا
وتلـوا آيـةَ الـوَداع فخـرُّوا ... خِيفـةَ البيْـنِ سجّـداً وبكيّـا
ولـذِكْـراهُـم تسيـحُ دُمـوعـي ... كُلّمـا اشتقـتُ بكـرةً وعشيّـا
وأُنَـاجـي الإلـهَ مِـنْ فَـرْطِ وجْـدي ... كَمنَـاجَـاةِ عَبْـده زكَـريّـا
وهَـنَ العظـمُ بـالبعَـادِ فَهَـبْ لـي ... ربِّ بـاللطـفِ مـنْ لـدنْـكَ وليّـا
واستجبْ في الهوىٰ دُعائي فإنّي ... لـم أكـنْ بـالـدُّعـاء ربِّ شقيـا
قـد فَـرىٰ قَلبـي الفِـراقُ وحقّـاً ... كـان يـومُ الفـراقِ شيئـاً فـريّـا
واختفـىٰ نـورهُـم فناديـتُ ربّـي ... فـي ظـلامِ الـدُّجـىٰ نـداءً خفيّـا
لـم يـكُ البُعـدُ بـاختيـاري ولَكِـنْ ... كـانَ أمْـراً مقـدّراً مقْضِيّـا
يـا خَليلـيَ خَلِّيـانـي ووَجْـدي ... أنـا أولـىٰ بِنـارِ وَجْـدي صِلِيّـا
إنَّ لـي فـي الغَـرامِ دَمْعـاً مُطيعـاً ... وفـؤاداً صَبـا وصَبْـراً عصيّـا
أنـا مِـنْ عـاذلـي وصَبْـري وقلبـي ... حَـائـرٌ أَيُّهـم أشـدُّ عتيـا
أنـا شيـخُ الغَـرامِ مَـنْ يَتّبِعْنـي ... أَهْـدِه فـي الـورىٰ صِـراطـاً سـويّـا
أنـا ميـتُ الهَـوىٰ ويـومَ أراهـم ... ذلـكَ اليـوم يـوم أُبْعَـثُ حيّـا

* إنَّ قصَّة عيسى ابن مريم تشنّفُ بها الآذان وتطربُ لها القلوبُ ، وتلذُّ لقراءتها العيون؛ كيف لا ، وقد قصَّها علينا علّامُ الغيوب؟ في كتابٍ لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلْفِه.

* فأمّا أمُّ عيسى عليه السَّلام فهي مريمُ بنتُ عمران الصِّدِّيقة المُصطَفاة المطهّرةُ والمصطَفاةُ على نساء العالَمين ، وهي منْ ذريّةِ نبيّ الله سُليمان بن داود ـ عليهما السَّلام ـ.

* وأمّا عيسى فهو نبيُّ اللهِ وأحدُ أُولي العَزْم من الرّسل ، وقد وردت قصَّتُه مع أمّه مريم في أكثرَ منْ سورةٍ وفي أكثر من موضعٍ في القرآن الكريم.

* كانت مريمُ من أولياءِ الله الصالحين ، وكان لها كراماتٌ ثابتة ، وقد ذكرَ القُرآن بعضَها ، قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ[1] وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، يعني : وجَدَ عندها فاكهة الصَّيفِ في الشّتاء ، وفاكهةَ الشّتاء في الصَّيف .

* ومن الظّاهر أنَّ كلمة ﴿ كُلَّمَا ﴾ تفيدُ أنَّ مرّات دخول زكريا عليه السلام متعدّدة ، وتكرار دخول زكريا تعني وجود الرّزْق في كل مرّة يدخل فيها على مريم ، ولذا فإنه سألها ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ لأنّه كان مكلّفاً إحضار الرّزق لها لأنّه كفلها . وكلمة ﴿ أَنَّىٰ ﴾ تشعرُ باستغراب زكريا وجود ذلك الرّزق من وجوه مختلفة : من جهة الزّمان ، إذ إنّه ليس زمانه ، ومن جهةِ المكان إذ إنّه ليس مكانه ، ومن جِهة الكيف ووصوله إليها أنّه ليس حاله ، وفي ذكر الضمير في قوله : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ إيذان بنظرها إلى مجموع حقيقة ذلك الرزق لا إلى أعيانه ، فهو إنباء عن رؤية قلب ، لا عَنْ نظر عين .

* ومن فضائلِ مريم ما ذكرهُ القرآنُ الكريمُ أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] ، والمعنى : إنَّ اللهَ قد اصطفَاكِ بالتّقريب منه والمحبّة ، وطهَّرك من الرَّذائل ، واصطفَاك بالتّفضيل على نساءِ زمانِك .

* والمرادُ بالملائكةِ هنا جبريلُ عليه السَّلام ومَنْ معه من الملائكةِ الكرام لأنَّه قد وردَ أنّه لا ينزل لأمرٍ إلا ومعه جماعة من الملائكة ، وقيل : جبريل وحده .

---

(١) المحراب أرفع المواضع ، وأشرف المجالس ، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض . (تفسير القرطبي ١١/٥٨) . وقال أبو عبيدة : «المحراب سيد المجالس ، ومقدمها ، وأشرفها ، وكذلك هو من المسجد» . (زاد المسير ص ١٩٠) . وقال الأصمعي : «المحراب هاهنا : الغرفة» . وقال الزجاج : «المحراب في اللغة : الموضع العالي الشريف» . (زاد المسير ص ١٩٠) .

* وأمّا الاصطفاء: فهو اختيارٌ واجتباءٌ مأخوذٌ من الصّفو أو الصّافي، والصافي: هو الشيء الخالص من الكدر.

* واصطفاء السيدة الطاهرة مريم هو نوع آخر، فهي مصطفاةٌ على نساءِ العالمين، إذ لا توجدُ أنثى في العالمين تشاركها في هذا، لأنّها هي المرأةُ الوحيدة التي ستلدُ من دون ذكَرٍ، وهذه مسألةٌ لنْ يشاركها فيها أحد.

* إنّ الذي يصطفيه اللهُ عز وجل يصطفيه لمهمة، وتكون المهمة صعبة، فالله عز وجل قد اصطفى مريم حتى يشيع هذا الاصطفاء في الناس، فكأنَّ الله قد خصّها بالاصطفاء من أجل النّاس ومصلحتهم[1].

* ثمَّ إنَّ مريم أمرت بالصَّلاة بذكر القُنوت والسُّجود، لكونهما من هَيئات الصَّلاة وأركانها[2].

* واجتهدت مريمُ في العبادةِ اجتهادَ الصَّادقين الصّديقين، فلم يكن في ذلك الزّمان نظيرها في أداءِ العبادات، وظهرَ عليها من الأحوالِ الكريمةِ ما غَبَطَها به نَبِيُّ الله زكريا ـ عليه السَّلام ـ، وقد خاطبَتْها الملائكةُ الكرامُ بالبشارة لها باصطفاء اللهِ عزَّ وجلَّ لها.

* وزيادة على ذلك خاطبَتْها الملائكةُ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيهبُ لها ابناً زكياً، ويكونُ نبيّاً كريماً، وطَاهِراً مكرماً، مؤيّداً بالمعجزاتِ الباهرةِ، وهذا الابن اسمُه عيسى ابن مريم نسبةً إلى أمّه، إذْ لا أبَ له.

* ولما سمعتْ مريمُ البُشْرى الملائكيّة لها من ربّ البرية بمولودِها عيسى

---

(١) إنَّ اصطفاء الله عز وجل للرجل أو للمكان لحكمة عظيمة، فإذا اصطفى الله مكاناً أو زماناً أو إنساناً، فلنعلم أنَّ اصطفاء الله للمكان يشيع صفاؤه في كل مكان، فقد اصطفى الله الكعبة ليتجّه كل إنسان إلى الكعبة، واصطفى اللهُ شهر رمضان لشيع صفاؤه وصفاء ما أنزل فيه في كلّ زمان، إذن ينبغي أن يفرحَ الناس بالمُصْطَفى لأنّه جاء لمصلحتهم.

(٢) إنَّ هذا الاصطفاءَ المتميزَ يستحقُّ من السَّيِّدة مريم القنوت، والقنوتُ: العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة، والمصطفاةُ مريم نموذجٌ طيّبٌ من نماذج الخير، لأنَّ مريم أمرها الله تعالى بالعبادة الخاشعة المستديمة له، كما أمرها بالخشوع والخضوع والسجود قال تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

تعجَّبَتْ من وجودِ ولدٍ من غيرِ والد ، لأنّها لا زوجَ لها ، ولا هي ممن تتزوج ، فأخبرتْها الملائكةُ بأنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ قادرٌ على ما يشاء ، إذا قضى أمراً ، فإنّما يقولُ له كنْ فيكون؛ فلا يتأخر ، بل يوجد عقيب الأمرِ بلا مهلةٍ ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

* استكانتْ مريمُ للأمرِ الإلهيّ ، وأنابت وسلّمت الأمْرَ للعليمِ الخبيرِ ، وعلمتْ أنَّ هذا الأمْرَ فيه محنةٌ عظيمةٌ لها ، فإنَّ النَّاسَ يتكلّمون فيها بسببه ، لأنّهم لا يعلمون حقيقةَ الأمرِ ، وإنّما ينظرون إلى ظاهرِ الحالِ من غير تدبر ولا تعقّل في الأحوال.

* انفردتْ مريمُ وحدها شرقيَ المسجدِ لِتخلوَ للعبادة ، واستترتْ من أهلِها وتوارتْ عنهم ، هنالك بعثَ الله عزَّ وجلَّ إليها الرُّوحَ الأمينَ جبريل على صورةِ بشَرٍ سوي ، فلمّا رأتْه خافَتْه وقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨].

* سمعَ جبريلُ استعاذةَ مريم بربِّها منه ، فخاطبها قائلاً ومُزيْلاً لما حصلَ عندها من الخوف: «لَسْتُ ممّن تظنّين ، ولكنّي رسولُ ربِّك لأَهَبَ لكِ غلاماً طاهِراً من الذّنوب». فقالت مريم متعجّبة من قولِ المَلَك جبريل: «كيفَ يكونُ لي غلام أو يوجدُ لي ولدٌ ، ولستُ ذات زوج ، وما أنا ممّن يفعلُ الفاحشة»؟

* وعندما سمعَ جبريل كلامَها ، أجابَها عن تعجّبها وقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد قال إنّه سيوجِدُ منكِ غلاماً ، وإنْ لم يكن لكِ زوج ولا يوجدُ منك فاحشة ، فإنَّه على ما يشاءُ قادر ، وهو سهلٌ عليه ، ويَسيرٌ لديه ، وسيجعلُ خلْقَه ـ والحالة هذه ـ دليلاً على كمالِ قُدرته على أنواع الخلْق ، فإنَّه جلَّ وعزَّ خَلَقَ آدمَ من غيرِ ذكَرٍ ولا أنثىٰ ، وخلَقَ حوّاء من ذكَر بلا أنثى ، وخلَقَ عيسى من أنثىٰ بلا ذكَرٍ ، وخلَقَ سائرَ الخلْقِ من ذكَرٍ وأنثى؛ وقد دلَّ بهذا النَّوع في الخلقِ على كمالِ قدرتهِ ، وعظيمِ سُلْطَانه».

* وحينما قال جبريلُ لمريمَ عن اللهِ ما قال ، استسلمتْ لقضاءِ اللهِ عزّ وجلّ استسلامَ المؤمنين المُوقنين ، واطمأنّتْ إلى قولهِ اطمئنان العارفين ، فدنا منها

جبريلُ ، فنفخَ في جيبِ درعها ، فكان منها الحملُ بعيسى بإذن الله .

* حملتْ مريمُ بولدها ، فتنحّتْ بالحملِ إلى مكانٍ بعيد عن قومها ، فراراً من تعييرهم إيّاها بالحمْلِ والولادة من غيرِ زوج ، لأنّها تعلمُ أنّهم لا يصدّقونها فيما تخبرهم به ، فرأتِ الابتعادَ عنهم هو الحلُّ الأمثلِ والأفضل[١] .

* وعندما تمَّ الحملُ ، اضطرها المخاضُ وألجأها إلى جذعِ النَّخلة ، في المكانِ الذي تنحّت إليهِ مبتعدةً عن قومها ، فاشتدَّ بها الأمرُ هنالَك ، وولدتْ عيسى ، وقالت عند ولادتهِ : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٣] . والمعنى : ياليتني متُّ قَبْلَ الحملِ ، ولم أُخْلَق . وذلك لأنَّ مريمَ قد علمت أنَّ النَّاس يتّهمونها ولا يصدّقونها ، بل يكذّبونَها حين تأتيهم بغلامٍ على يدها ، مع أنَّها قد كانت عندهم منَ العابداتِ النّاسكاتِ المجاوراتِ في المسجدِ ، المُنقطعات إليهِ ، المعتكفات فيه ، ومن بيت النُّبوَّة والدِّيانة ، فحملتْ بسببِ ذلك من الهَمِّ ما تمنَّتْ أنْ لو كانت ماتَتْ قَبْلَ هذا الحالِ ، أو كانت نسياً منسياً لا يخطرُ على بالِ أحد[٢] .

* وبينما كانت مريمُ حيرىٰ مهمومةً ، سمعتْ نداءً يقول : ﴿ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٤] ، والسّريّ : هو النّهر الصَّغير أو جدولُ الماء ، وأمرَهَا المنادي أيضاً أن تهزَّ جِذْعَ النَّخلةِ اليابس لِتشاهِدَ آية أخرى في إحياءِ موات الزّرع ، حيث تجدُ الرُّطَبَ الجَنِيَّ ، فلتأكلْ ولتشربْ ولتقرَّ عيناً .

* ثمّ إنَّ المُنادي قال لها : إذا رأيتِ أحداً منَ البَشَر ، وسألَكِ عن ابنك ،

---

(١) ابتعدتْ مريمُ عن النّاس وعن أهلها ، مع العلْم أنَّ الإنسانَ يأنسُ بأهلهِ ، ولكنها ابتعدت عنهم ، واتخذت حجاباً تستترُ به عمّنْ يمرُّ عليها في جهة الشّرق الذي اختارته .
فقد ورَدَ أنَّ النّاسَ في عصرها كانوا يتفاءلون بالنّور حين يأتي من المشرقِ ، لذا اتخذت مريم مكانها ناحية الشرق ، واتخذت حجاباً ساتراً عنهم .

(٢) لما حَدَثَ هذا الأمر للسَّيِّدة المصطفاة مريم ، وأصبحت المسألةُ حقيقة واقعة من حملٍ ومخاضٍ وولادةٍ ، حَدثَ لها نوعٌ من النّزوع الانفعالي ، لأنّها في البدايةِ استغربت الأمر ، وبعد ذلك حملَتْ ، والحمل مستورٌ في بطنهَا ، ولكن عند الوضعِ سينكشف الأمر ، ويرى الناسُ الولد ، وهذا شيء صعبٌ على النّفس في هذا الموقف .
وتمنّتْ أنْ تموتَ قبل أنْ يحدثَ هذا الأمر ، وتكون نسياً منسيّاً لا يخطر على بال أحد .

فقُولي له بلسانِ الحَال والإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أي صَمْتاً، وكان مِنْ صومهم، في شريعتِهم تَرْكُ الكَلام والطَّعَام.

* ومعنى هذه الآية؛ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أمرَها على لسانِ مَنْ ناداها بأنْ تُمْسِكَ عن مخاطبةِ البشَر، وتحيلَ على ابنِها في ذلك، ليرتفعَ عنها خَجَلُها، وتتبيّنَ المعجزة، فيقومَ عذْرُها وبراءتُها فيما يتّهمونَها به.

* اطمأنّتْ مريمُ بما رأَتْ منَ الآياتِ: تَسَاقُط الرُّطَب بِهزِّ جذعِ النّخلة، وبالنَّهرِ الذي أخَذَ يجري مِن تحتِها، وبِنِدَاء مَنْ تحتها، وعلمَتْ بدلالة هذه الآيات أنَّ الله عزَّ وجلَّ لن يتركَها، وسيبيّنُ عذْرَها وبراءتَها ممّا يجدون مِنْ ولادتها هذا المولود، وهي ليستْ ذات زَوْج، أتَتْ بولدها عيسى تحملُه من المكان القصيّ الذي ولَدت فيه، فلمّا رآها قومُها أعظمُوا أمرَها واستنكروه وقالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] أي فعْلاً منكراً عظيماً شنيعاً.

* ثمّ قالوا لها: يا شبيهةَ هارون في العبادةِ والزُّهد أنتِ من بيتٍ طَيّبٍ طَاهرٍ معْروفٍ بالعبادةِ والصَّلاح، وما كان أبوكِ ولا أمُّك أهلاً لهذهِ الفعْلَة؛ فأبوكِ رجلٌ صَالح خَيِّرٌ له سَجايا كريمةٌ، وأمّك حَصَانٌ رزَانٌ، فكيفَ صدرَ منكِ هذا الفعلُ الشّنيعُ والأمرُ الوضيع؟!

* وحينما ارْتَابُوا في أمرِها، واستنكروا فعلتَها، وقالوا لها ما قالوا مُعرِّضينَ بقذفِها ورمْيِها بالفاحشةِ، هنالك ضاقَ بمريم الحالُ، وانحصرَ المجالُ، وامتنع المقالُ، ولكنَّه عَظُمَ التوكّلُ على ذي الجلال، ولم يبقَ إلاّ الإخلاصُ والاتّكالُ، فأشارتْ إلى عيسى أَنْ خاطِبُوهُ وكلّموه، فإنَّ جوابَكم عليهِ، وما تبغُون من الكَلام لديه.

* نظر القومُ بعضُهم إلى بعضٍ، وقالوا متهكّمين بها ظانّين أنّها تَزْدري بِهِمْ على ما جاءَتْ من الدَّاهية: إنَّ مريمَ تأمرُنا أنْ نكلِّم مَنْ كان في المهدِ صبيّا لا يقبلُ الخِطاب، وهو مع ذلك رضيعٌ ولا يميّزُ بين الأشياء؛ وما هذا منكِ إلا على سبيلِ التّهكّم بنا، والاستهزاءِ والتَّنقُّصِ والازدراءِ إذْ لا تردّين علينا قولاً

نُطْقياً ، بل تُحِيلين الجوابَ على مَنْ كان في المهدِ صبيّاً!؟!!!.

* في هذه اللحظات حصلتِ المفاجأةُ للقومِ ، وتكلَّم عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٠ ـ ٣٣].

* كان أوّلُ ما تكلَّم به عيسى ابنُ مريم : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم : ٣٠] إذ أقرّ واعترفَ لربّهِ بالعبوديةِ ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ربُّه ، فَنَزَّهَ جنَابَ اللهِ عن قولِ الظَّالمين في زَعْمِهم أنَّه ابنُ الله ، بل هو عبدُهُ ورسولُه وابنُ أَمَتِهِ ، ثمّ برّأَ أُمَّه السَّيدةَ مريم ممّا نَسَبَهُ إليها الجاهلون ، وقذفُوها بهِ ، ورمَوْهَا بسببهِ ، وأخبرهم بأنَّ اللهَ آتاهُ الإنجيلَ وجعلَه نبيّاً يُوحي إليه ما يشاءُ. ثمّ ذكَّرهم بأنَّ اللهَ أوصاهُ بالصَّلاة والزّكاة؛ وهذهِ وظيفةُ العبيد في القيامِ بحقّ اللهِ بالصَّلاة ، والإحسانِ إلى النّاس بالزّكاة ، وهي تَشْتَمِلُ على طهارةِ النُّفوس منَ الأخلاقِ الرّذيلة ، وتطهيرِ الأموالِ الجزيلةِ بالعطيّةِ للمحاويج ، والنَّفقات في سائرِ وجوهِ الطَّاعاتِ وأنواعِ القُربات.

* ويتابعُ نبيُّ اللهِ عيسى كلامَهُ للقوم بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أوصاني أنْ أبرَّ والدتي ، ولم يجعلْني مُسْتكبراً عن طاعتهِ ، وأمْرِهِ وعبادتَهِ ، فأكونُ شقيّاً بذلك ، والسَّلامُ عليَّ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الدنيا ، ويومَ أموت ، ويومَ أُبْعثُ في الآخرة؛ فَسَلمَ في أحواله كلّها.

* قال ابنُ كثير في هذهِ الآية : «إثباتٌ منْ عيسى لعبوديّتِهِ لله عزّ وجلّ ، وأنّه مخلوقٌ منْ خلْقِ الله ، يحيا ويموتُ ويُبْعَثُ كسائرِ الخلائقِ ، ولكنْ لهُ السَّلامة في هذه الأحوالِ التي هي أشقُّ ما يكون على العِباد»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٠). والمعنى للسَّلام: أي: يوم ميلادي كان سلاماً ، لأنَّ هذا الحدَثَ لو وقعَ لفَتَاةٍ في أسرةٍ أخرى كان منَ المتوقّع أنْ يقتلوها ، ويقتلوا وليدها ، ولكنّها مرّتْ بسلامٍ ، والسلام يوم يموتُ ، وهاهنا خصَّ يوم مولدِهِ ويوم وفاته بالسَّلام لأنَّ الميلاد مقابلهُ الموتُ ، والسّلامُ عليه يوم موته ، لأنّهم سيأتون ليأخذوه بغية صلبه وقتله ، وبعد ذلك يُشَبَّهُ =

* هذه شذراتٌ مُونقةٌ من سيرةِ مريم قَصَدْنا من خلالها إثارةَ المشاعرِ الصَّادقة لَدىٰ الأبناءِ والأمّهات ، وتبيان الحقائق الواضحة في ضوءِ آياتِ اللهِ في كتابِ اللهِ عزّ وجلّ.

* ونستطيعُ الآن أنْ نُلَخِّصَ بعضَ فضائل مريمَ ومنها ما ذكَرَهُ الفيروز أبادي في «بصائرِه» قال: «ومنْ فضائِلها: إتيانُ المَلَكِ بفاكهةِ الجنّة لأَجْلِها ، ونَيْلُها في الشّتاء فاكهةَ الصّيف ، وتكليمُ الملائكةِ لها ، وإتيانُ جبريل إليها ، وولادتُها لعيسى روحِ اللهِ وكلمتهِ من غيرِ مَسِّ الرّجالِ ، وبيانُ براءتها على لسانِ الطِّفْل الرَّضيع ، وتساقطُ الرّطب الجنيّ عليها من النَّخلِ اليابس ، وإجراءُ النَّهر السّريّ مِنْ تحتِ قدمها ، وتفضيلُها على نساءِ العالَمين ، وتطهيرُهَا من العَيْب والعِصْيان ، وتكفيلُها لِزكريّا شيخِ الأنبياء ، وقبولُ الله عزَّ وجلَّ إيّاها بالإنعامِ والإحسان ، وتربيتُها بفنونِ الإكرامِ والامتنانِ ، وتكرارُ ذكْرِها بالمدحِ في نَصِّ القرآن؛ ودعاها الله عزّ وجلّ باثني عَشَر اسماً منبّئةً بفضلِها أتمَّ البَيان ، دعَاها بالمُحَرَّرِ ، ومُصْطَفَاة ، ومطهّرة ، وقَانِتة ، وسَاجِدة وراكعَة ، ومُحْصَنَة ، وآية ، وأمّ وصدِّيقَة ووالدة ، ومريمَ بنت عمران ، وذكَرها باسْمِها في مواضعَ منَ القرآن: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] ، ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] ، ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] ، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣] ، ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران: ٤٥] ، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] ، ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]»[١].

* وما أجمل قول مَنْ أنشدَ في شيءٍ من سيرةِ مريم فقال:

توكَّل علىٰ الرّحمانِ في كُلّ حَالةٍ ... وَلاَ تَتْرُكِ الخَلاّقَ في كَثْرةِ الطَّلَب
ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ قَالَ لمريَم ... وَهزّي إلَيكِ الجذْعَ تسَّاقَطِ الرُّطَب
ولو شَاءَ أنْ تَجْنيهِ منْ غَيرِ هَزّهَا ... جَنَتْه وَلَكنْ كُلُّ أمْرٍ لَهُ سَبَب

= لهم أنهم صلبوه وقتلوه ، ولكنّ اللهَ نجاه منهم ومن كيدهم ورفعه سالماً من كل سوء ، وكذلك ذكر السَّلام يوم البعث.

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٦/ ١٠٩ و١١٠) بتصرف يسير.

* وأمّا عيسى فَقَدْ دعاهُ الله عزَّ وجلَّ في القُرآنِ الكريمِ بخمسةٍ وعشرينَ اسماً دالاً على مدحهِ وفَضْله منها: مؤيّدٌ، وروحٌ منه، ووجيهٌ، وصالحٌ، وغلامٌ وزكيٌ، ورسولٌ، ومبشِّرٌ، ومصدِّقٌ، ومرفوعٌ، ومبارَكٌ، وبارٌّ... كما ذكره باسمه عيسى في مواضعَ كثيرةٍ منثورةٍ في ثنايا آياتِ القرآنِ الكريم، وقال بعضُهم:

هَذا ابنُ مريمَ في مَجالِ الجَاهِ ... في عزّهِ مُتكاملٌ مُتَنَاهِي
في مَهْدِهِ لِلإثمِ أَوْحىٰ شَاهِداً ... مُتَكَلِّماً بأَوامِرٍ ونَواهِي

* وقال إسماعيلُ صَبْري في تصويرِ قصّة عيسى وأمّه هذه الأبيات الهمزيّة الجميلة:

ظَلَّ حيّاً مَنْ كَلَّمَ النَّاسَ في المَهْـ ... ـدِ وطفْلاً وعظَّمْته السَّماء
خَيرُ رُوحٍ حلّت بأطهرِ أمٍّ ... شهِدَ اللهُ أنَّها عذراء
جَاءَها الوحيُ فاستعاذت بِربِّ الـ ... ـنّاس منه ودبَّ فيها الحَياء
قَال إنّي أنا رسُولُ ربِّكِ حقّاً ... فاحْمِلي النّورَ نِعْمَ هذا العطاء
فَتَوارتْ بهِ مَكَاناً قصيّا ... وأضاءت محرابَها الزّهراء
وَأَتَاهَا المخَاضُ إذ تتناجى ... ليتني متّ أو دعاني الثّواء
وضعتْه والجذعُ يحنو عليها ... واستنارتْ بوضعِها الأرجَاء
إيهِ أمّي لا تحزني واحمِليني ... سوفَ يبدو للقوم هذا الضّياء
فأتتْ قومَها به وهي خَجْلى ... فرمَوْهَا بأنَّ هذا بِغَاء
أختَ هارون كيف ترضَيْنَ هذا ... آلُ عمرانَ كلُهم أتْقِياء
إنَّ هذا بيتَ العفافِ قديماً ... كُنْتِ نَذْراً فكيفَ ضَاعَ الوفَاء
فأشارتْ إليهِ فاهتزَّ عيسىٰ ... وتجلَّى على المسيح الإبَاء
بُوغتَ القومُ إذ تكلَّم في المَهْـ ... ـدِ صبيّاً وخيَّمَ الإصْغَاء
قال إنّي عبدٌ لربِّ البَرايا ... أرسلتْني بالبيّنات السَّماء
حملتْني أمّي كما شاءَ ربّي ... فهي أمٌّ ما شَابَهَتْها نِسَاء
أحْسنَ اللهُ نَبْتَها واجْتَباها ... وحَبَاها الرّضَا فَنِعْمَ العَطَاء
واصطفَاها على النّساء جميعاً ... آيةَ الطُّهْرِ درّةٌ عصْمَاء

آمنَ الكلُّ بابنِ مريمَ حقّاً أمطرتْهُم في عَهْدِهِ الآلاء
كان يدعو إلى الصَّلاةِ وجيهاً فَتَفانَتْ في حُبِّه الأوفياء[1]

* وفي هذهِ الأهزوجة ، خيرُ زادٍ أدبيّ ومعرفيّ لأبنائنا ـ ذكُوراً وإناثاً ـ ، كما هي مَعِينٌ ثَرٌّ للمربّين في تسهيلِ حفظ قصّة عيسى ابنِ مريم عليهما السَّلام ، تقولُ الأهزوجة :

جَاءَ يدعُو لِلسَّلام لِلْمحَبّةِ والوِئَام
شَأْنُ كُلِّ الأَنْبِياء رسُلِ اللهِ الكِرام
إنّه عِيْسى ابنُ مريم ذَلكَ الفذُّ المكَرّم
منذُ أنْ كانَ رضيعاً خاطَبَ النَّاس تكَلَّم
أمُّهُ مريمُ كانَتْ دائماً خَيْرَ النِّسَاء
هيَ رمْزُ الطُّهرِ تَدعُو وتَجِدُّ في الدُّعَاء
جَاءَهَا جبْريْلُ يوماً مُوفَداً مِنَ الإله
لِيبشّرهَا بِعيْسَى خَيْرُ مَنْ يأتِ الحَياه

* * *

ربُّها أوحىٰ إليها أَنْ تكُفَّ عَنِ الكَلام
تَشْربُ المَاءَ وتأكُل رُطَباً أحْلَى طَعَام
وضَعَتْ عيسَى جَميلاً فَاقَ عن بَدْرِ السَّماء
حَمَلَتْه وتوارتْ عن عُيونِ الرُّقباء
وأتتْ دارَ ذَوِيْها تَتَهادىٰ في المَسَاء
سَأَلُوهَا كيفَ هذا أَنْتِ مِنْ أهلِ النَّقاء
أنْطَقَ الرّحمنُ عيسى وهوَ في المَهْدِ صبيّا
إنّني عَبْدٌ لِربّي حيثُ أرسلني نبيّا
ودعاني لأُصَلّي خاشِعاً ما دُمتُ حيّا
وحَبَاني منه عِلْماً نافعاً قَلْباً تقيّا

---

(١) انظر : ديوان إسماعيل صبري (ص ٩٧).

فـــأَنَــــا بَـــرٌّ بـــأمّـــي لَسْــــتُ جبّـــاراً شقيــــا
بـــــارِكَ اللهَ حيَــــاتـــي فهـــو بـــي دومـــاً حفيّـــا
والسّــــلامُ عَلــــيَّ يــــومَ وُلــــدتُ إنْســـانـــاً ســـويّـــا
ثـــمّ يَـــوم أمـــوتُ أو أبعـــثُ يـــومَ الـــدّيـــن حيّـــا[1]

* * *

(1) انظر: قصص الأنبياء وقصص القرآن نثراً وشعراً (ص ٢٣٧ ـ ٢٤٣) بتصرف وانتقاء، لمحمدي شافعي.

الفصل الثالث

أُمَّهاتُ المؤمنين رضي الله عنهنَّ

* لا شكَّ في أنَّ معرفةَ سِيَرِ أمّهات المؤمنين تزيدُ منَ الرَّصيدِ العِلْميَّ للنّاس ، وتجعلُهم يحبّون هؤلاء الأمّهات الطَّاهرات ، خصوصاً إذا استطاعَ المُربّي أنْ يبسطَها للناشئين والأبناء ، وأنْ يقرّبَها من أذهانِهم.

* ومن الضَّروري أنْ نُعلِّمَ الأبناء مَنْ اللواتي يَلُذْنَ بالبيتِ النّبويّ ، ونعرّفَهم بأمّهات المؤمنين وبسيرةِ حياتهنّ ، وما قدمنَ من فوائدَ للمسلمينَ من البيتِ النّبويِ ، فهنّ من أعرفِ الخلْق بأحوالِ أفضلِ الخلْقِ حبيبنا محمّد ﷺ.

* ولا مانع أنْ يرويَ الآباءُ والأمُّهاتُ والمربّون سيرَ أمّهات المؤمنين للأبناء ، وأنْ يحفظُوا أعمالهنَّ وأحوالهنَّ ، ويعرفوا مكانتهنّ في عالَم النِّساء.

* وقد أدلىٰ الشّاعر د. محمد منير دلْوه في هذا المضمارِ ، فجاءتِ النتيجةُ بالبُشْرى ، فقد قرأَ سيرَ أمهات المؤمنين ونساء أهل البيت ، ومن ثم استطاعَ بحصافةِ الأديبِ ، وكياسة الشَّاعر ، وفنّ الرّسام أنْ يصوغَ سيرَهنَّ في أسلوبِ يجمعُ الرَّشَاقَةَ والجمالَ اللفظيَ الخفيفَ ، فجاءت نفحاتُه منيرةَ الطَّلْعَةِ ، تهمسُ بقلوبِ الأبناء ، فتجعلُ عبيرَ محبّةِ البيتِ النبوي ينتشرُ في حنَاياها.

* وقد قرأتُ منظومات د. محمد منير عن أمّهات المؤمنين ، فألفيتُ من خلالها أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حباهُ موهبةً ذات ظلٍّ خفيفٍ ، وترفدُ هذه الموهِبَةَ رَزَانَةٌ وفطنةٌ وبصيرةٌ بما يكتبُ وينظمُ ، كما ألفيتُه ذا ثقافةٍ أدبيةٍ وفنيةٍ يستطيعُ من خلالهما استقطابَ نفوسِ الأبناء الذين يقرؤُون ما ينظمُه لهم ، كأنَّ يَدهُ

تأخذُ بيدِ كلّ ناشيء إلى منبعِ النّورِ ويَنْبوعِ المعرفةِ ليصقلَ مواهبهم ، ويكشفَ عن إبداعهم.

* وعند قراءتي لمنظوماته الجميلةِ ، قمتُ بتعديل بعض الجملِ وبعضِ الألفاظِ ظنّاً منّي أنَّ المنظومةَ تتألّقُ أكثرَ في عالَم الإبداع ، وعالَم حياةِ النشء لتَصِلَ المعرفةُ إلى أذهانهم بشكلٍ مبسّط لطيفٍ ، وما أردتُ بهذا الصَّنيع إلا وَجْهَ الله عزَّ وجلَّ ، ثم تقديم النّافعِ والمُصْلحِ لفلذَاتِ الأكباد التي تمشي على الأرضِ بصَفاءٍ وهَناءٍ ونَقَاءٍ.

* يطلعُ علينا د. محمد منير في البدايةِ بالسِّيرة «الخديجيّة» العظيمة ، لأكرمِ أمّهات المؤمنين سيّدتنا خديجةَ بنتِ خُويلد رضوان الله عليها ، فأعطى فكرةً مجملةً عن حياتها ، ثمّ زواجها من رسولِ اللهِ ﷺ ، وكان له منها أبناءٌ وبناتٌ ذكَرَ أسماءهم برشاقةٍ وبراعةٍ ، ولما نزلَ عليه الوحيُ ذكرَ مواقفَها الخالدة ، وكيف بادرت إلى الدخولِ في الإسلامِ مؤمنةً مصدقةً ، فحازت قصب السَّبق في هذا المضمار الميمون.

* لقد أشرقَ قلبُها بالإيمانِ ، وضاعفت من عنايتِها برسولِ اللهِ ﷺ ، وبذلتْ جَهْدَهَا من أجلهِ ، وأنفقتْ مالَها في سبيلِ نُصْرةِ دِيْنِ اللهِ ، واحتملتْ جُوعاً وعَطَشاً ، وظلّتْ مجاهدةً صابرةً إلى أنْ جاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقّ ، ونالتِ البشارةَ ببيتٍ في الجنَّةِ من قَصَبٍ ، لا صخَبَ فيه ولا نَصَب ، وفازتْ برضاءِ اللهِ ، ورضاءِ رسولِ الله ﷺ.

* هذي خديجةُ أمُّ المؤمنين ، هذي أولى النّساء المُسلمات ، هذي أولى السّابقين والسّابقات ، قد أخلصت في دينها فنعم النّساءُ المُخلصاتُ ! وغدتْ عندَ اللهِ من الآمناتِ؛ ترى ما الألوانُ «الخديجية» التي نقرؤها في هذه الهمسات؟ :

ذاتُ المــــالِ وذاتُ الشَّــــرفِ ... عــاشَــتْ راشـدةً فــي تــرفِ
وُصِفَــتْ بعفــافٍ وبعقْــل ... وبجــودِ عَطــاء لــمْ يقــفِ
فهـي خـديجـةُ بنـتُ خُـويلـد ... قــد أعطَــتْ مــالاً لمحمّــد
قَصــدَ الشّــامَ يتــاجـرُ فيهــا ... فجنــىٰ أربــاحــاً لــم تُعْهَــد

وبرفقتِهِ غلامٌ يشهدْ ... مَيْسَرة أخبار محمّد
فرأىٰ أخلاقاً وأميناً ... وفَتىً بالرّحمن مؤيّد
وخديجةُ أبدتْ إعجاباً ... ورأتْ فيه الزّوجَ طلابا
بعثَتْ تطلبُه لِزَواج ... وانتظرت بوحاً وجوابا
أرسل وفداً كي يخطبها ... من أعمام كي يطلبها
تمَّ زواج بارِكَ ربّي ... فيهِ بِسَعدٍ إذ أنجبَها
زينب منها أُم كُلثوم ... منها فاطمةٌ ورُقَيّة
منها القاسم منها الطَّاهر ... مات بنون وعشْن سويّه
نَزَلَ الوحيُ بغار حِراء ... قال لأحمدَ هيّا فاقْرأ
لقّنه آياتٍ تُتلىٰ ... فإذا الخوفُ بهِ لا يهدأ
عادَ لِحبٍّ يشكو أمراً ... سمعتْ منْه فقالت صَبْرا
لن يخزيك الله حَبيبي ... فيك صفاتٌ تنشرُ خيرا
أنتَ عَبْدتَ الله بحقٍّ ... أنتَ نطقْتَ بقول الصدق
أنتَ تعيش بصدق ملاك ... أنتَ ملكْتَ صفاءَ الخلق
كان كلاماً هدَّأَ رَوْعَا ... ثَبَّتَ بعد الخفقِ ضُلوعا
نِعمَ الزّوج خديجةُ كانت ... بالإيمان هدى ونصوعا
دعمتْ بالأموالِ وصَبر ... دَعْوَة حقّ لم تَتَضَجَّر
بشَّرَها جبريل ببيتٍ ... مِنْ قَصبٍ والحلية مَرْمَر
وسلاماً يُقرِئها ربّي ... قد فازتْ برضا الرّحمن
واحتملت جوعاً أو عطَشاً ... وهي تصدُّ أذى الطّغيان
ومضَتْ بعد سنين لرَبٍّ ... وهي مُحاصَرةٌ في الشِّعْب
ماتَتْ والإيمانُ رسوخٌ ... ومقيمٌ بحنايا القلب
فُزْتِ خديجة بِرضَا الله ... وكذا بِرضَا رسول الله

* وبعد أنْ تحدّثَ عن خديجةَ رضي الله عنها ثنّىٰ بالحديثِ عن الزَّوجةِ الثّانية عن أمِّ المؤمنين سودةَ بنتِ زَمعَة التي ماتَ عنها زوجها ، فخطَبها رسولُ اللهِ ﷺ ، فوافقتْ وتزوّجَتْهُ ويا فخر سَودة قد تزوّجها إمامُ المتقين ،

وفي هذا الزَّواج الميمون غدت في عدادِ أمّهات المؤمنين ، ترىٰ ماذا خبّأتْ لنا سيرة أمّنا سودة في ثنايا هذا النَّظمِ ؟! حَسناً فلنقرأ :

بَعْـدَ خـديجـةَ جـاءتْ سَـوْدة	قبـلَ الهجـرة أضحَـتْ زوجـة
تنصُـرُ أحمـدَ فـي مَسْعَـاه	وقفَـتْ معـه بكـلِّ مـودّة
والاسـمُ يـدلُّ علـى ضِـدٍّ	بِسَـلامـةِ نَفْـسٍ وطـويّـه
عَملـتْ فـي جهـدٍ وبـراعـة	ولهـا نفـس رمـز الطّـاعـه
وغـدا البيـت خميلـة حـبٍّ	وبظـرفٍ تـرضـي أسمـاعـه
عُـرِفَـتْ بنقـاءٍ لِسَـريـرة	ونـأت عـن قيـل أو غيـره
رضيـتْ أنْ تحظـى بنبـيّ	وتنـالَ رضَـاه وسُـروره
وبثـاقـبِ فكـر قـد نظـرت	ولأجـل نبـيّ قـد وَهَبَـتْ
نـوبَتَهـا عـائشـة حبّـاً	وبصـومٍ وصـلاةٍ شُغِلَـتْ
وهَبـتْ مَـالاً لِلْفُقـراء	إحْسـانـاً مـن فيـضِ عَطَـاء
ولَهـا أمنيـةٌ بِحَبيـب	أحمـدُ فـي خُلـدٍ بلقَـاء

* والحديثُ عن أمّنا عائشةَ الصّديقة بنت الصِّدِّيق حديثٌ شائق ممتعٌ مفيد، وقد سخَّر د. محمد منير ريشتَه الشِّعريةَ البديعةَ لإظهارِ فضائِلها في هذا النَّظم ، والإشارة إلى علْمها وسَعَةِ تبحّرها في أحوالِ المُصْطَفى ﷺ ، وأشار إلى أنَّ بيتَها قد غدا المدرسة الأولى في الدنيا ، منه ينهلُ الواردون ، وعليه يعوِّلُ شداةُ العلْمِ وعشّاقُ الحديثِ النّبويِ من المسلمين والمُسلمات في أنحاءِ المعمورة .

* وابنةُ الصِّديق ـ أحبائي ـ هي صُغْرى أمّهات المؤمنين ، وهي ذاتُ فضلٍ في النِّساء بقولِ خيرِ المرسلين ، وقد كانت البِكْرُ التي زُفَّتْ إلى الهادي الأمين ، فنالَت رضاهُ وحُبّهُ وثناءَه في العالَمين .

* ولقد أحبَّ الحبيبُ المصطفى ﷺ أنْ يصاهِرَ في الرِّجال المُخلصين ، فاختارَ أبا بكر كبيرَ الصَّادقين وشيخَ الصَّحابة أجمعين ، وأوّلهم في المكارمِ والفضائلِ ومحاسن الشّمائل ، وعظيم الخصائل ، ولطيف الخصَائل ، وكان الزّواجُ النَّبويُّ الميمون مِنْ عائشة بِأَمْرٍ مِنْ ربّ العالَمين ؛ وغدا أبو بكر الصّديق صهراً لخيرِ الأنبياء ، وصارتِ ابنتُه زوجةَ آخر الأنبياءَ ومكثتْ في البيتِ النبويِ

أمّاً للمؤمنين قرابة تسْع سنين كانت سِمَاناً تلقّى المؤمنون عنها حصائِلَ العِلْم ولبابَ الفَهْم ، لقد كانت في عصرِها فقيهةً عالمةً في أمّهات المؤمنين ، وأمر النّبي ﷺ أصحابهَ ونصحَ لهم أنْ يأخذوا شطْرَ دينهم عنها؛ وما أجمل الحديثَ عنها في هذه النَّفحاتِ العَطِرة:

صُغْـــرىٰ زوجَـــاتِ الهَـــادي   حَلَّـــــتْ حُبّـــا بفـــؤادِ
فهِـــيَ البِكْـــرُ ووالـــدُهـــا   صَـــدَّقَ أحمـــدَ لـــرشَـــاد

* * *

بيتُهـــا وقـــد غـــدا   بيـــتَ عِلـــمٍ مُفْـــردَا
فـــارتَـــوتْ مـــنْ فقهـــهِ   وروت قـــولَ الهُـــدىٰ
وغـــدا مـــدرســـة   للنّســـاء مُعْلَنـــا
كـــلُّ مَـــنْ تـــرجـــو هـــدى   وســـؤالاً وهَنـــا
أقبلـــتْ تســـألُهـــا   أخبـــرينـــا أُمَّنـــا
كيـــف كـــان المُصطفـــى   داخـــلَ البيـــت هنـــا
أخبـــرِيْنـــا عِشْـــرَةً   نَـــوِّري قُلـــوبَنـــا
فـــانهلـــوا مِـــنْ وِردِهِ   ذاك مِـــنْ سُنَنِـــهِ
خيـــركـــم يـــا إخـــوتـــي   خيـــركـــم لأهلـــهِ
فخـــذُوا مِـــن فضلِكـــم   عنهـــا شَطْـــر دينكـــم
وانهلُـــوا مـــن عـــائشـــة   زادكـــم لِعِلمكـــم
صَبـــرَتْ راضيـــة   عـــن رِيـــاشٍ وطَعـــام
حبُّهـــا للمصْطَفـــى   هـــو للبيـــتِ وئـــام
مـــاتَ عنهـــا أحْمَـــدُ   وهـــو رَاضٍ يحمُـــدُ
قـــد ثـــوىٰ فـــي حِجـــرِهـــا   وهـــو فيـــهِ يـــرقُـــدُ
مَكثَـــتْ فـــي بيتهـــا   فـــي صـــلاةٍ وصيـــام
وغَـــدتْ ذاكـــرة   فـــي سجـــودٍ وقيـــام

فهـــــي أمُّ المــــــؤمنيــــــن   حِــبّ خيــرِ المُــرسليـــن[1]

* ولما عجم د. محمد منير عيدانه ـ وهو ينظمُ سِيرَ أمّهات المؤمنين ـ وجدَ في سيرة ابنةِ الفاروق حفصة مُبتغاه ، واقتنصَ من الألفاظِ ما رقّ وراقَ ، ومن المعاني ما هو أصفى من مدامعِ العُشّاق؛ فحفصةُ رضوانُ اللهِ عليها من دررِ نساءِ بيتِ النبوةِ ، فأبوها عمرُ وما أدراك ما عمر؟! فلا تطيبُ المجالس إلا بذكرهِ وسيرتهِ؛ وحفصةُ قسيمةُ عائشةَ في المكانةِ ببيت النّبوة ، وعنها قالتْ عائشةُ: «هي التي كانت تُسَاميني من أزواج النبي ﷺ». وحفصةُ هي الصَّوامةُ القوّامةُ العابدةُ القانتةُ الذاكرةُ ، وهي التي حُفِظَ المصحفُ في بيتها إلى أنْ كتبَه عثمانُ رضي الله عنه ونسخَه ووزّعَه في الأمصار ، وفضائل أمّنا حفصة لا تُحصر في نثْرٍ ولا شعْر ، ولكنّها هَمَساتُ حبٍّ لأمّهاتنا ، نبوحُ بها ليتعلَّمَ الأبناء محبّة أمهات المؤمنين الطّاهرات:

حفْصَـــةُ يـــا بنْـــت عمـــر   زوجُ خَيْـــرِ المُـــرسَليـــن
قـــد نَهلْـــتِ الـــزَّاد تَقْـــوى   ورأيـــتِ الخيـــرَ أبْقـــىٰ
وابتغَيْـــتِ العِلْـــمَ زاداً   يـــالـــه لِلْقلـــبِ أنْقـــىٰ
وَرِثَـــتْ حُسْـــنَ الحَصَـــافـــة   عـــن أبيهـــا والثَّقـــافـــه
وَارتقَـــىٰ الـــدِّيـــن بِـــروحٍ   مـــسَّ قَلْبـــاً وشِغَـــافَـــهْ
أحمـــدٌ أضحـــىٰ حبيبـــاً   ونبيّـــاً وقـــريبـــا
سَكَـــنٌ فـــي البيـــتِ كـــانَـــتْ   ولـــهُ مِسْكـــاً وطِيْبـــا
لِتُقَـــاهَـــا وبـــأمْـــرٍ عَـــادت   لحبيـــبِ الـــرحمـــن أحمـــد
فـــي رضـــاءٍ وحَنيـــن   وهـــي أمُّ المـــؤمنيـــن
جَمَـعَ الصَّحْـبُ السُّـور بمصحـف   ولـــدىٰ حفصـــة حـــرصٌ يُعْـــرف

---

(١) قال الإمام الذهبي عن أمنا عائشة: «عائشة أم المؤمنين ، بنت الإمام الصّديق الأكبر؛ . . . أفقه نساء الأمة على الإطلاق ، . . روت عن النبي ﷺ علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه . . وعائشة ممن ولد في الإسلام ، وهي أصغر من فاطمة الزهراء بثماني سنين ، وكانت تقول: «لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين» لم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها ، وأخبارها كثيرة . .». (سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٥ ـ ٢٠١) بتصرف.

خيـــر مكـــان نحفـــظ فيـــه هـــذا الكنـــز لِئـــلا يتْلَـــف
ورَوتْ حفصـــةُ نُـــورَ سَنَـــاه مـــا حفظَـــتْ لِـــرَســـولِ الله
لـــم تكتـــمْ عِلْمـــاً أو خبـــراً شَـــرحـــتْ فـــي صِـــدْقٍ معنـــاه

* وهذا حديثٌ لطيفٌ عن سيّدتنا أمّ المؤمنين زينبَ بنتِ خزيمة الهلاليّة رضي الله عنها انجابتْ عنه تغريدةٌ عذبةٌ موحية ، إذ إنَّ أمَّنا زينبَ هذه واحدةٌ من أمّهاتِ المؤمنين ، وكانت من خيارِ نساءِ البيتِ النّبويّ ، ذات صلاحٍ وفلاحٍ وتقوى وإحسان ، حتى إنّها عُرفَتْ بلقبِ أمّ المساكين لأنّها كانت كثيرة الإحسانِ إلى المساكين تبرّهم وتعطفُ عليهم .

* تزوجَها رسولُ اللهِ ﷺ بعد استشهادِ زوجها عُبيدةَ بنِ الحارث في غزاةِ بدر ، ولكنّها لم تمكثْ كثيراً في البيتِ النّبوي إذ توفيتْ بعد دخولها إيّاه بحوالي ثمانية أشهر ، وصلى عليها النّبي ﷺ وصحبه ودفَنَها في البقيعِ ، وكان عمرها إذ ذاك قريباً من ثلاثين سنة .

* وقبل أنْ نَهْصُرَ الأغصانَ الدّانيةَ القطوفِ عن أمّنا زينب بنت خزيمة نقرأُ هذه الأغرودة الجميلة عنها :

مع زينبٍ أُخْرى نواصِلُ لِلْحَديثِ مؤكّدين
هي زَوجَةُ الهَادِي وإحْدَىٰ أُمَّهاتِ المُؤمنين
أمُّ المسَـاكيـن التـي عُـرفَـتْ بـإِحْسَـانٍ وديْـن
عُرفَتْ ببنتِ خزيمةٍ ذاكمْ أبوها عَنْ يقين
كانتْ قُبيلَ المُصطفى زَوجاً لأَحَد الذَّاهِبين
ذاكُم عُبيدةُ في العُمومةِ مع إمامِ المتّقين
قـد راحَ فـي بـدرٍ شهيـداً أَوّل المُسْتَشهـديـن
فتأيّمتْ مِنْ بعدهِ مع لوعةِ الحزنِ الدّفين
لمّا انتهىٰ زَمَنُ الحِدادِ كَشرعِ كُلّ المُسلمين
قد أرسلَ الهادي لِيَخْطبَها كفعْلِ الخاطِبين
قَـالَـتْ فَـأَمْـري لِلْنّبـي وإنّنـي فـي الطَّـائعيـن

فتزوّجَ الهادي بها بِالمَهْرِ ثمّ الشَّاهدين
لكنّها لم توفِ عاماً عند ختْم المُرسلين
ظَلّت ثماني أشْهُرٍ ثمَّ اغتدتْ في الرّاحلين
صلّى عليها المُصطفى والصَّحبُ كانوا شاهدين(١)

* والآن سنعيشُ لحظات دافئةً مع النّسمات المنعشة ، التي نستروحُ بها من أنفاسِ د. محمد منير الذي جمعَ السِّيرة «الزَّينبية الخزيمية» في بضعةَ عشَر بيتاً ، وذكر من خلالها أهم صِفات أمّنا زينب بنت خزيمة ، وقرَّبَ للأذهانِ ما تفرَّقَ من سيرتها في بطون المصادر ، واجتهد أنْ تكونَ سيرتها ملائمةً وهيّنةً على الأبناء الذين ننظمُ لهم عقداً نفيساً من هذا الفصل السَّهل الممتنع ، حتى يتعرفوا سِيَرَ أمّهات المؤمنين عن كثب ، وبشتّى الأساليب المفيدة التي تزيدُ من رصيدهم الثّقافي في هذا المجال الميمون ، ترى هل نسعدُ مع أمّ المساكين كما سعدِنا مع غيرها؟ هذا ما ستجلوه هذه النفحات :

مَنْ قالَ بإخلاصٍ اللهْ — فالخَالقُ أبداً لا ينْسَاهْ
فاجعلْ من قلبِكَ موصولاً — واذكرْ بلسانٍ قُلْ ربّاهْ
كم ناجَتْ زينبُ بخشوع — والليلُ سُدُولٌ يا ربّي
فَقَدتْ في بَدْرٍ عائِلَها — مَنْ يَغْمُرُ قَلباً بالحُبّ
لا تخشي زَينَب من فَقد — فاللهُ كفيلٌ بالعَبْدِ
قد كنتِ الأمّ لِمسْكينٍ — وبذلتِ المالَ بلا عدٍّ
وأعدَّكِ ربّي لِزَواج — والزّوجُ نبيٌّ عن حبّ
قدّمتِ شَباباً موفوراً — فَسَعدتِ بأحمدَ في القُرب
يا بنتَ خزيمةَ يا زينبْ — مَنْ جادَ بمالٍ لا يذهبْ
أحصاهُ اللهُ وقالَ لنا — فابذُلْ يا عبدي وتقرَّبْ
ومضيتِ بعمرِ الزَّهَرات — وجمعتِ الخيرَ لمرضاةِ
وسعدتِ بأحمدَ في الدُّنيا — ولقاء الشَّوقِ بجنّات

---

(١) انظر : تغريدة السيرة النبوية (٢/ ٤٠٢).

* ومع أمّنا أمّ سَلمَة هِندٍ بنتِ أبي أميّة أبحرَ د. محمد منير في الأعماقِ ، واستخرجَ دُرراً وجواهرَ تزيّن العقولَ والنَّفوس ، وتأخذُ بأيدي الأبناء إلى السَّبيلِ الأقوم في معرفةِ الحقائقِ التي عُرفَتْ بها أمُّ سلمةَ؛ ومنها: سبْقُها إلى الإسلامِ ، صبرُها ، وفاؤُها ، هجرتُها ، وعقلُها الذي يدلُّ على سَعَة أفقِها.

* ولما مَنَّ الله عليها برسولِ اللهِ ﷺ ، صارتْ بفضلِ اللهِ إحدىٰ أمّهات المؤمنين المحجّباتِ الطَّاهراتِ ، وكانت أمُّ سلمة من المهاجراتِ الأوَلِ ، ومن أشرفِ النِّساء نَسَباً ، ولها أولادٌ صحابيّون: عمرُ ، وسلمةُ ، وزينبُ؛ وكانت أمّنا أمّ سلمةَ تُعَدّ من فَقيهاتِ الصَّحابيّات.

* وقد أشارَ د. محمد منير في منظومتهِ عنها إلى جوانبَ مهمّة من حياتها ، واستطاعَ أنْ يوجزَ سيرتَها في أقلّ من عشرين بيتاً ، وركّز على مشورةِ النّبيّ ﷺ إيّاها في صُلح الحديبيةِ ، وكيفَ أشارتْ بالحَلْقِ ونَحْرِ الهَدي فأصابتْ فيما قالَتْ ، وسجّلت كتُبُ السِّيرةِ النبويةِ لها هذا الموقفَ النَّبيل ، وما أجمل أنْ نقرأَ الآن هذا النَّظم عنها:

هِيَ بنتُ أبيها زَاد الرّكْب ... لِبَني مخزوم إذْ تُنْسَب
دخَلتْ في الدِّين طواعيةً ... لم تَخْشَ قُريشاً أو تَرهَب
وبأمّ سَلَمةٍ قد شُهِرتْ ... لو قالوا هنْدٌ ما عُرِفَت
ولَها في الرّأي مشُورتها ... إنْ طلَبُوا منْها أو سُئلت
وغَدا الإسلامُ هَوى القَلْب ... وبهِ ذاقَتْ معنى الحُب
ومضَتْ لِلْهجرةِ في الحبشة ... مَع زوج هاجرَ مِنْ كرب
وتعودُ الأسرةُ منْ غربة ... وقريشٌ ما زالَتْ حَرْبا
والزّوج لِطَيْبةَ هجرتُه ... ولَها أهلٌ منَعُوا قُربَه
وسَعَتْ باكيةً عِنْدَهُمُ ... حتّى تركُوهَا تَرتَحِل
وبِطَيبةَ يلتئمُ الشّمْل ... ومضَتْ لله مهاجرة
وبأُحُدٍ جُرِحَ أبو سَلَمة ... ومضى للْمولىٰ يَبْتَهلُ
قد أوصى الزّوجة بِزواجٍ ... ليكُون لها سِتراً بَعْلُ
ومحمّد رقَّ لِصِبيتها ... فتزوّجَ يحمي عِزَّتها

واستَصْحَبهــا فــي الغَــزَوات ‏ وغَــدَتْ تُهــديــه مشــورتهــا

فــي صلــحِ حُـديبيــةٍ كــانَــتْ ‏ وســأَلهــا أحمــدُ فــأَشَــارتْ

بِــالْحَلْــقِ وفــي نحْــرِ الهــدي ‏ وأصــابــتْ حقّــاً إذ قــالَــتْ

وروتْ عــن أحمــدَ أخْبــارا ‏ وحقــائــقَ ذكَــرتْ أسْفَــارا

لَــولاَ ذَاكِــرةٌ لانْقَطَعَــتْ ‏ عنّــا مــا فَتَــح الأبْصَــارا

* وفي سيرةِ أمّنا زينبَ بنتِ جحش يصحبُنا د. محمد منير في رحلةِ عَذْبةِ الكلماتِ ، وجمالِ الفكرة الوَقَّادَةِ.

* ولا يعزبُ عنّا أنَّ عذوبة الكلماتِ وحدها ، لا تخلقُ أسلوباً بديعاً ، ولكن عذوبةَ الكلماتِ اقترنت بالرّواء والرّونقِ والفكرةِ ، فجاء نظمهُ عن أمِّ المؤمنين زينب بسيطاً ، ولكنّه يحملُ عمقاً وبُعداً في الفكرةِ ، حيث ذكرَ أهمَ الملامح في سيرتها وحياتها من لدنِ إسلامها المبكّر إلى حين وفاتِها في بضعة عشَرَ بيتاً.

* وكان يحرصُ حرصَ المحبّين على تذليل كلّ صعْبٍ لتكونَ هَمَساتُه قريبةً من عقولِ النشء وقلوبِهم ، وخصوصاً عندما ذكرَ حادثة إلغاءِ التّبنّي ، ثمّ ثنّى بذكرِ حادثة زواجها من النّبيّ الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يخرجُ عن النّص القُرآني الجميل ، وعمّا جاء في صحيح الأحاديثِ ، فحالفَهُ في هذا التّوفيق الذي أرادَ من خلاله أنْ تكونَ سيرةُ بيتِ النّبوّة خيرَ رفيقٍ للأبناء وحتّى الكبار ، وهذا الأمْرُ كما نعلمُ ليس سَهلاً ، والآن لنقرأ لأبنائنا سيرةَ أمّنا زينب لنكتشفَ مصْداق ذلك :

زَينــبُ ذَاتُ النَّســبِ الغَــالــي ‏ ذات الــدِّيْــن سَمَــتْ للْعَــالــي

مــنْ بيــتٍ فتحــوا أبــوابــاً ‏ لــلإســلامِ فَضَــاءَ لَيــالــي

وُصِفَــتْ حُسْنــاً بمــلاحتهــا ‏ وَيَــداً تكْسَــبُ مــن صنعتِهــا

تنفِــقُ لا تخشــىٰ مــن فَقْــر ‏ وهــي تُصلّــي فــي غــرفتهــا

وسَعــىٰ فــي خطبتهــا الهــادي ‏ مِــنْ زَيــدٍ خَيــرِ العُبَّــاد

ربّــىٰ زَيْــداً وتَبَنَّــاه ‏ وهــو لِــزينــبَ خيــرُ مُــرَاد

بعــدَ زواجِ حَصَــل خــلاف ‏ ونــأَىٰ عــن قَلْــبٍ إيــلاف

وبـــــدا الشّـــــرُّ وزالَ صفَـــــاء   وهنــــا لـــم يُجْـــدِ الإنصـــاف
وشكَــا زيـــدٌ يـــرجُـــو أَحْمَـــدْ   لِفِـــراقٍ مـــنْ زينـــبَ يُحْمَـــد
قـــالَ الهـــادي أمسِـــكْ زوجـــاً   واصْبِـــرْ عـــلَّ الحُـــبَّ يُجـــدّد
وأتـــىٰ الأمْـــرُ مـــنَ الـــرّحمـــن   زَوّجْنَـــا زينـــبَ مـــنْ أحمـــد
وبِكُـــمْ نَهـــدِمُ عـــادةَ جَهـــل   زيـــدٌ ليـــس ابْنـــاً لمحمّـــد
زيـــدُ بـــنُ أبيـــهِ حـــارثـــة   هـــذا فـــي الإســـلام النَّسَـــبُ
زينـــبُ زوّجْنـــاهـــا لكُـــمُ   ومضَـــىٰ إلحـــاقٌ يـــا عَـــربُ
وغَـــدَتْ زوجُ رســـولِ الله   نـــالَـــتْ زوجـــاً تتمنَّـــاه
شكَـــرتْ ربّـــاً وهَبَـــتْ خيـــراً   وغـــدتْ فـــي صـــوم وصَـــلاه

* وإذا كانت سيرةُ أمِّ المؤمنين جُويريةَ بنتِ الحارث من السِّيرِ المحبّبة إلى القلوبِ ، فلا شكّ في أنَّ دخُولَها البيت النّبويّ له سَببٌ عجيبٌ ، حيث أَسرَهَا المسلمون في غزاةِ بني المُصْطَلِق ، وارتقتْ من الأسْرِ لتكونَ أمّاً للمؤمنين وزوجاً لسيّد المُرسلين :

يَـا بنَـةَ الحَـارثِ طِيْبـي وانعَمِـي   أَيُّ رِزْقٍ صَـالـح لـمْ تُـرزَقـي
اصْطَفَـــاكِ الله فيمـــنَ يصطفـــي   وانتقـــىٰ بيتَـــك فيمـــا يَنْتَقِـــي

* وفي غمرةِ الأحداثِ التي عَرَتِ السَّيدةَ المصونةَ أمَّنا جُويرية ، راحَ د. محمد منير يقرّبُ لأذهانِ الأبناء بأغرودتهِ سيرةَ جويرية حيث اختارَ المطلعَ الذي يعْلَقُ بأذهانِ الناشئة ، ثم دلفَ إلى ذكْرِ الأحداثِ بطريقةٍ بارعةٍ لم يخرجْ من خلالها عما جاء في السِّيرةِ النّبويةِ ، وفي كتبِ الصَّحيح التي تحدثت عن المغازي النّبوية.

* وبرشاقةِ الأديبِ ، وبراعة الشّاعر ، أخذ د. محمد منير في سَرْدِ سيرةِ أمّنا جُويرية ، فإذا أبناؤنا أمامَ هذه الأمّ العظيمة يحبّون شمائلها ، ويعرفون بركتَها على قومها حينما أعتقَ النّبي ﷺ أهلَ مئةِ بيتٍ عندما تزوّجها ، وقد وفّقَ شاعرنا لهذا كلّه ـ بفضلِ اللهِ وكرمه ـ عندما أشارَ إلى سيرة أمّنا جُويرية فقال :

هِـيَ بنـتُ زعيـمِ المُصطلـق[1] قـد جمـعَ الجيـشَ علـى الطُّـرق

وأعـدَّ لِغـزْو إسـلامـا فـأتـاه الغـزو ولـم يطـق

إذْ وقـعَ السَّبـي بقـريتـهِ وتلقّـى الصَّـدمـةَ بـابنتِـهِ

أَغْـوَاهُ الشَّـرُّ بمـا صَنعَـا فَـأَتـى لِلصَّفْـح بتـوبتـهِ

سمّـاهـا الهـادي جُـويـريـة وأبـوهـا سمّـاهـا بـرّه

لِـوَضَـاءةِ وَجْـهِ سمَّـاهَـا وجَمـالِ لا يخفـى أمْـره

وهَـداهَـا اللهُ لإسـلامِ فَنـأَتْ عـن شِـركٍ وظـلام

وأتـتْ لِنَبـيٍّ تَسْـأَلُـه فكّـاً مـن سَبْـي وقتـام

يـا خيـرَ الخلـق فَهـا إنّـي أسلمـتُ لِـربّـي فـأعِنّـي

فـالـرّحمـةُ فيـكَ وتُهـديهـا مِثلـي لا يُسْبَـىٰ أطْلِقنـي

فـأَجـابَ أخَيـرٌ مـنْ ذلـكْ عِتْـقٌ وزَواجٌ أَوْلـىٰ لـك

فـاخْتَـارتْـه زوجَ العُمـر وهـو الهـادي خيـر البشـر

وأراد بـذلـك أن تسعـى فـي عتـقِ القـومِ مـن الأسـر

والصَّحـبُ تنـادوا للسَّبْـق حُلّـو قيـداً للمُصْطَلِـق

أصهـارُ رسـولِ الله إذا قـد نـزلـوا فـي منـزل صِـدْقِ

وجُـويـريّـةُ فـي اسْتِعـداد سلكـت نهجـاً للْعُبّـاد

لـزِمـتْ لصـلاةِ مسجـدهَـا والتَّقـوى مـنْ خيـر الـزّاد

علّمهـا أحمـدُ كَلِمَـاتِ بِقَليـل تجتنـي ثَمـرات

سُبْحـانَ الله تـرِدِّدُهَـا مـرّاتِ تلـوَ المـرّات

تَجنيـنَ ثـوابـاً مـنْ رَبٍّ لِتَفـوزي منْـهُ بِجنّـات

* وعندما تطرّقَ د. محمد منير لسيرةِ أمِّ المؤمنين صفيّة بنت حُيي ، ركّزَ منذُ البدايةِ على عظمةِ الإسلام ، وكشفَ عن خُبْثِ اليهود وغدرهم ، واستطاع

---

(١) كان الحارثُ بنُ أبي ضرار المُصطلقي والد جويرية سيّداً مطاعاً ، أمّا جُويرية فقد سُبيتْ يوم غزوة بني المصطلق ، وكان اسمُها برّة فحوّله رسولُ الله ﷺ إلى جُويرية ، أتتِ النبيَ ﷺ تطلبُ إعانة في فكاك نفسِها ، فقال: «أو خيرٌ من ذلك ، أتزوّجك» فأسلمتْ ، وتزوج بها ، وأطلقَ الأسارىٰ من قومها ، فكانت من أعظمِ النّساء بركةً عليهم.

أنْ يَزِنَ الأمورَ في ميزانٍ دقيقٍ يتناسبُ مع مستوى النَّاشئة ، وكأنّ لسانَ حالهِ ينشدُ ويقول لسيّدتنا صفية :

هَـذَا مكَـانُـكِ عَـاليـاً مـا مثْلُـه ... في السُّؤددِ العَالـي مكَـانـاً يُـؤثَـرُ
أدركْـتِ دُنيـا الصَّـالحيـن ودِينَهـم ... فَظَفـرتِ بـالحُسْنَـى ومثلُـك يظفَـرُ
ولأنْـتِ إنْ عظُمـتْ فـوائـدُ خَيْبَـرٍ ... أسنـىٰ وأعظـمُ مـا أفـادتْ خيبـرُ

* كانت أمُّنا صفيةُ شريفةً عاقلةً ، ذات حسَب وجَمال ودِيْنٍ ، وكانت ذات حلْمٍ ووقَار وصدقٍ ، أخذت مكانتَها في بيتِ النّبوّة ، وبين أمّهات المؤمنين ، وها نحنُ أولاء نقتربُ من أُمّ المؤمنين[1] صفيّة رضي الله عنها لنتعرّف بعض أخبارها :

فـي غـزوةِ خيبـرَ كَـان النّصْـر ... قَـدْ ذلَّ يهـودٌ وهَـوى الغَـدْر
واسْتَسْلَـمَ للْمختـار عُصَـاةٌ ... بَعـدَ القتـل وبَعْـد الأسْـر
وصَفَيّـةُ بنـتُ حُيَـيّ كـانـت ... ضِمْـن السَّبـي وعِـرضـاً صَـانـت
بنْـتَ زعيـمِ القـوم رآهـا ... أحمـد بيـن السَّبـي وعـانـت
رقَّ لحـالِ واصْطَفـاهـا ... خيَّـرهَـا فـرأتْ أُخْـراهَـا
أخْتـارُ الـواحِـدَ ومُحمّـدْ ... والمـولـىٰ كَلَّـلَ مسعـاهـا
وغـدتْ فـي فخـرٍ زوجتُـه ... وبلطْـفٍ تُصبـحُ مُهجتُـه
فـالقلـبُ استَسْلـم لله ... وحَـوى بِـالصّـدقِ محبَّتَـه
وتعيـشُ صفيّـة مُسلمـةً ... زوجـاً لِنَبـيّ مُـؤمنـة
أنقـذَهـا الله بـإسـلامٍ ... مـنْ شـرِّ الكفـر منعّمـة
أكْـرمَهـا أحمـدُ دَلَّلهـا ... وبلطْـفِ حَبيـبٍ عـامَلَهـا
وضَـرَائِـر قُلْـنَ يَهـوديّـة ... ولمـوسـىٰ أحمـد نَسَّبهـا
أرأيـتَ عَـدَالـة إسـلام ... هـو دعـوة خيـرٍ وسـلام
للنّـاس جَميعـاً يهـديهـم ... لِطَـريـق يسمـو بِـدَوام

---

(١) قال الذهبي : «صفيةُ أمّ المؤمنين بنت حيي بن أخطب بن سعية ، من ذريةِ هارونَ عليه السّلام ، تزوّجها النّبيُ ﷺ وعمرها قرابة سبع عشرة سنة ، وروت عشرة أحاديث ، ولها أخبارٌ نفيسة . . » (سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٨) بتصرف .

بـالتّقـوى اشتهـرت والكـرم ... بـالـدِّيـنِ وفـي وصْـلِ الـرّحِـم
وأحبَّـتْ فِطْـرتُهـا قَـومـاً ... بـالـدّيـن تـآخـوا والشّيـم
وتَـراهَـا تـدفـعُ عبـرتهـا ... إذْ وهَـم المـرضُ متيّمهـا
يـا أحمـدُ لـو جسْمِـي بَـدلاً ... فـالـرّوحُ فـداؤُكَ أُرسلُهـا

* لم يزلِ الحديثُ موصُولاً عن بيتِ النّبوّة ، وعن أمّهاتِ المؤمنين ، ونحن الآن في رحابِ واحدةٍ من كريماتِ البيتِ النّبوي ، إنّها رملةُ بنتُ أبي سُفيان المشهورة بكنيتها أمّ حبيبة رضي الله عنها هذه المرأةُ الكريمةُ التي لقيتْ ما لقيَتْ في سبيلِ إسلامها ، ولقيتْ ما لقيتْ في هجرتها إلى أرضِ الحبشةِ ، إلى أنْ غدت أمّاً للمؤمنين ، وغدتْ زوجاً للنّبيّ ﷺ و :

بُشْـرَاكِ أمُّ حبيبـةٍ بِمحمّـد ... تمَّتْ لكِ النُّعمى ففُوزي واسْعَدي
اللهُ بـوَّأَكِ الكـرامـةَ منـزلاً ... وأعـزَّ جـدَّكِ بـالنَّبـيّ محمّـد

* نعم كان زَواجاً مُباركاً من عند ربِّ العالَمين ، وقد أعطىٰ مَلِكُ الحبشةِ النّجاشيُ مَهْرَ أمّ حبيبة لسعيدِ بنِ العاص الذي تولّى أمْرَ زواجِها منَ النّبيّ ﷺ ، ثم هدى اللهُ أبا سفيان للإيمان ، فاكتملَ سرورُ أمّ حبيبةَ به ، ولنكملْ رحلتَنا مع أمّنا أمّ حبيبة وهذه الأبيات :

رمْلـةُ بنـتُ أبـي سُفيـان ... أُمُّ حبيبـةَ[1] رمْـزُ حنَـانْ
زهـرةُ خيـرٍ فـاحـتْ بِشَـذى ... وَهَبـتْ نفسـاً لِلـدّيّـان
فَـرَّتْ كـي تنجـو بـالـدِّيـن ... تخشـىٰ الفتْنَـة والتّـوهيـن
قَصـدَت أرضَ الحبشـة لأَمْـنٍ ... عَـانَـتْ مِـنْ زَوج بِيقيـن
مَـاتَ الـزّوجُ وقـد أرهقَهـا ... وغـدت أيمـاً فـي غـربتهـا
وأتَـى الخبـر لأحمـدَ فيهـا ... فـرأى الـرَّحمـة أن يكـرمهـا
بعـثَ نبـيُّ الله وكـالـة ... لِنَجـاشـي كـي يخطبهـا

(1) أم حبيبة أم المؤمنين السيدة المحجبة رملة بنت أبي سفيان . . وهي من بنات عمّ الرّسول ﷺ، ليس في أزواجه من هي أقرب نسباً إليه منها ، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها ، ولا مَن تزوج بها وهي نائية الدار أبعدُ منها ، حيث إنَّ مهرها أربع مئة دينار ، وكان لها حرمة وجلالة وأخبارها كثيرة لا تحصر . (سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١٨ ـ ٢٢٣) بتصرف .

أصـــدقَهـــا بشُهـــودٍ عنـــه وأتَـــتْ أحمـــدَ فتـــزوَّجهـــا
وَرَأَتْ حُلُمـــاً قبـــل سِنيـــن دُعِيـــتْ أُمَّ المـــؤمنيـــن
وَهَبـــتْ نفْســـاً لـــلإســـلام وبـــهِ فـــازتْ بـــالتّمكيـــن
وهَـــدَىٰ الله أبـــا سُفيـــانـــا لـــلإســـلام فلـــمْ يتَـــوانَ
جَـــاهَـــدَ يمحـــو بُغْضـــاً سَلَفـــا رملـــةُ قـــالَـــتْ ربّـــي هَـــدانـــا
لُـــمَّ الشَّمْـــلُ وعـــاد الأهـــلُ وأتـــى العِلْـــمُ وزال الجهْـــلُ
ربّـــي بـــالإســـلام وقَـــانـــا وآبَ لأِمْـــــــرِ اللهِ الكُـــــلُّ

* وكان ختامُ الأنسام المنيريةِ الشّعرية مع أمّ المؤمنين ميمونةَ بنتِ الحارث الهلاليّة ، التي تزوّجها النّبيُ ﷺ في عُمرةِ القضاء ، إذ اختارها اللهُ زوجاً لرسولهِ الكريمِ في هذه العُمرة. و :

إِسـمٌ سَمـا لَفْظُـه وازْدَانَ مغْنَـاه حَـلاَّك ربُّـكِ بـالحُسْنـى وحـلاَّه
ميمـونـةٌ أنـتِ هـذا مـا تخيّـرهُ لَـكِ الـذي اختـارهُ مـن خلقِـهِ الله
لأَنْـتِ أكْـرمُ عنـدَ اللهِ منـزلـةً يـا زوجَ أحمـدَ إذ أعْطَـاكِ إيّـاهُ

* وميمونةُ ـ رضوان الله عليها ـ هي آخرُ زوجاتِ النّبي ﷺ ، تزوّجها في عامِ سَبْعٍ من الهجرةِ ، وغدت ميمونة إذ ذاك من أمّهات المؤمنين ، وهي أختُ أمّ الفضل زوجةِ العبّاسِ بنِ عبد المطلب ، وخالةِ خالد بن الوليد ، وخالةِ عبد الله بن عبّاس ، فأكرمْ بهم جميعاً!.

* كانت ميمونةُ من ساداتِ النّساء وسيّداتهنّ ، وقد مدحَتْها أمُّ المؤمنين عائشة بسماحةِ الخُلقِ ، وحُسْنِ المعاملة ، وصلَةِ الرّحم ، والزّهد والتّقوى ، وفضائلُها لا تُحصى.

* وفي طيّات عشرة أبياتٍ نُلخِّصُ قصّة أمّنا ميمونة بنت الحارث ، ونجعلُ سيرتَها سَميراً للأبناء ، تعزّزُ ثقافتهم ، وتجلو كثيراً من الحقائق ، فلنستمعْ سيرةِ إلى أمّنا ميمونة رضي الله عنها :

قـــد خُتِـــمَ العقْـــدُ بميمـــونـــة هِـــيَ زوجـــةُ أحمـــدَ ومصُـــونَـــة
فقَضَـــى فـــي مكَّـــةَ عُمْـــرتـــه وتـــزوَّج فيهـــا ميمـــونـــة
ولِيُمْـــنِ الطـــالـــع سمَّـــاهـــا ولفـــألٍ حَســـنٍ مَسْعَـــاهـــا

وغـــدا الإســـلامُ لـــه صَـــوتٌ   فـــي أدنـــىٰ الأرضِ وأقْصَـــاهَـــا
وسَعَـــتْ فـــي إرضَـــاءِ محمّـــد   وهنَـــاء المَسْكـــن كـــي يَسْعَـــد
كـــي تمنـــحَ إخْـــلاصـــاً حبّـــاً   وبطـــاعـــةِ أحمـــدَ تَتَعبَّـــد
قـــالَـــتْ عـــائِشـــةٌ تَمْـــدَحُهـــا   بِسَمـــاحَـــةِ خلْـــقٍ تـــذكُـــرهَـــا
للـــرّحـــم أرَاهَـــا أوْصَلُنـــا   والتّقـــوى لبـــاسٌ حِلْيَتُهـــا
بِنَبِـــيّ سَعِـــدتْ ميمـــونـــة   يـــا دُرّة سحْـــرٍ مَكنُـــونـــه
بـــوفـــاءِ القَلـــبِ لِمخْتَـــار   قـــد فُـــزْتِ بحـــبٍّ تبغيْنَـــه

* * *

الفصل الرابع
من سراري النبي صلى الله عليه وسلم

* في الرحلةِ الميمونةِ مع بيتِ النّبوّة الطّاهر ، ومع عبق أندائهِ العطراتِ ، أخذت ريشة د. محمد منير ترسُم جانباً من حياةِ سراري النّبيّ ﷺ ، فبدأتْ بذكْرِ سُريّته مارية بنت شمعون ، فقد أخذَ يذكُرُ الأحداث التّاريخية التي رافقت ماريّة القبطيّة[1] من لدن بدايةِ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ للملوكِ والأمراءِ إلى أنْ قدمَتْ هديةً من عند المقوقس ، واستقرَّتْ سُريّةً في بيتِ النّبوّة ، وولدتْ للنّبي ﷺ إبراهيم.

* وكما نعلمُ منْ دروسِ السّيرةِ النَّبويَّةِ أنَّ المقوقسَ كان حاكماً في مصرَ ، وأرسلَ له النَّبيّ ﷺ حاطبَ بنَ أبي بلتعةَ يدعوهُ إلى الإسلام ، وانطلقَ حاطبُ بالرّسالةِ النّبوية مُسرعاً ، وكان ذا عَقْلٍ فطين ، وحاورَ المقوقسَ ، بَيْدَ أنَّ المقوقسَ لم يسلمْ ولم يعارضْ ، وعلم صدقَ نبوةِ محمّد ﷺ ، وأرسلَ جاريتَيْن هما : ماريّة وسيْرين هديةً إلى النّبي ﷺ ، فتسّرىٰ النّبيّ ﷺ بمارية التي أسلمتْ وهي في طريقها نحوَ المدينةِ المنورةِ؛ ومع سيرةِ مارية نعطّر الأسماعَ بهذا النَّظم الجميل :

لملـــوكٍ أرســـلَ يـــدعـــوهُـــم   دعـــواتٍ أرسلَهـــا أحمـــدْ

---

(١) ماريةُ بنتُ شمعون القبطية ، أمّ إبراهيم ، من سراري النبي ﷺ ، مصرية الأصل ، بيضاء ، ولدت في قرية «حفن» بمصر ، وأهداها المقوقس سنة (٧ هـ) إلى النبي ﷺ هي وأخت لها تدعى «سيرين» ، فولدت له إبراهيم؛ ولما توفي النبي ﷺ تولى الإنفاق عليها أبو بكر ، ثم عمر ، وماتت بالمدينة في خلافة عمر ، ودفنت بالبقيع سنة (١٦ هـ).

لهـــــدىٰ الإســــلام ورحمتـــــهِ ومقـــوقـــسُ رَدَّ بمــــا يُحمَـــدْ
أهــــدىٰ لنبــــيٍّ جـــاريـــــةً مـــن مِصْــرٍ واسْمُهــا مــاريــة
فتــــزوَّجهــــا إذ أعتقَهـــــا فــارتبــطَ بمصــرَ مصــاهــرةً
بيضـــاء بشعـــرٍ جعـــديّـــة بــوســـامـــةِ ريـــم عـــربيّـــة
والعقـــلُ تســـامـــى مختـــاراً ديـــنَ الإســـلام طـــواعيّـــةْ
واحتجبـــتْ حبّـــاً لمحمّـــدْ لـــزمـــتْ حجـــرتَهـــا تتعبّـــد
وغـــدتْ مسلمـــةً مشبعـــةً بـــالـــدّيـــن وليـــلاً تتهجّـــدْ
ولـــه وَلَـــدتْ إبـــراهيمـــا كـــالبـــدر جَمـــالاً وسَليمـــاً
فـــازدادتْ مـــن أحمـــدَ حبّـــاً ورجـــتْ جنّـــاتٍ ونعيمـــاً
فـــرحتُهـــا بـــابـــن لـــم تطُـــلِ فـــأتـــاهُ المـــوتُ علـــى عجَـــلِ
والـــوالـــدُ فـــاضـــتْ دمعتُـــهُ والأمُّ تفيـــضُ مـــن المقَـــلِ

* ومن المفيد أنَّ نكمل نظم حبّاتِ العقْدِ النّبوي بنظمِ سيرةِ ريحانةَ [1] بنتِ زيد القُرظيّة سُريّة النّبيّ ﷺ ، ومُلْك يمينه .

* وريحانةُ بنةُ زيد هذه من يهودِ بني النَّضير ، أُخِذَتْ سبيةً يوم أنْ أذلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ يهودَ بني قُريظة ، ونَصر اللهُ رسولَه والمؤمنين ، ومن ثمّ ملكهم رقَابَ أعدائِهم الذين نقضوا العهدَ وخانوا الله ورسوله . وقد خرجَ بنو النَّضير من بلدِهم كارهين مُكْرَهين ، فاستقبلهم يهودُ بني قريظة ، ويهود خيبر ، فأنزلوهم في منازِلهم ، وزوّجوهم وتزوّجوا منهم .

* تزوّجتْ ريحانةُ في بني قُريظة ، ودارتِ الدّائرةُ على بني قريظة ، فقُتِلَ منهم كلُّ مَنْ يستطيعُ حَمْلَ السّلاح ، وسُبيتْ نساؤهم وذراريْهم ، فكانت ريحانةُ واحدةً من سَبْي بني قُريظة ، فصارت إلى النّبيّ ﷺ واتّخذها سُريّة له ،

---

(١) ريحانةُ بنتُ زيد بن عمرو بن خناقة ، من بني النّضير إحدى سراري النّبي ﷺ ، كانت يهودية وسُبيَتْ ، وأسلمت سنة (٦ هـ) فأعتقها النبي ﷺ ، وكانت معجباً بأدبها وبيانها ، لا تسأله حاجة إلا قضاها ، ولم تزل عنده حتى ماتتْ سنة (١٠ هـ) فدفنها في البقيع .

وأسلمتْ ونعمتْ بدينِ الله عزّ وجلّ الذي اختارته ، ولكنّها اختارتْ أنْ تظلَّ مُلْكَ اليمين .

* وقد نظمَ د. محمد منير سيرةَ ريحانة في نَغَم متناسق ، وألفاظِ موحية ، وعباراتٍ نَشْوى ، كي يقرّبَ قصّتها من قلوبِ المؤمنين كِباراً وصغاراً ، نظمَ سيرتَها على شكلِ رباعيّاتٍ رقيقةٍ ليسهلَ حفْظُها وفهمها ، واستطاعَ أنْ يوظّف من الألفاظِ الجميلةِ خَدماً للمعَاني التي أرادهَا ، فكان بحمدِ اللهِ موفّقاً ، ومعه نقرأ ونستمتعُ بهذه الرُّباعيات المتناغمة :

رَيْحَانَةُ اسْمٌ لمُسَمّى فَاحَتْ كالزَّهرةِ بالعَبَقِ
لِقُريظَة نُسِبَتْ وتَسَامتْ عنهم بالدِّينِ وبالخُلُقِ
نَجَّاها اللهُ بحكمَتِهِ وهَداها الأقْوَمَ للطُّرقِ
سُبِيتْ في الحربِ فكانَ لها خيراً وبداية منْطَلقِ

* * *

ونبيّ اللهِ أضاءَ لَها نُوراً في الرُّوحِ وفي الجَسَدِ
كي تحيا عابدةً ربّاً بِهُدىٰ الإيمانِ وفي رشَدِ
وتنالَ الحظوةَ في الدّنيا برحابِ نبيّ إنْ تُردِ
خيَّرهَا فاخْتَارتْ ربّاً ومحبَّةَ أحمدَ للأَبدِ

* * *

عاشَتْ بالحبّ مكرّمةً تحظىٰ بِحنَانِ المُختارِ
وهبتْه النَّفْسَ وزهرتَها لِتَنالَ الرّفْقَة في الدارِ
زهدتْ في الدّنيا وانتظرتْ جنّاتِ الخلدِ لأطهَارِ
فَسَعَتْ مسرعةً للأخرى والقلبُ يفيضُ بأذكارِ

* وبعد تلكم الجولَةِ اللطيفةِ مع أمّهاتِ المؤمنين وسراري النّبيّ ﷺ ، تلك الجولةُ الميمونةُ التي اقتطفنا من خلالِها أزهارِ رياض مونقة أهديناها للأبناء ، إذْ حاولنا تبصيرهم بمكانةِ هؤلاء العابداتِ الطّاهراتِ أمّهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ ، وها نحنُ أولاء الآن نوجزُ في همسة حبّ أسماء زوجاتِ النّبيّ ﷺ وأسماء سَراريه في قصيدةٍ واحدةٍ ، وذلك إتماماً للفائدة ، وقد نظمَ

أسماءَهنّ «محمد شريف الصّواف» ، بيد أنّه لم يذكرهنّ كُلهنّ ، لذلك قمتُ بنظم بقيةِ أسمائِهنّ وتعديلِ قصيدته قَدْرَ المُستطاع ، ومن ثمّ أضفتُ أسماءَ سَراري النَّبيّ ﷺ ، حيثُ لم يوردهنّ في نَظْمه ، وعسى أنْ أكونَ قد وفقت في ذلك والأبياتُ في نظم أزواج النبي ﷺ هي :

صَلّــــى اللهُ علـــىٰ المُخْتَـــارِ	مـــنْ بيـــنِ القـــومِ الأَخْيَـــارِ
أزواجُ «محمّـــــد» أطهـــــارُ	وجميـــعُ نســـائِـــهِ أَبْـــرارُ
اللهُ تعـــالـــىٰ شـــرَّفَهـــم	بـــالشَّـرفِ الأسْمـــىٰ أكْـــرمَهُـــم
ونســـاءُ نبـــيٍّ خـــاطَبَهـــم	﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ﴾ قـــالَ لَهـــم
أُولاهُـــنَّ «خَـــديجـــةُ» كـــانَـــتْ	بـــالفَضْـــلِ الأكبـــرِ قـــد فَـــازَتْ
سيّـــدةٌ لِنِســـاءِ العَـــالَـــمْ	أوّل مَـــنْ آمَـــنَ مَـــنْ أَسْلَـــمْ
جِبْـــريـــلٌ بِعَظيـــمِ المِنَّـــةْ	بَشَّـــرَهَـــا حقّـــاً بـــالجنَّـــةْ
فـــي بيـــتٍ فيهـــا مـــنْ قَصَـــبِ	يخلُـــو مـــنْ صَخَـــبٍ أو نَصَـــبِ
«زَينَـــبُ» «فـــاطِمـــةٌ» وَ«رقَيَّـــةْ»	«قَـــاسِـــمُ» و«الطَّيْـــبُ» و«بُنَيّـــة»[1]
هـــمْ أولادُ محمّـــدَ منْهـــا	اللهُ تعـــالـــىٰ أكْـــرمَهـــا
وأحـــبُّ الأزواجِ لَـــديـــهِ	مَـــنْ حظيَـــتْ بـــالحُـــبِّ لَـــديْـــهِ
«عـــائشـــةٌ» بنـــتُ الصِّـــديـــق	أكـــرِمْ أعظِـــمْ خيـــرُ رَفيْـــق
أفقهُهُـــنَّ تَـــروي الشِّعْـــرا	وسِـــوَاهـــا لَـــمْ ينكـــحْ بِكْـــرَا
اللهُ تعـــالـــىٰ طهَّـــرَهَـــا	أنـــزلَ فـــي الـــذّكْـــرِ بـــراءَتَهـــا
وجَعَلَـــهُ قُـــرآنـــاً يُتْلَـــى	مَحفُـــوظـــاً فـــي اللـــوحِ الأَعْلَـــى
أطـــولُهـــنَّ يـــداً هـــي «زَينـــب»	تنفـــقُ فـــي خَيـــرٍ تَتَقَـــرّبْ
أولُهـــنّ وفـــاةً كـــانَـــتْ	بمحمـــد أولُ مَـــنْ لحقَـــتْ
قـــد كَـــانـــتْ ابنَـــةُ عَمّتـــهِ	زَوجَّهَـــا اللهُ بحكْمَتِـــهِ
كـــي يُلغِـــي الخَطـــأ مـــنَ الـــذِّهْـــنِ	لَيْـــسَ المُتَبَنّـــىٰ كـــالابـــنِ
وكـــذلـــكَ منهـــنَّ «حَفْصَـــة»	«أمُّ حبيبـــة» وكَـــذَا «سَـــوْدَة»

(١) «بنية» المقصود بها أم كلثوم بنت النبي ﷺ.

«ميمـــونـــةَ» وكـــذاكَ «صَفيّـــة» وكـــذا «زَيـنَـبُ»[1] و«جُـويـريـة»
آخـــرُ مَـــنْ مـــاتَـــتْ منْهُـــنّ «أمّ سَلَمَـــةَ» وأحْكَمهـــنّ
اللهُ تعـــالـــىٰ علّمَهـــا والقـــولَ الصَّـــائـــبَ أَلْهَمَهَـــا
هُـــنَّ الأزواجُ الأطهـــارُ بمحمّـــدَ حقّـــاً أبْـــرارُ
أزواجٌ فـــي هَـــذي الـــدّارِ وكـــذا فـــي دارِ الأَخْيـــارِ
وسَـــرَاري منْهـــنَّ تُـــذْكَـــرْ «ريْحَـــانـــة» «مَـــاريَّـــة» الأَشْهـــرْ
جـــاءَتْـــه مـــنْ مصْـــرَ هـــديّـــة «مـــاريّـــة» فهـــيَ القُبْطيّـــة
ولَـــدتْ إبـــراهيـــمَ غُـــلامـــا لَـــمْ يكْمِـــلْ مِـــنْ عُمـــرٍ عَـــامَـــا
رضـــيَ اللهُ تعـــالـــىٰ عَنْهُـــم جمعـــاً والجنَّـــةَ أدْخَلَهـــمْ[2]

* * *

---

(١) المقصود بها زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها.

(٢) أناشيد البراعم المؤمنة لمحمد شريف الصواف (ص ٨٥ ـ ٩١) بتصرف، دار السنابل ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م. وقد تصرفت كثيراً في هذه الأنشودة وقدمت وأخرت وأضفتُ أبياتاً من عندي كيما يتحقق غرض الكتاب والله من وراء القصد.

الفصل الخامس

أمّهات صالحات من السِّيرة العطرة:

* لا ريب في أنَّ الإسلامَ الحنيفَ قد سجَّلَ سبقاً ميموناً ومشهوداً على جميعِ الشَّرائع في ميدانِ الأمومةِ والبُنوة ، ذلك أنّه الشّريعةُ الباهرةُ التي توجِّهُ الخِطَابَ للمرأةِ عامة ، كما توجّهُ للرّجل ، فالكلُّ في حقّ الخطابِ سواءٌ عند الله عز وجل في العبادات ، وفي كثيرٍ من الحقوقِ والواجباتِ ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

* أقرَّ الإسلامُ الحنيفُ حقَّ المرأةِ في الحياةِ كاملاً غير منقوص ، فجعل المرأةَ شريكةً للرّجُل ، فهما ينحدران من أصلٍ واحد تفرَّعَ منه الإنسان ، وأصبحَ أساساً لنشأةِ القبائل والشّعوب ، لا تفاضل بينهما إلا بما يكتسبهُ كلٌّ منهما من صفاتٍ حميدة ، وخصالٍ طيبة ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١] ، ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

* كما أنَّ الإسلامَ قد جعلَ العلاقةَ بين النّساء والرّجال علاقةً سامية ، تتصلُ بها أواصرُ المودّةِ والرّحمةِ ، وتستريحُ فيها النّفوس للنّفوس ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]. فهذه الآيةُ العظيمةُ تؤكّد أنَّ المودّةَ والرّحمةَ والصّداقة المتعطفة أعلى مراتبِ الألفةِ والوفاق في الزّواج؛ وبذلك يكون الإسلام قد رفعَ من شأنِ المرأةِ إلى مستوى

من الإعزازِ والتقديرِ لم تصلْ إليه في أي وقتٍ من الأوقات ، بل إنَّه جعلَ منها لباساً وستْراً لزوجها ، وسوّاها أماناً واطمئناناً ووقايةً وسلامةً ، فقال تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٨٧].

* وَهَبَ الإسلامُ للمرأةِ حُقوقاً متعدّدة ، وحمّلَها من المسؤولياتِ مع ما أقره لها من الحقوقِ ، فغيّر بذلك من النَّظرة الجاهليةِ لها ، كما غيّر من وضعِها الاجتماعي ، واعترفَ بها كياناً مستقلاً عن الرّجل ، وكفَلَ لها حياةً آمنةً مستقرة.

* سار النّبي الكريم ﷺ على نهج ما أمره بهِ اللهُ عزّ وجلّ ، فقال: «استوصوا بالنّساء خيراً» ، وكان ﷺ مَثلاً أعلى في معاملةِ نسائه الطّاهرات.

* بلغ من علو شأنِ المرأةِ في الإسلام ، والمحافظةِ على مشاعرها ومكانتها ، أنَّ السَّيّدة أمّ هانىء بنت أبي طالب قد استجار بها بعضُ النّاس من أعداءِ المسلمين فأجارتْهم ، وأجازَ النّبي ﷺ ذلك لها ، وقال: «قد أجَرْنا مَنْ أجرتِ يا أم هانىء».

* أعطى الإسلامُ المرأةَ الحقَّ في طلبِ العلْم ، وجعله فرضاً عليها ، كما هو فرضٌ على الرجلِ ، وتُحدثنا السيرةُ النّبويةُ عن نساءِ أهلِ البيتِ الطَّاهرات بأنَّ أمّنا عائشة كانت أَفْقَهَ نساء الأمّة على الإطلاق ، وهي الرّاويةُ والحافظة الأولى للحديث النّبوي بين عالَم النّساء الصحابيات وأمّهات المؤمنين؛ كما أنّ المرأةَ شاركتْ في الجهاد ، تقدم الطّعام للمجاهدين ، وتشدُّ أزرهم.

* وإذا كانت هذه هي مكانةُ المرأةِ في الإسلام ، فقد كان للأمومة شأنٌ آخر ، ذلك أنَّ الأمومةَ لا تزالُ يَنْبُوعاً دفّاقاً غنياً بكلّ المكارم ، فصوّر الإسلامُ الأمَّ أجملَ تصوير ، ووصلَ بمكانتها إلى حدّ مرموق ، وجعلَ برَّها ضرباً من العبادةِ ، ونلاحظ أنَّ الإسلامَ عندما يُوصي الإنسانَ بوالديهِ ، يخصُّ الأمّ بذكرِ ما قاستْ من آلام وصعوباتٍ ووهْنٍ وتعَبٍ ، قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وقال تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى

عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

* كانت هذهِ الإشاراتُ الإلهيةُ أوّلَ التَّنبيهات لِعِظَم مكانة الأم، وأول الهمسات النّدية إلى الأبناء ليتنبهوا إلى مكانة الأم وشدّة بلائها ومعاناتها في الابن منذ أنْ كان جنيناً، ثم رضيعاً إلى أن يغدوَ كامل الأشدّ قوياً، ولذا وصّى النّبيُّ الأكرمُ ﷺ بالأمّ ثلاثاً، ثم بالأبِ، ثم الأقرب فالأقرب، وجعل الجنّة عند برّ الأمّهات.

* والأمومةُ الصالحةُ بابٌ عظيم للأبناء يوصلُهم إلى النّعيم المقيم، لأن ما تقاسيه الأمّهات في تربية الأبناء شاهد على ذلك، فعن ابنِ عمر رضي الله عنه: أراهُ عن النّبي ﷺ قال: «إنّ للمرأةِ في حملها إلى وضعِها، إلى فصالِها من الأجر، كالمتشحّط في سبيلِ الله، فإنْ هلكَتْ فيما بين ذلك، فلها أجرُ الشَّهيد»(١).

* وعن راشدِ بنِ حبيش أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دخل على عُبادةَ بنِ الصّامت رضي الله عنه في مرضه، فقال رسولُ الله ﷺ: «أتعلمون مَنِ الشّهيد منْ أمّتي»؟ فأرمَ القومُ، فقال عبادةُ ساندوني، فأسندوه، فقال: يا رسولَ الله، الصّابرُ المحتسبُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ شهداء أمتي إذاً لقليل، القتلُ في سبيلِ الله عزّ وجلّ شهادةٌ، والطّاعون شهادةٌ، والغَرقُ شهادة، والبطنُ شهادة، والنّفساء يجرها ولدها بسرره إلى الجنّة»(٢).

* وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئبُ فذهبَ بابنِ إحداهما، فقالت صاحبتُها: إنّما ذهبَ بابنك، وقالت

---

(١) رواه ابن الجوزي في أحكام النساء، وإسناده حسن، ومعنى: «المتشحط»: المتخبط والمتمرغ.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة برقم (١٩١٥) باختلاف يسير في اللفظ، وأخرجه أحمد وأبو داود. ومعنى «السّرر»: ما تقطعه القابلة من المولود. قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: وإنّما كانتْ هذه الموتاتُ شهادة بتفضّل الله تعالى بسبب شدّتها وكثرةِ ألمها، والمرادُ بشهادة هؤلاء كلّهم غير المقتول في سبيل الله أنّهم يكون لهم في الآخرةِ ثواب الشهداء، وأما في الدنيا فيغسّلون ويُصلّى عليهم». (المنهاج ص ١٤٦٨) باختصار.

الأخرى: إنّما ذهبَ بابنكِ ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرىٰ ، فخرجَتا على سُليمانَ بنِ داود ، فأخبرتاه بذلك ، فقال: ائتوني بالسّكين اشقُّه بينكما. فقالتِ الصُّغرى: لا تفعلْ يرحمك الله ، هو ابنُها ، فقضى به للصُّغرى»[(١)].

* والأحاديثُ النّبويةُ في فضْلِ الأمّهات ومكانتهنّ كثيرةٌ جداً لا تُحصى ، ومعظمها يشيرُ إلى عِظَمِ مكانةِ الأم في الجنّة لما صبرت في قعودها على تربيةِ أبنائها ورحمتها بهم وتعليمها لهم أصول الإسلام وما شابه ذلك.

* وتظلُّ الأمُ رمزَ العطاء والتّضحية والقلْب الكبير ، فهي التي تتحمّلُ وحدها أطوارَ نمو ابنها بدءاً من الحملِ فآلامِ الوضع ، ثمّ الرضاعة فالفطامِ. حقاً إنَّ عطاءها طوال هذه المراحل التي تتهدد فيها حياتها ، كعطاءِ المجاهدِ في سبيل الله عزّ وجلّ ، فإن ماتتْ كان لها أجرُ شهيد.

* ثمّ إننا نرى الأمَّ المشفقة الحنون ، تخشى على ابنها الهلاك ، فتحرصُ على حياتهِ ، ولو افتقدته بعيداً عنها ، وتضحّي بسعادتِها في سبيلِ سعادة أبنائها ، وكثيراً ما تحرمُ نفسها من الضَّروريات لتسدَّ حاجة أبنائها.

* إنَّ عطاءَ الأمومةِ يتجاوزُ توفير الحياة الرغيدة المستقرة للأبناء ، ويرمزُ إلى ما هو أبعد من ذلك ، يرمزُ إلى الرغبةِ في إنباتِهم نباتاً حسَناً صالحاً ، متعهّدة إيّاهم بحسنِ الرّعايةِ والتّأديب على منهجِ الإسلام القويم ، كما أنّها تفطمُهم على حبِّ الجهاد ومكارمِ الأخلاق ، والرّفقِ بالمسلمين ، وحبِّ العلْم ، وكافّة الفضائل ، وتوعيةِ الأبناء بالمخاطرِ التي تحيقُ بالمسلمين ، ومنها مخاطر بعضِ وسائلِ الإعلام ، كالتّلفزيون وويلاتِهِ على وجْه الخصوص.

* وللتّلفزيون ضررٌ واضحٌ ، وخطرٌ داهم قلَّ أنْ تتنبّه إليه الأمّهاتُ ، ولا بأس في أنْ نستطردَ قليلاً هنا لنشيرَ إلى الأذيةِ الكبرى التي يلحقُها التّلفزيون بالأبناءِ ، بل وفي إفسادِ الأمّهات فالمجتمع.

* ففي دراساتٍ متعددةٍ لسلبيّات التّلفزيون والفضائيات في البلادِ العربيةِ

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري برقم (٣٤٢٧) ، ومسلم برقم (١٧٢٠).

والإسلاميّةِ ، كانت نتائجُ الأضرار التي توصلَت إليها تلكم الدّراساتُ تتمحورُ في أكثرَ من عشرين نقطةً من أبرزها الأمور الآتية:

١ـ يؤدّي التّلفزيون إلى انتشار الجريمةِ والعنف ٤١٪.

٢ـ يؤدّي التّلفزيون إلى انتشار ضعفِ الأبصار ٦٤٪.

٣ـ يؤدّي التّلفزيون إلى انتشار شيوع الرّذيلة ٤١٪.

٤ـ يشْغَلُ المشاهدين عن القراءة والمُطالعة ٦٤٪.

٥ـ يشغَلُ الطّلابَ عن القراءة والمذاكرة ٦٣٪.

٦ـ يؤدّي إلى شيوعِ أساليبِ النَّصْب والاحتيال ٤٧٪.

٧ـ يؤدي إلى تقييد حركةِ الجسمِ والأعضاء ٤٤٪.

٨ـ يؤدّي إلى السَّلبية والكسل والتّراخي ٤٦٪.

٩ـ يضرّ المجتمعَ بعامة أكثر ممّا ينفع ٧٢٪.

* أما عن تحليلات الدّراسات لواقع التّلفزيون ، وما يغرسه من قيم في الأبناء أوّلاً ، ثم الأمّهات ، ثمّ الآباء ، ثم المجتمع كاملاً ، فيمكن أنْ تُلَخَّص في النّقاط الآتية:

أولاً: البرامجُ المخصّصة للأبناء ، والأطفال ، من مثل أفلام الكرتون أو القَصص الغربيةِ الغريبةِ المترجمة ، فهذه البرامجُ لم تُنْتَج لأبناء المسلمين ، وأمهاتهم ، وإنّما صُنِعَتْ لأبناء الغرب خصِّيصىً ، ومن العجيب أنَّ المجتمعَ الغربيَ نفْسَه تخلّى عن كثيرٍ من أنواع البرامج السّخيفة ، مثل بعض أفلام الخيال العلميّ المثيرة التي تدوّخُ عقولَ النّاشئة ، وكذلك تخلّوا عن أفلام الفضاء والمعارك التي تدورُ هناك ، وتفعلُ بألبابِ الأبناء ما تفعلُ الخمر ، وتدمرُ نفوسَهم وتكوينهم. ونحن مع الأسفِ الشّديد ما زلنا متمسّكين بما تخلّى عنه الغرب ، وقذفَ به في سِلالِ المهملاتِ.

ثانياً: إنَّ بعضَ المسلسلاتِ تخدمُ أعداء الإسلام بصورةٍ مباشرة ، وصورٍ غير مباشرة ، من مثل تزويرِ بعض المُسلسلات التّاريخية ، وتلميعِ بعض

المواقف الغائمة، وإدخالِ مواقف الحبّ والغرام ليحلوَ المسلسلُ ـ بزعمهم ـ ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تخفىٰ على أدنى العقلاء.

ثالثاً: من الملاحظ أنَّ اللغةَ العاميةَ والسُّوقيةَ المبتذلةَ التي يستخدمُها التّلفزيون في المسلسلات يقلّدها الأبناءُ وخصوصاً ما يرافقها من حركاتٍ مائعةٍ، وأصواتٍ ساخرة، وسلوكٍ شائن، ويردّدها الأبناءُ في البيوت والشّوارع والمدارس والأماكن العامّة، وهاهنا لا تجدي أحياناً نصائح المربّين ولا المعلّمين في ترك هذه اللغة المائعة العَرْجَاءِ لأنَّ التّأثيرَ التّراكمي للتّلفزيون أقوىٰ وأبْعَدُ أثراً، ولأنَّه قد غدا المُؤَثِّرَ الأقوى في الأبناء، والصّورة المُثلى أمامهم، والأحدوثة المحبّبةَ إلى نفوسهم.

رابعاً: يُظهِرُ التّلفزيون كثيراً من العاداتِ الفاسدة والسّيئة، ويبرزُ أيضاً أموراً محرّمة أثناء المسلسلات وعرض التّمثيليات مثل: شرب الخمر، والإدمان على التّدخين فالمخدرات، وإطالة الشّعر واللعب بهِ، ممّا يجعلُ الأبناء يقلّدون هذا كلّه بزهو وفخر؛ كما تشيعُ في بعض البرامجِ التلفزيونية القيم السّلوكية المنحرفةُ، كالكذب والغشّ والخداع والتّآمر على الآخرين والغيبة والحسد والنّميمة بين جمهور النّساء، ويعيش عليها الأبناء، وبالتّالي تنغرسُ هذه القيم شيئاً فشيئاً في نفوسهم، وتصبحُ عادية في حياتهم دون أنْ يتحرك وازعٌ في أعماقهم يصدهم عنها.

خامساً: من الواضح أنَّ شطراً كبيراً من المسلسلات والأفلام يدورُ حول الحبّ والغرامِ والعشقِ بين الشّباب والشّابات من طلبةِ الجامعات أو المرحلة الثّانوية، وتُظْهِرُ الاختلاط في النّوادي والأماكنِ العامة والمُتنزَّهَاتِ، وبالتّالي يتعوّدُ الأبناءُ والمشاهدون على هذهِ المناظر، ويتقبلونها بقَبول حسَنٍ، ولا يجدون فيها حرجاً ولا غضاضةً، وإن كانت حراماً، حيث يتلاشى الوازعُ الدّيني من نفوسهم، ثمّ إنَّ هذه المسلسلات تظهرُ الممثلاتِ الفاسداتِ بأبهى صورةٍ، وتظهرُ بعضَ نبلاء التّاريخ من الرّجال أو منَ النّساء بصورة مشوّشةٍ وغيرِ لائقة.

سادساً: إنَّ التّلفزيون لا يقدّرُ علماءَ الأمّة بمختلفِ طبقاتهم، وإنما يقدرُ الفنّانات ونجومَ الكرة والطّرب والرقص الذين يحتفي بهم دائماً، ويهيءُ لهم

المقابلات التّلفزيونية في أجواء جذابةٍ براقةٍ تخلبُ الألباب ، بحيث يجعلُهم قدوةً للجيل التلفزيوني ، ومن العجيب أنَّ بعضَ هؤلاء يتحدّث عن القدوة والمثل العُلْيَا والأخلاق بطريقةٍ ملفتةٍ للنظر ، بل إنَّ إحداهنّ تتحدثُ عن الفضائل كأنّها صِدِّيقةٌ من الصِّديقات ، وتزعمُ أنَّها تؤدّي دوراً إنسانياً من «أجْلِ ربّنا»!!! إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب!!

* ولكنْ لكلّ داءٍ دواءٌ ، فهناك اقتراحاتٌ عمليةٌ للتّعامل مع هذه الوسيلةِ الإعلاميةِ الغازية كلَّ بيوت العالَم ، وهذا التَّعامل يعتمدُ على الحكمةِ والرّوية ، ويكْمُنُ ذلك في مراعاة النّقاط والأمور الآتية :

١ـ تعويدُ الأبناء على النّوم مبكّرين ، وعدم الجلوس أمامَ التّلفزيون دون رقيب ، وانتقاء البرامج التي تمدهم بالفائدة .

٢ـ تعويدُ الأبناءِ على العبادات ، وتعريفُهم بالواجباتِ الدّينية كالصَّلاة ، فلا يشغلهم عن أدائها شغْلٌ مهما كان .

٣ـ تبصيرُ الأبناء بالحلالِ والحرامِ والخير والشَّر ، حتى يستطيعوا أنْ يميزوا ما يُعْرَضُ عليهم في التّلفزيون من خيرٍ وشرٍ ، ومن ثم يكون ميزانُهم بذلك الإسلام .

٤ـ يحرصُ الأبُ والأمُّ أنْ يكونا موجودَيْن أثناءَ عرضِ البرامج لتوجيهِ الأبناء الوجْهة الصَّحيحة ، ويرشدا الأبناء إلى عدم سماعِ الرخيص من كلّ شيءٍ لئلا تفْسُدَ سليقتهم .

٥ـ ينمي الأبوان في الأبناء الهوايات المفيدة ، لينصرفوا عن التّلفزيون ، ومن الهوايات : المطالعةُ ، والمحاضراتُ الثّقافية ، والرحلاتُ الهادفةُ التّعليمية ، والقصصُ المفيدة ، وما شابه ذلك ، ويلفتان نظرَ الأبناء إلى أنَّ معظمَ المسلسلات وخصوصاً الغربية هي معاديةٌ للقيمِ والأخلاقِ ، وأكثرها هدَّام ، يفسدُ أخلاقَ الأبناءِ ، ولا تقدم إلا الشَّر[١] .

---

(١) عن كتاب : الإعلام والبيت المسلم بتصرف . سلسلة كتاب البيت الكويتية .

* وأستميحُ القارىء الكريم عذراً لهذا الاستطراد الذي أعتقدُ أنّه مفيدٌ ، وأعودُ إلى دور الأمّهات ومكانتهنّ في السِّيرة العطرة .

* إنّ الأمهاتِ النّاجحاتِ حريصاتٌ على أنْ يأخذن بكل الوسائل المفيدة لإنجاحِ الأبناء في حياتِهم العملية ، وتحبيبهم بالعبادات منذُ صغرهم ، والحرص على تنميةِ الجوانب الخلقية فيهم ، ويعملنَ على ضربِ الْمَثَلِ من أمّهات الصّحابة والأمّهات النّاجحات ، وبالتّالي يكنّ هنّ أنفسهنّ القدوةَ الصّالحةَ لأبنائهنَّ .

* إنَّ نجاحَ هذا الصَّرح المميز من الأمومةِ مرهونٌ بمدى مصداقيةِ الأمّهات بالقيام بهذهِ الرسالةِ ، وصبرهنّ على تربيةِ الأبناء من غير ضَجَرٍ ولا شكوى ، وبالتّالي فإنَّ هؤلاء الأمهات الفاضلات يكنّ مفتاحَ كلّ خير للأبناء .

* إنَّ الأمهاتِ المسلماتِ بعطائهنّ السّخي لأبنائهنّ ، يؤدِّينَ دوراً مهمّاً في توطيدِ أواصرِ المجتمع ، وتوطيد بنائه ، وبالتّالي ينجحُ الأبناءُ في حياتهم الاجتماعية والسّلوكية ويكونون لبناتٍ متينةً في صرحِ الأمّة ، كما يكونون بناةَ المستقبل في الغدِ القريب ، كل هذا تصنعُه الأمّهاتُ العاقلات في الأبناء كما سنرى ذلك في بعض سير أمّهات الصّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين .

أولاً : أمُّ أبي بكْر الصِّدِّيق رضي الله عنهما :

* أمُّ أبي بكر الصِّديق أمٌّ كريمةُ الخبرِ ، جليلةُ الأثر ، لها المقامُ الكريمُ في ظلالِ السّيرة النّبوية ، وفي السَّاعات الحرجة في مكةَ المكرمةِ .

* وأمّ أبي بكر اسمُها سلمى بنت صخر بن عامر ، زوج أبي قحافة التّيمي الذي فتحَ اللهُ عليه بالإسلام يومَ فتح مكة فكان من عداد السُّعداء من الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم .

* وتكنى سلمى بنت صخر بكنية أمّ الخير ، فهي في الحقيقةِ أمُّ الخير ، ومعدنُ الخير ، ويكفيها من الفَضْل يكفيها أنّها أمّ سيّدنا أبي بكر الصّديق الأكبر ، شيخ الصّحابة وأفضلهم وأعلاهم وأعلمهم وأشجعهم وثاني اثنين إذ

هما في الغار؛[1] وهي كذلك جدّةُ الصّديقة الماجدة عائشة فقيهة نساء الأمة المحمديّة ، وحبيبة الحبيب المصطفى رضي الله عنها وأرضاها .

* وأمُّ الخير أمٌّ خبيرةٌ بالأبناء ، لها في مقامِ الأمومةِ مكانٌ لائقٌ ، أسلمتْ في عداد السَّابقينَ في الدارِ الأرقميةِ الميمونة المباركةِ ، وبايعتِ النّبيَّ ﷺ على الإسلام ، فكانت من الأولين والأوليات .

* كانت أم الخير تحبُّ ابنها الصِّديق ، وتعرفُ مكانته في قريش ، بل في العرب ، فهو عالمٌ عَيْلمٌ[2] بالأنساب ، وهو صاحبُ رسولِ الله ﷺ ، وأولُ مَنْ آمنَ بدعوتهِ من الرّجال ، لم يسبقْه أحدٌ سوى أمّنا الطّاهرة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها ، وحشَرنا في معيّتها .

* وكانتِ السّيدة أمّ الخير تعرفُ جلالَ النّبيّ محمد ﷺ ومكانَته في قريش ، وأمانَته ، وحسبَه ونسبَه فهو من المقربين إليها ، وابنها الصّديق سائرٌ في ركابه منذ أنْ كان في عمْرِ الزّهر المندّى بأنفاسِ الصّباح .

* وعندما كان المسلمون في دارِ الأرقم كانوا قرابةَ أربعين رجلاً وامرأة ،

---

(١) كان أبو بكر رضي الله عنه قد تخلّق بخلقٍ ألطف من نسيمِ السَّحَر ، وطبْعٍ يتفتّقُ عن عبير الزّهر ، ولله درّ مَنْ نظمَ بمدحه هذه الأبيات فقال :

قـد أثبـتَ النَّـصُّ الصَّـريـحُ مَـدْحَـهُ ... بقـولـه عـز وجـلَ [إذ هُمَـا]
وكـمْ لَـهُ مـآثـرٌ خُـصَّ بهـا ... جـزَاهُ عنّـا اللهُ أفضـلَ الجـزَا
مفـاخـرٌ لا ينتهـي إحصـاؤُهـا ... ولا يطيـق حَصْـرُهَـا أهـلُ النُّهـى

(٢) «عَيْلَمٌ» : العَيْلَمُ: البَحْرُ ، والماء الذي عليه الأرض ، والبئر الكثيرةُ الماء ، والضّبعُ الذّكر. (القاموس المحيط ص ١٤٧٢) ، مادة : عَلِمَ.
ومن الجدير بالذّكر انَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد خصَّ سيدنا محمّداً ﷺ بأصحاب كرامٍ أخيارٍ أفضلهم أبو بكر الصّديق رضي الله عنه وقد أحْسَنَ صاحب «متن الشّيبانية» إذ قال :

ونشهـدُ أنَّ اللهَ خـصَّ رسـولـه ... بـأصحـابـهِ الأبـرارِ فضـلاً وأيّـدا
فهـمْ خيـرُ خلْـقِ اللهِ بعـد أنبيـائـهِ ... بهـم يقتـدي فـي الـدِّيـن كـلُّ مَـنِ اقتـدى
وأفضلُهـم بعـد النّبـيِّ محمّـدٍ ... أبـو بكـرٍ الصّـدّيـقُ ذو الفضْـلِ والنّـدى
لقـد صَـدَّقَ المُختـارَ فـي كـلِّ قـولـهِ ... وآمَـنَ قبْـلَ النّـاسِ حقّـاً ووحّـدا
وفـاداهُ يـومَ الغـارِ طـوعـاً بنفسِـهِ ... وواسَـاهُ بـالأمـوالِ حتَّـى تجـرّدا

(مجموع مهمّات المُتون ص ٣٧).

وأحبَّ أبو بكر أنْ يظهروا ، وأخبرَ بذلك النبي ﷺ ، وتفرَّق المسلون في نواحي المسجد الحرام ، وقام أبو بكر خطيباً ، فكان أوّل خطيبٍ دعا إلى الله عزَّ وجلَّ.

* سمع المشركون كلامَ أبي بكر ، فثارتْ ثائرتُهم ، وهبّوا دون وعي يضربونَه ويضربون المسلمين في نواحي المسجد ، واشتدَّ الضّربُ على أبي بكر ، حتى كان عُتبةُ بنُ ربيعة العبشمي يضربه بشدّة على وجهه حتى ورمَ وانتفخ.

* نُمي خبرُ هذا الاعتداء إلى بني تَيْم عشيرة الصّديق ، فأقبلوا على أبي بكر ، وأبعدوا عنه المجرمين ، وحملوهُ إلى بيته وهم لا يشكّون في موتهِ لِعِظَم ما نزلَ به منَ الضَّرب الأليم. وعادوا إلى المسجدِ الحرام ودخلوه وقالوا: «واللهِ إذا ماتَ أبو بكر لنقتلنَّ عتبةَ بنَ ربيعة شرّ قتْلَة».

* ورجعوا إلى بيتِ أبي بكر ، وأخذوا يكلّمونه ، وجعل أبوه أبو قحافة يكلّمه حتى أجابَهم آخر النّهار ، وكان أوّلُ ما تكلّمَ به قوله: «ما فعلَ رسولُ الله ﷺ»؟

* وهنا دهشَ بنو تيم ، فلاموه ، ثم قاموا وقالوا لأمّه أمّ الخير: «يا هذه ، كوني معه ، فأطعميهِ شيئاً ، أو اسقيه حتى ترتدَّ إليه نَفْسُه».

* وحينما انفضَّ التّيميّون عنِ أبي بكر ، وخلا الجوُّ لأُمّه ، ألحّتْ عليه أنْ يأكلَ أو يشربَ ، ولكنّه أبىٰ وأخذَ يقول: «ما فعل رسولُ اللهِ ﷺ»؟!

وأجابت أمّ الخير: «واللهِ يا بني ما لي علْمُ برسولِ اللهِ ﷺ».

فقال لها أبو بكر: «يا أماه ، اذهبي إلى فاطمةَ بنتِ الخطَّاب فاسأليها عن رسولِ الله ﷺ».

* وانطلقتْ أمُّ الخير حتى دخلت على فاطمةَ بنةِ الخطاب وأسرّتْ إليها قائلة: «يا فاطمةُ إنَّ ابني أبا بكر يسألكِ عن محمّد بنِ عبد الله ﷺ».

* ويظهرُ أنَّ السَّيدةَ الحصيفةَ فاطمة بنت الخطاب لم تطمئن لهذا الأمر ، وخافتْ من أمّ الخير ، وظنَّت أنَّها جاسوسةٌ للمشركين عليها وعلى النّبي ﷺ ،

وقالت لها: «يا أمّ الخير ، أنا لا أعرفُ ابنك أبا بكر ، ولا محمد بن عبد الله ، وإذا كنتِ تحبّين أنْ أنطلقَ معك إلى ابنكِ أبي بكر فعلْتُ»؟ ووافقت أمّ الخير ، ومَضَتْ فاطمةُ معها ، فوجدت أبا بكر مريضاً ، فقالت غاضبة: «يا أبا بكر؛ والله إنَّ قوماً نالوا منك هذا ، لأهل فسْقٍ وكفْرٍ ، وإنّي لأرجو أنْ ينتقمَ اللهُ لك منهم».

فقال أبو بكر لفاطمةَ بنتِ الخطاب: «ما فعل رسولُ اللهِ ﷺ»؟

فقالت فاطمة: «يا أبا بكر ، هذه أمّك تسمعُنا».

فقال: «يا هذه ، لا تخافي ولا شيء عليكِ منها».

فقالت فاطمة: «يا أبا بكر إنَّ رسولَ الله ﷺ سالمٌ صحيحٌ».

فقال أبو بكر: «وأين هو الآن»؟

قالت: «في دارِ الأرقم مع أصحابه».

قال: «إنَّ لله عليّ ألا أذوقَ طعاماً ، ولا أشربَ شراباً أو آتي رسول الله ﷺ».

* ولما خفَّتْ حركةُ النَّاس ، وهدأتِ الرِّجْلُ ، خرجَ أبو بكر يتكيء على أمّه وفاطمةَ ولا يقدرُ على حمْلِ نفسه ، ثم دخلوا على رسولِ الله ﷺ ، فانكبَّ عليه النّبيُ ﷺ وقبّله ، وكذلك فَعَلَ الصحابةُ الكرام.

* وفي هذه اللحظاتِ المباركات ، توجّه أبو بكر رضي الله عنه إلى الحبيبِ المصطفى ﷺ وقال له: «يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ وأمّي ليس بي إلا ما نال الفاسقُ عتبةُ من وجهي ، وهذه أمّي برّةٌ بولدها ، وأنتَ مباركٌ فادعها إلى اللهِ ، وادعُ اللهَ لها ، عسى أنْ يستنقذها بك من النّار».

* فدعا لها النّبي ﷺ ، ودعاهَا إلى اللهِ ، فانشرحَ صدرها ، وأسلمت[1].

* وسرّ أبو بكر الصّديق لإسلام أمّه البارة بولدها ، وعظمَ سروره يومَ أسلم والده ، حتى قال سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مناقب سيدنا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٩) بشيء من التصرف.

أبي بكر: «أسلمَ أبواه جميعاً، ولم يجتمعْ لأحدٍ من الصَّحابة المهاجرين أنْ أسلم أبواه غيره».

* وعاشتِ السّيدةُ أمّ الخير عيشة السُّعداء في ظلالِ الإسلام، وأدركتْ خلافةَ ابنها، وكانت بارّةً به طيلة خلافته إلى أن توفاهُ اللهُ.

* ولما مات أبو بكرٍ رضي الله عنه كانت أمُّه لا تزالُ على قيد الحياة وكذلك أبوه، فورثه كلاهما، وقيل: «لا يُعْرفُ خليفة ورثهُ أبواه إلا الصِّديق رضي الله تعالى عنه».

* ويظهر أنَّ السّيدةَ الخيرةَ أمّ الخير لم تعشْ بعد ابنها البار التّقي أبي بكر سوى شهورٍ معدودة، فقد ماتت في عامِ (١٣ هـ)، وكانت وفاتُها في المدينة المنورة على أصحّ الأقوال. فرضي الله عنها وأرضاها ورضي الله عن ابنها الصّدّيق وحشَرنا في معيتهِ إنَّه سميع مجيب.

ثانياً: أمُّ أبي هُريرةَ رضي الله عنهما:

* هذه الأمُّ النّجيبةُ حظيتْ بدعوةٍ مستجابةٍ من النبي ﷺ فقال: «اللهمّ اهدِ أمَّ أبي هريرة»، ذلك لأنّ هذه الأم لم تكن تدركُ بادىء الأمرِ رحمةَ الإسلام وسُموَّهُ وأُلْفَتَهُ، وكانت تنالُ أحياناً من الدّعوة المحمدية ما تنال، وترفضُ أنْ تنتظمَ في عدادِ المسلمات إلى أنْ هيّأ اللهُ لها ذلك، فآمنت وسعدت بالإسلام ورسول الإسلام محمّد ﷺ.

* وأمّ أبي هريرة مشهورة بكنيتها هذه، بيد أنَّ اسمها: أميمة بنت صُبيح بن الحارث، وهي والدةُ أحد نجباء الصَّحابة وأحفظهم للحديث النبوي، حتى إنَّ حفْظَه الخارقَ كان من معجزاتِ النّبوة وبركاتها، فقد بلغت مروياتُه (٥٣٧٤ حديثاً)، هذا الصّحابي الحافظُ أبو هريرة أشهر مشاهير حفّاظ دهرِه من الصَّحابة، بل هو أكثرهم حفظاً.

* أسلم أبو هُريرة سنة سبْعٍ من الهجرة، وصحَب النَّبيَّ ﷺ، فكانت

صحبةً مباركةً غدا خلالها من مشاهير الدنيا ، ومن علماء الصَّحابة[١] وأثباتهم .

* عندما أسلم سيّدنا أبو هريرة ، وعلمت أمّه بإسلامه ، أخذها ما قَرُبَ وبَعُدَ ، وعلى الرغم من محبّتها لابنها أبَتْ أن تسلمَ ، وكانت تسمعُه في رسولِ الله ﷺ ما يكره ، حتى شكا بثّه إلى طبيبِ المحبّين سيّدنا رسول الله ﷺ ، فدَعا لها ، فصَلحتْ وأسلمت. وقد ثبت هذا في الصَّحيح في فضائلِ أبي هريرة رضي الله عنه.

* أخرج مسلمٌ بسنده عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: «كنتُ أدعو أمّي إلى الإسلام وهي مشركةٌ ، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسولِ الله ﷺ ما أكره ، فأتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وأنا أبكي ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ ، إنّي كنتُ أدعو أمّي إلى الإسلام فتأبى عليَّ ، فدعوتُها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع اللهَ أنْ يهديَ أمّ أبي هريرة. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهم اهد أمّ أبي هريرة». فخرجتُ مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ ، فلما جئتُ فصرتُ إلى الباب ، فإذا هو مُجَافٌ ، فسمعتْ أمّي خشْفَ قدميَّ ، فقالت: مكانك يا أبا هريرة ، وسمعتُ خَضْخَضَةَ الماء ، فاغتسلتْ ، ولبستْ درعها ، وعجِلَتْ عن خمارها ، ففتحت البابَ ، ثم قالت: يا أبا هريرة؛ أشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله. فرجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ ، فأتيته وأنا أبكي من الفَرح ، قلتُ يا رسولَ اللهِ ، أبشرْ ، قد استجابَ اللهُ دعوتك وهدى أمّ أبي هريرة ، فحمد الله ، وأثنى عليه وقالَ خيراً.

قلتُ: يا رسولَ الله ، ادعُ الله أنْ يحبّبني أنا وأمّي إلى عباده المؤمنين ، ويحبّبهم إلينا.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهم حبّبْ عُبيدَك هذا وأمّه إلى عبادك المؤمنين ، وحبّبْ إليهم المؤمنين». فما خُلِقَ مؤمنٌ يسمعُ بي ولا يراني إلا أحبّني»[٢].

---

(١) اقرأ سيرة سيدنا أبي هريرة في موسوعتنا «علماء الصحابة» فسيرته عطاء في عطاء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩١) ، ومعنى قوله: «مجاف»: أي مغلق. ومعنى قوله: «خشف =

* حقاً إننا نحبُّ أبا هريرة وأمَّ أبي هريرة ، وهذا استجابة لدعاء النبي ﷺ ، ولله درّ القائل :

وإذا أحـــبَّ اللهُ يـــومــاً عبــده ألقـــى عليــه محبّـــةً للنَّـــاس

* وهكذا نعمت أمُّ أبي هريرة بالإسلام ، وكانت من المشهورات بالجود ، والبرّ بابنها ، وظلت هكذا إلى أن لقيتْ ربّها وهي راضية بنعيم الإسلام .

ثالثاً : أمُّ عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنهما :

* سِيَرُ أمّهاتِ الصّحابة سيرٌ كريمةٌ ، تُعَطِّرُ بها الأفواهُ والأسماع ، وتُرطِّبُ بها نفوسُ الأبناء ، لما فيها من مواقفَ تربويةٍ عظيمةٍ نافعة للأمّهات في كلّ العصور ، ولأنّ أمهات الصَّحابة هنّ القدوةُ الحسنةُ لمن بعدهنّ ، وهنّ الأحدوثةُ الطيبةُ التي يحسنُ تكرارها وإعادتها .

* وأمّ عبد الله بن مسعود الهذليّة واحدةٌ من هؤلاء الأمّهات اللواتي تركْنَ أنصعَ الآثار في دنيا الأمومةِ والتّربية والتّوجيه في حياة ابنها الغلامِ المُعَلَّم النّقي التّقي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعن أمّه .

* وأمّ عبد الله بن مسعود تدعى أمّ عبدٍ بنت عبد ودّ بن سُويّ الهذليّة من رعيل السَّابقات إلى الإسلام ، إذ كان إسلامُها قديماً في مكّة مع ثلة السَّابقين ، وهي أيضاً من المهاجراتِ الأُوَلِ اللواتي لهنّ الفضل في مضمار الهجرة ، فأكرمْ بها وبهجرتها ! .

* كانت السيدةُ أمّ عبد الله بن مسعود قد ربّت ابنها تربيةً صالحةً ، بحيث اشتهر بالأمانة العالية وبالعِلْم ، حتى قال له رسول الله ﷺ : «إنّكَ غلامٌ مُعَلّمٌ» .

* كان عبد الله من السَّابقين إلى الدّوحةِ الإسلاميةِ المُونقةِ المثمرة بالخيرات ، وصَفَه أئمةُ العلمْ بقولهم : «الإمامُ الحبرُ ، فقيهُ الأمة ، كان من السَّابقين الأوّلين ، ومن النُّجباء العالمين ، شهد بدراً ، وهاجر الهجرتَيْن ،

= قدمي» : أي : صوتها في الأرض . و«خضخضة الماء» : صوت تحريكه . وفي الحديث : استجابة دعاء رسول الله ﷺ على الفور بعينِ المسؤولِ ، وهو من أعلام نبوته ﷺ ، واستحباب حمد الله عند حصول النعم .

وكان لطيفاً فَطِناً ، معدوداً في أذكياءِ العلماء ، يُعْرفُ بابنِ أمّ عبد ، كنّاه النبي ﷺ بأبي عبد الرحمن ، وكان رجلاً صالحاً ، وهوأوّلُ مَنْ جَهَر بالقرآنِ في مكّةَ بعد رسولِ الله ﷺ ، وكان كثير الدّخول على النّبي ﷺ يُؤذن له ويشهدُ المجالسَ المحمدية ، بحيثُ ظنّه كثيرون من أهل البيتِ النّبوي الطّاهر»[١] .

* ومناقبُ ابن مسعود وأمُّه غزيرةٌ ، فهما ممن كانوا كثيري التّردد على البيتِ النّبوي ينهلان من بركاتهِ ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ، وعندما قدمَ الأشعريون من اليمنِ ، ودخلوا على النبي ﷺ ظنّوا أمّ عبد الله وابنَها من أهلِ البيت ، وعن هذا الأمرِ يروي سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه هذه الفضيلة لعبد الله بن مسعود وأمه فيقول: «قدمتُ أنا وأخي من اليمن ، فكُنّا حيناً وما نُرىٰ ابنَ مسعود وأمَّه إلا منْ أهلِ بيت رسول الله ﷺ من كثرةِ دخولهم ولزومهم له»[٢] ، وفي روايةٍ أخرى : «لكثرة دخولهم وخروجهم عليه» .

* وكان لأمّ عبد الله بن مسعود مكانةٌ كبرى عند الحبيبِ الأعظمِ ﷺ ، فكثيراً ما كان يذكرُها ويشيرُ إليها وإلى ابنها عبد الله بقوله : «تمسّكوا بعهدِ ابن أمّ عَبْد» وقوله : «رضيتُ لكم ما رضي لكم ابن أمّ عبد» ، وقوله مشيراً إلى حسنِ قراءة عبد الله للقرآن : «مَنْ أحبَّ أنْ يقرأ القرآنَ غضّاً كما أُنْزِلَ فليقرأ قراءة ابن أمّ عبد»[٣] .

* وكان عبدُ الله بن مسعود يبعث أمّه إلى بيت النّبي ﷺ لتشهدَ صلاة الوتر ، ومن ثم تروي له ذلك وتصفُ تلك الصّلاة ، وقد فعلت ذلك حقّاً فقالت : «رأيتُ رسولَ الله ﷺ قنَتَ في الوتْر قبل الرّكوع» .

* وذكر ابنُ عبد البرّ في «الاستيعاب» أنَّ سيّدنا عبد الله بن مسعود قال :

---

(١) هذه الأوصاف مستقاة من : سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦١ ـ ٥٠٠) ترجمة ابن مسعود.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٦٠) ، ومعنى قوله : «فكنا» : أي مكثنا ، وقوله : «حيناً» : أي زماناً ، والحين القطعة من الدهر طالت أم قصرت. وقوله : «ما نُرى» : أي : ما نظنُّ وقوله : «دخولهم» : جمعهما وهما اثنان ، لأن الاثنين يجوز جمعهما بالاتفاق ، لكنَّ الجمهور يقولون : أقلّ الجمع ثلاثة ، فجمع الاثنين مجاز. وقالت طائفة : أقلُّه اثنان فجمعهما حقيقة.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٨).

«أرسلتُ أمّي ليلةً لتبيتَ عند النّبي ﷺ، فتنظرَ كيف يُوتر، فباتَتْ عند النّبي ﷺ، فصلّى ما شاء اللهُ أنْ يصلي، حتى إذا كان آخر الليل، وأرادَ الوتْر قرأَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في الركعةِ الأولى، وقرأ في الثّانية: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ثم قعدَ، ثم قامَ، ولم يفصِل بينهما بالسَّلام، ثم قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ حتى إذا فرغ كبّر، ثم قنَتَ، فدعا بما شاء الله أنْ يدعوه، ثم كبّر وركَعَ».

* قال ابن الأثير عن أمّ عبد الله بن مسعود: «روت عن النّبي ﷺ أنّها رأته يقنتُ في الوتر قبل الركوع»[1].

* كان لأمّ عبد الله هذه منزلةٌ ساميةٌ عند كبار الصَّحابة، فهذا عمرُ رضي الله عنه يفرضُ لها وللمهاجرات الأُوَل ألفي درهم، ومن هؤلاء الأمّهات الفضليات: السّيدةُ صفيةُ أمّ الزبير، وأسماءُ بنتُ أبي بكر أم عبد الله بن الزّبير، وأسماءُ بنت عُميس أمّ عبد الله بن جعفر، وأم كلثوم بنت عقبة وغيرهنّ.

* وظلت أمّ عبد الله بن مسعود من فضليات أمّهات الصَّحابة الخيرات حتى لقيتْ ربّها في خلافةِ عمر رضي الله عنه أو بعدَها بقليل والله تعالى أعلم، فرضي الله عنها وعن ابنها وحشَرنا في معيتهم أجمعين.

رابعاً: أمُّ عمّارَ بن ياسِر رضي الله عنهما:

* نجحتْ هذه الأمُّ في أقسى امتحانٍ تصادفه أمُّ صحابي في العهد المكّي عندما كان الإسلامُ غضاً ندياً، واجتازتْ هذا الامتحان بفوزٍ ميمون جعلها أوّل الشُّهداء في هذا الرّكْبِ العظيم الذي يحلّ معززاً مكرّماً عند المليكِ المقتدر، يُرزق ويكرمُ ويعيشُ حياةَ الخلودِ والنَّعيم.

* هذه المرأةُ السَّابقة أمّ عمار بن ياسر واسمها سميةُ بنت خُبّاط، ومَنْ منّا لا يعرفُ الأسرةَ الياسريّةَ عمّاراً وأمَّه وأباه؟!

---

(١) أسد الغابة (٧/ ٣٥٢) طبعة دار الكتب العلمية.

* جاء عند ابنِ الأثير في «أسدِ الغَابةِ» أنَّها «كانت سَابعَ سبعةٍ في الإسلام ، وكانت ممن يُعَذَّبُ في الله أشدَّ العذاب».

* وجاء في «الاستيعاب» عن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «أول مَنْ أظهرَ الإسلام سبعة: رسولُ الله ﷺ ، وأبو بكر ، وبلال ، وخبّاب ، وصُهيب ، وعمار ، وسميّة أمّ عمار».

* إذن فأمُّ عمارَ من رعيلِ السَّابقات إلى الهدىٰ والنُّور في أمّ القرى مكّة ، ربَّت ابنها على الإخلاص ، ولما أسلما ضَربا أجمل الأمثلة في ميدان الصَّبر. فقد كانتِ السيدةُ أمّ عمار تُؤْخَذُ وتُطْرَحُ على الرّمالِ إذا حميتِ الشّمسُ وقت الظّهيرةِ ، ثم يُصَبُّ فوقَها العذابُ صبّاً ، فتصبرُ صبراً جميلاً يزلزلُ أقدامَ المشركين وقلوبهم وعقولهم ، وتكادُ قلوبُهم تنفطرُ من هذه المرأةِ التي أعجزتهم ، فلم تَلِنْ لها قناة ، ولم تتركِ التّوحيدَ وعبادةَ الله ، ولم تنبسْ ببنتِ شفَةَ في انتقاص الدّين الحنيف.

* كان سيّدُ الصّابرين سيدنا رسولِ الله ﷺ يمرُّ بأمّ عمار والأسرةِ العمّاريّةِ الياسريةِ الميمونةِ فيقول: «أبشروا آل عمار وآل ياسر ، فإنَّ موعدكم الجنَّة»[1].

* وعُرِفَ بنو مخزوم بزعامةِ لعينِ الكفْر أبي جهل بأنَّهم مغرمون بتعذيب هذه الأسرة المسلمة الثّابتة أمام عتوهم ، فكانوا يخرجُون بعمارَ وأمِّه وأبيه إذا اشتدَّ حرُّ الشّمْس في الظَّهائر ، ومن ثم يعذّبونهم في تلكَ الهاجرةِ الصَّعبة ، والكلُّ صابرٌ لا يفترُ عن ذكْرِ الله عزَّ وجلَّ ، فيمرُّ بهم النّبي ﷺ فيقول لهم مبشّراً ومثبّتاً: «صبراً آلَ ياسر موعدكم الجنّة».

* ضاقَ أبو جهلٍ لعنه الله ذرعاً بهذه الأمّ الصّابرة التي أذلتْه بكبريائها عليه ، واستعلت بالإيمان عليه وعلى الفجّار المجرمين ، فكان يعيّرها بالإسلام ، ويرميها بالفجور ، وهي عجوزٌ قد وهَنَ العظمُ منها ، واشتعلَ رأسُها شيباً ، بينما اشتعلَ فؤادُها حَماساً وثباتاً بنورِ الله عزّ وجلّ؛ ولم يستطعْ ذلك الخبيثُ

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرّجاه» ووافقه الذهبي.

الرعديدُ أنْ يؤثّر في عقيدتها ولا في ثباتِها وشموخها ، وكان ينالُ من النّبي ﷺ ويشتُمه ويشتُمها.

* وتظل أمّ عمار مرتبطةَ القلبِ بالعزيزِ الغفّار ، تستخفُّ بالبلاء وبأبي جَهْل وعصبة الشّرّ الكافرة ، فالحياةُ مع العزيزِ الغفّار ذات طعمٍ لا يعرفه إلاّ مَنْ عاشَ في أفيائهِ ، واغترفَ منه غرفةَ خيرٍ ترويه مدى الدَّهْر.

* وتفتّق ذهنُ النَّذلِ الخبيث أبي جَهْل عن ألوان دنيئة من العذابِ لهذه الأم الثّابتة الصّابرة حتى أعياهُ الأمْرُ ويئسَ من كلّ المحاولات ، فاستلَّ حربةً وطعنَها في قبُلها ، فأسلمت روحها راضيةً مرضيةً لتكْتَب مع الشّهداء الصَّابرين ، أمّا اللعين أبو جهل فقُتل في بدرٍ ، وقال الرسولُ الكريم ﷺ لابنها عمار: «قتَلَ اللهُ قاتل أمِّك» واستبشر المسلون جميعاً بمقتلِ فرعون الأمة أبي جهل بن هشام الذي قضى حياته وهو يعادي الإسلام ورسولَ الإسلام فباءَ بالخسران ، وكان من أهل النّار وبئسَ القرار ، ولم ينفَعْه شيءٌ ، بل مات وانقبرَ وهو يتعجّبُ من إسلامِ المؤمنين والمؤمنات وثباتهم ويقولُ: «ألا تعجبون إلىٰ هؤلاء وأتباعِهم ، لو كان ما أتى محمدٌ خيراً وحقاً ، ما سبقونا إليه ، أفتسبقنا سميةُ وزنّيرةُ إلى رشْدِ»؟!

* وظل اللعينُ أبو جهل خائباً نتيجة حسدهِ لنبيِ الإسلام ، وخسر كلّ شيء ، قال سيدنا حسَّان بن ثابت في هجائه:

سمّاه معشره أبا حكمٍ ... واللهُ سمّاه أبا جَهْلِ
أبقَتْ رياستهُ لمعشرهِ ... غضَبَ الإلهِ وذلّة الأصلِ
أفما يجيءُ الدهر معتمراً ... إلا ومرجل جَهْله يغلي
وكأنّه مما يجيشُ به ... يبدي الفجورَ وسَوْرَةَ الجهلِ[1]

* أما أمّ عمار فقد بقيتْ مع الخالداتِ ، ونالتِ الدّعاء النّبوي مع أسرتها ،

---

(١) ديوان حسان بن ثابت (ص ١٠٦) ومعنى: «معتمراً»: زائراً ، و«المرجل»: القدر ، ويقال جاشت مراجله: أي اشتد غضبه ، و«السورة»: الحدة والهياج.

فقد قال ﷺ: «اللهم اغفرْ لآلِ ياسر وقد فعلت» قال: «اللهم لا تعذبْ أحداً من آل ياسرِ بالنّار».

* وفي رحلة أمّهات الصّحابة نظل نتذكّر أوّلَ شهيدةٍ في الإسلام، ونظلّ نترضّى عنها وعن كلّ الصّحابيات اللواتي بلغْنَ السُّها في إيمانهنّ وصبرهن، فرضي الله عنهن جميعاً وعفَا عنّا بمعيّةِ هؤلاء الأمّهات.

خامساً: أمُّ أنس بنِ مالك رضي الله عنهما:

* إذا ذكرت أمّهاتُ الصَّحابة من الأنصار تأتي السّيدةُ أم أنس بن مالك في الصَّفْحة الأولى بينهنَّ، فهي من أشْهَرِ نساء الأنصار الفُضْليات اللواتي تركْنَ أنْصَعَ الآثارِ وأبركها في تاريخ الأمّهات العاقلات الحصيفات.

* وأمّ أنس هذه معروفة بكنيتها أمّ سُليم بنت مِلْحان الأنصارية النّجارية، ولقبها: الغُميصاء، وقيل الرُّميصاء، أمّا اسمُها فجاء على أربعةِ أقوال؛ فقيل: سَهْلة، أو رُمَيلة، أو أنيفة، أو رميثة[1].

* وكلّ هذا لا يهمّنا ما دامتْ هذه السيدةُ أمّ أنس بن مالك الخادم النّبوي الأمين الحصيف، فقد ربَّت أمّ أنس ابنها على شهادةِ التّوحيد، حتى غدا فتى يافعاً.

* ولما قدم النّبي ﷺ المدينة مهاجراً كان أنس ابن عشرة أعوام، فجاءت به أمّه إلى النّبي ﷺ وقالت له: «يا رسولَ اللهِ، هذا ابني أنس يخدمُك».

* فقبِلَه النبيُ ﷺ، وكنّاه أبا حمزة، ومن ثمّ دعا له بكثرة المالِ والولد، وبالبركةِ في الرّزق، فكان ذلك، وكان ﷺ يداعبُه ويقول له: «يا ذا الأذنين»[2]. وغدا أنس ببركةِ دعاء النبي من كبارِ الصَّحابة فكان كما قال الذّهبي عنه: «الإمامُ، المفتي، المقرئُ، المحدّثُ، راويةُ الإسلام، خادمُ رسول الله ﷺ، روى عنه علْماً جمّاً، وكان أنسُ يقول: قدم رسولُ اللهِ ﷺ المدينة وأنا ابنُ عشر، ومات وأنا ابن عشرين، وكُنّ أمّهاتي يحثثْنني على

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٣١).

خدمةِ رسولِ الله ﷺ ، فصَحِب أنسٌ نبِيّه ﷺ أتمّ الصُّحبة ، ولازمه أكْمل الملازمةِ منذ هاجر ، وإلى أنْ مات ، وغزا معه غير مرّة ، وبايع تحت الشّجرة»[1].

* كان نساءُ الأنصار المسلمات حصيفاتٍ بعامة ، وكنّ يهدينَ النبي ﷺ ، ولكنّ السيدةَ أمّ أنس كانت من أكثرهنّ حصافةً ، فقد لَمسَتْ نباهةَ ابنها أنس وذكاءه ، وهنا فكّرت في فكرةٍ وقّادةٍ عادت عليها وعليه بخيرِ الدّنيا والآخرة ، لقد قررت أنْ تقدّمهُ هديةً للحبيبِ المصطفى ﷺ ، فأخذت بيده ، ثم انطلقتْ به إلى رسولِ الله ﷺ وقالت له : «يا رسولَ اللهِ ، إنّه لم يبقَ في المدينةِ رجلٌ ولا امرأةٌ من الأنصار إلا وقد أتْحفَكَ بتحفةٍ ، وإنّي لا أقدرُ على ما أتحفك به إلاّ ابني هذا ، فخذْهُ ، فليخدمكَ ما بدا لك» فأخذهُ النّبيّ ﷺ فخدمه عشْر سنين ، فلم يضربْهُ ، ولم يعبسْ في وجههِ ، وكان خيرَ صاحبٍ ورفيقٍ وشفيقٍ.

* حقاً إنّ هذا لموقفٌ عظيم ، مَنْ مِنَ الأمّهاتِ تدفعُ بمهجتها وتهدي ابنها؟! إنّها لأمٌّ تستحقّ الإكبار والتّكريم.

* لم يكن هذا الموقفُ الوحيدُ الذي تألّقَتْ فيه أمّ أنس رضي الله عنها ، وإنما كان لها موقفٌ آسرٌ ساحرٌ في إسلام أحد كبراء الصَّحابة وكرمائهم وأجوادهم ، فقد مات زوجُها مالكُ بنُ النَّضْر كافراً ، وبعد حين خطبَها الفارسُ المفضالُ أبو طلحة الأنصاري سهل بنُ الأسود النّجاري ، وكان لا يزال على الشّرك ، فقالت له قولتها المشهورة : «يا أبا طلحةَ ، لا ينبغي لي أنْ أتزوَّجَ مشركاً ، أما تعلمُ يا هذا أنَّ آلهتكم ينحتها عبد آل فلان ، ولو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت ، هل تنفعك هذه الآلهةُ أو تضرّك»؟!

* وأخذت كلماتُ هذه الأمّ الحصيفة تحركُ وجدان أبي طلحة ، وتدغدغُ عقْلَه ، فاستفاقَ من غفلةِ الجاهليةِ ، وهفا قلبُهُ إلى الإسلام ، فجاء أمَّ أنسٍ وغرةُ الإسلامِ تلوحُ بين عينيه ، وحبّ الإيمان يلمعُ في جبينهِ ، وقال لها : «يا أمَّ أنس ، لقد وقعَ في قلبي الكلامُ الذي قلتِ لي بالأمْس» ثمّ إنَّه قال :

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧) بتصرف.

«أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله ، وأشهد أنَّ محمداً عبدُ الله ورسوله» .

* وسرّت أمُّ أنس بإسلامِ أبي طلحة ووافقَتْ على زواجهِ وقالت له: «يا أبا طلحة باركَ اللهُ فيك ، إنّي أتزوجك الآن ، ولا أريدُ صَدَاقاً منك غير الإسلام» حقّاً ما أكرمَ هذا المَهْرَ الفريدَ الميمون: الإسلام!.

* وكان لهذه الأمّ عدة أولادٍ من أبي طَلْحَةَ ومنهم ابنها عبدُ الله الذي حنّكهُ النَّبيُّ ﷺ لما وُلدَ وسمّاه عبد الله ودعا له ، فكان أفضل ناشىءٍ في فتيانِ الأنصار ، وله ذرية صُلحاء أتقياء كلّهم قد ختمَ القرآن ، كل هذا بتوجيه هذه الأمّ الحصيفةِ الحَصَانِ الكريمةِ التي ضربت أروعَ الأمثلةِ في التّربية والتّوجيه للأبناء.

* وفي ميادين الجهاد كان لأمّ سليم أمّ أنس مواقفُ مشهورة ، وكان معها ابنُها أنس ، فقد كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يغزو بأمّ سُليم ونسوةٍ معها من الأنصار ، فكُنّ يسقينَ الماء للمجاهدين ، ويداوين الجرحى ، ويصنَعْنَ الطَّعام.

* وكانت السيدةُ الحصيفةُ في غزاةِ أحد بمعيّة أم المؤمنين عائشة تسقيان الماء ، وكان أنس ابنها يرقبُ ذلك ، وشهدت كذلك غزوة خيبر وحُنين ، ولم تترك مكاناً فيه من الخيرِ إلا كان لها نصيب بذلك ، حتى إنّها حظيت بالبشارةِ النبويةِ بأنّها من أهلِ الجنّة ، حيث قال ﷺ: «دخلتُ الجنَّةَ فسمعتُ خشْفَةً ، فقلت: مَنْ هذا؟
قالوا: هذه الغُميصاءُ بنتُ ملْحان ، أمّ أنس بن مالك»[1].

* وهكذا كانت هذه الأمّ من عاقلاتِ النّساء وكريماتهنَّ ، ومن فاضلاتِ الصَّحابيات ، والأمّهات المؤمنات اللواتي يفخرُ تاريخنا الوضيء بهنَّ ، فرضي الله عنها وأرضَاها.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٥٦) ، ومعنى «خشفة» بسكون الشّين وفتحها: حركة المشي وصوته. و«الغميصاء»: هي أم سليم أم أنس بن مالك ، وهذه منقبة ظاهرة لأم سليم رضي الله عنها.

الفصل السَّادس

أدبيّاتٌ هامسة إلى الأمّهات

* ما أجملَ كلمة أمٍّ ، وما أَحلاها في دُنيا الحبِّ والعطفِ والخيرِ والإيثار والمودّةِ ، آهٍ أيُّها الأبناء الأحبّاءُ لو تعلمونَ ما تُخفيهِ قلوبُ أمّهاتِكم لكم ، وعندها تَفْدونَهنَّ بالأرواحِ وبالغالي والنَّفيس.

* فالأمُّ أحبَّائي همسٌ ساحرٌ ، ونَغَمٌ آسرٌ ، ودفءٌ عَطِرٌ ، وأمنٌ وخيرٌ ووفاءٌ ورجاءٌ ونعمةٌ ورحمةٌ.

* الأمُّ يَنبُوع الحنَان ، ونبعُ الشَّفقة ، ومعينُ الحبِّ ، وحبُّ الفضيلة ، وإكسيرُ الحياة ، وريحانُ الطُّفولة وروحُها.

* ولا نبالغُ إذ نقول: «إنَّ الأُمَّ جماعُ البِرِّ ، ومعقدُ الرّحمةِ ، ومهوى الجمال والجَلال ، وأمل الرّضا ، ورضا الأمل ، ومناطُ المودّة ، وذِرْوَةُ العطاء ، وهمسُ الإيثار ، ورمزُ الوفاء ، ونبراسُ الرّجاء ، وعنوانُ التّضحية ، وشعار السَّلام ، ورايةُ الفضائل ، ومعدنُ المكارم».

* ومَنْ منّا لا يشعرُ ـ وهو يتحّدثُ عن الأمّ والأمومة ـ بالمودّة والفداء ، ويشعرُ بأنداءِ الأحلام الطُّفوليّة المُزهرة تعانقُ روحَه ، وتلامسُ إحساسَه؟! ومنْ منّا لا يعرفُ أنَّ رضاءَ الأمّ وبرّها يدخلُ الإنسانَ جنَّةَ نعيم ، فيها من كلّ نعيمٍ مقيم؟!.

* الأمُّ، البنوة، الحنان، الأمومةُ ، معانٍ تَنْبَجسُ عن معاني الدُّرّ ، ومغَاني

العَطف ، معانٍ مزدحمة بالأحلام والصُور ، مزدانةٌ بالأشواقِ واللهفة ، الأمُّ . . كلمةٌ منسوجةٌ من ذوبِ الرّوح ، ومن نبعِ الأغاريد ، وماءِ العيون ، وسلام الأحباب :

سَلامٌ عَلَى أُمّي عَلى البِرّ كُلّهِ عَلىٰ رحَمَاتٍ ما حَيِيتُ هَوَامِ
سَلامٌ وإجْلالٌ لأوّلِ قُبْلَةٍ وأَشْرفِ حُبٍّ بلْ أبرِّ غَرَامِ
وأَوّل نَبْعٍ في الحياةِ وردْتُهُ غَذَاني بمَا درّتْ وبلَّ أُوَامي
سَلامٌ على أُمّي علىٰ الخيرِ إنّها معينُ حَنَانٍ دائمٍ بِسَلامِ

* ما أعظمَ الأمّ! وما أجمل أنْ نقرأَ ما قاله الماورديّ عن مكانةِ الأمّهاتِ وفضْلِهنّ: «الأمّهاتُ أكثرُ إشفاقاً ، وأوفرُ حُبّاً ، لما باشرنَ منَ الولادةِ ، وعانَيْنَ منَ التَّربيةِ ، فإنهنَّ أرقُّ قُلوباً ، وألينُ نفوساً ، وبحسَبِ ذلك ، وجبَ أنْ يكونَ التَّعطُّفُ منَ الأبناءِ عليهنّ أوْفَرَ ، جزاءً لِفِعْلِهِنَّ ، وكفاءً لحقِّهنَّ ، وإن كان الله تعالى قد جمع بين الآباء والأمهات في البِرّ ، وجمعَ بينهما في الوصيّة ، فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : ٨]»[1].

* وفي هذا الفصلِ الجميلِ المُفْعَم بالأمومةِ ، بالأمنياتِ الحُلوة ، نلتقطُ نثْرَ الدُّرّ الذي تسابقَ الأدباءُ إلىٰ الإبداع من خلالهِ ، فتحدّثُوا عن الأُمّ والأمومةِ ، وقالوا أحلىٰ الكلام ، ونحنُ في هٰذا الفصل مرسلُو القول فيما قيلَ عن الأمّ والأُمّهات مدحاً ورثاءً ، ووفاءً وعرفانَ جميلٍ ، وهَمَسات من مَصْدُورين منَ الذين لجؤوا إلى قلوبِ أمّهاتهم يبثونَهنَّ شجونهم ولحنَ حياتهم . .

* في قلوبِ المُحبّين تستفيقُ همساتُ الأمنيات ، ومنْ أفواهِ البارّين تزدهي ترانيمُهم بمدحِ الأمّهات ، ومنِ شواطىءِ الأحلام يبحرُ المخلصُون في بحارِ الطَّاعة؛ أليستِ الأمّهاتُ براعمَ الحنانِ ، وزَهْر الوئام ، وورْدَ الحنين؟! حسَناً فمع الأمّ وإليها نُهدي كُلَّ الحبّ :

إلىٰ الأُمّ نهْدي نَديَّ السِّيَر وَلِلأمّ نَنْشُرُ خَيْرَ السِّيَر

(١) انظر : أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٢٤٣) بتصرّف يسير طبعة دار ابن كثير ١٩٩٥ م .

فكَمْ ضمَّنَا صَدْرُهَا في الصِّغَر وكَمْ حاطَنَا ظِلُّها في الكِبَر
دعاؤُك يا أمُّ حِصْنٌ حَصين لقاؤُك يا أمُّ فَتْحٌ مُبين
وأنتِ الحنَان وأنْتِ الحنين وأنتِ السَّعَادة للعَالَمين
هي الأمُّ مشْرقُ آمالِنا هي الأمُّ مغربُ آلامِنا
هي الأمُّ مصْدَرُ إلهامِنا هي الأمُّ شُعْلَةُ إيمانِنا
حفظْنَا الودَادَ رَعَيْنَا العُهود لِمَنْ علَّمتْنَا العُلا والصُّعُود
ومهْمَا عَلا قَدْرُنا في الوجُود فَيا أمُّ أنْتِ سَبيلُ الخُلُود[1]

* وقد تبارتْ بناتُ حوّاء في عَصْرنا بنسجِ القصائد والأشعار والهمَسات الدّافئة للأمّ ، واهتَمْمنَ بالأهازيج التي تناسبُ الناشئة ، فغدونَ ينظمْنَ ما رقَّ لهنَّ وراقَ حولَ الأمّ ، ومن بين كثيراتٍ ممن غنَّيْنَ للأبناءِ بِشِعْرهنَّ هذه الأنشودة الرّائيّة الخفيفة لميسون قصّاص حيثُ تقول :

أُمّي حَديثي والصُّور أُمّي ضيَائي والقَمَر
يَسُرُّني منْكِ النَّظَر يَشُوقُني منْكِ الخَبَر
فأَنْتِ ظِلّي والشَّجَر وأَنتِ مَائي والشَّجَر
وأَنتِ في عَيني البَصَر وأَنتِ في شِعْري الفِكَر
يَا مَنْ بِبرّهَا أَمَر ربّي وحَقٌّ ما أَمَر
مَن حبُّه قَلبي أَسَر فَصَار طَوْع ما أَمَر
أُمّاهُ يا أغْلَى البَشَر أُمّاه يا أَحْلَى قَدَر
تاهَتْ حُروفي والصُّور عن شُكْرِ قَلْب كَم صَبَر[2]

* وعن طبيعةِ الأمومةِ ، وقيمةِ الأمّ ومكانتها ، تتحدّث الشّاعرة العُمَانيةُ

---

(١) مجلة المنهل (ص ١٦٨) عدد شهر رجب (١٤٠٧ هـ) آذار (١٩٨٧ م) والأبيات بقلم: بنت الجزيرة.
(٢) سِلْسلةُ (تعالوا نشدو وندعو) (ص ٦) أحبابي إعداد وأشعار ميسون قصاص. دار رؤى دمشق.

«سُعَيدةُ بنتُ خاطر بنِ حَسن الفارسيّ»[١] وترسمُ في قصيدة مُوحية جميلةٍ بعنوان «أُمومة» فضائل كلّ أمّ فتقول:

إذا ما تكوّرتَ في داخلي ... وأثقلتَ جسْماً خفيفاً خَلي
وصِرتَ تلمْلمُ رُوحَ الحياةِ ... فلمْ يبقَ شيءٌ سوى الآهِ لي
عرفتُ بأنّي نديمُ السُّهاد ... وليلي طويلٌ لن ينجلي
وبتُّ أقلّبُ فكْرَ التمنّي ... سأحْظىٰ بلَيلىٰ تُرى أو عَلي...؟!
ولمّا توالتْ شُهوري الطّوال ... وقاربتُ هَولاً بهِ مأملي
ذبلْتُ ذبولَ غُصُونِ الخَريف ... ومَنْ تكُ مثلي ولمْ تذْبل؟!
وقد رَوادتْني شتى الظّنون ... بِعَاقّ سأُرزقُ أمْ بِوَلي؟!
إلهي أبثني طيبَ الأُصول ... وأكرمْني في بِكْري الأوّل

* * *

وحينَ تزمجرُ ريحُ المخَاض ... تُلاطمُ أمواجُها مركبي
شعرتُ بنوباتِ شبه الجُنون ... وموجاتِ صخْبٍ إلى الأصخَب
تقطّع ما بينَ هذا الوجُود ... وبيني فلمْ أدرِ ما مذهبي
كأنّي من القَهْرِ بين الرّحى ... تدكُّ عِظَامي بلا مُوجب
استجرتُ بلطفِك يا مَنْ علىٰ ... ضفافِكَ ألقيتُ ما حَلَّ بي
فيدوي الصُّراخ كحلْمٍ أتىٰ ... منَ الغيبِ يختالُ في موكبِ
وتنسلُ منّي جذورُ العروق ... جنيناً دعانيَ مِنْ مغربي
وكنت مودّعةً للحَياةِ ... ومبحرةً في دُجىٰ قاربي

* * *

هناك تذكّرتُ بينَ المَلا ... حنانَك أُمّي وعطفَ أبي

---

(١) سعيدةُ بنتُ خاطر بن حسن الفارسيّ العُمانية ، وُلدتْ سُعيدةُ سنة (١٩٥٦ م) في ولاية صور في سلطنة عُمان ، وتعلمت في مدارسِ الكويت ، وحصلَتْ على ليسانس اللغة العربية من جامعةِ الكويت. اطّلعتْ على عددٍ من دواوين شعراءَ معاصرين منهم الشّاعر اليمني «البَرَدّوني» وغيره؛ تتحدّث أشعارُ سُعيدة عن اختلاجات النّفس البشريّة ، وتَعتبرُ الشّعرَ من الفنونِ الجميلةِ ، ويستلزمُ الشّعر عندها الموهبة والثّقافة؛ ولسُعيدة قصائدُ منشورة في الصُّحفِ والمجلاّت ، وديوان شعر وبعض الدّراسات والمقالات الأدبية.

وطـافـت مـلائـكُ ربٍّ غفـور ... تـرددُ قـولـكِ لـي جـرّبـي
علمـتُ يقينـاً بـأنَّ الإلـه ... يعيـدُ دروسـاً ولـم تكتـبِ
وأنّـكِ أمّـاه خيـر الـورى ... وأنّ الجنـان لـكِ فـاطْـربـي
وأنَّنـي مهمـا تـرامـىٰ الـزّمـان ... معينـكِ بـاقٍ ولـم ينضـب
وأنّنـي مهمـا بـذلـتُ النّفيـس ... أرانـي أقصّـرُ فـي واجبـي
وأيقَظنـي مـنْ سبـاتٍ عميـق ... مـلاكٌ يغـرّدُ فـي جـانبـي
بحضْـنِ الأُمـومـةِ يحلـو لـه ... مَـلاذاً وحِصنـاً بـه يختبـي
نظـرتُ إليـه كمَـنْ راقـه ... هـلالٌ يشكّـل وجْـهَ الصّبـي
حملتُكَ وهنـاً علـى الوهـنِ كرهـاً ... ألا افْهَـمْ بُنَـيَّ ولا تعجـبِ
إذا مَـا سقيتُـك مـاءَ العُيـون ... ويَنْبـوع روحـي ومـا أجتبـي
فكُـنْ لـي معينـاً إذا مـا الـزّمـان ... رمـانـي بهـمٍّ علـىٰ منكبـي
فمثلـكَ حلْمـي وحلـمُ الليـالـي ... شعـاعُ الثّـريـا مـن الكـوكـب
وكـلُّ فتـاةٍ تـزورُ الأمـانـي ... وتحلُـمُ مـا فـي حشَـاهـا نَبـي[1]

* والأنفاسُ النسائيّةُ أنفاسٌ نديّةٌ في الكتابةِ عن الأُمّ ، وعن دورِ الأمّ وإبائِها ، فهذه لوحةٌ جميلةٌ ترسُمُها «عفيفةُ الحصْني» عن إباءِ الأمّ وعزيمتِها ، وإقدامِها ومدرستِها فتقول:

الأمُ تبـرأُ مـن أولادِهـا خجـلاً
إنْ لـم يضحُّـوا بـأرواحٍ لمغنـاهـا
لا تنحنـي لعـدوٍّ الـدارِ هـامتُهـا
لـو تُـوِّج الـرّأسُ بـالمـاسـاتِ تـأبـاهـا
فهـل عَلمـتَ بـأسمـاءِ منـاضلـة
لـم يَثنِهـا زخـرفٌ يُغـري بـدنيـاهـا
شبّـت علـى خلُـقٍ وشّـاهُ منهلُهـا
تُـروي الـرّيـاضَ بـه أكـرمْ بـريّـاهـا!

---

(١) انظر: أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي (٢/ ٣٥٦ و٣٥٧) لـ ليلى محمد صالح ، دار السّلاسل ـ الكويت ط١ ١٩٨٧ م.

شعارُها المجدُ لا ترضى به بدلاً
يزينُ مَفرقَها جلّتْ مزَاياها
حتى إذا وهنتْ وابيضَّ ناظرُها
وجاءها الابنُ قبل القَتْلِ يلقاها
قالتْ له: لا تهُنْ واثبتْ على مَثَلٍ
مُستشهداً خالداً لا ترسلِ الآها

* * *

إنَّ العروبةَ بالأبطالِ حافلةٌ
والأمٌّ مدرسةٌ تَهدي رعاياها
بالأمسِ جادتْ «خُنَاسٌ» في مبادئها
بخيرِ ما ملكتْ أمٌّ بيُمناها
أوصتْ بنيها جميعاً أنْ تلاقيهم
في جنّةِ الخلْدِ ضمّتهم حناياها
حتى إذا جاءها نعيٌ بحتفهمُ
لم تذرفِ الدّمعَ هتّاناً لبلواها
وسبّحتْ تشكرُ الرَّحمنَ بارئهم
أنْ شرَّفَ الأمّ حتفٌ ينصرُ الله
واليوم تزهو بأبطال تخلّدهم
أمٌّ تضحّي فما أسمىٰ سجاياها
يمضون للثأرِ والإيمانُ منهلُهم
وزادُهم في حنايا الصّدرِ نجواها
وقولُها وهْي تُوصيهم مودّعة
وثغرُها باسمٌ يُبدي ثنايا ها
سنبذِلُ الروحَ في إنقاذ موطننا
لا نَسأل الأجرَ عن روح بذلناها[1]

---

(١) ديوان عازفة القيثار (ص ٨٠ و٨١) لعفيفة الحصني؛ المطبعة التّعاونية بدمشق.

* أمّا طيفُ الأُم فَلَهُ موسيقى معبّرةٌ تُداعبُ الوجدان ، وقد حلّقَتْ شاعرةُ الفيحاء عفيفةُ الحصْني في هذا المجال ، ورسمَتِ الأمومةَ الحقّة والجميلةَ في أنفاسٍ نسويةٍ رقيقةٍ مستقاة من المدرسة «النّزارية» ، ولكنَّ لمساتِ الأنثى لا تخفىٰ على القارىءِ في هذه القصيدة وعنوانها : «طيفُ الأُمّ» :

نجـــمٌ تهـــاديٰ بليـــلٍ جـــلَّ مَســـراه
فـــأكبـــر الطّـــرفُ فـــي الآفـــاق مَعنـــاهُ
رأى بـــه طيـــفَ أُمّـــي لاحَ مبتسمـــاً
فبـــاتَ يـــرنُـــو إلـــى زاهـــي محيّـــاه
وصفّـــقَ القلـــبُ مـــأخـــوذاً بطلعتِـــه
وبثّـــه لـــوعـــةً مـــن جَـــورِ دنيـــاه
يـــا قلـــبُ مـــالَـــك حَيـــرانـــاً تـــؤرِّقنـــي
ألـــم تعِـــذْنـــي بـــأمـــرٍ عـــزَّ مـــرمـــاه؟!
أمَـــا عـــزمـــتَ علـــى سلـــوان نـــازلـــةٍ
قـــد أدمـــتِ الطـــرفَ حتـــى ذابَ جفنـــاه
جعلْتَنـــي أتحـــاشـــى النّـــاسَ كـــاسفـــةً
أضيـــقُ ذرعـــاً بمَـــن فـــي الأرض ألقـــاه
أبغـــي سبيـــلاً إلـــى ظـــلٍّ ألـــوذُ بـــهِ
لأذرفَ الـــدّمـــعَ حُـــراً فـــي زوايـــاه
لقـــد صهـــرتُ بـــأحـــزانـــي فلســـتُ أرىٰ
ســـوى خيـــالٍ لأمـــي لســـت أنســـاه
أراهُ فـــي السّهـــل والآفـــاقِ مبتهـــلاً
فيخفـــقُ القلـــبُ مفتـــونـــاً بتقـــواه
أراهُ فـــي خضـــرةِ الأشجـــارِ مبتسمـــاً
يـــزهـــو بـــأيكتـــهِ والبشـــرُ يهـــواه
أراهُ فـــي الـــرّوضِ والأزهـــارُ مشـــرقـــةٌ
تختـــالُ حُسنـــاً إذا كـــانـــت بيمنـــاه

أراهُ فوقَ ضبابِ الجو معتكفاً
بين السّحائبِ لا تبدو خفاياه
كأنّه مَلَك أعيا الورى أملاً
أن يُدركوا كُنْهَ أسرارٍ تَغَشّاه
أراه في الشّاطىء الوردي متّشحاً
بمسجدٍ من أصيل الشمس وشّاه
أراه في هدأةِ الصّحراءِ متْكئاً
يؤانسُ الرّملَ في ظَلماءِ منفاه
أراه في كلِّ حين لا يفارقني
بسّامَ ثغرٍ فتهديني ثناياه
كان الأمانَ لقلبي إنْ أحاطَ به
رعودُ عاصفةٍ هبَّت بدنياه
كان الدّواءَ إذا ما شفّني ألمٌ
يساهرُ الليلَ في ترتيلِ نجواه
كان الملاذَ لنفسي إنْ ألمَّ بها
لهيبُ كَارثةٍ تَصْلَى شظاياه
كان العذوبةَ يُرويني بكوثره
فاجعلْ إلهي نعيمَ الخلْدِ مثواه[1]

* * *

* ومع رمزِ الحنان وهذه الهمسَات الدّافئات الحانيات عن الأمّ:

أَنْتِ رَمْزٌ لِلْحنانِ   أَنْتِ لَحْنٌ في لِساني
أَنْتِ حُبٌّ في جَناني   لَسْتُ أُحْصِي فَضْلَ أُمِّي

* * *

كُلُّ يَومٍ منْكِ عيدُ   مُشْرقٌ فينا سعيدُ

---

(١) عازفة القيثار (ص ٨٦ ـ ٨٨).

ضَــاحِــكٌ حُلْــوٌ جَــديــدُ نُـــورُهُ فـــي وَجْـــهِ أُمِّـــي

* * *

كُـــلّ مَجْـــدٍ أَبْتَغيـــهِ كُـــلُّ خَيْـــرٍ أجْتَنيـــهِ

كُـــلُّ فَـــوْزٍ أرْتَجيـــهِ كُلُّـــهُ مِـــنْ فَضْـــلِ أُمِّـــي

* تلك همسات نسوية إلى الأمهات ، فما دور الرّجال؟!

* لقد حلّقَ الرّجالُ عالياً في الحديثِ عن الأم بجميعِ أحوالِها ، مِنْ مناجاةِ وحبٍّ وعطْفٍ وكلّ همَسَات الفَضْل وأنداءِ الفضيلة .

* ومنَ الأنسامِ العَطِراتِ الدّافئةِ التي تداعبُ الوجدانَ ، هذه المنَاجاةُ الرّقيقةُ للأمِّ والأمومةِ والبنوة في آنٍ واحد ، فهي تشدُّ قلوبَ الأبناءِ إلى مَنْهَلِ العَطْف والحنانِ ، قلْبِ الأُمّ الذي يُحيي أفئدةَ النشء ويرعاهَا عن قربٍ وفي بُعْدٍ ، قلْب الأمّ الذي يبسطُ الودَّ والحبَّ للأطفالِ في الغُدو والآصال ، في الأسحارِ وفي المسَاء؛ ومع هذه الهمْسَة اللطيفة بعنوان «دوماً أُناجيك» للشّاعر «محمد أمين أبو بكر» :

معَ الأسْحارِ والآصَالِ يا أُمّاه

من مَهْدِ الهُدى دوماً أُناجيْكِ

وبالزَّهْراتِ والنَّحْلات يا أُمّاه أوصيكِ

وهذا قلبي الولهان يا أماه بالأشواقِ يأْتيكِ

مسَاءُ الخيرِ يا أُمي وربُّ الكونِ يَحْمِيْك

معَ الأسْحار والآصالِ يا أُمّاه

مِنْ مَهْدِ الهُدىٰ دوماً أُناجيكِ

تركِتُ دفَاتري عشْباً وأزْهَاراً وأطْياراً تُغَنّيك

وشَذْوي هَا هنا دوماً أُحَمِّلُه أمانيك

وأرقُبُ هَمسةً تُحيي فُؤادِي في ظلامِ البُعْد منْ فِيْكِ

مع الأسحارِ والآصالِ يا أمّاه

من مَهْدِ الهُدىٰ دوماً أُناجيك

غَرَسْتُ الورْدَ ألواناً تُسَلّيكِ

رَيَاحيناً ونسْريناً وجُوريّاً وزنبقةً تُحاكِيكِ
مع الأسْحارِ والآصَالِ يا أُمّاه
منْ مَهْدِ الهُدىٰ دوماً أُنَاجيكِ
فَهلْ منْ زهرةٍ جَادتْ بها الأيّام وَرْداً منْ أياديكِ
دوماً لأسْمعَ مِنْ حكَايَاهَا أغانيكِ
فَلَنْ أنْساكِ يا أُمّاه لَنْ أَنْسى أيَاديْكِ
ولن أنسى غناءَ القَلْب في أحْضَانِ واديك
فأشْعَاري ومنثُوري وأَدعيَتي أنَاشِيد تُحَيّيك
مع الأسْحارِ والآصالِ يا أُمّاه
من مَهْد الهُدى دوماً أُناجيك
مضى زمَنٌ على الطِّفْل الذي يَهْوىٰ مغَانيكِ
بعيداً عن تراتيلِ الخمائلِ منْ أَعَاليكِ
بعيداً عن ترانيم السَّعَادة في براريكِ
بعيداً عن ينابيعِ الصَّفاء علىٰ روابيك
فكيف اليومَ يا أُمّاهُ نَحْلاتي وزَهْراتي
وكيفَ اليوم يا أُمَّاه أشْجَاني
فكلُّهمُ قد افترَشوا
بساطَ الحبِّ والتّحنان في دُنيا سَواقيك
فلا تَدعي كِتاباتي علىٰ الجُدران تُمحَىٰ منْ نَواحيكِ
تركت قصَائدي ورسمتُ أشعَاري
علىٰ الأوراق في البُسْتان
فوقَ براعمِ الأغصانِ أحْلاماً تُناغيك
مع الأسحارِ والآصال يا أمّاه
منْ مَهْد الهُدىٰ دوماً أناجيك(١) . .

---

(١) انظر مجلة القافلة العدد (٢٥) ، والمجلة العربية العدد (١٠٠) ، وقد تصرفت بعض التصرف في القصيدة حيث اختصرتُ بعض الفقْرات، وبدلْتُ بعضَ الكلمات لتتوافق مع فكرةِ البحث.

* ومن يَنابيعِ الأمومةِ نغترفُ هذه الأهزوجة بعنوان «أمّي» ، وقد صِيْغَتْ للأبناء ، فَلْنَسْتَمِعْ ونُسْمِعِ الأعزاء عن الأُمّ:

أَنْـــتِ أحَـــبُّ النَّـــاسِ إلـــيّ ... أنـــتِ أعـــزُّ النّـــاسِ عَلَـــيّ
أُمّـــي أنـــتِ حيَـــاةُ الـــرُّوح ... أنـــتِ الأَغْلـــىٰ مِـــنْ عَيْنَـــيّ
قُلْـــتُ لَهـــا يـــانَبْـــعَ الحُـــبِّ ... اسمُـــك مطبـــوعٌ فـــي قَلْبِـــي
يمـــلأُ عمـــري بـــالأَحْـــلام ... يَسْقينـــي كـــالمَـــاءِ العَـــذْب
قَلْـــبُ الأمِّ ومَـــا أَسْمَـــاه ... مـــا أطْهَـــرهُ مـــا أَصْفَـــاه
مـــا أكْـــرمـــهُ مـــا أرحمَـــهُ ... فَتَبـــارَكَ ربّـــاً سَـــوَّاه
إنّـــي أسْمَـــعُ صَـــوتَ النَّجْـــم ... يشْـــدو فـــي الأَمْـــسِ وفـــي اليـــوم
خَلْـــفَ صَغيـــرٍ راحَ يُغَنّـــي ... أُغنيـــةً فـــي حُـــبِّ الأمّ
فَـــرحَـــتْ أُمّـــي حيـــنَ رأَتْنـــي ... أقْطِـــفُ زهْـــراً حُلْـــوَ الَّلـــون
وأُنسِّقُـــــه وأقـــــدّمُـــــه ... بيـــنَ يَـــديْهـــا ذكْـــرىٰ مِنّـــي
عِشْـــتِ وطبْـــتِ ودُمْـــتِ فـــأنْـــتِ ... بَهْجَـــةُ أيّـــامـــي قـــد كُنْـــتِ
قلبُـــك بـــالـــرّأفـــةِ معمـــورٌ ... أَمِـــنَ الـــرّحمـــةِ أنـــتِ خُلْقـــتِ
حبُّـــك بيـــنَ ضُلـــوعـــي يكْبـــر ... يـــا يَنْبُـــوع الحـــبِّ الأَطْهَـــر
يـــا مَـــن قـــد وهَبْتِنـــي عُمـــرا ... يَسْقـــي عُمـــري حتّـــى أَزْهَـــر(١)

* وللأمّ طعمٌ خاص عند «طلْعَت سقيرق» ، فهي حبُّه وروحُه ودنياه ، وأملهُ ونورهُ وضياهُ ، يقولُ من قصيدةٍ عنوانها «أمّي» :

أمّـــي يـــا حُبّـــاً أهْـــواه ... يـــا قَلبـــاً أعشـــقُ دُنيـــاهُ
يـــا روحـــاً تَسْـــري فـــي جَسَـــدي ... يـــا وَرْداً فـــي العُمـــرِ شَـــذاهُ
يـــا كُـــلَّ الـــدُّنيـــا يـــا أَمَلـــي ... أنـــت الإخـــلاصُ ومعنـــاهُ
مـــاذا أهـــديـــكِ مـــنَ الـــدُّنيـــا ... قلبـــي أمْ عَينـــي أُمّـــاهُ
رُوحـــي ودِمـــائـــي أمْ عُمـــري ... فـــالكـــلُّ قليـــلٌ أوّاهُ
المـــاضـــي يحمـــلُ أزْهَـــاراً ... والحـــاضـــرُ تَبْسُـــمُ شَفتـــاهُ

---

(١) انظر : دوحة النشيد (ص ٢) دار الحافظ ـ دمشق ١٤١٨ هـ.

مـا زَالَ حنانُـكِ فـي كَبِـدي	يعطيـهِ حيـاةً يـرعـاهُ
الأمُّ مِـنَ الـدُّنيـا حُـبٌّ	الأمُّ مـنَ العُمـر ضيـاهُ
الأمُّ عَطـاءٌ أبـديٌّ	فَبِمـاذا نَحْيـا لـولاهُ
كَـمْ ليـلٍ سَهـرتْ فـي مَـرضـي	تَبكـي وتُنـادي ربّـاهُ
طِفْلـي وحَبيبـي يـا ربّـي	اِمْـلأْ بـالصِّحـةِ دُنيـاهُ
الأمُّ حَنـانٌ وخُلـودٌ	الأمُّ مـنَ اللهِ رضـاهُ
الأمُّ بحـارٌ مـن خيـرٍ	والبحـرُ تـدومُ عَطَـايـاهُ[1]

* ويرسمُ الشّعراءُ صُوراً شتّى للأمِّ والأمومةِ الممزوجةِ بالرحمة ، وتختلفُ نظرةُ كلّ واحدٍ عن الآخر ، إلاّ أنّه يجمعُهم أنَّ الأمَّ نبعُ الحنانِ ، ومصدرُ العطفِ ، ومعقلُ الرضا ، وذروةُ الفضل ، أوصىٰ بها اللهُ ، وجعل الجنَّةَ من تحتِ قدمَيْها ، وقد رسمَ هذه المعاني شِعراً غنائياً «علي أحمد باكثير»[2] ، فقال من أهزوجةٍ حُلوةٍ راقصةٍ عنوانها : «نشيد الأمّ» :

عِيـدُكِ يـا أُمّـي	أبْهَـجُ أَعْيَـادِي
لَـولاكِ يـا أمّـي	مـا كـانَ مِيـلاَدي
قلبُـكِ يَـرعَـانـي	يـا بهجـةَ القَلْـبِ
وليـسَ ينْسَـانـي	فـي البعـدِ والقُـربِ
فَضْلُـكِ يـا أُمّـي	مـا فـوقَـهُ فَضْـلُ
فكـلُّ خيـرٍ لـي	أنـتِ لـهُ أَهْـلُ
كيـفَ أوفّيـكِ	شيئـاً مـنَ الـدَّيْـنِ

(١) معجم شعراء الطفولة (ص ١٨١ و١٨٢) بتصرف واختصار وانتقاء ، وانظر : معجم البابطين (٢/ ٧٢٤).

(٢) ولد علي أحمد باكثير في مدينة سورابايا بأندونيسيا عام (١٩١٠ م) ، وهو من أصل حضرمي عربي ، أرسله أبواه إلى حضرموت ، وتعلّم ، ثم انتقل إلى القاهرة ، ودرس اللغة الإنكليزية وتخرج في الجامعة عام (١٩٤٠ م) ، وعمل في التدريس ١٤ عاماً ، وقام برحلات مع بعض البعثات إلى فرنسا والاتحاد السوفياتي وسواهما. ونبغ في كتابة القصة والمسرحيات الشعرية ، ومنها «همام» و«عودة الفردوس» و«أبو دلامة» وغيرها. وكان له اهتمام خاص بأناشيد الأطفال ، توفي في القاهرة عام (١٩٦٩ م) وعمره (٥٩ عاماً).

أو كيــــفَ أجْـــزيــــكِ ... يــــا قـــرّةَ العَيْــــنِ
اللهُ ذو المنّـــــــــة ... أوصـــىٰ بــــإكْـــرامِــــك
قــــدْ جَعَــــلَ الجنَّـــــة ... مـــن تحـــتِ أقْـــدامِـــك[1]

* وفي أفياءِ الظِّلال «اليَافيّة» نَسْعَدُ أويقاتٍ لطيفاتٍ مع «د. عبد الكريم اليافي» ومع ديوانهِ الجميل «حَصَاد الظِّلال» حيث حشَاه دُرراً من نفائسِ نَظْمه ، ونفثاتِ فؤادِه ، وهمسِ كلماتهِ ، وكلماتِ هَمْسِه عن الأمّهات والأمومة ، فالأمُّ فيضٌ منَ اللهِ ، وإحسانٌ ، وحنَانٌ ، ورعايةٌ للأطفال ، والأمُّ حبٌّ وروحٌ وحضارةٌ ونبراسُ الوجود ، وتعالوا جميعاً نعلِّمُ ونُسمعُ الأبناء هذه «النّونية» اليقظَى النَّشْوى الحالمة ، حيث يقولُ اليافي عن الأمّ :

الأمُّ فيـضٌ مـن الـرَّحمنِ أنـزلـه ... إلـى البـريّـةِ إحسـانـاً وتحنـانـاً
عانَتْ من الحملِ أوصَاباً مؤرّقَةً ... وفـي المخـاضِ تبـاريحـاً وألـوانـاً
وقـد أكبّـتْ علـى المـولـودِ تكلـؤهُ ... بـالـرّفـقِ حينـاً وبـالتّهـذيـبِ أحيـانـاً
كـم ليلـةٍ لـم تـذُق غُمْضـاً بجـانبـهِ ... إذا شكَـا مـن سَقَـامٍ كـانَ مَـاكَـانـا
للهِ لهفتُهـــا للطّفـــلِ مُشتكيـــاً ... للهِ فــرحتُهـــا بـــالطّفــلِ جَــذْلانـــا
فـي كـلّ آنٍ خيَـالُ الطّفـلِ يشْغَلُهَـا ... حـانَ الـرَّضـاعُ وهـذا نـومُـه آنـا
إذا مشـى مشـتِ الأحـداقُ تحـرسـه ... وإن تلفّـظَ لاحَ اللفـظُ ألحـانـا
الكـــونُ أوّلـــهُ حـــبٌّ وآخـــرهُ ... غيـبٌ وبينهمـا الإنسـانُ حَيْـرانـا
شـبّ الـوليـدُ وقلـبُ الأم فـي حـذرٍ ... تخشىٰ عليه الأذى لو دقَّ أو هانا
وفـي غـدٍ يـأخـذُ التّعليـم مـأخـذَه ... وفـي غَـدٍ يبعـثُ التّـزويـج أشجـانـا
البـردُ يلفحُنـا والحـرُّ ينفحنـا ... والنـأي يقلقنـا والشّـوقُ مـأوانـا
تمضـي السنـونُ ولا واللهِ مـا فتئـت ... أمٌّ تعيـشُ غـواشـي الهـمّ أفنـانـا
لـو قـدّر النّـاس قلبـاً مترعـاً بهـوىً ... لقـدَّروا قلبَهـا بـالحـبّ مـلآنـا
روحُ الحضارةِ تلك الأمُّ إن صَلُحتْ ... عَلَـتْ بـأبنـائهـا نـوراً وإيمـانـا
إنَّ الأمـومـةَ نبـراسُ الـوجـودِ فهـل ... نـوفـي مـآثـرهـا شكـراً وعـرفـانـا[2]

---

(١) انظر : معجم شعراء الطفولة (٢٢٩) .
(٢) ديوان حصاد الظلال (ص ٦٩) منشورات وزارة الثقافة بدمشق ـ سورية عام (٢٠٠١ م) .

* والأمُّ حِصنٌ وحضْنٌ عند اليافي ، ترى ما صورةُ هذا الحضْن؟!

إذا فتشْـتَ عـن حِضْـنٍ أميـنٍ ... فحضْـنُ الأُمّ حصـنٌ لـلأمـانِ
وهـل قلْـبُ الأُمـومـةِ غيـرُ نبع ... تفجَّـر مـن عليّـات الجنـانِ
يُـروّي طَـافِحـاً كـلَّ البَـرايـا ... لِتَنْشـأَ فـي المحبّـةِ والحنـانِ
ولكـنَّ الأبـوّةَ مثـلُ شَمْـسٍ ... تُضـيءُ الكـونَ مـن أعلـىٰ مكَـانِ[1]

* وكلمةُ «ماما» نداءٌ يهزُّ قلوبَ الأبناء ، وكلمةُ الأمومةِ تروي الدُّنَىٰ ، وما الكونُ إلاّ الأمومةُ؛ والبنوة شمسٌ دافئة وغصنٌ يميسُ دلالاً ، فمعَ اليافي وهذه البائية التي رَقَّتْ وراقَتْ مغنىً وطيباً حيثُ يقول :

يـا مَـامَـا نـداءٌ يهـزُّ القُلـوبـا ... منـاداةُ أحلـى حبيـبٍ حبيبـا
كـأنَّ النّجـومَ إذا سمعتـه ... تـرفُّ افتتـانـاً وتهفـو وجيبـا
فـإنَّ الأمـومـةَ نبـعٌ يفيـض ... حنـانـاً ويسقـي الـدُّنى والغُيـوبـا
كـأنَّ الألـوهـةَ لمّـا أرادت ... تَجَلَّـتْ وأوحـتْ لهـا أنْ تنـوبـا
ومـا الكـونُ إلاّ الأمـومـةُ طُـرّا ... ولا شـيءُ أوسـعَ رُحْبـاً وطيبـا
فَقَـدِّسْ معـي أوجُـهَ الكـائنـات ... فكـلٌّ تضمَّـن سـرّاً عجيبـا
شـذَا الـوردِ طفـلٌ رقيـقُ الأديـم ... أحـاذرُ مـن رقّـةٍ أنْ يـذوبـا
وذاك الشّعـاعُ سنـيّ الشّـروقِ ... تَـراقَـصَ فـوقَ الـرّوابـي طَـروبـا
وغصـن يميـسُ دلالاً يعـانـق ... فـي غفلـةِ الـدّوح غُصنـاً رطيبـا[2]

* وهذه همسةٌ للأمّ يشدو بها شاعرُ الأقصى ، فالأمُّ هي الأمانُ والحنانُ والإحسانُ والدّواءُ والشّفاءُ والوفاءُ ، ترى ماذا تخبّىءُ همساتُ «الأمّ» في هذه الأهزوجةِ النّبيلة؟ :

فـي حِضنِهـا الأَمـانُ ... فـي صَـدْرِهـا الحَنـانُ
فـي قَلْبِهـا الإيمـانُ ... فـي كفِّهـا الإحسـانُ
أُمّـي . . . رعَـاهَـا اللهْ!

(١) حصاد الظّلال (ص ٧٣).
(٢) المرجع السّابق نفسه (ص ٢٣).

إنْ لَفَنِّي الظَّلامُ فـي حضنِها أَنامُ
أَو مسَّني السَّقامُ في كفِّها السَّلامُ
أُمِّي... حَماها اللهْ!
كلامُهَا غناءُ وهَمسُها شِفاءُ
وعَطفُها دَواءُ وعَيشُها وفاءُ
طابَتْ بها الحَياةْ!

* وللأُمّ مساحاتٌ كبيرةٌ لدى شاعر الأقصى ، فهي النّور ، وهي القلبُ الكبيرُ الذي يشعُّ دائماً بالنُّورِ والحياةِ ، والأمُّ هي العطْرُ المُندّى بقطراتِ العطف الذي نَبَتَ في القلب ، وهي اللحنُ الذي تعزفُه الطيور بأجمل الألحان على فُنون الأغصان.

* والأمُّ نبعٌ ليس ينضَبُ ، وإيمانٌ وإلهامٌ وإحسانٌ ، في الأمِّ نزل القرآنُ الكريمُ يُوصي ويُوصي ويُوصي ، فلولا حنانُ الأمّ ما تعلَّم أحد ، ولولا عطفُها ما وُجدَ الحنان ، هذه الأمّ كابدتِ الحملَ ، وصبرتْ على الرّضاع ، وتحمّلتْ ألوانَ العذاب ليغدو ابنها رجلا صالحاً ، فجزاها اللهُ أحسنَ الجزاء بما عملت ، وغفر الله لها بما قامت ، ومع هذه «النّونية» بعنوان «أمّي» :

قالُوا حياتُك نُورٌ قلتُ يرسلُه قَلْبٌ كبيرٌ يشعُّ النُّورُ مُذْ كانا
قالُوا حياتُك حُبٌّ قلتُ واهبُه مَنْ هَدْهَدَ القَلْبَ إشراقاً ووجْدانا
قالُوا حياتُك عُطْرٌ قلتُ مصدرُه مَنْ أنبتَتْ في حنايا القلْبِ رَيْحانا
قالُوا حياتُك لَحنٌ قلتُ صانِعهُ صَدْرٌ كبيرٌ غدا لِلبرّ عُنوانا
قالُوا حياتك نبعٌ قلتُ فجّره مَنْ فاضَ مِنْ موطنِ الإيمان إيمانا
قالُوا فَمَنْ تلك في دنياك تملؤها عطْراً ونُوراً وإلهاماً وإحسانا
فقلتُ أمّي التي هامتْ بها كَبدي في برّها أنْزلَ الرّحمنُ قُرآنا
لولا حنانُك أمّي مَنْ يُعلّمنا حبّاً ويملأُ بالتّحنان دنيانا
أنتِ التي كَابَدَتْ في حَمْلِنا زمناً وأَرضَعَتْنا لُبانَ الخَيرِ ألوانا
جزاكِ ربُّكِ يا أمّاه مغفرةً وجنةَ الخلْد تكريماً ورضوانا

* وهذه أشجانُ شاعر يبثُّها أمّه ، أشجانٌ لم تُصْنَعْ من الأَحْلامِ الرّغيدة ،

أشجانٌ يبثُّها من أعماقِ السّنين التي صارت في حُكْمِ الماضي ، ولكنَّ الأمَّ ماثلةٌ في ضميرهِ كلّ لحظة ، الأمُّ التي تنطقُ الأحزانُ من عينَيها ، الأمُّ التي تبتهلُ إلى الله عزّ وجلّ ، فمع هذه الكلمات النَّفيسة لراضي صدُّوق ، بعنوان «إلى أمّي» ومن خلالِها يترنّمُ بهذه الخُماسيّات الجميلة :

يَظَلُّ الحُزنُ مَسْحُوباً على عينَيْك يا أُمّاه
يُلوِّنُ جرحَكِ الدَّامي بألوانٍ منَ المأْسَاه
يَظَلُّ الحُزْنُ هذا الصَّخرةُ الشَّوهاءُ يفْغَرُ فَاه
ويخنقُ في ثَراكِ السَّمْحِ كلَّ جَداولِ الأمْواه
سُدىً يا أمُّ تبتهلينَ لن يسمعَ غيرُ الله

سُدىً يا أمُّ غاضَ النُّورُ عَبْرَ منابعِ الإشْرَاق
وجفَّ الظِّلُّ ماتَ التَّوقُ تاهَ الحُلمُ في الأَعْماق
وغيمٌ في جَوانِحنا ضميرٌ فاغِرُ الأشْداق
يظلُّ الجوعُ يحفرُهُ يظلُّ الجوعُ في الأَحْداق
يُلَملمُ حلمَنَا الزَّاهي ويطفىءُ جَذْوةَ الأَشْواق

سُدىً لَنْ يزهرَ اللّوزُ ولنْ يثمرَ بُسْتَانُ
ولن تَبْتَسمَ الشَّمسُ ولَن تَسْرحَ قطْعَانُ
فهذا عَالَم سَبْخٌ عتيقُ الجوعِ ظَمآنُ
وما في أرضهِ قَلْبٌ نقيُّ الحُبِّ ريَّانُ
سُدىً يا أمُّ تَبْتَهلينَ ما في الكَونِ إنْسانُ

دَعي الجرحَ يُواسي الجُرحَ يا أمّاهُ في الصَّدْرِ
وخَلّي الدَّمعَةَ الثّكلىٰ وراءَ الجفْنِ لا تَجْري
ولا يُرهبْكِ إعْصَارٌ منَ الأيّامِ والدَّهْرِ
وخُوضي في عُبابِ الموجِ في قَلْبٍ منَ الصَّخر
بلا معنىً بلا لونٍ فتلكَ هويّةُ العَصْر[1]

---

(١) ديوان النار والطين (ص ١٠١ ـ ١٠٤) باختصار وتصرف يسير جداً ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ط١ ١٩٦٦ م.

* وللأمّ الزّوجة مكانةٌ كبيرةٌ عند الزَّوج ، فهي حياةُ روحه وروحُ حياته ، فإذا فَقَدَ الزّوجُ أليفَته فَقَدَ الحنَانَ والدّفءَ والعطْفَ ، فَقَدَ الاهتمامَ والتَّرتيبَ والحبَّ ، وإذا ما سألَهُ أولادُه أين أمّنا؟ فإنَّ الإجابةَ عن هذا السّؤال مريرةٌ ، فماذا يصنعُ وقد حِيْلَ بينَهم وبينها ، وضمَّها التُّراب ، تعالوا نعش لحظاتٍ مع الأمّ التي رحلَتْ إلى الدَّار الآخرة ، ونرى حالَ الزّوج والأبناء بعدها ، يقول «محمّد رجب البيومي» في ذلك:

يقـولـونَ مَـامَـا كُلّما عـنَّ مشْكـلٌ ... وأولـى بهـم أنْ يسكتُـوا لـو تَعقّلُـوا
يقولُون مَامَا ما الذي أَنَا صَانعٌ ... ومنْ دون «مَامَاهُم» ترابٌ وجَنْدلُ
يصيحون بي هلاّ ذهبتَ تعيدُهَا؟ ... كـأنّـي بـردِّ الـرّاحلين مُـوكّـلُ!
شديدٌ على نَفْس الأبِ البرّ موقفٌ ... يهيـبُ بـه أطفـالـه ثـمّ ينكـلُ
يعـذّبُـه إحسـاسُهـم بِـرحيلهـا ... وإحسـاسُـه الـدامـي أشـدُّ وأهـولُ
تفنَّـنَ فـي جَلْـب السُّـرور إليهـمُ ... يحـاولُ تخفيـفَ الـذي يتحمّـلُ
ووالـىٰ فنـونَ المُغـريـات تلهّيـاً ... فمـا راقَ ملبـوسٌ ولا طـابَ مـأكَـلُ
وكـان حـريصـاً أنْ يـدومَ سـرورهـم ... بِهـا وهـيَ بـالأحـرى أسـرُّ وأجْـذَلُ
ولكنّهـا الأقـدار تفْعَـل فِعْلهـا ... لِيسْكُـتَ لا يـدري الـذي هـو يفعـل
يَقـولُـوْنَ مَـامَـا مَـنْ يلـومُ مقـالَهـم ... وقـد غـابَ عنهـم وجهُهـا المُتهلّـلُ
تربُوا فِراخاً في العشاش تزقُّهم ... حمـامـةُ أيـكِ بـالأهَـازيـجِ تهـدُلُ
يحسّون فيضَ الحبِّ تحتَ جناحها ... فمـا منهـم إلاّ الأثيـرُ المـدلّـلُ!
إذا أشرقَتْ شمسٌ بدفءٍ سَعتْ بهم ... تجـاه الضّفـاف الخُضْـر لا تتمهَّـلُ
وإنْ عصفَـتْ ريـحٌ بغصـن تجمَّعَـتْ ... تقيهـم هبـوبَ الـريـح سـاعـةَ تقبـلُ
رَعتهـم وخلّـت نفْسَهـا فهـي بينَهـم ... على غلواءِ الكَدحِ تَضْوىٰ وتنحَلُ
إلى أنْ مضَتْ عنهم شهيدةَ جهدِها ... فناحُوا عليها صارخينَ وأعْولُوا[1]

* وهذه الصُّورةُ نفسُها نقرؤها منذ أكثر من ألفِ سنة عند «محمّد بن عبد الملك الزَّيّات» الشاعرِ والكاتبِ والوزيرِ العبّاسي المتوفى سنة

---

(١) حصاد الدمع (ص ٢٧ و٢٨) لمحمد رجب البومي ، دار الأصالة ـ الرياض ـ ط٢ ١٩٨٤ م.

(٢٣٣ هـ) ، فقد صوَّر ابنه الذي يبلغُ ثمان سنوات عندما ماتتْ أمّه ، تُرى عن أيّ معانٍ أسفرتْ قصيدة الزّيّات في رثائهِ أمّ ولده؟! حسَناً فلنقرأ هذه النُّونيَّة المُوحية :

أَلاَ مَـنْ رَأَى الطِّفْـلَ المُفَـارِقَ أُمَّـهُ ... بُعَيْـدَ الكَـرَى عَيْنَـاهُ تَبْتَـدِرَانِ
رَأَى كُـلَّ أُمٍّ وابْنَهَـا غَيْـرَ أُمِّـهِ ... يَبِيتَـانِ تَحْـتَ اللَّيْـلِ يَنْتَجِيَـانِ
وَبَـاتَ وَحِيـداً فـي الْفِـراشِ تَحُثُّـهُ ... بَـلاَبِـلُ قَلْـبٍ دَائِـمِ الخَفَقَـانِ
أَلاَ إِنَّ سَجْـلاً وَاحِـداً قـد أَرَقْتُـهُ ... مِنَ الدَّمْعِ أو سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
فَـلاَ تَلْحَيَـانِـي إنْ بَكَيْـتُ فَـإِنَّمَـا ... أُداوِي بهـذَا الـدَّمْـعِ مَـا تَـرَيَـانِ
وإنّ مَكَـانـاً فـي الثَّـرَى خُـطَّ لَحْـدُهُ ... لِمَـنْ كَـانَ فِـي قَلْبِـي بِكُـلِّ مَكَـانِ
أَحَـقُّ مَكَـانٍ بِـالـزِّيَـارَةِ والهَـوَى ... فَهَـلْ أَنْتُمَـا إِنْ عُجْـتُ مُنْتَظِـرَانِ؟
فَهَبْنِـي عَـزَمْـتُ الصَّبْـرَ عَنْهَـا لأَنَّنِـي ... جَلِيـدٌ فَمَـنْ بِـالصَّبْـرِ لابْـنِ ثَمَـانِ؟
ضَعِيفُ القُوَى لا يَعْرِفُ الأَجْرَ حِسْبَةً ... وَلاَ يَـأْتَسِـي بِـالنَّـاسِ فـي الحَـدَثَـانِ
أَلاَ مَـنْ أُمَنِّيـهِ المُنَـى فَـأُعِـدُّهُ ... لِعَثْـرَةِ أَيَّـامِـي وَصَـرْفِ زَمَـانِـي
أَلاَ مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي ... وإنْ غِبـتُ عَنْـهُ حَـاطَنِـي وَرَعَـانِـي
فلـم أرَ كـالأقـدارِ كيـفَ تُصيبنـي ... ولا مثلَ هذا الدهر كيفَ رماني[1]

* وهذه كلماتٌ رائعةٌ على لسانِ ابن يناشدُ أمّه ألاّ تفارقَه ، ولا تتركَه لحظةً واحدة ، إذْ لا جمالَ للحياةِ إذا فَصَلَتْ بين حبيبَيْن ، وخصوصاً الأمّ وابنها ، ويناشدُ هذا الابن البريءُ أمّه أنْ تترك الوظيفةَ لأنّها تنشغلُ عنه بعملِها الذي لا يسْمِنُ ولا يغني منْ جُوع ، بل يطلبُ منها أن تربّيه ، لأنَّه سيكونُ الذُّخْرَ والسَّنَدَ لَهَا ، يقول اليافي :

ناديتُ باسْمكِ مثلَ اللحنِ أنشدُهُ ... لـو تعلميـنَ لمـا فـارقْتِنـي أبَـدا
كمْ منْ أُناسٍ كنوزُ الأرضِ قد فُتحتْ ... لهم وهمْ ينشدون النَّسْل والولدا
لا بـاركَ اللهُ فـي الـدُّنيـا إذا فَصَلَـتْ ... بينَ الحَبيبينِ روحاً كان أو جسدا
دعي الوظيفة لا ترجي بها سَنَداً ... لسوفَ تُلفينَ عندي الذُّخر والسندا

---

(١) انظر : نهاية الأرب للنويري (٥/ ٢١٨ و٢١٩).

(هواي) أحلىٰ مَذاقاً مِنْ رَوَاتبهم لـو تعليمـنَ ولكـن دَهْـرُنـا فَسَـدا[1]

* ولقلبِ الأمّ هوىً وأي هوى عند الشُّعراء المعاصرين ، وقد عثرتُ وأنا أُناجي ديوانَ مؤّرخِ الأعلام المرحوم «خير الدّين الزِّركلي» على قطعةٍ أدبيةٍ في غايةِ العُذوبةِ والنَّفاسةِ ، قطعةٍ أو فلْتَةٍ أدبيةٍ رائعةٍ يكني فيها عن قلْبِ الأمّ ، ومع قِصَرِها وقلّة أبياتها لكنّها ممتعةٌ مشْبِعةٌ ، اسمعْهُ يقول :

حَولي وفي قَلبي وفي سَمْعي وفي بَصَري وبين يديَّ في جَذْلي وغمّي
نجـمٌ يضـيءُ شُعَـاعُـهُ سُبُلـي إذا غَفَتِ العيونُ وغابَ عنّي كلُّ نَجْمِ
هـو مـأْمَنـي إمّـا جـزعْـتُ وقبْلَتـي أنّى اتّجهتُ ورَوعَتي وجَلاَء همّي
هو مُؤنسي في وحدَتي هو موئلي في كُربتي هو مَنْبتي هو قَلْبُ أمّي

* أما قلْبُ الأمّ عند «الشّابّي» فَلَهُ معانٍ «رومانسيّة» خلاّبة ، وأبو القاسم الشّابّي ، شاعرُ تونس الخضْراء ، يعبّرُ عن لقبِ الأمّ تعبيراً رائعاً حنوناً ، ويعبّر عن جمال الأمومةِ بكلماتٍ لطيفةٍ مؤنسة ، ومعانٍ مملوءة سِحْراً وملاحةً ، وجُمَلٍ مُوحيةٍ قويّةٍ عذبةٍ بديعة ، تدخلُ النَّفس دون استئذان ، وترنُّ موسيقاها في الآذان ، فتعالوا نقرأ هذه الأهزوجة «الشّابيّة» العبقة بأنداءِ العواطف ، وهمسات الخواطِرِ المندّاة بالأحاسيس الصَّادقة ، واللمسات الحانِيَةِ ، وهذه الأهزوجة حملَتْ عنوان: «قلب الأم» ، فمع قلْب الأمّ الكبير ، ومع حنان الأمهات ، نقرأُ هذه التّرنيمات الجذلى :

يـا أيّهـا الطفـلُ الـذي قـد كـان كـاللّحـن الجميـلْ
والـوردةِ البيضـاء تعبَـق فـي غيـابـات الأصيـلْ
يـا أيّهـا الطفـلُ الـذي قـد كـان فـي هـذا الـوجـودْ
فَـرِحـاً يـنـاجـي فتنـةَ الـدنيـا بمعسـول النّشيـد
هـا أنـتَ ذا قـد أطبقَـتْ جفنيْـكَ أحـلامُ المَنـونْ
وتطايرتْ زُمَرُ الملائكِ حولَ مضجعِكَ الأمينْ
ومضـتْ بـروحـكَ للسمـاء عـرائسُ النّـور الحبيـبْ

(١) ديوان حصاد الظلال (ص ٣٣).

يحملْـنَ تيجـانـاً مُـذَهّبَـةً مـن الـزّهَـر الغـريـبْ
هـا أنـت ذا قـد جَلّلَتْـكَ سكينـةُ الأبـدِ الكبيـرْ

* * *

وبكتـك هـاتيـك القلـوبُ وضمّك القبـرُ الصغيـر
وتفـرّق النـاسُ الـذيـن إلـى المقـابـر شيّعـوكْ
ونسُـوكَ مـن دنيـاهُـمُ حتّـى كـأنْ لـم يعـرفـوك
شغلتهُـمُ عنـك الحيـاةُ وحـربُ هـذي الكـائنـاتْ
إنّ الحيـاةَ ـ وقـد قضيْـتَ قُبَيْـلَ معـرفـةِ الحيـاةْ ـ
بحــرٌ قــرارتُــه الــرّدى ونشيــدُ لُجّتــه شَكــاةْ
وعلــى شــواطئــه القلــوبُ تئــنّ داميــةً عُــراةْ
بحـرٌ تجيـشُ بـه العـواصـفُ فـي العشيّـةِ والغـداةْ
وتُظِلّـهُ سُحُـبُ الظـلام فـلا سكـونَ ولا إيـاةْ
نَسِيَتْـكَ أمــواجُ البُحيْـرَةِ والنجـومُ الــلاّمعـهْ
والبلبـلُ الشـادي وهـاتيـك المـروجُ الشـاسعـهْ
وجـداولُ الـوادي النضيـر بـرقصهـا وخـريـرهـا
ومســالــكُ الجبـل الصغيـر بعُشْبهـا وزُهـورهـا
حتّـى الـرفـاق فـإنّهـم لبثـوا مـدىً يتسـاءلـونْ
فـي حيـرةٍ مشبـوبـةٍ أيـن اختفـى هـذا الأميـن؟
لكنّهـم علِمـوا بـأنّـك فـي الليـالـي الـداجيـهْ
حملْتـكَ غِيـلانُ الظـلام إلـى الجبـال النـائبـهْ
فنسُوكَ مثلَ الناس وانصرفوا إلى اللّهو الجميلْ
بيـنَ الخمـائـلِ والجـداولِ والـروابـي والسّهـولْ
ونسُـوا وداعـةَ وجهـك الهـادي ومنظَـرَكَ الـوسيـمْ
ونسُـوا تَغَنّيـكَ الجميـلَ بصـوتـكَ الحُلـو الـرخيـمْ
ومضَـوْا إلـى المَـرْج البهيـج يطـاردون طيـورَهُ
ويُــزحــزِحــون صُخــورَهُ ويعــابثــون زهــورَهُ

ويُشيّدون من الرمال البيضِ والحَصَبِ النضيرْ
غُرَفاً وأكواخاً تكلّلُها الحَشائشُ والزهورْ
ويُنضّدون من الرّبى بين التضاحك والحبورْ
طاقاتِ وردِ آبدٍ تُزري بأوراد القصورْ
يُلقونها في النهر قرباناً لآلهة السرورْ
فتسير في التيّار راقصةً على نَغَم الخرير
كلّ نسُوكَ ولم يعودوا يذكرونكَ في الحياة
والدّهر يدفنُ في ظلام الموتِ حتّى الذكريات
إلاّ فؤاداً ظلّ يخفُقُ في الوجود إلى لقاكْ
ويودّ لو بذَلَ الحياة إلى المنيّةِ وافْتداكْ
فإذا رأى طفلاً بكاكَ وإنْ رأى شبَحاً دعاكْ
يُصغي لصوتك في الوجود ولا يرى إلاّ بهاكْ
يصغي لنغمتكَ الجميلةِ في خرير الساقيهْ
في رنّةِ المزمار في لَغْو الطيور الشاديهْ
في ضَجّةِ البحر المُجَلجِل في هَدير العاصفهْ
في لجّة الغابات في صوت الرعود القاصفهْ
في نُغْية الحمَل الوديع وفي أناشيد الرعاةْ
بين المُروج الخضر والسّفْح المجلّلِ بالنباتْ
في آهة الشاكي وضوضاء الجُمُوع الصاخبهْ
في شهْقة الباكي يؤجّجُها نُواحُ النادبهْ
في كلّ أصواتِ الوجودِ طَروبِها وكئيبِها
ورخيمها وعنيفها وبغِيضها وحبيبِها
ويراك في صُوَر الطبيعة حلوِها وذميمِها
وحزينها وبهيجِها وحقيرِها وعظيمِها
في رقّة الفجر الوديع وفي الليالي الحالمهْ
في فتنة الشفق البديع وفي النجوم الباسمهْ

فـي رقْـصِ أمـواج البُحيْـرة تحـت أضـواء النُّجُـوم
فـي سِحْـر أزهـار الـربيـع وفـي تهـاويـل الغيـومْ
فـي لَمْعـة البـرق الخَفـوُق وفـي هَـويّ الصـاعقـه
فـي ذِلّـة الـوادي وفـي كِبْـر الجبـال الشـاهقـهْ
فـي مَشهَـدِ الغـاب الكئيـبِ وفـي الـورود العـاويـهْ
فـي ظُلْمـة اللّيـل الحـزيـن وفـي الكهـوف العـاريـهْ
أعَرفتَ هذا القلْبَ في ظلماء هاتيك اللّحودْ؟
هـو قلـبُ أمّـكَ السّكْـرَى بـأحـزان الـوجـود
هو ذلك القلب الذي سيَعيشُ كالشّادي الضريرْ
يشدُو بشكْوَى حزنِه الداجي إلى النفَس الأخير[١]

* ونسيرُ خطوات وخطوات مع الأمومةِ والأمِّ والبنوة ، نسيرُ مع الأنفاسِ الشّابّية ، مع الخفقَات القَلْبيّة لحرَم الأمومةِ ، حرم الصِّبا ، ذلك الذي تكتملُ فيه الحياةُ وتقدس ، مع هذه الصُّورة البديعة ، ومع هذا النَّسيج الشِّعري الجميل لأبي القاسم الشّابّي وعنوان «حرم الأمومة» حيث يقول :

الأمُّ تلثُـــمُ طفلَهـــا وتضمُّـــه ... حَــرَمٌ سمــاويٌّ الجَمــالِ مُقــدَّسُ
تتــألّــهُ الأفكــارُ وهــي جــوارهُ ... وتعــودُ طــاهــرةً هنــاكَ الأنْفُــسُ
حَــرَمُ الحيــاةِ بِطُهــرِهــا وحنــانِهــا ... هــل فــوقَــهُ حَــرَمٌ أجــلُّ وأقْــدسُ
بُــوركــت يــا حَــرَمَ الأمــومـةِ والصّبَـا ... كم فيكَ تكتملُ الحياةُ وتقدسُ[٢]

* ويأتي قلبُ الأمّ وتصويرُ البنوّة في «رائية» جميلةٍ مُطْربةِ المعَاني ، تداعب الوجدان ، شَدَا لها «إبراهيم المنذر» بعد قصيدة الشّابّي السّابقة عن قلْب الأمّ ، بيْدَ أنَّ قصيدةَ المنذر طارت شهرتُها في سماءِ الأدب ، واشتهرتْ شهرةً واسعةً بين الأدباء والشُّعراء ، ولعلّها اكتسبَتْ هذا الألقَ من الحوارِ الدّاخليّ الذي بنَىٰ

---

(١) انظر : موسوعة الشابي (٩/ ١٦١ ـ ١٦٤) طبعة دار صادر ، والقصيدة طويلة اخترنا منها الأبيات السابقة . وقد نشرت هذه القصيدة أيضاً في مجلة أبولو عام ١٩٣٤ م .
(٢) موسوعة الشابي (٩/ ٢٢٥) .

عليه المنذرُ قصيدتَه ، بالإضافة إلى أنَّها نابعةٌ من صميمِ الحياةِ التي تخيّلها المنذر.

* وقصيدةُ قَلْب الأمّ تصوّر غُلاماً جاهِلاً يلعبُ بعَقْلهِ أحدُ الأشرار ويغريه بالمالِ ليأتي بقلب أمّه ، ويستجيب الغلامُ الجاهلُ لأهواءِ ذلك الشّرير ، فيضربُ أمّه في صَدْرها ويستخرجُ قَلْبَها ويعودُ سريعاً ، فيتعثّر ويقعُ فيناديه قلبُ أمّه هَلْ أصابَك ضَرَرٌ يا ولدي الحبيب ، وهنا تستيقظُ عواطفُ الغُلامِ الجاهلِ ، وعرفَ سوءَ ما جنتْهُ يداه ، وأحبَّ أن يكَفِّرَ عن خطئِه ، فاستلّ خنجره وأرادَ أنْ يغرزَه في صدره ، بيد أنَّ قَلْبَ الأمّ المعفّر بالتّراب يُناديهِ ثانيةً: يا بني إياك أنْ تفعلَ هذا ، فلا تقتُل فؤادي مرتَيْن ، مرّة أنا ومرّة أنت. وهنا تنتهي هذه الأقصوصة التي مَهَر الشّاعر بنسجها ، وجعلَ القارىءَ يتابعُ معه الحوار إلى النّهاية ليتعرَّف مصيرَ الغُلام الجاهل ، والآن دعونا نقرأ الأبيات الرّائية عن قلْب الأمّ:

أَغْرى امرؤٌ يوماً غُلاماً جاهِلاً ... بنقودِهِ حتّى ينَالَ بهِ الوطَر
قالَ ائْتِني بفؤادِ أُمِّكَ يا فَتى ... ولكَ الدَّراهِمُ والجَواهِرُ والدُّرر
فمضَى وأغْرزَ خنْجراً في صَدْرِها ... والقَلْبُ أخرجَهُ وعَادَ علىٰ الأَثَر
لكنَّه من فَرطِ دهْشَتِهِ هَوى ... فَتَدحْرجَ القَلْبُ المعفَّرُ إذْ عثَر
ناداهُ قَلْبُ الأمِّ وهو معفَّرٌ ... وَلَدي حَبيبي هَلْ أصَابَكَ منْ ضَرَر
فكأنَّ هذا الصَّوتَ رغْمَ حُنُوِّهِ ... غَضَبُ السَّماءِ علىٰ الوليدِ قَد انْهمَر
ورأىٰ فظيعَ جنايةٍ لم يأْتِها ... أحدٌ سواهُ منذُ تاريخِ البَشَر
وارتدَّ نحوَ القَلْبِ يغْسِلُه بما ... فاضَتْ بهِ عيناهُ من سَيْلِ العِبَر
ويقولُ يا قلبُ انتقم منّي ولا ... تَغْفِر فإنَّ جريمَتي لا تُغْتَفَر
وإذا رحمتَ فإنّني أقْضي انتحا ... راً مثلَما يُوضَاسُ مِنْ قَبلي انْتَحر
واستلَّ خنجرهُ ليطْعَنَ صَدْرَهُ ... طَعْناً سيبقى عبرةً لمن اعتَبَر
ناداهُ قَلْبُ الأمّ كُفَّ يداً ولا ... تَذْبَحْ فؤادي مرتَيْن على الأثر[1]

---

(١) انظر: شعراء المعاليف ، تأليف رياض المعلوف ، وفيه هذا القدر من الأبيات ، وانظر: مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين (٤/ ٩٤٧٣ بابطين ـ الكويت ـ (٢٠٠١ م). =

* وهنا تتوقَّفُ الأنفاسُ المُنذريّة ، بيد أنّنا وجْدَنا مَنْ ذيّلَ هذه الأبيات بذيلٍ طويلٍ زادَ عن جسْمِ القصيدة الأصليّة ، ولا أعرفُ مَنْ نَهَجَ وذيّلَ عليها ، لكنّي أحسُّ بأنَّ الأنفاسَ مختلفةٌ كلّ الاختلاف ، والصّياغة مختلفة كلّ الاختلاف أيضاً ، وأشعرُ بأنَّ قصيدةَ المنذر شابّةٌ فتيّةٌ ، وهذا الذّيل عجوزٌ عقيم أكلَ الدّهرُ عليه وشَرب ثمّ غطَّ في نومٍ عميق ، وها نحنُ أولاء نوردُ الذّيل على القصيدة المنذرية لنؤكّد مصْدَاق ما قُلناه:

أَبُنـيَّ ليتَـكَ قـد قَطَعْـتَ سَـوَاعِـدي ... وجَعَلْتَهـا عكّـازَةً عنْـدَ السَّفَـر
وبهَا استَعنْتَ على اجتيازِك حُفْرةً ... وسَلمْتَ من خَطَر السُّقوطِ على المَدَر
أَبنـيَّ ليتَـكَ قـد قَلَعْـتَ نَـواظِـري ... وأضَفْـتَ مـا فيْهـا لعَيْنِك مـنْ نَظَـر
حتّى ترى في السَّيرِ دربَكَ واضحاً ... وتحيدَ عن مَهْوىٰ المَزالقِ والخَطَر
سِـرْ يـا بنـيَّ مُكَمَّـلاً سَفـراً بـهِ ... يُعْطَىٰ لكَ الطَّلَبُ المؤمَّلُ والوَطَر
سَمِـعَ الفَتَـى هـذا الكـلامَ فَـرَاعَـه ... وتـلاعَبَـتْ فـي رأْسِـهِ شتّـى الفِكَـر
مـاذا سيُعطينـي الغَـريـبُ مُكَـافيـاً ... عن قَلْبِ والدتي الذي منّي انتظَر
أتـراهُ يُعطينـي الجَـواهـرَ والحُلَـى ... أتـراهُ يُعطينـي الكَـواكـبَ والقَمـر
لاَ لاَ فَهـذَا كلُّـه بَخْـسٌ ومَـا ... فيـهِ لِتحْنَـانِ الأمـومـةِ مـنْ أثَـر
لـو كنـتُ أعقـلُ مـا طمعْـتُ بِـدُرَّةٍ ... والـدُّرُ فـي أحشـاءِ والـدتـي استَقَر
ثـمّ انحنـى فـوقَ الفـؤادِ يلمُّـه ... ويضمُّـه وبـهِ انثنـى نحـوَ المقَـر
ولـذلـكَ الصَّـدرِ المقـدَّسِ ردَّه ... وبجفْنِـهِ خَـاطَ الجـراحَ على حَـذَر
وغَـدا يصيـح بكـلِّ حـزنٍ قـائـلاً ... ربَّـاه عفـوكَ عـن شقـيٍ مُحتَقَـر
مَـنْ عـقَّ والـدةً لَـهُ أو والـداً ... فكـأنَّـه بـاللهِ خَـالقِـهِ كَفَـر!!!

* إنَّ الحياةَ مع الأمومةِ ومع الأمّ ومع أنداء نفحاتها حياة جميلةٌ ، لطيفةٌ ، يشعرُ الإنسانُ معها بالأمْن والأمان ، لا سيما إذا استطاع أنْ يغرسَ هذه القيم النَّبيلة في نفوسِ الأبناء ، هؤلاء الأبرياء الذين هم أمانةٌ في أعناقِ الآباء والأمّهات والمربين ، فَلْنَسْعَ وراءَ الكلمةِ الطّيّبة ، والشِّعر الهامس لننمي أذواقَ

= وقد أفادني الأستاذ راضي صدوق أنَّ هذه القصيدة لإبراهيم المنذر وهي تعد (١٢ بيتاً) ، وكل شيء عدا ذلك هو زيادة أو من نسج شعراء آخرين ذيّلوها.

النشء ونرتقي بتذوقهم الأدبيّ إلى درجاتٍ عاليةٍ في مجالِ المعرفة.

* ومن هذا المبدأ اطّلعْتُ على قصيدة «بائية» طويلة وجميلةٍ ترسمُ الأمومةَ، وتحكي فَضْل الأمّ، وتجسّدُ فضائلها، وهي قصيدةٌ حَسناء اقتطفتُ منها هذه الأبيات ـ والقصيدة تحمل عنوان «الأمّ»، وتحمل بين ثناياها أشياء جميلة، ومعان لطيفة تصلحُ لتربية الناس وخاصة النشء على مائدةِ الأمومة ومعرفة فضائل الأمّ ـ:

إنّها وحْدهَا الأمومةُ تُعطي ... حينَ يبدو العطاءُ منها استلابا
إنّها وحْدَها الأمومةُ تُحصي ... كلَّ أخطائِها عَلَينا صَوَابا
إنّها وحْدهَا تموتُ لِنَحْيا ... هلْ عرفْتُم لِمثْلِها أضْرابا
لو خَلا المهدُ من ترانيم أمٍّ ... شبَّ أطفالُنا عطاشاً سِغَابا
أو ترىٰ تمطرُ السَّماءُ حنَاناً ... واليَنابيعُ تستمرُّ انسِكَابا
إنّها الأمُّ تشحَذُ العزائم فينا ... إذْ تفيضُ الثَّناءَ والإعْجَابا
يا رضَا الأمّهاتِ أنتَ نعيمٌ ... قد عَجِزْنا لِسِرِّهِ استيعَابا
ورضَا الأمّهات بعضُ رضا اللـ ... ـه فإمّا أجبتَهنَّ استجابا
قَدَرُ الأمّهاتِ أنْ كُنَّ درعاً ... يتلقّى الأوزارَ والأوْصَابا
قَدَرُ الأمّهاتِ وضْعٌ ودمعٌ ... وليالٍ تُغني الرّجال الصِّلابا
إنَّ للأمّهاتِ روحاً دفيناً ... لا نراهُ حتّى يَلجْنَ التُّرابا[1]

* وهذه ترنيمةٌ ذاتُ طعمٍ خاص تتحدّثُ عن الأمّ، ولكنْ هذه المرّة بطريقةٍ رسالةٍ طريفةٍ، ترى ما مضمونُ هذه الرّسالة المندّاة بعبيرِ الأمومة؟!

أماهُ قلبي في الحياة يعاني ... وترنُّ أشعاري بلا أوزانِ
قد كنتُ أحيا في الحشا متنعماً ... بين الضلوعِ، وذا الجنانُ حواني
فأنا أبادله الودادَ بخفقةٍ ... أو ركلةٍ من عاشقٍ ولهان
وأتيتُ يا أماه.. أرقبُ دفقةً ... من نفسك الملأىٰ بكلِّ حنان
ولمستني بيدَيْ فؤادك رحمةً ... وتبسمتْ شفتاك عن إحسانِ

---

(١) انظر: مجلة الأدب الإسلامي (ص ٤٠ ـ ٤٧) باختصار وتصرف. عدد رقم (٢٩) ١٤٢٢ هـ.

كم غازلتْ عيني عيونَك خلسةً ... ورأيتُ فيكِ جمالَ كلِّ حِسانِ
كم ضمةٍ للصدر تُفْرِحُ مُهْجتي ... كم رضعةٍ تروي بغير توانِ
وظللتُ أسعد بالحياة منعَّماً ... حتى أتاني من صروف زماني
وأفقت في أحضان أُمٍّ والهٍ ... وأكفُّها خُلقتْ لآخر ثانِ
هي ذاتُ قلبٍ مشفقٍ متلهفٍ ... هي ذاتُ صدرٍ دافىء الأركان
هي ذاتُ كفٍ ناعمٍ لكنها ... حُبلى وتحملُ أثقَل الأحزانِ
هي فارقتْ ولداً يفيض بعبرةٍ ... هي أسبلت دمعاً بكل أوان
أماه.. أنتظرُ اللقاء بلهفةٍ ... وأظلُّ أصرخُ مقبلاً بحنان
أَهْوي بنفسي من يديها صارخاً ... فتقبّلين.. وتتركين مكاني
وتُسارعين إلى الفراشِ كأنني ... طفلٌ يتيمٌ في الحياة يعاني
وأظلّ أبكي ثائراً متألماً ... وتظل خادمتي تهز ثوان
حتى إذا ما النومُ غالبَ أعيني ... قامتْ إلى الأعمالِ وهي تراني
ترنو إليَّ.. بنظرةٍ ملهوفةٍ ... تتذكر الولدَ البعيدَ الداني
ياليت أنك كالفراش ضممتني ... ضم اللحاف لجسمي الوسنان
ياليتني.. مثل الحقيبة إنها ... محروسةٌ من ساعدي وبناني
أماهُ سُحقاً للمدارس إنها ... قتلتْ أمومتنا.. بغير سنانِ(١)

* وهذا نَفَس جميلٌ منَ الأنفاسِ المنيرية ، وقد صاغَها الدكتور محمد منير وقدّمَها لي في ذكرىٰ وفاةِ والدتي ـ رحمها الله ـ ، وأحببتُ أنْ أنظمهَا في هذا الفصل لما فيها من فؤائدَ يكتشفُها القارىء بنفسه :

إنّها الأُمُّ فَسَلْ عَنْهَا الفُؤَادا ... وَاسْأَلِ الأَيَّامَ عَنْها والسُّهادا
كيفَ ربّتكَ وكانتْ زهرةً ... فغدتْ تذوي لِتَزْدَادَ اتّقادا
كيفَ جَاعَتْ لِتُرَوّي ظَمَأً ... لِوليدٍ من حنان الصّدر جَادا
وإذا ما انْتَابَ طِفلاً مرضٌ ... تَتَمَنّى رُوْحَهَا لِلطفلِ زَادا
ربُّنَا أَهْدى لأُمٍّ فِطْرةً ... رَحْمَةً للبيتِ حُبّاً وعِمادا

(١) انظر: مجلة الأدب الإسلامي ـ المجلد السابع ـ العدد الخامس والعشرين (ص ٢٧) عام ١٤٢١ هـ.

وَثِمَارُ الأُمِّ في تَرْبِيَةٍ وَلَدٌ أَعْطَى وَفي التّعليمِ جَادا
وَلَدٌ سَارَ الهُدَى مُسْتَبْشِراً وَبِدُنْيا الخَيْرِ يَوْمَاً كَمْ أَفَادا
يا أبا النّور(١) وَمَهْمَا فَاضَ بي مِنْ بَيَانٍ يُنْزِلُ الأمَّ الفُؤادا
لنْ تُوَفّى الحقَّ هَيْهَاتَ وكَمْ قَصّرَ البَاذِلُ مِنّا إنْ أَرَادا
إنّ حَقَّ الأم في أبنائِها بِرُّهَا الدّهْرَ وَنُهْدِيهَا الوِدَادا
يا أبا النور وَإنّي عَارِفٌ أَنَّ في قَلْبِكَ للأُمّ المِهادا
وَلَهَا حُبٌّ إذا أَظْهَرْتَهُ سَيُغَطّي الأرضَ والدّنيا امتِدَادا
لاحَ يَوْمَ الفَقْدِ مِنْهُ أَثَرٌ سَاجِمُ الدّمْعِ هَمَى يَسْقي جَوَادا
كنتَ بَرّاً طائعاً تَذْكُرُهَا لِخصالِ الخَيْرِ أَسْلَسْتَ القِيادا
كمْ ذَكَرْتَ الفَضْلَ في تَرْبِيَةٍ لِوَصَايَا الأُمِّ عَقْلاً وَسَدَادَا
وَنَشاطاً مَا وَنَى عن عَمَلٍ لِيكُوْنَ البَيْتُ ظِلاً وارتيَادا
أَغْزَرُ الدّمع لِعَيْنٍ قد بَكتْ عَيْنُ نَجْلٍ وَدّعَ الأمَّ افتِقَادا
وإذا مَا كَانَ بَرّاً فَلَها صَلَواتٌ تَرْفَعُ الأَجْرَ اطّرَادا
إحْمَدِ الله أبا النّور وَكُنْ خَيْرَ مَنْ يَبْقَى لَهَا ذُخْراً وزادا
نحنُ أضحينا كباراً وَلَنَا فَلَذَاتٌ أَيْقَظوا فِينَا الرّشَادا
فَعَرَفْنَا قِيمَةَ البِرِّ بهَا فَسَعَيْنا لِلرّضَا نَبْغي ازْدِيَادا
أَيُّها الأبناءُ بِرُّوا أُمَّكُمْ في حياةٍ واجْعَلُوا البِرَّ مُرَادا
واجعلوا البِرَّ لِنَفْسٍ زَادَهَا لِتَفِيْضَ النَّفْسُ حُبّاً وانْقِيادا

* ومن أجملِ الأدبيّاتِ الهامسةِ الجميلةِ في رثاءِ الأمّهات ما وردَ على ألسنةِ الشّعراء، ولعلَّ من أصدقِ الرِّثاء وأجملِ الوفاء للأمّهات قصيدة الشّريف الرضيّ «الهمزية» في رثاء أمّه فاطمةَ بنتِ النَّاصر التي مطلعُها:

أبكيكِ لو نقَعَ الغليل بكائي وأقولُ لو ذهبَ المقالُ بدائي
وأعوذُ بالصَّبرِ الجميلِ تعزّياً لو كان بالصَّبرِ الجميلِ عزائي
ما كنتُ أذخرُ في فداكِ رغيبةً لو كان يرجعُ ميتٌ بِفِداء

---

(١) كنية المؤلف.

* ويتابعُ وصْفَ حزنهِ ، ويصفُ أمَّه بالعفّة والزُّهد والعبادة فيقول:

أنضيتِ[1] عيشكِ عفّةً وزهادةً — وطرحتِ مثقلةً من الأعباء
بِصيامِ يومِ القيظِ تلهبُ شمسُه — وقيامِ طولِ الليلةِ الليلاء
ما كان يوماً بالغَبِين مَنِ اشترى — رغدَ الجنان بعيشةٍ خشناء

* وأمُّ الشَّريف الرضي أمٌّ كريمةٌ ، فهو يفضّلها عن الآباء لأنَّ مثيلاتها يغنين عنهم بالفضلِ والمعروفِ ، والعمل الصَّالح الذي يبرزُ فضْلَها دائماً ، يقول:

لو كان مثلُكِ أمّ أم بَرّةٍ — غني البنون بها عنِ الآباء
كيف السّلوُ وكلُّ موقع لحظة — أثرٌ لفضلِكِ خالد بإزائي
فعلاتُ معروفٍ تقرّ نواظري — فتكون أجْلَب جالبٍ لبكائي
ما ماتَ مَنْ نزعَ البقاءَ وذكرُهُ — بالصَّالحات يُعَدُّ في الأحياء

* ويذكُرُ الشّريفُ الرضي مواقفَ أمّه ، ويعدّدُ بعضَ مآثرها ، ويصفُ كيف كانت تقيهِ النّوائب ، وكيف كانت تغدقُ عليه المالَ ، وهي رضيةُ النَّفْس تواسيه في كلّ ما تستطيع ؛ فيقول متسائلاً :

ومَنِ المُمولُ لي إذا ضاقَتْ يدي — ومن المُعلل لي مِنَ الأدواء
ومَن الذي إنْ ساورتْني نكبةٌ — كان الموفّي لي مِنَ الأسواء
شهدَ الخلائقُ أنّها لَنجيبةٌ — بدليل مَنْ ولَدتْ من النُّجباء
في كلّ مظلم أزمة أو ضيقة — يبدو لها أثرُ اليدِ البيضاء[2]

* وهذا الرثاءُ من الشَّريف الرضي يكشفُ لنا عن هذا النوعِ الأصيلِ للمرأةِ والأمِّ العربية المسلمةِ ذات المنبتِ الحسَن والتّربيةِ الصّالحة ، فكانت أمّاً ذات سداد وصلاح وفضْل.

* ويرثي شاعر الرَّاثين ابن الرّومي أمّه في ميميةٍ جميلةٍ ، لكنّه لم يبلغْ مبلغ الشّريف الرضي في تقديمِ صورة الأمّ الرائعة ، إلا أنَّ ابنَ الرّومي ذي النَّفَسِ الشِّعْري الطّويل أبدعَ في رثاء أمّه بعاطفةٍ صادقةٍ بدأها بقولهِ مخاطباً عينيه :

---

(١) «أنضيت»: أبليتِ.
(٢) ديوان الشريف الرضي (١/ ٢٦).

أفيضا دماً إنَّ الرّزايا لها قيمْ فليس كثيراً أنْ تجودا لها بِدَمْ
ولا تستريحا منْ بكاءٍ إلى كرىً فلا حمد ما لم تسعداني على السّأمْ
رزيئة أمّ كنتُ أحيا بروحِها وأستدفعُ البلوى واستكشفُ الغمَمْ
وما الأمُّ إلا إمّةٌ في حياتِها وأمّ إذا فادت وما الأمّ بالأمم[1]

* ويعدد ابنُ الرّومي مآثر الأم بعامةٍ فيقول:

هي الأمُّ يا للنّاس جُرِّعتُ ثُكْلَها ومن يَبْكِ أمّاً لم تُذَم قطّ لا يذَمْ
خليليّ هذا قبْرُ أمّي فورِّعا من العذلِ عنّي واجعلا جابتي نعمْ
أأمرحُ فوقَ الأرضِ يا أمُّ والثّرى عليكِ مهيلٌ قد تطابقَ وارتكمْ
عزيزٌ علينا أنْ تموتي وأنّنا نعيشُ ولكنْ حُكِّمَ الموتُ فاحتكَمْ

* ثم يعدد مناقبَ الأمّ فيقول:

ألا مَنْ أراهُ صاحباً غير خائن ألا مَنْ أراه مؤنساً غير محتشمْ
ألا مَنْ تليني منه في كلّ حالةٍ أبرّ يد برّتْ بذي شعث يُلمّْ
ألا مَنْ إليهِ أشتكي ما ينوبني فيفرج عنّي كلّ غمٍ وكلّ همْ

* ويختمُ ابن الرومي مرثيته بقوله:

رجعنا وأفردناكِ غير فريدة من البرِّ والمعروفِ والخيرِ والكرمْ
فلا تعدمي أُنْسَ المحلّ فطالما عكفتِ وآنستِ المحاريبَ في الظُّلمْ

* ومن الشُّعراء المعاصرين الذين حلّقُوا في رثاءِ الأمّ الشّاعِرُ المِفَنّ «عبد الله عبد الرحمن الزّيْد» الذي رسَم بحروفهِ المعبّرة مكانةَ الأمّ وفَضْلها ، وتقواها وعبادتها ، وصِلَتها مع الله عزّ وجلّ. . . فالأمُّ صباحٌ يمدُّ أسبابَ الضَّياء ، وهي اليَنْبُوع إذا جفَّ الحنان؛ والأمّ كلّ شيءٍ في حياةِ الشّاعر ، فهي روحُ الحياةِ وحياةُ الرّوح ، وقد استخدم الشّاعر قافية اللامِ في تعبيرِهِ عمّا يعتملُ في أعماقهِ من حزن ، فجاءت قافيةً شفّافةً رقّافةً ، ساحرةَ الألفاظِ ، حلوةَ الوقْع على النَّفس لأنّها انبعثَتْ من القلبِ تحملُ بالغَ التأثّر بالعاطفة الصّادقةِ ، والكلمةِ المعبّرة ، والصّورة الموحية ، يقول:

---

(١) ديوان ابن الرومي (٣/ ٢٨٨) ومعنى «الإمّة»: النعمة. و«الأمُّ»: ضربُ أمّ الدماغ.

يا فجوةً في مغيبِ الأرض إنْ ذهلتْ ... منكِ الزّوايا وشابَ الظّلُ والمثلُ
فأورقي بالذي قد بثَّ بارئها ... في الوجْه والكفّ ممّا ظلَّ يبتهلُ
ضمّي فواصلَ حبٍّ ما خَبَا أبداً ... وأشرقي بوميضٍ ليس ينفصلُ
وأسبغي من رفيفِ الفيضِ واكفةً ... وأنبتي شجراتِ ظلّها الأملُ
وباركي رحماتِ الربّ إنَّ لها ... على الحبيبةِ وجهاً بوْحُهُ ثملُ
كوني رياضاً بقربِ اللهِ واحتفظي ... بالنّبل والفَضْل والطّيب الذي يصل

* ومنها قوله يُذَكِّرُ الأبناء بفضلِ الأمّهات ومكانتهنّ:

فليس في خطراتِ الموتِ من لغةٍ ... تعيرني ظلها والصّبر يشتعلُ
غادرتُ كلَّ معاني الفعْل في كَلِمي ... الرّوح موصدةٌ والعجزُ ينفتلُ
وأبذلُ الآن دمعاً لا يغادرني ... وأقتفي أثرَ الماضين إذ بذلوا
يا فجوةً في حنايا الأرض حلَّ بها ... مندوح روحي بروحي يصعدُ الأزلُ
ترفّقي برفاتِ الودّ وانتظري ... في كلّ مغربِ شمس تشرقُ السُّبلُ

* والشّاعر الزّيد يسكبُ عواطفَه الصّادقة في هذا الرثاءِ الذي يكشفُ عن سكينةِ نفسهِ أمامَ جلالِ الموقف ، ويكشفُ عن برّه بأمّه التي غادرتِ الدنيا ولسانُها لا يفترُ عن الذّكْر والتّسبيح.

* وقد استخدمَ الأديبُ عبد الله الزيد كلماتٍ وجملاً وتعابيرَ تحرّكُ مشاعر الأبناء ، وتنسكبُ في وجدانهم؛ وتحثّهم على البرّ بأمّهاتهم ، ومن الممتع أنَّ أسلوب الزّيد قد توشّح بالخيالِ والصّور الفنية المتّزنة التي تضفي على رثائهِ وشاحاً من الرّونقِ والجمالِ ، إذِ استخدمَ ذلك استخداماً طبيعيّاً مناسباً للحالِ والموقف ، ومن ذلك الأسلوب قوله: «ضمّي فواصل حبّ ما خَبا أبداً ، أنبتي شجراتِ ظلّها الأمل ، ترفّقي برفاتِ الودّ ، في كلّ مغرب شمس تشرقُ السُّبُل..».

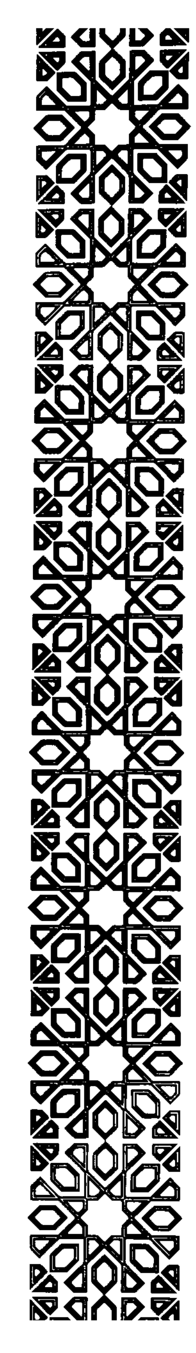
* ولا أريدُ هنا أنْ أسلكَ مسلكَ النَّقد ، ولكنّي أحببتُ أن أُبيِّنَ للمربّين كيفَ يوجّهون الأبناء إلى مكانة الأمّهات ، وأنّهم إذا فقدوا نبْعَ الحنان عاشُوا في حسراتٍ وآلامٍ لا يشفيها البكاءُ ولا العويل.

* ونختم هذه النّفحات بهذه الهمساتِ لعبد الله الزَّيد في متابعةِ رثائهِ لأمّه ، ولكنْ بهذه التّرنيمات ؛ وهذه الزّيديّات الموقظات :

واريتُ نبعاً من شفاءِ مواجعي
واريتُ ما يندى به صَدْري
ويورقُ خافقي
واريتُ رائحتي
ومأوى قُبْلتي
واريتُ ضمّة رحمة أحيا بها
وجناح ذلّي
غابَ مُنْخَفض له
فتملكَتْ وجهي وإفصاحي مغاربُ سحنتي
لله ما أشقىٰ بهِ
لله ما يمسي ويصبحُ مترعاً من حسرتي[1] .

* * *

(١) ديوان: وانبسطت أكفّ الرفاق لعبد الله الزيد (ص ٧ ـ ٢٠) باختيار واختصار.



الباب الثاني

آباء وأبناء

الفصل الأول : أبناء آدم عليه السلام

الفصل الثاني : أبناء نوح عليه السلام

الفصل الثالث : أبناء إبراهيم عليه السلام

الفصل الرابع : أبناء يعقوب عليه السلام

الفصل الخامس : سليمان بن داود عليهما السلام

الفصل السادس : يحيى بن زكريا عليهما السلام

الفصل السابع : ابن لقمان عليه السلام

الفصل الأول

أبناء آدم عليه السّلام

* إنَّ في القرآنِ الكريمِ أنباءً شتى عمَّنْ سبقَنَا من أنبياءِ اللهِ ورسلهِ ، وعن المؤمنين والحكماء ، كما أنَّ فيه أنباءً عن الكفرةِ والمفسدين ، بيد أنَّ الذي يهمّنا في هذا البابِ علاقةُ الأبناءِ مع الآباء ، وتربية الآباء لأبنائهم ، ومن ثمَّ نستلهمُ من ذلك بعضَ الفوائدِ والعبر التي تصلحُ لتربيةِ الأبناء والنَّاشئة.

* وأنباءُ القرآنِ من أشهى القَصصِ لدى نفوسِ الأبناء ، إذ فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ ، وتستحليهِ القلوبُ ، وخصوصاً إذا كانت تحكي أخباراً لأبناء الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ.

* وأظنُّ أنَّ أبناءَنا في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يحبّون هذا النَّوعَ من الأنباءِ والأخبارِ التي سجَّلَها القرآنُ الكريمُ ، وهناك كثيرٌ من الأبناء يودّون المزيدَ من القَصَص القُرآنيّ ، ويتفاعلون معه ، ويستمعون إليه بشغفٍ وحبّ ، كما أنّ كثيراً منهم يحبُّ قصَّةَ نبيّ أكثرَ من غيرِها ، ومهما أعادهَا المربيّ على مسامعهِ فإنّه لا يملُّ ولا يسأمُ.

* لذلك حرصتُ من خلالِ هذا الباب أنْ أفتحَ نافذةً إلى قلوبِ الأبناء بذكْر نبذةٍ عن حياةِ أبناءِ الأنبياء عليهم السلام ، وأذكرُ بعضَ الأحداث التي أثّرتْ في حياتِهم ، وكيف كانت علاقاتُهم مع آبائهم ، وكلّي أملٌ أنْ ينتفعَ الأبناء والمربّون بهذا الباب خاصّة ، وبالكتابِ عامّة ؛ ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

* إنَّ في قصّةِ آدمَ[1] مع أولادِهِ عظة وعبرة ، كما أنَّ فيها دروساً قَيِّمَةً ترشدُ الأبناء إلى سلوكِ طريقِ الهدى والرّشاد ، وإلى طاعةِ ربّ العباد .

* وقبل أنْ نحكيَ قصّة آدمَ مع أولادِهِ ، نحبُّ أنْ نرويَ موجزَ قصَّتِهِ منذُ البداية ، لتكونَ أحْلىٰ وأجْملَ وأكثر وقعاً في النّفوس .

* خلقَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ آدمَ من طينٍ ، ثم أمرَ الملائكة بالسُّجود له على وجْهِ التّحيّة له والتكريم ، واعترافاً بفضله ، فامتثلَ الملائكةُ الكرامُ أمرَ الله عزَّ وجلَّ ، وسجدوا لآدمَ؛ غير إبليس فإنّه كان من الجنّ ، فأبى أنْ يسجدَ ، واستكبرَ ، وزعمَ أنّه خيرٌ من آدم ، وأنَّ اللهَ خلقه من نارٍ؛ والنّارُ بزعمهِ الباطل أشرفُ من الطِّين[2] .

---

(١) أودُّ أن أشيرَ هاهنا إلى ناحية مهمةٍ جداً ، وهي أنَّ آدم عليه السَّلام كان رسولاً ، فآدم أولُ الخلقِ ، وكان لابدّ أنْ ينزلَ بمنهجٍ منَ الله عزَّ وجلَّ يتّبعه ويعلّمه لأولادِهِ الذين يعلّمونه لأولادهم وهكذا؛ فلا يمكن لآدم أنْ ينزلَ إلى الأرض ليعيشَ تائهاً بلا منهجٍ من اللهِ عزّ وجلّ ، لذا فقد اصطفاه الله بالرّسالةِ ثم الذّرية .
ومن الفوائد المهمة لأبنائنا أنْ نذكرَ لهم أسماءَ أنبياءِ اللهِ ورسلهِ حسب إرسالِ الله عز وجل لهم وهم: «آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، لوط ، إبراهيم ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، هارون ، موسى ، داود ، سليمان ، أيوب ، ذو الكفل ، يونس ، إلياس ، اليسع ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، ومحمد عليه الصلاة والسّلام» .
وعدد هؤلاء الأنبياء خمس وعشرون نبياً ، وقد نظمهم الشّيخ محمد الدمنهوري المتوفى سنة (١٢٨٨ هـ) حسب إرسالِ الله عزّ وجلّ لهم فقال :

ألا إنَّ إيمــانــاً بِــرُسْــلٍ تحتَّمــا ... وهــمْ آدمٌ إدريــسُ نــوحٌ علــى الــولاَ
وهــودٌ وصَــالــحٌ لــوطُ مــع إبْرَهِــمْ أتــى ... كــذا نجلُــهُ إسمــاعيــلُ إسحــاقُ فُضِّــلا
ويعقــوبُ يــوســفُ ثــم يتلــو شُعَيْبُهــم ... وهــارونُ مــع مــوســى وداودُ ذو العُــلا
سليمــانُ أيّــوبٌ وذو الكِفْــلِ يــونُــسٌ ... وإليــاسُ أيضــاً واليَسَــعْ ذاكَ فــاعِقــلا
كــذا زكــريّــا ثــم يحيــى غــلامُــهُ ... وعيســى وطــه خــاتِمــاً قــد تكَمَّــلا
وقــد تــمَّ نظمــي جمْــعَ رُسْــلٍ مــرتّبــاً ... لهــمْ حسْــبَ إرســالٍ كمــا قــالــه المــلا
عليهـــمْ صـــلاةُ الله ثـــم ســـلامُـــهُ ... يَــدُومــانِ مــا دامَ الأراضــي ومــا عــلا

(مجموع مهمات المتون ص ٤٥) .

(٢) كان الملائكةُ الكرامُ أمامَ أمرٍ صريحٍ واضحٍ منَ اللهِ عزّ وجلّ يأمرهم بالسّجود لمَنْ سوّاهُ بيده ، ونفخ فيه من روحه ، فامتثل الملائكة الأمر الرّباني ، إذ إنّ طبيعتَهم النّورانية ، وتقديسهم لله=

* وكان من نتيجةِ استكبارِ إبليس عن طاعةِ الله بالسّجود لآدمَ ، أنْ طردهُ اللهُ من الجنَّة ، لأنَّ الجنَّةَ دارُ الطّائعين ومثوى العابدين.

* ومنذ ذلك الحين ، كشفَ إبليسُ اللعينُ عن حقدِهِ وحسدهِ وعداوتهِ لآدم وذرّيته ، وعزمَ على إيذائهم جميعاً وإضلالهم ، وإبعادهم عن الصّراطِ المستقيمِ ، وإغوائِهم بما يقدرُ عليه من سبلِ الغواية إلاّ مَنْ عصمَ اللهُ ، وهم المخلصون من أبناء آدم.

* وبعد أنْ طردَ اللهُ عزَّ وجلَّ إبليسَ من الجنَّةِ لاستكباره ومَكْرِه ، أسكنَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدمَ وزوجَه في الجنَّةِ ، وأباحَ لهما أنْ يأكُلا منها من حيثُ شاءا ، إلاّ منْ شجرةٍ واحدةٍ ، حدَّدها لهما ، ونهاهما عن الأكلِ منها ، والاقتراب منها.

* ولما رأى إبليسُ الإنعامَ الإلهيَّ على آدمَ وزوجه ، دبَّ الحسَدُ في قلبهِ ، وأخذَ يسعى في طرقِ المكْرِ والخديعةِ والوسوسةِ ، حتى يسلبهما هذا الإنعام الرّبانّي الجميل ، وراحَ يوسوس لهما بصوتٍ خفي لإغرائهما بالأكل من الشَّجرة ، ويحلفُ ويقسمُ بِأَغْلَظِ الأقسام ويقول لهما: ما نهاكما ربّكما عن الأكلِ من هذه الشَّجرةِ إلاّ كراهية أنْ تكونا ملكَيْن من الملائكةِ ، أو تكونا خالديْن هاهنا في الجنَّة.

* وأخذَ إبليسُ اللعين يحلفُ لهما أنَّه ناصحٌ لهما فيما يقولُ في خِدَاعِهِمَا؛

= سبحانه تقديساً تاماً يفرضان عليهم استجابة الأمر الإلهي ، وكان مختلطاً بهم مَنْ يعبدُ الله على حرف ـ وهو إبليسُ ـ فقد كانت عبادته مباهاة ولم تكنْ خالصةً لله ، فلمْ يسجدْ ، وخالفَ الأمرَ الإلهي ، مع علمهِ بأنَّ الأمر يشمله ، ولكنّه كان من الجنّ فَفَسَقَ عن أمر ربّه ، قال البيضاوي: «وفيه دليلٌ على أنَّ المَلَك لا يعصي البتةَ ، وإنما عصى إبليسُ لأنّه كان جنّياً في أصله» ، فسجود الملائكة لم يكن إذن سجوداً لجسمِ آدمَ الذي هو مَنْ طينٍ ، وإنّما كان سجوداً:

١ ـ لبديع صنع الله عزَّ وجلَّ.

٢ ـ لهذا القبسِ من روح الله عزَّ وجلَّ في آدمَ.

٣ ـ للأمر الإلهي الصّريح بالسّجود.

فسجودهم إنما كان لله عزّ وجلَّ ، والسّجود لله دائماً تشريفٌ للسّاجد ، وبالتالي نَعِمَ السّاجدون وفازوا برضوان الله ، بينما خسر إبليس وخابَ وطُردَ من رحمة الله.

وقد يُخْدَعُ المؤمنُ بالحلفِ بالله؛ وانخدعَ آدمُ وزوجُه حوَّاء بقولِ إبليس ، فأكلا من الشَّجرةِ الممنوعة ، وعندها أخذتْهما العقوبةُ وشؤمُ المعصية.

* علم آدمُ وحواءُ أنَّ إبليسَ قد خدعهما ، وأوقعهما في مخالفةِ اللهِ عزّ وجلّ ، فَنَدِمَا ، وتوجَّها إلى اللهِ تائبَيْن من الذَّنب ، طالبَيْن المغفرةَ والرّحمةَ من الغفورِ الرَّحيم ، ودَعَوَا اللهَ بخشوع وتضرُّع ، فتابَ اللهُ عليهما ، وأخرجهما من الجنَّة ، وجعلهما في الأرضِ ، وأخبرهما بأنَّ إبليسَ عدوّاً لهما ولأولادهما. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

* ومنَ الملاحظِ في هذه الآيةِ أنَّ المخاطَب: آدم وحوّاء وإبليس ، فالعداوة هنا مسبقة وظاهرة بين الإنسان والشَّيطان ، وستسمرُّ على الأرضِ. فالقرآنُ الكريمُ كلُّ حرفٍ فيه بميزانٍ لأنَّه كلامُ الله عزّ وجلّ ، وحينما يقول: ﴿عَدُوٌّ﴾ نعرفُ أنّه سيكون هناك صراعٌ وعداءٌ بين ذرية آدم وذرية إبليس في هذه الدّنيا ، فإذا ماتَ الإنسانُ انتهى الصّراع بينه وبين إبليس.

* وفي قوله تعالى: ﴿وَمَتَـٰعٌ﴾ نافذةٌ تجعلُ المؤمنَ الصّالحَ ينظرُ إلى الصّراع مع الشَّيطان في الحياة الدنيا ـ على الرغم مما يسببه من متاعب ومشاق ـ على أنّه متاع ، لأنَّ ذلك سيقودُهُ إلى الجنّةِ في الآخرةِ ، فكأنَّ هذا الصّراع بالنسبةِ للمؤمن يكون متعة كلما استحضرَ الجزاء الكبير الذي سيحصلُ عليه في الآخرةِ ومتعة محددة بوقتٍ ، لأنَّ لها نهاية.

* وفي الأرضِ تكونتِ الأسرةُ الأولى ، وكانت حوّاء تحملُ توءماً كلّ حملٍ ، فكانت تضعُ ذكَراً وأنثى ، وهكذا حتّى كثُر أولادهما وعَمَروا الأرض. «وذكروا أنَّه كان يُولدُ له ـ لآدم ـ في كلِّ بطنٍ ذكرٌ وأنثى ، وأُمِرَ أنْ يُزوجَ كلَّ ابنٍ أختَ أخيه التي وُلدتْ معه ، والآخر بالأخرى ، وهلم جرا ، ولم تكُنْ تحلّ أخت لأخيها الذي وُلدَتْ معه»[1].

* كان لآدمَ إذاً أبناء كثيرون ، ولكنَّ ولَدَيْن من أبنائه ذكرَهُما اللهُ عزّ وجلّ

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٥٤).

في قصّةٍ عجيبةٍ في سورة المائدة ، وهذان الابنان هما : قابيل ، وهابيل[1] . فما قصّتهما؟

* قصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ علينا خبرَ ابني آدم هذَيْن وهما قابيلُ وهابيلُ ، وكان من خبرِهما أنَّ اللهَ قد شرعَ لآدمَ أنْ يزوّج بناتِهِ من بنيهِ لضرورةِ الحال ، وكان يُولَدُ له في كلّ بطنٍ ذكَرٌ وأنثى ، فكان آدمُ عليه السَّلام يزوّجُ أنثى هذا البطن لذكَرِ البطن الآخر ، وكانت أختُ هابيل دميمةً ، وأختُ قابيلَ وضيئةً ، فأرادَ قابيلُ أنْ يستأثرَ بها على أخيهِ ، فأبى آدمُ ذلك إلاّ أنْ يقرِّبا قُرباناً ، فَمَنْ تُقُبِّلَ منه فهي له ، فتُقبّلَ من هابيلَ ، ولم يتقبلْ من قابيل ، فكان أنْ لعبَ الشَّيطانُ بنفسِ قابيل وحسَدَ أخاه لتقواه ، وعزَمَ على قَتْلِهِ؛ وراحَ يمعنُ في العداوةِ لأخيهِ ولأبيهِ آدم. . . !!! . . . .

* والآن دعونا نقرأ قصَّة القُربان في القُرآنِ الكريم ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٢٧] .

* قال المفسّرون ما مفادُه : «إنَّ ابني آدم كان أحدهُما صاحبَ زرعٍ وهو قابيل ، بينما كان الآخرُ صاحب غَنَمٍ وهو هابيلُ ، وإنهما أُمِرا أنْ يقرّبا قُرْباناً ، فقدَّمَ قابيلُ شرَّ زرعهِ وهو غير طيّبِ النَّفس ، وقدَّمَ هابيلُ خيرَ غنمهِ وأفضلَها وأسمنَها بنفسٍ مترعةٍ بالطِّيْبِ ، فتقبَّل اللهُ قربانَ هابيل ، ولم يتقبلْ قربان قابيل»[2] .

* ولما علمَ قابيلُ بهذا لعبَ به الحسَدُ ، وأخذهُ ما قربَ وبَعُدَ ، وحسدَ أخاه وغضبَ عليهِ وقال له : «لقد تُقُبِّلَ قُرْبانُكَ ولم يتقبّل منّي ، واللهِ لأقتلنَّك» .

---

(١) أما أنّهما ابنا آدم عليهِ السَّلام لصُلْبِه ، فهو القول الثّبتُ الصحيح الذي يدلُّ عليه سياق الآياتِ مؤيداً بالسُّنَّةِ الصَّحيحة .
وأمَّا تسميتها «قابيل وهابيل» فإنما هو منْ نقلِ العلماء عنْ أهلِ الكتابِ ، لمْ يَرِدْ في القرآن الكريم ، ولا جاء في سنّةٍ ثابتةٍ ، فليس من دليل أنْ نجزم به ولا نرجحه ، وإنما هو قولٌ قِيْل ، والله أعلمُ بالصّواب .

(٢) انظر تفسير القرطبي وابن كثير للآية (٢٧) من سورة المائدة مع الجمع بينها .

* فقال له أخوه هابيل: «وما ذنبي يا أُخَيَّ، إنّما يتقبّلُ اللهُ عزَّ وجلَّ ممّن اتّقاه وخافَه. ولئن مددتَ إليّ يدك لِتقْتُلني ظلماً، فلنْ أفعلَ أنا ذلك، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وسأصبرُ وأحتسبُ».

* لكنَّ قابيلَ لم ينفعْهُ وعْظُ أخيهِ هابيل، فأخذَ هابيلُ يخوّفه من عذابِ الآخرة، وحذَّره لئلا يكونَ من أهلِ النَّار في الآخرة، لأنّه يريدُ قَتْله ظُلماً، والنّارُ جزاءُ الظَّالمين ومثواهم، ومع هذا الوعظِ الخاصِ من هابيل، لم يرعوِ قابيلُ عن عزمِهِ، ولم تثنهِ كلماتُ أخيه الطّيِّبة عن إجرامه، ولم تتحركْ نفسُه وتستجبْ لمعاني الإيمان والخوف من الله عزّ وجلّ، بل لم تتأثرْ عاطفةُ الأخوةِ وعاطفةُ الشَّفقة على هذا الأخِ النَّاصح الطَّيِّب الذي يرفضُ مقابلةَ السَّيئة بالسّيئةِ.

* كان شيطانُ الحسدِ قد عشَّشَ في صدرِ قابيل، وباضَ وفرَّخَ واستقرَّ في أغوارِ نفسهِ الظَّالمة التي سوّلَتْ وحسَّنَتْ له قَتْل أخيهِ هابيل، وراحَ يتوعّده ويهدّده.

* وجاءت ساعة الإجرامِ الأولى في دُنيا الإجرام والقَتْل وهدْرِ الدّماء، ونَفَثَ قابيلُ سمومَ الحَسَدِ، وعدا على أخيهِ قابيل فقتلَه ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

* وأودُّ أنْ أشيرَ إلى ناحيةٍ مهمّةٍ في مسألةِ قابيلَ وهابيلَ، وهما أنهما قد اختلفا، ولكنَّ القرآنَ الكريمَ لم يُقلْ لنا على ماذا اختلفا؛ ولو كانت المسألةُ مهمّةً وفيها فائدةٌ لبني البشَر لأظهرها اللهُ للنّاس في القرآن الكريم، لكنّ الظّاهر أنَّ خلافاً ما قد وقَعَ بينهما، وأنّهما قَرَّبا قُرباناً، فتقبّل اللهُ عزَّ وجلَّ القُربانَ الذي أخْلَصَ صاحبه فيه للهِ عزَّ وجلَّ، ففازَ برضاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فحسدَهُ الآخر فقتلَهُ فخابَ وخَسِرَ في الدَّارَيْن.

* كما أنني أودُّ أنْ أستثيرَ هاهنا ما جاءَ في بعض المصادر من أنَّ سببَ قتْلِ قابيل أخاه هابيل الخلاف من أجلِ امرأة، إنّما هو سببٌ ظاهِرُهُ الاختلاق، وباطنه الإسرائيليّات، إذ ليس هناك مِنْ ظاهر القرآن الكريم ما يؤيد ذلك، ولا يوجد في صحيحِ السُّنّة ما يعضدُ ذلك أيضاً، وفي القصة آثار الصَّنعة

والاختلاق والوضعِ الإسرائيلي ، فهؤلاء الوضّاعون حرصوا حرصاً واضحاً أنْ يجعلوا سببَ كلّ فَساد معلقاً بالمرأة ، وحرصوا على أنْ يضعوها دائماً موضعَ اللوم والعتاب ، بل إنَّهم نسبوا إلى أنبيائهم كثيراً من الأمور القبيحة بسبب النساء. ويكفي الباحثين والمنصفين وطالبي الحقّ والخبر الصّحيح أنَّ ظاهرَ القرآنِ الكريمِ ، وصحيح السُّنّةِ الغرّاء لم يشيرا إلى شيءٍ من ذلك مطلقاً.

* وممّا يعضدُ ما قلناهُ آنفا رواية عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ليس فيها ما يدل على التّنافسُ والصّراع على المرأةِ ، بل تشيرُ بوضوحٍ تام إلى أنَّ السَّببَ الحقيقي في القَتْلِ إنما هو الحَسَدُ الممزوج بالحقْدِ والغيرة.

* قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فبينا ابنا آدمَ قاعدان ، إذْ قالا: لو قرّبنا قرباناً، وكان الرَّجلُ إذا قرَّب قرباناً فَرضيَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ أرسلَ إليهِ ناراً فتأكله ، وإن لم يكنْ رضيَهُ خَبَتِ النَّار ، فقرّبا قرباناً؛ وكان أحدُهما راعياً ، وكان الآخرُ حرّاثاً ، وإنَّ صاحبَ الغنمِ قرّبَ خيرَ غنمهِ وأسمنها، وقرّبَ الآخرُ بعضَ زرعهِ ، فجاءتِ النّار فنزلت بينهما ، فأكلتِ الشّاةَ وتركَتِ الزَّرع؛ وإنَّ ابنَ آدمَ قالَ لأخيه: أتمشي في النّاسِ وقد علموا أنَّكَ قرّبْتَ قُرباناً فتقبّلَ منكَ ورُدَّ عليّ ، فلا واللهِ لا ينظرُ النّاسُ إليَّ وأنتَ خيرٌ منّي، فقال: لأقتلنَّكَ، فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنّما يتقبّل اللهُ منَ المتّقين»[1].

* علم آدمُ عليه السَّلام بسوءِ ما صنَعَه قابيل في حق أخيهِ هابيل ، وحزنَ على ابنهِ حزناً شديداً ، فقابيلُ القاتلُ وهو ابنه ، وقَتَلَ مَنْ؟! قتَلَ أخاه وهو ابنه أيضاً ، فهو أبو الاثنين ، ألاَ ما أصعبَها من لحظات على آدم ، وما أقْسَاها من فاجعة ! لقد خَسِرَ ابنَه قابيل دِيْنَه ودنياه ، خسرَ أباهُ وأخاهُ وأمَّهُ ، وفَقَدَ بذلك النَّاصرَ والرَّفيق والشَّفيق، فَقَدَ الحنانَ والإيمانَ والأمانَ، فما تهنأُ للقاتلِ حياةٌ ، ولقد خسرَ قابيل كلّ شيءٍ ، خسرَ البدايةَ والنّهايةَ ، وباءَ بإثمهِ الأوّل والأخير.

* وبعد أن اقترفَ قابيلُ ما اقترفَ ، تركَ أخاه هابيل مضرّجاً بدمهِ ، وحارَ ما يصنعُ به ، فقد كان ابنُ آدم هابيل أوّل مَنْ قُتِلَ في التَّاريخ البَشَريّ ، ولم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣).

يعرفْ كيف يدفنه ويواريه ، وهنا تجلَّتْ حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فبعثَ غُراباً ليري قابيل كيف يدفن أخاه ، وحفرَ الغرابُ حفرةً في الأرض ودفَنَ فيها غراباً آخر ميتاً ، وهنا تعجّب قابيل من جهله ، واقتدىٰ بما فعل الغراب ، ودفَنَ أخاه ، واعترفَ باستحقاق العذاب فقال: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١][1].

* هذه قصَّةُ اثنَيْن من أبناءِ آدم ، قصّة قابيل الذي قتلَ هابيل ، فَسَخِطَ عليه أبواه وإخوتُه ، وقادَهُ الحَسَدُ لأنْ يفعلْ الأفاعيل والمناكير.

* يحسنُ بالوالدَيْن وبالمربّين أنْ يقفوا قليلاً عند هذه القصّة المثيرة للاستفادةِ من عِبَرِها ، وشرحِ هذه العبر للأبناء ، وغرسِ الفضائل في نفوسهم ، وتحذيرِهم من داءِ الحسَدِ المقيت.

* ويذكُرُ المربّي للأبناء بأنَّ الحسدَ داءٌ قديمٌ في البشر [2] ، وربّما يكون في أصلِ خَلْق الإنسان ، وإنّما يُستأصل من النُّفوس بالإيمانِ العميق ، وبالمعرفةِ الإسلاميّة ، ويذكر المربّي بأنَّ هذا الدّاء قديمٌ ، ويُحتمل أن يحصلَ عند أي إنسان ، فقد حسدَ قابيلُ هابيلَ وقتَلَه ، وكذلك نجدُ في تاريخِ الحاسدين حَسَدَ إخوةِ يوسُفَ لأخيهم يوسف ، وحسدَ كفَّار قريشٍ للنّبيّ ﷺ.

* ويُعَرِّفُ المربّي ماهيةَ الحسد للأبناء ، وأنَّه حبُّ زوالِ النّعمة عمَّنْ أنعمَ اللهُ عليه. والحسدُ خُلُق دنيءٌ ، وهو داعيةُ النّكد ، وصفةُ المنافق ، وأوّل ذنبٍ عُصي اللهُ به في السَّماء ، كما أنَّه أولُ ذنبٍ عُصِي به في الأرض ، وهو دعامةٌ من دعاماتِ الذُّنوب ، فقد نقل الحسدُ إبليس من جوارِ الله عزَّ وجلَّ ، وأصبحَ منَ الملعونين المقبوحين.

* وقد حذَّرَ الشّرعُ الحنيفُ منَ الحسَدِ ، لأنَّه صفةٌ ذميمةٌ ، تؤذي

---

(١) انظر: حياة الحيوان للدميري (٢/ ١٠٧) بتصرف واختصار.

(٢) الحسدُ: نوعٌ من حقد النفوس الخبيثة على النّفوس الصّافية الطاهرة ، وهو سببٌ يوجدُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهو سببٌ عام يدخلُ في نطاقهِ أسبابٌ خاصة ، إنَّ كلَّ علّة جسمية يمكن علاجها ، غير أنَّ مرضَ الحقد والحسد من الأمراض القلبية الخطيرة ، وقد أدّيا بالأخِ أنْ يقتلَ أخاهُ على غير سابقة. نعوذُ بالله من هذا المرض الخطير.

صاحبَها ، وتجرُّهُ إلى الكِبْر ، وردِّ الحقّ؛ والحسدُ يضرُّ الحاسدَ وربما ينفعُ المحسود؛ أمّا ضررهُ بالحاسدِ ، فإنّه يدخلُ الهمَّ والحزنَ إلى قلبه ، ويجرّهُ إلى معصيةِ اللهِ حيث يكره المحسود دون ذنبٍ ارتكبه ، بالإضافة إلى أنَّ الحاسدَ يتسخّطُ على قضاءِ الله عزَّ وجلَّ ، كما أنَّ الحسدَ يسوِّدُ قلْبَ الحاسدِ ويشغلُه عن ذكْرِ اللهِ ، وفي هذا خسرانٌ عظيمٌ للحاسد.

* فالحسودُ ذو نَفَسٍ دائمٍ ، وهَمٍّ لازمٍ ، وقلبٍ هائمٍ ، وكَرْبٍ عظيمٍ ، قال الشَّاعر:

إنَّ الحسودَ الظَّلومَ في كُرَبٍ ... يَخَالُهُ مَنْ يراهُ مظْلُوما
ذا نَفَسٍ دائمٍ على نفَسٍ ... يظهرُ منها ما كان مكْتُوما

* وربما كان الحسدُ منبّهاً على فَضْل المحسود ونقص الحسود ، وبهذا ينتفعُ المحسود ، ويظهر فضله ، قال أبو تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ ... طُويَتْ أتاحَ لها لِسانَ حسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ... ما كان يُعرفُ طيبُ عرفِ العُودِ
لولا التّخوّف للعَواقبِ لم يَزَل ... لِلْحَاسِدِ النُّعمىٰ على المحسودِ[1]

* وقال البُحتري:

ولنْ يستبينَ الدَّهْرَ موضعَ نعمةٍ ... إذا أنتَ لمْ تدلُلْ عليها بِحَاسِدِ

* * *

(١) انظر ديوان أبي تمام (٣/ ١٠٥).

الفصل الثاني
أبناء نوح عليه السّلام

* نوحٌ نبيُ اللهِ عليه السَّلام أحدُ الرّسلِ الذين وردَ اسمُهم كثيراً في القرآنِ الكريم ، وهو أوّلُ رسولٍ بعثَه اللهُ عزّ وجلّ إلى أهلِ الأرض بعد آدم عليه السَّلام ، أرسله الله عزّ وجلّ إلى قومهِ ، ليأمرهم بتوحيدِ اللهِ وعبادته ، ونَبْذِ عبادة ما سواه من أصنامٍ ونحوها ، ولكنّهم استمروا على كفرِهم رغم أنَّه لبثَ فيهم (٩٥٠ عاماً) ، وخلال هذه الأعوامِ والقرونِ كان يدعوهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وعلانيةً ، ويجادلُهم ويجادلونه في دعوته ، ومع هذا كلّه لم يؤمنْ معه إلّا قليلٌ ، وعندها دعا عليهم فأغرقهم اللهُ ونجّاه والمؤمنين معه برحمته.

* هذا النّبيّ الشّهيرُ الذي جاء ذِكْره في القرآن ، سمّاه الله عزَّ وجلَّ بثلاثين اسماً[١] ، وذكرهُ باسمهِ في ستّةٍ وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم[١]. وكان لنوح عليه السَّلام أبناء وَرَدَ ذكرهم في المصادرِ وهم: سامٌ ، وحامٌ ، ويافثُ[٢] ، ويام؛ ويامُ هذا هو الذي يسمّيه أهلُ الكتاب كنْعَان[٣] ، وهو الذي غرقَ ، وعَابِرُ ماتَتْ قبل الطُّوفان[٣].

* كان لنوحٍ مع ابنهِ الأخير قصّة مؤثّرة ذكرهَا القرآنُ الكريمُ ، فقد ارتدَّ وانخزلَ وانعزلَ ، ولم يؤمنْ برسالةِ أبيه نوح عليه السَّلام وسلكَ طريق الغواية والضّلال فما عدل ، وكان في نهايةِ الأمر من المغرقين ، وخسرَ الدّنيا والدّين.

---

(١) انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٦/ ٢٦ و٢٧) المكتبة العلمية ببيروت.

(٢) بصائر ذوي التمييز (٦/ ٣٠) ، وقصص الأنبياء (ص ٩٣) مع الجمع.

(٣) انظر : قصص الأنبياء (ص ٩١) بتصرف واختصار.

* حدثَ هذا بعد أنْ أعرضَ قومُ نوحٍ عن الإيمان وعن التوحيد[1] إعراضاً شنيعاً ، فكانوا يضعون أصابِعهم في آذانِهم لئلا يسمعوا دعوته إلى المغفرةِ ، ويغطّون وجوهَهم حتّى لا يسمعوا أيضاً ، وحتى لا يرى وجوههم زيادة في تنكير أنفسِهم وإعراضهم وعداواتهم وإصرارِهم على الكُفْرِ والعناد ، مع الإمعان في الاستكبار عن قبولِ الحقّ ، وزادوا الطِّينَ بلّة بجدالهم له وتكذيبهم إيّاه ، وأنّهم لن يتزحزحوا عن كفرِهم وموقفهم الضّلالي والإضلالي قِيْدَ أَنْمُلة فليصنع ما يصنع .

* وعندها أخبرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ هلاكَ هؤلاء الضّالين المستكبرين سيكون بالغرقِ ، وأمرهُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يصنعَ السَّفينة ليركبَها هو ومَنْ آمنَ معه للنّجاة والسَّلامة من الغرق ، قال الله عزَّ وجلَّ في ذلك لنوح : ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود : ٣٧] .

* طفق نوحٌ يمتثلُ أمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأخذَ يصنعُ الفلكَ ، وكان المشركون والكفّارُ من قومه يرونَه وهو منهمكٌ في عملِهِ ، فتزدادُ سخريتهم به ، ويسألونه باستهزاء وافتراء ماذا تفعلُ يا نوح ، أسفينةٌ في هذا المكان؟ ! فكان يجيبُهم بما ذكرَهُ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٨ و٣٩] .

---

(١) إنَّ التّوحيدَ هو العلامة الأصيلةُ ، والطّابع الحقيقي للدين الإسلامي ، وهو جوهرُ كل دين سماوي ، والمعنى الحقيقي للتّوحيد هو الاعتقاد اليقيني بأنَّ كلَّ مافي الكونِ منْ خلْقٍ ورزقٍ ، وعطاءٍ ومنعٍ ، وحياةٍ وموتٍ ، وغنى وفقرٍ ، وقوةٍ وضعفٍ ، وعزّ وذلٌ مردّه إلى الله عز وجل .
وإذا آمنَ الإنسانُ بالتّوحيدِ لم ينظرْ إلى غير الله عز وجل فيكون خوفه منه ، ورجاؤه إليه ، واتّكاله عليه ، وإذا اعتقد التّوحيد رأى أنَّ كل ما سوى اللهِ مسخّر للهِ ، وإذا اعتقد التّوحيد تحرر منْ ذلّ العبودية لمخلوق ، لأنَّ كل مخلوق مسخّر لله ، إنّ الكونَ كلّه في قبضةِ اللهِ ، إنّه في قبضةِ الله بالعلم والقدرة ، والإرادة والحكمة والتدبير .
وقد بشّرَ نوحٌ عليه السّلام بالتّوحيد ، وبشّرَ بالتوحيدِ كذلك جميع الرّسل ، وإذا فُهِمَ التّوحيد على حقيقته واتّخذته الإنسانية شعاراً لها ، يكون علاجاً لكثير من ألوانِ الضّعفِ في المجتمعات ، كالخوف والجبن والقلق والتّملّق والمداهنة والمراءاة وما شابه ذلك ، فالتّوحيد إذن علاج لجميع هذه الأمور التي تصيب بني البشر .

* كانت امرأةُ نوحٍ من القومِ الضَّالين المعرضين عن الحقّ والنّور والهدىٰ ، وسارتْ على دربِ قومها في العنادِ ، فكانت تنقلُ لكبراء الضّالين والمفسدين أنباءَ نوح والمؤمنين ، و بهذا كان فُجَّارُ قومهِ ومضلّوهم يؤذونَه ويزدادون في الغوايةِ والغدر.

* واقتربَ الوعدُ الرّبانيُّ ، وحانَ نزولُ العذابِ الإلهيّ بالقوم المجرمين ، وظهرتْ علامتُه بأنْ فَارَ تنّورُ الخبزِ بالماءِ ، وعند إذ أمرَ الله عزّ وجلّ نوحاً بأنْ يستعدَّ ، وأن يحمل معه في السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء . . ترى ما هي؟!

* يحسنُ بالمربّي هنا أو المشرف على تربيةِ الأبناء أن يثيرهم بالأسئلةِ والتّوقُّعَاتِ ، ثم يتابعُ لهم القصّة .

* إنَّ الأشياءَ الثّلاثة التي جاءَ الأمرُ الإلهي لنوحٍ بحملها هي :

١ـ أنْ يحملَ منْ كلٍّ زوجَيْن اثنَيْن ، ومعنى الزَّوجين : هو كلُّ شيئَيْن يكون أحدهما ذكَراً والآخر أُنْثَى .

٢ـ أنْ يحملَ أهلَه[1] المؤمنين إلاّ ابنَه الكافر ، وامرأتَه الكافرة ، فقد كان ابنهُ وامرأتُه كافرَيْن ، فحكمتْ عليهما عدالةُ الله بالهلاكِ .

٣ـ أنْ يحملَ معه مَنْ آمن من قومهِ ، وما آمنَ معه إلا قليلٌ منهم ، لا يتجاوزون عشَرات كما ذكرَ ذلك المفسّرون .

* وحمل نوحٌ في سفينته المباركةِ مَنْ جاءتِ الأوامرُ الرّبانية بحملهم فيها ، وصَعِدَ جميعُهم السَّفينةَ ، وذكر نوحٌ اللهَ ذكْراً كثيراً ودعاه في ابتداء الأمْرِ أنْ يكونَ سيرهُم على الخيرِ والبركةِ كما أخبرنا ربنا عزّ وجلّ فقال في ذكْرِ تلك الحادثة والهيئة : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١].

* في تلك اللحظاتِ الحرجةِ ، لحظات تفجّرِ عيون الأرض بالماء ،

---

(١) هذه لفتةٌ جميلةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ إلى أنَّ أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، وإنما أهليةُ المنهج والاتّباع ، فأهل الرسول هم الذين آمنوا به واتبعوه ، فإذا قاس نوح ابنه وامرأته على هذا القانون ، وجدهما أنهما ليسا من أهله .

وانْهمارِ المطَر الغزير من السَّماء ، في تلك الدّقائق الخطرة على المشركين ، تحركَتْ شفقةُ الأبوّة في قلْبِ نوح عليه السَّلام ، وأحبَّ أنْ يَسْلَمَ ابنُهُ من الغَرقِ والموت ، فناداه وكان في معزلٍ عن السَّفينةِ ، ولم يكنْ نوحٌ يعلمُ علْمَ اليقين أنَّ ابنهُ هذا كان كافراً ، وأنّه سيبحرُ في كفرِهِ مع المجرمين ، بل ظنَّ أنَّه مؤمنٌ ، ولذا فإنَّه قال له بلسانِ العطفِ والنَّصيحة والأبوّةِ الممزوجةِ بالحبِّ والحنان: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

* لكنَّ هذا الابنَ الذي غرَّهُ الشَّيطانُ واستحوذ عليه ، ولعبتْ به لفحةُ الضَّلال ، لم يستجبْ لأنداءِ الأبوّةِ وهمساتِ الحنانِ وقال مخاطباً أباه نوحاً بلسانِ الغرور: سآوي إلى جبَلٍ منِ هذهِ الجبالِ الشَّاهقةِ الغاربةِ ، وهو سيمنعُنِي من الماءِ فلا أغرق ساعتئذٍ مهما طغتِ المياه.

* وأجابَ نوحٌ ابنَهُ المغرورَ الغارقَ في بحارِ الوهْم والأوهام: « يا بنيّ لا جبلَ ولا مانعَ اليومَ من الغرقِ ، ومن رحمه اللهُ فهو ينجيهِ ويحميهِ ويعصمُه من الغرق».

* من الواضح أنَّ ابنَ نوحٍ هذا لم يكنْ قد آمنَ به ، وكان نداءُ نوحٍ له نداءَ الإيمان أوّلاً ، ثم العطف والحنان.

* وما منْ شكٍّ في أن كلمة ﴿ يَٰبُنَيَّ﴾ فيها الشَّفقة ، وفيها العطفُ ، ولكنَّ الشَّفقةَ والعطفَ لم يبلغا بنوحٍ عليه السّلام إلى أنْ يتسامح معه ابنه في الرّكوب ، ولو لم يؤمنْ ، إنَّ نوحاً يقول له في لغة الوضوح البيّنة المفهومة: «يا بني الحق بالمؤمنين في إيمانهم لتنجوَ في سفينتهم ، ولا تمكثْ مع الكافرين في كفرهم فيحيق بك سوء خاتمتهم»[1].

* ولو أرادَ نوحٌ أنْ يأخذَ ابنَه رغماً عنه في السَّفينة لفَعَل ، إنه لو أراد أنْ يطرحه أرضاً ويوثقه كتافاً فيلقيه في السَّفينة لأمكنه ذلك ، ولكنَّ الأمر لم يكن أمْرَ نجاةٍ جثمانية ، وإنما كان أمر إيمان ، ولم يكن لنوحٍ على قَلْبِ ابنهِ من سبيل ، ولم يُجْدِ مع هذا الابن شيءٌ من لوازمِ النّجاةِ.

---

(١) في رحاب الأنبياء والرسل لعبد الحليم محمود (ص ٥٩).

* وانقطعَ هذا الحوارُ[1] غير المثمرِ مع الابنِ الكافرِ الذي عملَ عملاً غير صالح ، قطعَهُ الموجُ وحالَ بينهما ، فكان الابنُ من المُغرقين ، ومن الهالكين ، في حين نجا مع أبيه الأجانبُ في النَّسبِ ، لأنّهم كانوا موافقين في الدِّين والمذهب ، ممتثلين أمْرَ الله .

* ولما تمَّ هلاك قومِ نوح ـ ومعهم ابنُه وامرأتُه ـ بالغرقِ بالماءِ الذي غلّفَ الأرضَ وغطَّاها ، ووصلَ إلى ذُرا الجبال ، هنالك صدرتِ الأوامرُ الرّحمانيةُ الإلهيّةُ إلى الماءِ أنْ يتوقّفَ ، فقد أمرَ الله الماءَ المنهمرَ الهامي من السَّماء أنْ يمسكَ ، وأمرَ الأرضَ بابتلاع الماء ، وأمرَ السَّفينة أنْ ترسوَ على جبلِ الجودي ، فقد قُضِيَ الأمرُ ، وهلكَ الظَّالمون .

* وعادتِ الحياةُ الهادئةُ إلى الأرض ، وعادتِ الأمورُ طبيعيةً كما كانت قبل الطّوفان ، وذهبَ الخوفُ والهولُ بذهاب الطُّوفان ، واستقرتِ النّفوس .

* في هاتيك اللحظات ، تذكّر نوحٌ ابنَه الذي أنهى الموجُ الحوارَ معه فجأةً ، وغرقَ الابنُ بعيداً عن عينِ أبيه ، رحمةً منَ اللهِ بهذا الأبِ الرّحيمِ الصَّابر . لم يكن نوحٌ يعرفُ أنَّ ابنَه كافرٌ ، لعلّه كان يتصوّره عنيداً مشاكساً طائشاً ، آثر أن ينجوَ من الغرقِ باللجوء إلى جبلٍ شاهِقٍ . .

* ونادى نوحٌ ربَّه عزّ وجلّ يسأله سؤالَ استعلام عن حالِ ابنه الذي غرقَ وتلاشى بينَ جبالِ المياه العاتية : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ [هود : ٤٥] ، نعم إنّ ابني من أهلي المؤمنين الذين وعدْتَ بنجاتهم ، ووعدكَ الحقّ الذي لا يُخْلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟

* وهنا أطلعَ اللهُ عزّ وجلّ نوحاً على حقيقةِ ابنه للمرة الأولى ، وأعلمه بأنَّ

---

(١) أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ ينهيَ الحوار بين نوحٍ وابنه نهاية سريعة ، فلم يتركْ نوحاً وابنه يتحاوران لفترةٍ طويلةٍ ، لأنَّ وقتَ الإمهالِ قد انتهى .
لقد أمهل الله قوم نوح (٩٥٠) سنة ، وكانت المهلةُ كافيةً جداً لكل ذي عقل ، أن يفكر ، ثم جاء وقت العقاب ، فلا تأجيلَ ولا إمهال ، لأنَّ من لم يؤمن بهذه السّنين الطويلة لا يمكنُ في دقائق عند نزول العذاب .

ابنه كان يسرُّ الكفْرَ ويظهرُ الإيمان ، أعلمه بحالِ ابنه في الوقتِ الذي لم يكن نوحٌ يعلمُ حالَه، فقال: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ [هود: ٤٦].

* لم يكن هذا الابنُ الكافرُ مِنَ الذين وعدَ اللهُ بنجاتهم من الغرقِ ، فقد كان فاسداً مجتنباً للصَّلاح. ومن المعلوم أنَّ الكفرَ يقطعُ الولايةَ بين المؤمنين والكافرين من الأقربين[1] ، ويوجب براءة بَعْضِهِم من بعض؛ لقد أرادَ الله عزّ وجلّ أنْ يعلّمَ نبيّه نوحاً أنَّ ابنه ليس من أهلِهِ ، لأنَّه لم يؤمنْ بالله الواحدِ القهّار ، وليس الدّمُ هو الصِّلةُ الحقيقيةُ بين جماعةِ أحبابِ اللهِ المؤمنين. فليس ابنُ النّبي منْ يكفرُ به ولو كان من صُلبه. قال الإمامُ الرّازي في تفسيره الكبير ما مفاده: «وهذه الآيةُ ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ تدلّ على أنَّ العبرةَ بقرابةِ الدين لا بقرابةِ النّسب ، وعندما انتفَتْ قرابةُ الدّين نفى الله ذلك بأبلغِ الألفاظ فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾[2]».

* وقد يتبادرُ إلى ذهنِ أحدِ الأبناء ، أو أحدِ الكبار سؤالٌ مفاده: لماذا دعا نوحٌ الله أنْ ينجي ابنه ، وقد أعْلَمه اللهُ بالكافرين ، وكان ابنُه منهم ، وقد لا يخفىٰ عليه أمرُهُ؟

* وللإجابةِ عن هذا السّؤال يمكن أن نقولَ: «من المُحتمل أنّ نوحاً عليه السَّلام حين نظرَ فرأى ابنَه في معزلٍ عن الكفّارِ ، ظنَّ نوحٌ أنَّ قلبَ ابنه هفَا إلى الإيمانِ ، وصارَ من أهلهِ الذين وعدَهُ الله بنجاتهم. ويحتملُ أن يكونَ نوحٌ قد فهم أنَّ النَّاجين أهلُه ومَنْ آمَنَ مِنْ قومه ، وقد وافقَ هذا الفَهْم وقوّاه وعزّزه رحمةُ الأبوّة وشفقتُها ، فسألَ الله عزَّ وجلَّ ما سأله بشأْنِ ابنه ، وهنا عاتَبَهُ اللهُ على ذلك بقوله: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦]».

* لقد نجّى اللهُ عزَّ وجلَّ مع نوحٍ قوماً آمنوا به وصدّقوه ، وأهلكَ ابنَه لأنّه لم

---

(١) انظر: تفسير المنار (١٢/ ٨٤).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٨/ ٢ و٣) بشيء من التصرف.

يؤمنْ به ، ولم يَسِرْ على طريقهِ ، وفي هذا ما يفيد بأنَّ الرّابطةَ الحقيقيّةَ بينَ النّاسِ إنّما هيَ رابطةُ الإيمانِ ، والوشيجة التي تؤدمُ بينهم إنّما هي وشيجةُ الدِّينِ ، ولا يعتدُّ بشيءٍ بعْدَ ذلكَ ممّا يعتدُّ به غير المؤمنين ، فَولاءُ المؤمنين لربّهم ولدينهم ، ورابطتهم هي عقيدتُهم وتوحيدهُم ، وبذلك تقومُ بينهم الأخوّةُ الحقيقيّةُ وإنْ لمْ يكنْ بينهم أبوّةٌ ولا بنوّةٌ ، ولا تستدعيهم عمومة ولا خؤولة ، فإذا انقطعتْ رابطةُ الدِّين ووشيجةُ الإيمان ، فلا أخوّة ولا بنوّة مهما اتّصلتِ الأرحامُ وتقاربت.

* ومن أجلِ هذا لما نادىٰ نوحٌ عليه السَّلام ربَّه وقال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ [هود: ٤٥] ، فكأنّه يقول: أنْتَ يا ربِّ قد وعدتني نجاةَ أهلي ووعدك حقّ ، وابني هذا منْ أهلي فكان الجوابُ الرّبانيُ الصَّريحُ الواضحُ: إنّه ليس منْ أهلِكَ ، لأنّ أهلَكَ بحقٍ هم الذين آمنوا بكَ وصدّقوك ، وحيث انقطعتْ علاقةُ الإيمانِ بينكَ وبينَه ، فإنّه لا يكونُ منْ أهلِكَ النَّاجين ، لأنّه ممن سبقَ عليه القولُ ، و﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦]. أي: إني أعظُكَ أنْ تجهلَ هذه الحقيقةَ التي يجبُ ألا تغيبَ عنك[1].

* وهنا أعلنَ نوحٌ بألا يعود إلى شيءٍ من هذا وتابَ وطلبَ المغفرةَ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

* لقد علمَ نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ من هذا الدّرسِ الرّباني أنَّ ابنه هذا قد سبقَتْ له الشّقاوة ، وحقّت عليه كلمةُ الكفْرِ ، فهو ليس من أهلهِ ، فلم يُصدِّقْ برسالتهِ ، ولم يستجبْ لدعوته ، وظنَّ أنَّ الجبلَ يعصمُه ويحميه من أمرِ اللهِ ، وما علم أنّه لا عاصمَ من أمْرِ الله شيءٌ.

* ولما بلغَ الشّوط نهايته ، وطُويت صحيفةُ القومِ الظَّالمين ، كفَّتِ السّماءُ ماءَها المنهمر بأمْرِ الله ، وابتلعتِ الأرضُ الماء ، ورستِ السّفينةُ على جبلِ الجودي ، وهدأ الرّوع ، ونجا الرّكبُ المؤمنُ بقيادة شيخِ الطّوفان نوح؛ و:

---

(١) نظرات في أحسن القصص (١/ ٩٧) بشيء من التصرف والاختصار والتصحيح.

أينَ شيخُ الطُّوفانِ مِنْ بعدِ يأسٍ صَنَعَ الفُلكَ حينَ حَلَّ البَلاءُ
أنقذتْهُ وَأَهْلَهُ وهيَ تَجْري بينَ مَوجٍ جِبالُهُ الدَّأْمَاءُ
بَركَاتُ الإلهِ يا نُوحُ حَلَّتْ قُضِيَ الأَمْرُ أقلعي يا سَماءُ
هَدأَ الرَّوعُ بعد أن قيلَ بُعداً وَنَجا الرَّكْبُ حِيْنَ غَاضَ الماءُ

* وهكذا رأينا قصّة نوحٍ مع ابنهِ الكافر؛ ولكنْ ما حالُ بقيّة أبناء نوحٍ الذين نجوا معه؟!

* بعد أن هبطَ نوحٌ ومَنْ معه من السَّفينة، بارك اللهُ عليهِ، وعليهم، حيث جعلَ الذّرية منْ أبنائه الثّلاثة وهم: سَامٌ، وحَامٌ، ويَافِثٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. وقال النّبيّ ﷺ: «سامٌ أبو العربِ، وحامٌ أبو الحبَش، ويافثٌ أبو الرّوم»[١].

* وطالتِ الحياةُ مع نوحٍ، فهو أكثرُ الأنبياءِ وأطولُهم حياةً، لكن عندما حضرته الوفاةُ أوصى ابنه فقال: «إني قاصّ عليك الوصيةَ؛ آمرُكَ باثنتَيْن، وأنهاك عن اثنتَيْن: آمرك بلا إله إلا الله، فإنّ السّماواتِ السّبعَ والأرضين السَّبع، لو وُضعَت في كفّةٍ، ووُضعَتْ لا إله إلا الله في كفّة، رجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله، ولو أنَّ السّماوات السّبع والأرضين السّبع كنَّ حلقة مبهمة ضمَّتهنَّ لا إله إلا الله. وسبحان الله وبحمدهِ فإن بها صلاة كلّ شيء، وبها يُرزق الخلقُ. وأنهاكَ عن الشّرك والكِبْر»[٢].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٩ و١١)، والترمذي برقم (٣٩٣١)، وقال: «هذا حديث حسن».
(٢) للحديث أصل في المسند (٢/ ١٦٩ و١٧٠)؛ وانظر مجمع الزوائد (٤/ ٢٢٠).

الفصل الثالث

أبناء إبراهيم عليه السلام

* نحن الآن ضيوفٌ على نبيّ كريمٍ جَليلٍ خليلٍ؛ أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوحٍ عليهما السلام.

* هذا النّبي الكريمُ هو أبو الكريم وجدُّ الكريم وأبو جدّ الكريم[1]، وهو أبو الضِّيْفَانِ إبراهيم نبيّ الله وخليله وأحدُ الأنبياء الخمسة أولي العزم منَ الرّسل الكرام، وهم: نوحٌ، إبراهيم، موسى، عيسى، محمدٌ عليهم صلاةُ ربّي وسلامه، وهم أصحابُ الشَّرائع[2]، وقد نظم أسماءهم بالتّرتيب الزّماني لبعثتهم أحد الأفاضل فقال:

أُلو العزْمِ خَمْسٌ وَالشَّرائعُ خَمْسةٌ ... يُـدَانُ بهـا ربُّ العِبَـادِ ويُعْبَـدُ
فَنُـوحٌ وإبـراهيـم ذُو الحلْـمِ والتُّقـى ... وَمُوسىٰ وعيسىٰ ثُمَّ جَاءَ محمَّدُ[3]

* وسمةُ الضّيافةِ والكرمِ والحلْمِ من أبرزِ سماتِ هذا النبي الكريمِ الذي تَخلَّقَ بفضائلِ المحاسنِ ومحاسنِ الفضائلِ، فكان أبا الأنبياء وهم: إسماعيل، وإسحاق، ومن بعد إسحاق جاء يعقوبُ فَيوسفُ، فهل من مكرمةٍ

---

(١) في هذا القول إشارةٌ واقتباسٌ من قولِ الحبيبِ الكريم سيّدنا محمد ﷺ: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» (أخرجه البخاري برقم ٣٣٧٤ و٤٦٨٩؛ ومسلم برقم ٢٣٧٨). وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٦٥).

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٧).

(٣) انظر: كتاب رحلة الشّتاء والصّيف لكبريت (ص ١٢٣). وسنتحدثُ في هذا الفصل ـ بإذن الله ـ عن سائر الأنبياء أولي العزم لنحلّي الكتاب بحليةٍ نادرةٍ مباركةٍ مستمدين العون من الله.

أعظم من هذه المكارم؟! ورحم الله الشَّيخ عبد الغني النّابلسي إذ امتدحَ خليلَ الرحمن وأبا الضّيفان الأوّاهَ الحليمَ إبراهيم عليه السَّلام فقال:

أبـو الضِّيفـانِ إبـراهيـمُ قَصْـدي ... خَليـلُ اللهِ ذُو المْجـدِ الأثيـلِ

جَميـعُ الأَنْبيـاءِ إليـه تُنْمـىٰ ... ويفخـرُ فيـهِ جيْـلٌ بعـد جيـلِ

عظيـمُ القَـدْرِ أوّاهٌ حليـمٌ ... وثيـقُ القَلْـبِ بِـالـرَّبِّ الجَليـلِ

* ماذا أحدثكُم عن إبراهيم وابنَي إبراهيم؟! فلو مضيتُ أسردُ لكم فضْلَهم، وتكريم الله لهم ، فلن نتوقفَ ـ إذاً ـ عن رحلتنا الممتعةِ الماتعةِ المترعةِ بالفضلِ معهم ، وكيف تنتهي رحلتُنا وفضائُلهم ينابيعُ لا تنضَبُ ، بَل بحارٌ ليس لها قرار ، وفيها ما فيها من خيرٍ ومن لؤلؤٍ وجواهرَ؟!.

* فإبراهيمُ خليلُ الله جاءَ اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، وهوَ هوَ الذي قال له ربّه أسْلِمْ فقال: أسلمتُ لله ربِّ العالَمين ، وهو هو أوّل مَنْ سمَّانا المسلمين ، وهو هو الذي دعا ربّه بأنْ يبعثَ رسولاً من صفوةِ العرب ، فاستجيبتْ دعوتُه ، وبعثَ اللهُ محمداً ﷺ فكان دعوة أبيهِ إبراهيم وبُشْرى عيسى.

* وإبراهيمُ هو النَّبي الحليمُ الأوّاهُ المنيبُ ، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]؛ وإبراهيمُ هوَ هوَ الذي اختصّه الله واتّخذه خليلاً فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ، وهو هو الذي جاءه سلامٌ من السَّلامِ المؤمن المهيمنِ العزيزِ الجبّارِ فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].

* وقصّةُ إبراهيم وسيرتُه وحدها خيرٌ في خيرٍ في خيرٍ ، وجمالٌ في جمالٍ في جمالٍ ، فكيفَ والحالُ هذه إذا زِدْنا الطِّيْبَ طِيْبا؟ ونظمنا مع سيرتهِ سيرةَ ولدَيه: إسماعيلَ وإسحاق؟! فما أجمل سِيَر هؤلاء الكرام! وما أجملَ هذا العِقْد النّبوي الفريد؟!.

* إنَّ سيّدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد ذكَرهُ اللهُ في القرآنِ الكريمِ بالتّعريض

والتّصريح بخمسين اسماً[1] ، كما ذكرهُ الله عزّ وجلّ إبراهيم باسمه في بضعٍ وخمسينَ موضعاً من القرآنِ الكريم أيضاً.

* والآن تعالوا نعش أويقات غضّةً بضّةً مع خلاصة قصّةِ إبراهيم خليل الرّحمن ، ومن ثم نتّصل ونصلُ إلى قصّة مع ابنَيْه النَّبيين الكريمين إسماعيل وإسحاق عليهم السَّلام أجمعين.

* تذكرُ جُلُّ أُمَّهَاتِ المصادر أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام قد وُلدَ في «أور» بالعراق؛ واسم أبيه هو «آزر» كما وردَ في القرآنِ الكريم؛ وكان قومُ إبراهيم الذين وُلدَ فيهم يعبدون الأصنامَ والكواكبَ السَّيارة ، وكانوا يتخبّطُون خَبْطَ عشواء في دياجيرِ الظُّلَم ، ويتردّونَ في مهاوي الرَّدى والضَّلالةِ ، وسيطرت هذه الأوهامُ والضَّلالاتُ على عقولهم ، واستعمرت بزخرفها قلوبهم ، فباتوا عبيدَ ما ينحتون من أصنامٍ وزعموها آلهةً عبدوها من دونِ الواحدِ القّهار. «وكان إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلام هو الذي أزال اللهُ به تلك الشّرور ، وأبطلَ بهِ ذاك الضَّلال ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى آتاه رشْدهُ في صغره ، وابتعثَهُ رسولاً ، واتّخذه خليلاً في كبرهِ ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] ، وكان أهلاً لذلك»[2].

* لما نشأَ إبراهيمُ وغدا يافعاً ، كان فَطِناً ذكيّاً راشداً ، فعابَ على قومهِ شركهم بالله وعبادتهم للأصنام ، وجادلَ أباهُ وقومَه في ذلك ، وأنكرَ عليهم ضلالهم كما ذكرَ ربّنا عزّ وجلّ هذا فقال: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] ، وأخذ إبراهيم يجادلهم بالحجّةِ ، حيث رأى كوكباً في الليلِ فقال لقومه عنه: «إنّه ربّي على زعمكم» وكذلك قال عن القمرِ والشّمس وقد رأى أفولَها: «أنا بريءٌ من شرككم بالله ، ومن هذهِ المعبودات التي جعلتموها آلهةً مع الله ، وأنا قصدتُ بتوحيدي الله عزّ وجلّ حنيفاً وما أنا من المشركين بعبادةِ ربّي الواحد الخالق».

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٦/ ٣٣ و٣٤) بتصرف يسير.

(٢) انظر: قصص الأنبياء.

* لم تصلْ كلماتُ إبراهيم إلى قلوبِ قومه ، وأخذوا يجادلونه فيما قاله ، وفيما توصّل إليه من الحقّ ، بيد أنَّ إبراهيم بيّنَ لهم ثانيةً أنَّ الله هداهُ إلى الحقّ ، وأنّ أصنامَهم ليس لها وزنٌ ولا قيمةٍ[1] ، وإذا ما كان لها كيدٌ ، فليكيدوه بها ولا يمهلوهُ ، حيث علمَ وأعلَمهم بأنَّ الله هو وحده النّافع والضَّارُ؛ ولكنَّ النتيجةَ كانت عندهم هيَ هيَ أو قريبة مِنْ هيَ.

* كان إبراهيمُ عليه السَّلام حريصاً غايةَ الحرصِ على هداية أبيه ، وجَبْذِهِ إلى طريق الحقّ وسبيلِ التّوحيد ، فكان يصارِحُه فيما هو عليهِ منْ كفْر ، وأنَّ ذلك سيودّي به إلى النّار ، فهو لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغني عنه شيئاً ، وكان إبراهيمُ يكرّرُ دعوتَه لأبيه بتلطّفٍ ولينٍ ، ويقول له مراراً يا أَبَتِ يا أَبَتِ. . وفي هذا النّداءِ الخفيفِ اللطيفِ استعطافٌ وتحريكٌ وإيقاظٌ لمشاعرِ الأبّوة ، والابنُ البارُ يكونُ حريصاً على ما ينفعُ أباه ، وكذا كان إبراهيمُ ابناً باراً مع أبيهِ ، قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٣].

* ومن المفيدِ في أدبِ البُنُوَّةِ مع الأبوَّةِ ما سلكه إبراهيم عليه السّلام في دعوته لأبيه ، إذ سلك أحسنَ منهاجٍ ، وأفضلَ كلام ، وأبدعَ أيّما إبداعٍ حينما طلبَ من أبيهِ علّةَ عبادته لما لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يستحقُّ العبادةَ أصلاً ، ويتركُ عبادةَ اللهِ الخالقِ الرّازقِ النّافعِ الضَّارِ المحيي المميتِ ، فكيفَ يقبلُ بهذا عاقل ويستسيغه؟

* من أدبِ الأبناءِ الجمّ أيضاً أنَّ إبراهيمَ سلكَ في دعوته منهجَ الصّدقِ

---

(١) ومن العجيب أنَّ قومَ إبراهيم قد أقروا بأنَّ أصنامهم لا تسمع لمن يدعوها ، ولا تنفعُ مَنْ عبدها ، ولا تضرُّ مَنْ كفرَ بها ، أو اعتدى عليها ، ولم يأخذهم الخجل حينما اعترفوا بأنَّ الذي حمَلهم على عبادتها مجرّد الاقتداء بأسلافهم الذين سبقوهم في الضّلال والانحراف.
والواقع أنّ التّقليد والعادة والإلْف هي العقباتُ الصَّعبةُ في طريق المصلحين ، وقد كان ذلك منذ أنْ بدأ المصلحون دعوتهم ، إنَّ النّفوس إذا أَلِفَتْ شيئاً فترةً من الزّمن لم يكن من السَّهل انصرافها عنه ، وهنا يأتي التفكيرُ ليبتعدَ الإنسانُ عن الضّلال.

والوضوحِ والاحترامِ مع أبيه ، فلم يصفْ أباه بالجهلِ المفرط ، ولا نفسه بالعلمِ الفائقِ ، ثمّ ينصحهُ بألاّ يعبدَ الشَّيطان ، لأنَّ الشَّيطان عصى الله من قبلُ ، ثمّ يتبع النَّصيحة إثْرَ الأخرى ، كلّ ذلك بحسنِ الأدبِ وحسنِ التّوسلِ إلى أبيهِ واستعطافهِ لعلّه يهتدي ويتّبع إبراهيم[1] .

* لكنَّ الأبَ «آزر» لم يقبلِ النُّصحَ ، بل توعّدَ ابنهَ وحذَّرهُ عن الطَّعنِ بآلهتهِ وقال له : ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٦] .

* لم يكملْ إبراهيمُ ـ بعد هذا ـ الحديث مع أبيهِ ، وإنّما قابَلَ السَّيئةَ بالحسنةَ ، وأخبره بأنّه سيدعو الله ليغفرَ له ؛ ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم : ٤٧][2] .

* كان لإبراهيمَ ـ عليه السلام ـ قصّةٌ طريفةٌ ومثيرةٌ مع قومهِ وأصنامِهم ، وكان لا يزالُ فتىً غضَّ الإهابِ طريَ العُود ، ولكنَّه صَلْبُ العقيدةِ صحيحها ، آتاه الله النّبوةَ والاهتداء لوجوهِ الصَّلاح في الدِّين. ونظرَ إبراهيم الفتى الوسيم العليم نظرةَ العالمِ العَيْلمِ إلى أصنامِ قومهِ التي أقاموا زمناً طويلاً على عبادتها ، فوجدَهَا تماثيلَ جامدةً لا تنفعُ ولَا تضرُّ ، ولما سألهم عنها ، زعموا أنّهم يعبدونَها بالوراثةِ والتَّقليدِ لآبائهم ، وهنا قال إبراهيمُ لهم كلمةَ الفَصْلِ البيّنة الواضحة : ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء : ٥٤] .

* دُهشَ القومُ بادي الرّأي لما سمعوه من إبراهيم الفتى النَّاصح لهم المشفقِ عليهم المُزْرِي لأصنامِهم ، وقالوا له مستفهمين مستنكرين : أجئتنا بالجدِّ في دعوى الرّسالة ونَسَبْتَنَا إلى الضَّلال والباطلِ ، أم أنتَ من اللاعبين في كلامك ، المازحين في وصفك لنا ، حيث إنَّ هذا الكلام لم نسمعْ به قبلك .

---

(١) انظر : تفيسر القاسمي (١١/ ١٢٠) باختصار وتصرف. وقال ابن كثير رحمه الله : «وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنَّه أحقّ النّاسِ بإخلاص النَّصيحة له». (البداية والنّهاية ١/ ١٤١).

(٢) إنَّ الأسلوبَ الذي اتّبعه إبراهيم عليه السّلام في دعوة أبيه أسلوب الابن اللطيف المهذب ، ونحنُ نشعرُ حينما نقرأ نصيحته له بأنَّه يتكلم من أعماق قلبه ، وأنَّه يبذل كل ما يستطيع لهداية أبيه ، ولكن الأبَ كان قاسياً ، ولم يظهر لابنه إلا الصّدود والنّفور والإعراض والتّهديد.

* وبحجّةِ العقلِ ، ونصاعةِ المنطق ، وسرعةِ البديهة ، وصدقِ اللهجة أجابهم: لستُ كما تقولون ، ولا أقولُ إلاّ الحقّ ، إن ربّكم هو اللهُ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ ومُبدعهنّ ، وأنا أشهدُ بأنّه الخالقُ الذي يستحقُّ العبادةَ وحْده ، وأنّكم وأصنامكم في فسادٍ حاضرٍ وموروث ، فأنتم وهي مخلوقون؛ ومع هذا فأنتم تعبدون هذه المخلوقات الصَّامتة.

* في هذه الحالة عزم إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنْ يبرهنَ للقوم الضّالين على ضلالهم وفساد عبادتهم ، فقرَّرَ أنْ يحطّمَ أصنامَهم لعلَّهم يرشدون ، ولعلّهم يجدون فساد ما يعبدون ، فيعلموا أنَّ الله هو الواحدُ المعبود. . . وأقسمَ إبراهيمُ باللهِ على تكسير أصنامهم بعد خروجهم من المعبد.

* قال ابن كثير رحمه الله: «أقسم إبراهيمُ ليكيدنَّ هذه الأصنامَ التي يعبدونَها بعد أنْ يولّوا مدبرين إلى عيدهم ، قيل: إنّه قال هذا خفية في نفسه؛ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: سمعه بعضهم ، وكان لهم عيد يذهبون إليه في كلّ عام مرّةً إلى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه ليحضره ، فقال: إني سقيم ، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٨ و٨٩]»[1].

* وكان لقومهِ عيدٌ يخرجون إليه ، ويجتمعون فيه في كلّ سنَةٍ ، وكانوا يحفلُون ويحتفلُون بذاك العيد احتفالاً عظيماً ، وينصرفُ إليه جميعُ القوم على شأنه. وكان إبراهيمُ يعرفُ هذا كلّه ، وانتظرَ يومهم المزعوم ، حتى إذا حلَّ الموعدُ ، وخلَتِ البيوتُ والمعبدُ من النَّاس ، قامَ إبراهيمُ ليقيم الحجّة على القومِ الضّالين ، وبنفسٍ مؤمنةٍ واثقةٍ باللهِ خرجَ مصحوباً بعنايةِ الله ، وهو يقصدُ المعبد ، فدخَلَهُ ومعه فأْسٌ أعدَّهَا لتلك اللحظة الحاسمة؛ وأخذ يجندلُ الأصنامَ الكاذبةَ ويحيلها قطعاً ويبعثُرها على أرضِ المعبدِ ، غير أنَّه تركَ صنماً كبيراً لم يحطمْه ، وإنّما تركَه وعلّق الفأسَ في عنقِه ، وانصرفَ بعد أنْ برَّ بقسمه وعهدِهِ لله.

---

(١) البداية والنّهاية (١/ ١٤٤).

* انتهى القومُ من احتفالِهم بيومهم المزعوم ، ولما رجعوا من عيدهم ، رأوا أمْراً عجباً في معبدهم ، لم يروا صنماً قائماً بل وجدوا جميعَ الأصنام قِطعاً مكسّرةً عدا كبيرها ، فذهلوا واستفظعُوا صنيعَ مَنْ صنَع بآلهتهم ، ومَنْ عَدَا عليها فجعلَهَا مهانةً ذليلةً مبعثرةً؛ وهي الجديرةُ عندهم بالتَّعظيم والاحترام.

* تنادى القومُ المبعثرةُ عقولُهم كأصنامِهم وقالوا: «مَنِ الظّالِمُ الذي أهانَ آلهتنا؟!» وقفزتْ كلماتُ إبراهيم من قَبْلُ إلى ذاكرةِ فئةٍ سمعَتْ قَسَم إبراهيم بتحطيم أصنامِهم وكيدِها ، وقالت هذه الفئةُ: «ويحكم سمعنا فتىً يذكرُ أصنامنا بكلِّ مكروه وهذا الفتى يُقال له إبراهيمُ ، فأحْضِروهُ على رؤوسِ الأشهاد وحقّقُوا معه».

* وجيء بإبراهيم الفتى النَّبيلِ الحصيفِ أمامَ الحشدِ الهائلِ من النَّاس الذين أصيبوا في عقولهم ، وسألوه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢].

* ابتسم إبراهيمُ عليه السَّلام ابتسامةَ المنتصرِ ، فقد أرادَ أنْ يسألَه هؤلاء من تلقاءِ أنفسهم ، فيعترفوا أنَّ أصنامَهم لا تنطقُ لأنَّها جماد ، وقصدَ بذلك تقريعهم وتوبيخهم على عبادتها ، فقال لهم على وجْهِ الاستهزاء بهم: إنَّ كبيرَ أصنامكم هو مَنْ كسَرهَا وجعلها جذاذاً ، وأسألوهم إنْ كانوا ينطقون!؟!.

* وراجعَ القومُ عقولَهم فإذا الحجّةُ تدحضهم ، وإذا بإبراهيم يقيمها عليهم ، ولكنَّ طبيعةَ جهلهم غلَبتْهم ، وسيطرَ عليهم عنادهم فقالوا له: «أنتَ تعلمُ أنّها لا تنطقُ!!! فكيفَ نسألُها أو نكلِّمُها؟!» وعندها قال لهم إبراهيمُ لما اعترفوا بذلك: «ويحكم ، إذا كانت آلهتكم لا تنطقُ ، ولا تنفعُ ولا تضرُّ ، فَلِمَ تعبدونَها من دونِ الواحدِ القهّار؟! أينَ ذهبت عقولكم وأحلامكم؟! فهذه الأصنامُ مخلوقة ، فكيف يعبد مخلوقٌ مخلوقاً مثله؟ ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧]؟!».

* وهكذا ألزمهم إبراهيم الحجّةَ الدَّامغة ، وأسكتَهم ببرهانه السَّاطع الواضحِ كالشَّمس في رابعةِ النَّهار.

* ولما ظهرَ الحقُّ ، وانقمعَ الباطلُ ، أخذتهم العزّةُ بالإثم ، فقد غُلبوا بالحجّةِ الدّامغة ، وثار المجرمون ثورةَ الطُّغيان الآثم وقالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

* بدأ الاستعدادُ الآثمُ لإحراقِ إبراهيم ، وظنّوا أنّهم يستطيعون إخفاءَ الحقّ، وانتشرَ الخبرُ في أرجاءِ البلاد ، وجاء النّاس من كلّ حدبٍ ينسلون ، ليشهدوا عقاب الذي سخرَ من الآلهةِ ومن عقولهم ومن كهنتِهم.

* وشرعوا يجمعون الحَطبَ في ساحةٍ كبيرة ، حتّى إذا تمَّ مرادهم بذلك ، أوقدوا ما جمعوه ، فاضطرمتِ النّارُ وأججت والتهبت ، وعلا لها شررٌ لم يُرَ مثله قطّ ، أخذوا يقيّدون إبراهيمَ ويكتّفونَه وهو يقولُ: «لا إله إلا أنتَ سبحانَك ، لك الحمدُ ، ولك الملكُ ، لا شريكَ لك»[١].

* وحارَ القومُ كيفَ يقذفون بإبراهيم وسْطَ النّار؛ ولكنَّ ابن كثير ـ رحمه الله ـ يفيدنا بالحلّ فيقول: «ثُمَّ وضعُوا إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ في كفّةِ مَنْجنيق[٢] ، صنَعَه لهم رجلٌ من الأكرادِ يقال له «هيزن»!!! ، وكان أوّل مَنْ صنعَ المجانيق ، فخسفَ اللهُ بهِ الأرض ، فهو يتجلجلُ فيها إلى يومِ القيامة»[٣].

* ولما وُضعَ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ في كفّة المنجنيق مقيّداً مكتوفاً ، ألقوه منه إلى النّار وعندها قال: «حسبي اللهُ ونعم الوكيل»[٤]. وهبطَ إبراهيمُ وسطها كما يهبطُ مَنْ يتنزّهُ في حديقةٍ مندّاةٍ بألوانِ العِطْرِ ونَفَحاتِ الأزهار ، فقد كانتِ

---

(١) انظر: قصص الأنبياء (ص ١٥٣) ، وانظر: تفيسر القرطبي (١١/ ٢٠١) طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) «منجنيق»: المنجنيق آلة قديمة من آلات الحصار ، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها ، وجَنَق: رماه بالمنجينق ، وجُنُقٌ: حجارة المنجنيق.

(٣) قصص الأنبياء (١٥٣)!!!

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٥٦٣). وما أجمل قول الشاعر في هذا الموقف:

وأســـرارُ الخليـــلِ هنـــاكَ لاحَـــتْ ... فـــأذهلـــتِ الخليـــلَ عـــنِ الخليـــلِ

النارُ موجودةً ، ولكنّها كانت بَرْداً وسَلاماً على إبراهيم ، توقّفت عن خاصيةِ الحرقِ والإحراقِ ، إذ صدعت لأمرِ العزيزِ الخلّاق عندما أمرها بذلك ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ، في حين أرادَ المغلوبون المقهورون بالحجّة أنْ يكيدوا إبراهيم ويَضُرُّوه بتحريقه بالنّار ، فما كانوا إلاّ مغلوبين مقهورين خاسئين ، إذ أنجاهُ الله منَ النّار [1]، وخرجَ منها كأنَّما يخرجُ من حديقةٍ غنّاءَ ضاحكةٍ منَ الحسنِ والجمالِ والبهَاءِ ، تكادُ تتكلّمُ سروراً بمَنْ حلَّ بها ، وهل هناك أحسنُ منْ هذا الفتى الميمونِ المباركِ المحفوظِ بأمرِ الحفيظِ ذي العرشِ المجيدِ الفعّالِ لما يُريدُ؟!.

* ألا ما أعظم قَلْب هذا الفتى الكبير بالله ، القوي بذكْرِه ، العليم بحاله! كان إبراهيمُ في هاتيكم اللحظات موصولَ القلبِ بالله ساكناً وقوراً ، امتلأَ قلبُه الفَتيّ النَّقيّ بحبٍّ خالقهِ ورازقه وهاديه ، لم يكن في قلبهِ مثقال ذرّة من خوفٍ أو رهْبةٍ أو شيء من هذا ، بل استحال كلّ شيء إلى سَلامٍ... إلى سلامٍ من السَّلام المهيمنِ ، فالمؤمنون الذين يحبّون ربَّهم لا يخافون مثله ولا يرهبون ولا يخشون أَحَداً إلا الله وكفى بالله حسيباً في تلكم الساعات الطوال على الظالمين ، جلسوا يرقبون النّار منْ بُعْدٍ ، وقلوبُهم تتأججُ بنارِ الحقْد على إبراهيم ، ولكنَّ نارَهُم التي أشعلوها كانت تلْفَحُ وجوههَم وتزهقُ أرواحَهم ، وظلتِ النارُ تطاولُ عنَان السَّماء مدةً ، حتّى ظنَّ المجرمون والكهنةُ أنّها لن تَخْبوَ ، ولكنّها انطفأتْ بإذن خالِقها ، وخرجَ الفتى إبراهيم ووجهُه يتلألأُ بالنّور ، ووجوههم مسودةٌ من دخانِ الحريقِ ، خرجَ وثيابه كما هي لم تحترقْ ، بينما تلوثت ثيابُهم وتضررّتْ بشرارِ النّار ، خرجَ إبراهيم ظافراً بإذن الله ، وخسرَ المبطلون ومُنُوا بالمراراتِ والحَسَرات...

---

(١) ذكر الشَّيخ عبد الغني النّابلسي في قصيدةٍ لامية طويلة هذه الحادثة ، فكان مما قال:

لـهُ قـدْ أوردَ النّمرود نـاراً	تلظّى ما إليها منْ سبيلِ
ومدّ المنجنيقَ لـه سريعاً	ولم ينقصْ منَ الصَّبر الجميلِ
وألقـاهُ فعادت منه نوراً	ولم تحرقْه باللهبِ المهيلِ

* ولكنْ ما حالُ أبي إبراهيم آزرَ حِيال إحراقِ ابنه؟ بل ما أَمْرُ أُمِّهِ وحَالُهَا لحظ إذ؟!.

* قال سيّدنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أحسن كلمةٍ قالَها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولدهُ على تلكَ الحال: نِعْمَ الرَّبُّ ربُّك يا إبراهيم»[1]، وقيل: إنّ نمرودَ هو قال ذلك[1].

* وقال عكرمةُ عن أم إبراهيم: «إنَّ أمَّ إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يا بني إنّي أريدُ أنْ أجيءَ إليك فادعُ الله أنْ ينجني من حرِّ النّار حولك. فقال: نعم، فأقبلت إليه لا يمسّها شيءٌ من حرِّ النَّار، فلمّا وصلتْ إليه اعتنقَتْهُ وقبّلَتْه ثمَّ عادت»[2].

* ومع هذا وذاك، لم ينتفعِ الأخسرون بهذهِ الآية الكُبرى ونجاة إبراهيم من النّار، لقد أرادوا أنْ ينصُروا فَخُذِلُوا، وأرادوا أنْ يرتفعوا فاتّضَعُوا، وأرادوا أنْ يغلِبُوا فغُلِبوا، وأرادوا بإبراهيم كيداً فجعلهم الله الأَخْسَرين الأسفلين، ففازوا بالخسارةِ والسَّفال في الدّنيا، وأما في الآخرة، فإنَّ نارهم لا تكونُ عليهم برداً ولن تكون سلاماً، بل حميماً وغسّاقاً، ولا يلقّون فيها تحيةً ولا سلاماً، إلا ما يُقال لهم: اخسَؤوا فيها، ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

* والآن؛ تعالوا بنا إلى مائدةِ الأدبِ لنقرأَ هذه الهمزيّة اللطيفة، التي تحكي شيئاً من حياة إبراهيم عليه السَّلام مع قومهِ، وكيف جعلَ آلهتهم جُذاذاً، ولن أذهبَ ببهاءِ القصيدة، فَلْنُصْغِ إلى هذه الأبياتِ:

---

(١) قصص الأنبياء (ص ١٥٤)، وانظر تفسير الطبري (١٧/ ٤٤)، والقرطبي (١١/ ٢٠١) مع الجمع.

(٢) قصص الأنبياء (ص ١٥٤). يمكننا أنْ نقول: «إنَّ حادثة إحراق إبراهيم عليه السَّلام لم تمرَّ دون أنْ تتركَ آثارَها بين الملأ أجمعين ممن شهدوا إحراقه، وكانوا مشركين ممن يعبدون الأصنام، فقد رأى هؤلاء أنَّ الله ربَّ إبراهيم قد حفظ إبراهيم ونجّاه وأكرمه، ورأوا بأن آلهتهم لم تتمكن من حماية نفسها، فكيف تحمي غيرها؟ وتزلزلت العقيدة في أنفسهم، وأخذ التيار الإيماني يتصل ببعض القلوب التي أحبّت نور الله تعالى.

أيـنَ مَـنْ حطَّـمَ الهيـاكـلَ حتَّـى فَـارقَتْهـا أصْنَـامُهـا الصَّمَّـاءُ
أَوقَـدوا النَّـارَ فـاسْتَحـالَـتْ هبـاءً ومحـالٌ تـذوقُهـا الأنْبيـاءُ
إنّمـا النَّـارُ للْعُصَـاةِ عـذابٌ وهـي للمشـركيـنَ بئـسَ الجـزاءُ
نـارُ كُـونـي علـى خَليلـيَ بَـرْداً وسَـلامـاً وفـي السَّـلام الـوفَـاءُ
وأرادُوا كيـداً فـزَادوا خَسَـاراً حيثُ شاءَ القـديرُ بـالخِزْي بـاؤُوا
يـا أَبَـا الخَلْـقِ والـرّسـالـةُ وحـيٌ ويقيـنٌ وملَّـةٌ وابتـلاءُ
أنـتَ خلَّفـتَ ثـمَّ آلِهَـةَ القَـو مِ جُـذَاذاً وهـم لـديـكَ سَـواءُ
ورميـتَ الكبيـرَ منهـم بجُـرْمٍ هـو فينـا المحجَّـةُ البيضـاءُ
ثـم أوقَفْتَهُـم لَـديـهِ حَيَـارى يَتَمـارونَ حيـن ضَـلَّ المِـرَاءُ
يـومَ لـم تخـشَ غيـرَ ربِّـك قهَّـا راً ولـم ينتقصْـكَ طيـنٌ ومـاءُ
بـل تقـدمْـتَ والنَّـواظُـر حَسْـرىٰ ورفعـتَ التَّـوحيـدَ وهـو اللـواءُ
وبهـا كُنـتَ أمَّـةً قـانتـاً للـ ـهِ واللهُ فـي يـديـهِ العَطَـاءُ

* تلكم هي قصّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيهِ ومع قومهِ ، قصّة ظهرتْ فيها ألوانٌ متنوعةٌ من حبِّ الأبناءِ للآباءِ ، ورأينا كيف كان إبراهيمُ لطيفاً في مُعَاملةِ أبيه ، ذا حجةٍ قويةٍ وبرهانٍ مع قومه ، بيد أنَّ أباه لم يشأْ أنْ يؤمنَ ، أو أنْ يسلكَ طريقَ الهدايةِ ، ترى كيف كانت قصّةُ إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، ثم ابنه إسحاق؟ هذا ما ستجلوه الفِقرةُ الآتية . . .

أولاً : إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام :

* قصّةُ نبيّ الله إسماعيل ، قصّةُ الابنِ المخلصِ النَّبيل ، مع أبيه نبي الله إبراهيم الخليل ، قصّة ذانك النَّبيّيْن هي قصّةُ الوفاءِ والصّدقِ والحلمِ والصَّبرِ والإيمانِ والتّسليمِ وكلِّ هذه الفضائل وهاتيكم المكارم ، قصّة إسماعيل مع أبيهِ هي قصّة يحلو شدوها صباحَ مساءَ على مسامع الأبناء ، ليتّخذوها نَهْجَ حياتِهم وحَياةِ نهجهم ، وتكون منى أملِهم وأملَ مناهم في هذهِ الحياةِ التي يتزوّدن منها خيرَ زادٍ ليوم المعاد . . فهل نجعلُها سميرَ الأبناء ، ودَلِيْلَهم إلى سبيلِ طاعةِ اللهِ وطاعةِ الآباء؟ هذا ما آملُهُ منْ الآباءِ ومن الأمّهات ومن المربّين ، ومن كلِّ الذين يودّون زَرْعَ الخير في نفوسٍ فلذات الأكبادِ ، وفي قلوبِ مُهَج العباد .

* حسناً ، فلنبدأ الرحلةَ الإبراهميّة والإسماعيلية في أريجِ الآياتِ القرآنية ، وبين همَسات الكلماتِ الرّبانية ، لننعمَ بها ونندي أرواحَنا وقلوبنا ، ونلقّح عقولنا لتثمرَ معارفنا بمعرفةِ أنباء أنبياءِ الله ، وأنباء أبناءِ الأنبياء. . . . وإليكم موجز القصّة ، ثم نتبعها الشَّرح والتّحليل والتّعليل ، فمع النبيِ الابنِ إسماعيل.

* إسماعيلُ بنُ إبراهيم عليهما السلام نبيّان كريمان ذُكِرَا في كثيرٍ من آياتِ القُرآن ، وقَصَصِ نبيّ الإسلام محمد ﷺ. وأمُّ إسماعيل هي هَاجر ، خرجَ إبراهيمُ بابنهِ إسماعيل وبأمِّه هاجر إلى مكّةَ ، وكان إسماعيلُ يومَها طِفْلاً رضيعاً ، ومن ثمَّ أسكنَهما هنالك بأمْرِ الله ، وكان إبراهيمُ يتردّدُ عليهما في مكّةَ بين فينَةٍ وأخرى ، وقد بنى إبراهيمُ وابنه إسماعيل الكعبة ، ورأى إبراهيم أنّه يذبحُ وحيدَهُ إسماعيلَ ، وعزمَ على تنفيذِ الرّؤيا ، بيد أنَّ الله فَداهُ بذبحٍ عظيم ، وجعلَ ذكْرَهُ خالِداً إلى يوم الدّين.

* ذلكم موجزُ القصّة الإسماعيليّة الإبراهيميّة الهاجريَّة ، قصّة البنوّة الصّادقة النّادرة في دنيا الطّفولة. . . فلنعشِ الآنَ مع هذه الإشراقاتِ العطرةِ ، والأنفاسِ النَّديةِ ، مع الغلامِ الحليمِ النَّبيل نبي الله إسماعيل. .

* ذكر مجد الدّين الفيروز أبادي بأنَّ إسماعيلَ أوّلُ مَنْ سُمِيّ بهذا الاسمِ من بنيّ آدم[1] ، حيثُ لم يكن له من قَبْلُ سميّاً ، وكان له بضعُ خصائصَ منها: أنَّ لُغَتَهُ كانت لغة العرب ، وإليه ترجعُ أنسابُهم ، وكان مركز نورِ النّبيّ المصطفى ﷺ ، ووَلَدَ الخليل ، وجدَّ الحبيب المصطفى ﷺ ، وشريكَ إبراهيم في بناءِ الكعبةِ ، ومُسْتَسلِماً منقاداً للذّبح عند امتحانِ إبراهيم به ، واختصَّ بخِلْعَةِ ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] ، ومن مفاخر قولِ النّبي ﷺ: «أنا

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٦/ ٣٩) وتكلف بعضهم بأن أصل اسمه: سُماعيل ومعناه: سمع من الله قوله فأطاعه ، وقال في «تاج العروس»: معناه بالسريانية: مطيع الله ، ولذا يكنى من كان اسمه إسماعيل بأبي مطيع.

ابن الذّبحين»[1]. وقد دعاهُ اللهُ في القُرآن الكريم بأكثرَ من عشرةِ أسماء منها: غلامٌ، عليمٌ، حليمٌ، مُسْلِمٌ، مُسْتَسلِمٌ، آمِرٌ، صابرٌ، مَرضيٌّ، صادق الوعد، ورسول نبيّ[2]، وغير ذلك؛ كما ذكره اللهُ باسمهِ في اثني عشرَ موضعاً معظمُها مقرونٌ بغيره من أسماءِ الأنبياءِ منها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، وقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥ ـ ٨٦]، وقوله: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وغيرها مما نقرأ في القرآن والذكر الحكيم..

* وُلِدَ إسماعيل ـ عليه السلام ـ بعد أنْ بلغَ إبراهيم من الكبرِ عتياً، وتجاوزَ سنّ الشَّبابِ إلى سنِّ الشّيوخِ، إذْ دعا ربّه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠١]، وهكذا دعا إبراهيم ربَّه بأنْ يرزقهَ ولداً من الصَّالحين حتّى يعينَه على الدّعوةِ إلى اللهِ، واستُجيب لإبراهيم، فبشَّرهُ اللهُ بغلامٍ حليم، وهذا الغلامُ هو إسماعيل، إذ إنّه أوّلُ ولدٍ بُشِّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبرُ من أخيه إسحاق باتّفاق العُلماء، وقبل هذا اتّساق آيات القرآن إذ تشيرُ إلى ذلك في ثناياها. ومن صفاتِ إسماعيل أنّه حليمٌ، وصفةُ حليمٍ تعني أنّه متّسعُ الصَّدرِ حسنُ الصَّبر[3].

* ولما ولدَ إسماعيلُ، جاءَ إبراهيم به وبأمّهِ هاجر وهي ترضعه، فوضعَهما عند البيتِ المحرّم عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجدِ، وليس بِمَكَّةَ يومئذ أحد، وليس بها ماءٌ، وتركَهما هنالك، ووضعَ عندهما جِراباً فيه تمرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثمّ قفّى إبراهيم منطلقاً منفذاً أمْرَ العليم الخبيرِ، فتبعتهُ أمّ إسماعيل مضطربةً وجلَةً وقالت بلسان الحال: «يا إبراهيمُ، أينَ تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي ليس به أنيسٌ ولا شيءٌ؟ يا إبراهيمُ أينَ تتركنا؟ يا إبراهيم

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٦/ ٣٩ و٤٠) بتصرف واختصار وتصحيح.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: تفسير القاسمي (١٤/ ١١٧) بشيء من التّصرّف.

أين تذهبُ»؟ قالت ذلك مراراً ، وراحتْ تكرّرُ ما تقوله ، وإبراهيمُ ـ عليه السلام ـ صامتٌ ، وجعلَ لا يلتفتُ إليها؛ ومن الطّبيعي أنّنا لا ندركُ ـ لحظة إذ ـ إحساسَ سيّدنا إبراهيم وهو يتركُ وحيدَهُ وأمّه بوسطِ وادٍ غير ذي زرع ، وغير ذي ماءٍ ، وغير ذي حيَاةٍ إنْس . .

* كلُّ ما نعلمه ـ يا أحبّائي الكرام يا أحبابَ الله ـ أنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ قد أوحى له بذلك ، وها هو ذا ممتثلٌ أمْرَ ربِّه ولم يتوقّفْ ، فجاء بهما راضياً ، أَلَمْ يقُلِ اللهُ عنه بأنّه آتاه النّبوّةَ والاهتداءَ لوجوهِ الصّلاح ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

* جاء في بعضِ الرّواياتِ بأنَّ سارَّة زوجة إبراهيم الأولى قد أَدْرَكَتْها الغيرةُ من هاجر عندما ولدَتْ إسماعيل ، فاضطرتْ إبراهيم لإبعادِها وابنِها حتى تَسْكُنَ غَيْرَتُها.

* ونعتقد أنَّ هذه القصّة مُفَلْفلةٌ متَوبلةٌ منسوجةٌ وتنسجمُ مع الإسرائيليات المبثوثة هنا وهناك ، إذ إنَّ إبراهيم شخصيةٌ شهدَ لها بالرّشد ربُّها ، فهو يتلقّى الأَمْرَ من ربّهِ ، ولن يتلفتَ لمشاعرِ الغيرةِ النّسوية الأنثوية ، بل إنَّ شخصيّةَ زوجه سارّةَ شخصيةٌ عظيمةٌ تترفّعُ عن الأنانيةِ وغيرة النِّساءِ ، فهي هي التي زوّجَتْه من جاريتها هاجر لِتَلِدَ له ، كانت سارة تعلمُ بأنّها كانت عقيماً في أوانِ شبابها وهي الآن عجوزٌ تُصارع الثّمانين زوَّجته بنفسِها وقامَتْ على خدمتهِ ، فهي تدركُ بوجدانها أيّ رجلٍ إبراهيم ، وتعرفُ مَنْ إبراهيم ، وتعرفُ كثيراً وكثيراً عنه؛ فليس الأمرُ غيرةً نسويةً بين الضّرائر؛ إنّه تكليفٌ إلهيٌّ من العليمِ الحكيمِ أخفيت حكمتهُ ، ونعتقدُ أنَّ سارة نفسَها قد دُهِشَتْ من رحلةِ إسماعيل وأمِّه إلى ذلك المكانِ المباركِ في مكّةَ وإن كان غير ذي زرع. . . ونحبُّ أنْ نُذكِّرَ الأحبابَ بأنَّ سارةَ زَوْجُ نبيٍّ مِنْ أولي العزمِ ، وأمّ نبي ، وجّدة نبيّ ، فهيَ كريمةٌ من جميعِ النّواحي ، أفلا يحقّ لنا أنْ نقولَ: «إنَّها اقتبستْ كثيراً من أخلاقِ أبي الأنبياء لتكونَ من سيّداتِ نساءِ الأنبياء ، ومن أديباتِ النّساء في دنيا النّساء وفي عالَم النساء»؟!

* ونعودُ الآن إلى هاجرَ في وحدتِها وهي تحاورُ إبراهيمَ الذي تركَها هناك

عند البيتِ المحرّم ، ولما مضى عنها قالتْ له : «يا إبراهيم آلله أمركَ بهذا؟»

قال إبراهيم : «نعم» .

قالت بقلبِ المؤمنين ولسَانِ العارفين : «إذنْ لا يُضيّعنُا الله ، ثمّ رجعَتْ . . .»

* انطلق إبراهيمُ وقد ترك ابنَه الوحيد الذي جاءه على الكِبَرِ ، انطلقَ ممتثلاً ما أمرهُ الله ، حتّى إذا كان عندَ الثّنيّةِ حيث لا تراهُ هاجر ، استقبلَ بوجههِ البيت ، ثمّ دعا ربَّه بِهَذهِ الدَّعوات ورفعَ يديه وقال : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

* هاهي ذي أمُّ إسماعيل وحيدةً مع ابنها في الوادي غير ذي الزَّرع ، وها هو ذا إسماعيلُ رضيعاً يبدأُ رحلةً شائقةً مع الله عزَّ وجلَّ ، فهو مازالَ طفلاً رضيعاً ، وأبوهُ شيخٌ كبير جاءه على كِبَرٍ وتقدّم من العمر ، ولكنّ اللهَ يفعلُ ما يريد .

* شرعتْ أمُّ إسماعيل ترضعُ إسماعيلَ ، وتشربُ من ذلك السِّقاء الذي تركَه إبراهيمُ ، حتى إذا نَفِدَ الماءُ عطشتْ وعطشَ ابنُها ، وجعلتْ تنظرُ إليه وهو يتلوّى من شدّةِ ما حلَّ بهِ من الجهد ، فانطلقتْ كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه ، فوجدتِ الصَّفا أقرب جَبَلٍ في الأرض بقربها ، فقامَتْ عليه ، ثمّ استقبلتِ الوادي تنظرُ هل ترى أحداً؟ بَيْدَ أنّها لم تَرَ أحداً ، فهبطتْ من على جبلِ الصَّفا ، ثم إنّها أتت المروةَ فقامت عليها ، ونظرتْ هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سَبْعَ مرّات؛ وعندها رأتْ عند ابنها أنَّ الأرض قد تفجرّت بالماءِ عند زمزم ، فجعلت تَحُوْضُهُ بيدها ، وتغرفُ منَ الماءِ في سقائِها وهو يفورُ بعدما تغرف ، فشربتْ وأرضعَتْ ولدها ، وعلمت أنَّ اللهَ لم يُضَيِّعْها وابنَها ، وأنَّه رحمهما وعلمتْ بأنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسنين .

* عاش الطفلُ إسماعيلُ مع أمّه هاجر عند البيتِ المحرّمِ ما شاء الله لهما أنْ يعيشا ، وشاء اللهُ أنْ تأتي قبيلةُ جُـرهُم واستأذنوا أمّ إسماعيل بأنْ ينزلوا عندها ، فأذنت لهم ، فنزلوا واستقرّوا قربَ ماءِ زمزم ، وشبَّ إسماعيلُ وتعلّم

العربيةَ منهم ، وأعجبَهم حين شبَّ حتى غدا أشهرهم ، وغدا حديثهم وزينة مجالسهم .

* كان إبراهيم يتردَّدُ على مكّة من بلاد الشَّام فيطمئن على ابنهِ وزوجه هاجر ؛ وكان إسماعيل يعرفُ أنَّ الله قد أكْرَمَهُ بزمزمَ وهو طفلٌ رضيعٌ ، فقد روت أمّه له ذلك الإنعامَ الإلهي يوم أنْ كانَ في المهد صبياً ، تَعرَّفَ إسماعيلُ كلَّ هذا من أمّه ، وها هو ذا اليوم غلام يفَعَة يشبُّ تحت عين أبيـه إبراهيم ، فنشأَ نشأةً صافيةً ورثَ من خلالها خِلالَ أبيهِ العظيمة ، فقد ورث إسماعيل الحلمَ عن أبيهِ ، والحلمُ مادةٌ نزرةٌ بين مكارمِ الأخلاق وفضائلها. . . ورثَ إسماعيلُ الحلمَ والصَّلاحَ والتَّقوى وكل هذه المحاسن ممزوجة بأنفاسِ النّبوّة وآدابها . .

* كان سيدنا إبراهيمُ ذا مشاعر إنسانية مرهفة ، مشاعر رقيقة ولكنّها ممزوجةٌ بحبِّ اللهِ ، متلاشية بطاعته ، وكان شعورهُ نحو إسماعيل لا يضاهيه شعورُ أبٍ في الوجود عَصْر إذ ، أحبّه محبةً فائقةً ، فقد جاءه وهو يغالبُ العقدَ التَّاسع من عمره الميمون ، ولكنّه ألقاهُ في صحراءَ بل وادٍ غير ذي زرع وهو طفلٌ رضيع ، ألقاهُ امتثالاً لأمْرِ العليمِ الخبير ، ألقاه بعد أنْ اختار محبّة الله على محبّةِ ولده؛ وها هو ذا إسماعيل الآن في عمر الزَّهْر ، عيناه تبدوان بريئَتينِ ، وجههُ متوردٌ تعلوه سماتُ التّقوى ، نظرةٌ إليه تنعشُ قلبَ أبيه الأوّاه الحليم ، خالطتْ محبّتُه مشاشَ إبراهيم وقلْبَه؛ ولكن أمام هذا الفتى الصَّغيرِ الحليمِ الحَبيبِ إلى قلبِ أبيهِ مِحنَة كبرى ، قد تزولُ منها الرّواسي ، محنة برزَتْ فيه من خلالها عناصر البنوة الحقّة ، ولكنْ ماذا عن إبراهيم إزاءَ المحنةِ الكبرى؟ لقد اجتازَ إبراهيمُ أوّل محنةٍ مع ابنه بنجاحٍ عظيم؛ وكان إسماعيلُ إذ ذاك رضيعاً وديعاً ، بيد أنَّ المحنةَ هنا خطيرة ، وإسماعيلُ قد شبَّ عن الطوقِ ، ترى أيثبتُ أمامَ المحنةِ؟! وهل يلقي زمام الأمور وينقادُ لأبيه وهو شابٌ صغير؟! هذا ما ستجلوهُ رقائقُ ستور السّطور بإذن الله .

* كلنا يعلم أنَّ «رؤيا الأنبياء وحي»[1] ، فقد رأى إبراهيمُ في المنام أنّه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الوضوء برقم (١٣٨) ، وفي الأذان برقم (٨٥٩) .

يؤمَرُ بذبحِ ولده هذا ، «وهذا اختبارٌ من الله عزَّ وجلَّ لخليلهِ في أنْ يذبحَ هذا الولدَ العزيزَ الذي جاءه على كبرٍ ، وقد طعَنَ في السِّنِ ، بعدما أُمِرَ بأنْ يسكنَه هو وأمّه في بلادٍ قَفْر ، ووادٍ ليس به حسيس ولا أنيسٌ ، ولا زرعٌ ولا ضَرعٌ ، فامتثلَ أمْرَ اللهِ في ذلك ، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكُّلاً عليه ، فجعلَ اللهُ لهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيثُ لا يحتسبان ، ثمّ لما أُمِرَ بعد هذا كلّه بذبحِ ولده هذا الذي قد أفرده عن أمْرِ ربّه ، وهو بِكْرُهُ ووحيدهُ الذي ليس له غيره ، أجابَ ربّه ، وامتثلَ أمره؛ وسارعَ إلى طاعتهِ»(1).

* في لحظاتِ الامتثالِ الإلهيّ والطّاعة الرّبانية ، عرضَ إبراهيمُ الأمرَ الرّحماني؛ على ابنهِ الذي مالَه من ثاني ، ليكونَ أطيب لقلبهِ ، وأهون عليه من أنْ يأخذَهُ قَسْراً ، ويذبحهُ قهراً. تقدم إبراهيمُ من فلذةِ كبده إسماعيل وقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

* وهنا تكمنُ الطَّاعةُ الحقيقيةُ من كلا الحليمَيْن الصَّابرَين الطَّائعَيْن: إبراهيم الذي صَدَّقَ وامتثلَ أمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وابنه إسماعيل الذي أحسنَ الجوابَ فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

* ماذا نتوقّعُ من فتىً يافعٍ في مطلعِ نورِ حياته يقابل الذّبح؟! فتى يعرفُ أنّه سيذبح فيمتثلُ لأمْرِ الله ، ويغرسُ الطّمأنينة بنفسِ أبيه ، ويخبره بأنّه سيكون صابراً ممتثلاً محبّاً لأمرِ اللهِ ، ولعله أحبَّ أنْ يضارعَ أباه في مضمارِ الحبّ الإلهيّ . . .

* قُولوا بربّكم ، بأي الشَّخصين نُعْجَبُ؟ بالأبِ الشَّيخ الجليلِ المكلّف بالأمْرِ الرّباني الصَّعب وهو ذبح وحيدهِ بيدهِ وقد رزقَه الله به وهو في سنّ الشَّيخوخة؟ أم الفتى النّجيب اللَّقِنِ الفَطِنِ الذي يقولُ بكل كلماتِ الودّ والطّاعة والحبّ والامتثالِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ لم تتغيرِ النّبراتُ ولا الهمساتُ ولا منطقُ البنوّة ، ولم تبدُ على قسماتِ وجهه علاماتُ استفهام ولا استنكار ، بل لم يسكتْ ،

---

(1) انظر: قصص الأنبياء (ص ١٧٣ و١٧٤) ، وكأن الشاعر عنى صاحب هذه القصة بقوله:

لو قالَ تيهاً قِفْ على جمرِ الغَضَا ... لوقفتُ مُمتثلاً ولم أتوقّفِ

وإنّما شجّعَ أباه على تنفيذِ أمْرِ الله بنفسٍ راضيةٍ مطمئنة. . . لا ندري بمن نعجب ، فكلّما أردنا أن نميلَ إلى أحدهما جاء الآخرُ بحجّةٍ لا نقدر دفعَها. . فهما كزهرتَيْن نديتَيْن في غصنٍ واحد. . . وهما متألّقان في مضمارِ الحبّ الإلهيّ. . . واللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته. . والولدُ إسماعيل سرُّ أبيه ، وجوابه لأبيه في غايةِ السَّداد ، والطَّاعة للوالد ولربّ العباد.

* وبعد ذلكم الحوار البديعُ المندَّى بالإيمانِ بين إبراهيم وإسماعيل ، ذلك الحوار الذي أزاحَ السّتار فأشارَ إلى استسلامِ الوالدِ والابنِ استسلاماً مطلقاً ، وانقياداً تاماً لله ربّ العالمين ، أخذَ كلّ واحدٍ منهما يتوجّه بقلبهِ لما وجّهه اللهُ له ، فإبراهيمُ لم يَعد يرسل نظراتِ الحبّ لابنه الوحيد إسماعيل ، كان ينظرُ في تلكم اللحظات إلى الودودِ الغفورِ الذي تخللت محبتُه شغافَ قلبهِ ، وتوسّدت بين حناياه ، وقاسمتْ أضالعه ، فلم تزاحمْها محبته لولده؛ لقد كان ينظرُ إلى الله الذي اتّخذه خليلاً من دونِ العالمين ، وها هو ذا الآن يأمرهُ بذبحِ ولدِهِ بيده ، فيبادر إلى التّنفيذ ولا يرى إلا الله عزّ وجلّ.

* وأمّا إسماعيلُ ، فكانتِ الغايةُ عندهُ لا تقلُّ عن غايةِ أبيهِ ، أطاعَ الأوامرَ الرّبانيةَ بنفسٍ راضيةٍ صابرةٍ موفيةٍ.

* استسلمَ إبراهيمُ وإسماعيلُ لأمْرِ اللهِ ، وبدأ تنفيذُ الأمرَ الإلهيَّ ، وألقى إبراهيمُ ابنَه على جبينِه ليذبَحه من قفاه ، كما صوّرَ القرآنُ ذلك فقال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]. ولما تمّ إضجاع الولدِ إسماعيل ، وهوى إبراهيم على ابنهِ ليذبَحه ، جاءتِ الأوامرُ الرّبانيةُ تأمرُ بإيقافِ التّنفيذ وتقول: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]. نعم يا إبراهيمُ لقد حصلَ المقصودُ من اختبارِك وطاعتِك ، ومبادرتك إلى أمْرِ ربّك ، وبَذْلَكَ ولدك للقُربان ، كما سمحت ببدنكَ من قبلُ للنّيران كما أنَّ مالَك مبذولٌ للضّيفان لقد ظهرَ انقيادُكَ وانقيادُ ابنك لأمْرِ الله ، وظهر كمال طاعتكما لله ربِّ العالمين ، فلا حاجة للاستمرار ، وتنفيذ الذّبح ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ونجعلُ لهم من أمرهم فرجاً؛ ومنْ ضيقِهم مخرجاً.

ونجحَ النّبيّان الحليمان في هذا الامتحانِ الصَّعبِ الذي استحقَّ به إبراهيم الخلّة، وإسماعيل الفداء إذْ قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧](١).

* ومنَ الملاحظِ أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لم يُبْتَلَ بالنَّار وحدها، بل ابتلي في شيخوخته بأنْ أمرَهُ اللهُ عزّ وجلّ بذبح ولده الوحيد إسماعيل عليه السلام.

* ومن المؤكّد أنَّ الإنسانَ في أولِ حياته، تكونُ ذاتيته هي التي تتحدثُ؛ وهي المسيطرة على النَّفس، غير أنَّ الإنسانَ عندما يتقدّم في العمر تضمحلّ ذاتيته لتعلو ذاتية أولاده وتحلّ المحَلَّ الأرفعَ من نفسه.

* فعندما كبرَ إبراهيمُ عليه السلام وصار شيخاً جاءه الابتلاء الثاني بأنْ يذبحَ ولدَهُ، وولدُهُ هذا كلُّ أمله في هذه الدنيا؛ وإبراهيم عليه السَّلام يعلمُ علْمَ اليقين أنَّ الله عز وجل يطلب الاستسلام لقضائه، وعرف أنَّ قضاءَ اللهِ لا يُرفَعُ حتّى يرضى به، فامتثل لأمرِ الله.

* غيرَ أنَّ محبَّةَ إبراهيمَ لابنه جعله يعزّز هذا الحبّ بالرضا والفور لإسماعيل، ولذلك لم يأخذه رغماً عنه ويذبحه، لأنَّ في هذه الحالة قد يكونُ إسماعيلُ غيرَ راضٍ، فيُحرم من الجزاءِ على هذا الابتلاء، فيقول لولده: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وفي نبرة الاستسلام والتسليم يقول الابن: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]؛ وهنا لم يقل الابن: «افعل ما تريد»، بل قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ حتى ينال ثواب عبودية الطَّاعة، وعند الاستسلام التّام نزل الفداء من السماء ليفتدي به إسماعيل، وأكثر من هذا أنْ نزلتْ بشارة أخرى، هذه البشارة كريمة عظمى فحواها أنَّ إبراهيم عليه السلام

---

(١) في قصيدة جميلة مدح الشيخ عبد الغني النابلسي نبي الله إبراهيم عليه السَّلام، وأشار إلى قصته مع ابنه إسماعيل، وكيف فداه الله بذبح عظيم فقال:

وجاء الوحيُ في الرّؤيا إليهِ ... بذبحِ ابنٍ له شهمٍ نبيلِ
فأتكاهُ ليذبحَه امتثالاً ... لأمرِ المالكِ الحقّ الكفيلِ
ولم تقطع به السّكينُ حتّى ... فداهُ اللهُ بالكبشِ الجليلِ

سيرزق بولدٍ آخر ، أما نصُّ هذه البشارة فهو قوله عزّ وجلَّ: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢].

* وهكذا لم تكن البشرى من اللهِ عزَّ وجلَّ بإنجاء إسماعيل من الذّبح ، بل كانت أيضاً بأن إبراهيم سيرزق بولدٍ ثانٍ ، هذ الولد سيكون نبياً من الصالحين.

* هذه قصّةٌ مباركةٌ من قَصصِ الأنبياءِ البَرَرة في القُرآنِ الكريم ، قصّة ابن نبيّ كريم هو إسماعيل الذي نال أوسمةً من اللهِ جعلته مرضياً . .

* فعندما كبر إسماعيلُ وأصبحَ رجلاً أكرمه الله بالرّسالةِ والنّبوةِ ، ومدحهُ اللهُ أيضاً لفضائل اجتمعتْ فيه منها: الصّدقُ في الوعد ، وأمْرُ أهلِهِ بالصَّلاة والزكاةِ ، وصبرهُ وانقياده لأمْرِ الله في قضيةِ ذَبْحِه ، قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

* ويحسنُ بالمربّين أو الآباء أنْ يوجِّهوا الأبناء والنّاشئة ، إلى ما في قصّةِ إسماعيل من فوائدَ ووقفات وعِبَر ، وفي مقدمتها الانقياد التّام لله وأوامرِه التي تجعلُ المسلمَ في سعادةٍ ونجاحٍ وفلاحٍ ، كما يوضح المربّون الأسوة الحسَنة في شخصيةِ إسماعيل عليه السَّلام ، وذلك بالامتحانِ الشَّديد في أن يموتَ بيد أبيه ، ومع هذا لم يتردد ولم يرتجفْ ولم يهتزّ ، بل راح يشجّعُ أباه على أن يمضيَ في تنفيذِ ما يأمره به الله تعالى ، ولا شكّ في أنَّ النَّاشئة بحاجةٍ إلى مُثُل عُليا تملأُ قلوبَهم وعيونهم ، وتثير ما بداخلهم من الإيمان والطّاعة ، فينهجون على درب السَّابقين ويستعلون على الشَّهوات وإغواء الشّياطين.

* ولا بدّ للمربين أنْ يذكروا للأبناء بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد يبتلي ويختبر عبادَهُ المؤمنين ، حتّى تظهرَ طاعتُهم ، وتظهرَ مواقفهم الإيمانية على شكلها الصَّحيح.

* ويبين المربّون الأخلاقَ العظيمةَ التي كان يتحلّى بها نبي الله إسماعيل ،

ومنها صدقُ الوعد ، وهذه الأخلاق الحميدة ممّا حضَّ عليه الإسلام ، إذ إنَّ الصّدقَ يهدي إلى البِرِّ ، والبرُّ يهدي إلى الجنَّة .

* ومن الشَّمائلِ العظيمةِ التي ينبغي على المربّين أنْ يحرصوا على نشرِها ، تلك السّمة الواضحة في حياةِ إسماعيلَ وهي أنَّه كان يأمرُ أهله بأداء الصَّلاة ، ويأمرهم بها وبالزّكاة ، لتكتمل حياتُهم وليكون مجتمعُهم مجتمعاً قائماً على التّكافل وعلى الطّاعةِ لله .

* ويستطيع الآباء والمربّون والأمهاتُ أنْ يستنبطوا كثيراً من التّوجيهاتِ النّافعةِ من قصّة بنوَّةِ إسماعيلِ عليه السَّلام ، ومن ثم يصوغونها في قوالبَ تربويةٍ تعينُهم على تربيةِ الأطفال . .

* والآن ، ما رأيكم أنْ نشدوَ معاً بهذه التّرنيمات؟

لا نَسْتَطيعُ لما قضاهُ ربُّنا ... مِمَّا علينا أوْ لنَا تَبْديلا
لِقَضائِهِ نبكي ونحزنُ والبُكا ... ءُ وحُزْنُنا لا يُغْنيان فَتِيلا
أَبْصِرْ خليلَ اللهِ جاءَ مُشَاوِراً ... في أمْرِ رؤْيا الذَّبْحِ إسماعيلا
فاستعْصَما واستَسْلَما لِقَضائِهِ ... وعلى المهيمن عوَّلاَ تَعْويلا
طِبْ يا بنيَّ فَلا مَردَّ لِحُكْمِهِ ... واصْبِرْ علَيهِ واتّخذْهُ وكيلا

* ونتابعُ الآن الرحلةَ الإبراهيمية الإسماعيليّةَ في عالمِ الطّاعةِ وامتثالِ أمْرِ الله تعالى ، ففي رحلةِ بناءِ الكعبةِ المشرّفة نجدُ الابنَ إسماعيل واقفاً بين يدي أبيه إبراهيم وهما ممتثلان أمْرَ اللهِ في بناءِ الكعبةِ كما ذكرَ ربّنا فقالِ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ، فقد كان إسماعيلُ يعاون أباه إبراهيم في البناء ، ويناوله الحجارةَ ، وإبراهيم يباشرُ البناء. فقد جاء في الصَّحيح مجيء إبراهيم لتفقّد إسماعيل حيث تركَه وأمّه هاجر في مكّة قال: « . . . . ثم لبثَ عنهم ما شاء اللهُ ، ثمَّ جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحتَ دوحةٍ قريباً من زمزم ، فلمّا رآه قام إليه ، فصنَعا كما يصنعُ الوالد بالولدِ ، والولد بالوالد ، ثم قال: يا إسماعيل؛ إنَّ الله أمرني بأمر.

قال: فاصنْع ما أمرَك ربُّك .

قال: وتعينني؟

قال: وأعينُك.

قال: فإنَّ الله أمرني أنْ أبني ها هنا بيتاً، وأشارَ إلى أكَمةٍ مرتفعةٍ على ما حولها. فعند ذلك رفعا القواعدَ من البيتِ، فجعلَ إسماعيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيمُ يبني، حتى ارتفعَ البناءُ جاء بهذا الحجر فوضَعَه له، فقام عليهِ وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارةَ وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيتِ وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

* ونلحظُ أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ ذكَرا ثلاثةَ أنواع من الدُّعاء، وهما ممتثلان أمرَ الله في بناءِ بيته المحرم.

* فالأول: قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

* والثاني: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

* والثالث: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

* ومن الكراماتِ الجليةِ والنَّفحاتِ الرّبانيةِ أنَّ الله عزَّ وجل قد أجاب دعاء إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، فتقبّل منهما عملهما، وكانا مسلمين، وبعثَ محمداً ﷺ من ذريّة إبراهيم والعرب من ذرية إسماعيل ومنهم محمدٌ ﷺ، فكان محمد دعوة إبراهيم عليهم جميعاً الصلاة والسَّلام.

ثانياً: إبراهيم وابنه إسحاق عليهما السلام:

* إسحاق بنُ إبراهيم ـ عليهما السلام ـ نبيٌ ابنُ نبيّ، ذكَرهُ اللهُ عزّ وجلّ في مواضعَ منَ التّنزيل، منها: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: ٨٤] و[مريم: ٤٩] و[الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقال:

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري في الأنبياء برقم (٣٣٦٤)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/١٧٧).

﴿ وَبَشَّرْنَهُ بِإِسْحَقَ ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [النساء: ١٦٣] وغير ذلك من آياتٍ أُخر...

* كان ميلادُ نبي الله إسحاق بنِ إبراهيم حدَثاً خارقاً في تاريخِ الأنبياءِ، مثله كمَثَل يحيى بن زكريا ـ عليهم السلام جميعاً ـ بشَّرت به الملائكةُ، وقد كانت البشارةُ[1] بإسحاقَ من الملائكةِ لإبراهيمَ وسارّةَ لما مرُّوا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائنِ قومِ لوط، ليّدمروا عليهم مُدَنهم لكُفْرِهم وفجورهم، وظلمِهم أنفسهم، وركوبهم سبلَ الزّلل، ولمخالفتهم فطرةَ اللهِ التي فطرَ النّاس عليها.

* ذكر القرآنُ الكريم قصّة البشارة بإسحاق، وجاءت في بضع سور ونطالعُ مجملَ ذلك في سورة هود، والحجر، والذّاريات، وغيرها.

* يذكرُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ الملائكة الكرامَ لما وردوا على إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ حسبَهم بادي الرّأي أضيافاً، فعاملهم معاملةَ الضّيوف، ورحّبَ بهم وسهَّل، بعد أنْ ألقوا التّحيّةَ بالسَّلامِ عليه، ومن ثمَّ شَوى لهم عِجْلاً سَمِيناً من خيارِ ما عنده من قطيعِ البقر، ولما قربّه إليه وعرضَ عليهم الطّعام، لم يرَ لهم همّةً ورغبةً وميلاً إلى الأكلِ، فأوجسَ إبراهيمُ منهم خيفةً، هنالك ظهرتْ حقيقتُهم، و﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠]، لنُدمِّرَ عليهم مساكنهم ومدنهم..

* هنالك استبشرتِ السيدةُ الكريمةُ سارة زوج إبراهيم وكانت قائمة، فلما ضحِكَت استبشاراً بذلك، جاءتها البُشرى الرّبانية الخارقةُ للعادة، قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] ولما سمعت سارةُ البشارة تعجبّتْ تعجباً شديداً، وضعتْ يدها على وجهها ثم قالت: كيفَ أَلِدُ وأنا عجوزٌ كبيرة، وزيادةٌ على الكبر فأنا عقيمٌ أيضاً، وهذا زوجي إبراهيم قد غدا شيخاً كبيراً؟!.

---

(١) «البشَارة» و«البُشْرى»: هي الإعلامُ بخبرٍ سارٍّ سيقعُ في المستقبل، وقد أرسلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ملائكته إلى إبراهيم أرسلهم بالبشرى، وعندما دخلوا على إبراهيم قالوا سلاماً.

* تعجبتْ سارة من وجودِ ولد ، والحالةُ هذه ، وعقْمها وكِبرها وكبر زوجها وقالت: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢]؛ لقد خاطبتِ الملائكةَ بأنَّ الذي بشرتموني به لشيء عجيب!.

* هنا جاء الجوابُ الإلهيُ الحاسمُ المبشّر: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣].

* ولكي تزداد السّيدةُ سارة اطمئناناً بهذهِ البشارة ، رأت زوجهَا إبراهيم قد تعجّب أيضاً استبشاراً بهذه البشارة ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٤ ـ ٥٥]. لقد أكّد الملائكةُ الكرامُ الخبرَ بهذه البشارة ، واطمأنّتْ سارةُ إلى وعدِ اللهِ ، وحملت سارةُ ، ولما آن أوانُ الوَضْعِ ، ولدتْ طفلاً ذكراً ، وكان هذا الولدُ هو إسحاقُ بنُ إبراهيم.

* هذه البشارةُ العظيمة بيّنَتْ لإبراهيم عليه السّلام أنّهم لم يأتوا لعذاب عنده ، ولكنهم جاؤوا لعذاب قومِ لوطٍ الذين طغَوا وخالفوا فطرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

* وفي غمرةِ هذه البشارةِ اللطيفةِ ، بشّرت الملائكة امرأة إبراهيم بشيء كانت تتمناه وهي في حالةِ الصّبا والشّباب ، والآن قد فاتَ وقته ، لأنّها قد بلغت من الكبر عتياً ، وابيض الشَّعْرُ ، ووهنَ العظمُ ، وغدت من عجائز عصرها وكانت عقيماً. بشّرها الملائكة بأنّها بعد هذا العمرِ الطّويل ستلد ابناً ، وأنّها ستكون جدّة ، وسيكون لها ابنَ ابنٍ هو يعقوب.

* وكانت البشارةُ الملائكيّةُ للسّيّدة سارّة ذات محاور وفروع عدّة:

الأولى: الملائكة جاؤوا لعذاب قوم لوطٍ ولم يحضروا لعذابِ قوم إبراهيم ، لأنّهم لم يرتكبوا مخالفات.

الثّانية: الملائكة جاؤوا لقوم مجرمين هم قوم لوط ، اتبعوا نبّيهم ، وعاثوا في الأرض فساداً.

الثالثة: بشّرتْها الملائكةُ بغلامٍ ، ومسألةُ الغلامِ كانتْ تتمناها منذُ زمنٍ طويلٍ ، لأنها كانت عاقراً.

* وقد استقبلت السَّيِّدةُ سارّة هذه البشارات بما يلي:

١ ـ استقبلتِ البشَارةُ الأولى بالضّحك.

٢ ـ واستقبلت الثّانية بالاطمئنان.

٣ ـ واستقبلت الثالثة بالدَّهشة.

* قالت السَّيدةُ سارة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

* وجاء إسحاق، وكان الولدُ الثّاني لإبراهيم عليه السَّلام، وكان أصغر من إسماعيل بأربع عشرة سنة، وهو الغلام العليم الذي بشّرت به الملائكة أباه إبراهيم وأمه سارة، فكانت هذه البشارة داعية للفرج والسّرور، فقد بُشِّرَ به أبواهُ بعد يأس.

* ولا يحكي لنا القرآن الكريم كثيراً عن طفولةِ إسحاق، ولا عن علاقته بأبيه، إلا أنّه كان نبيّاً وولد له نبيٌ هو يعقوب، هو جدّ نبي هو يوسُف عليهم السَّلام، فهو كريمٌ من نبعةِ الكرام التي نبّه عليها رسول الله ﷺ في حديثٍ مشهور مرّ معنا في أول هذا الفصل.

* ويمكنُ للمربّي أنْ يشيرَ إلى بعضِ الفوائدِ التي يستفيدُهَا الأبناء والنَّاشئةُ من قصّةِ إسحاق وإبراهيمَ وسارةَ، ومنها:

* إكرامُ الضَّيف، ففي الصَّحيحَيْن أن رسول الله ﷺ قال: «.... ومن كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فليكرمْ ضيفَه».

* تعليمُ وتعلُّم أدبِ التّحية كأنْ تقول: «ورحمةُ اللهِ وبركاتُه» استفادةً من قوله عزّ وجلّ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٧٣].

* الولدُ الصّالحُ نعمةٌ كبرى وهبةٌ عظمى من الله على الوالدَيْن، كما أنعمَ الله عزّ وجلّ على إبراهيم وسارّةَ بإسحاقَ.

* إكرامُ اللهِ للصَّالحين وذلك بتسميةِ أولادِهم ، فقد سمّى الله لسارةَ ابنها إسحاقَ وكذلك حفيدها يعقوبَ ، كما أنّ اللهَ سمّى يحيى وعيسى وأحمدَ ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

* اللهُ قادرٌ على كلّ شيءٍ ، ولا تقفُ الموانعُ الخَلْقيّة أمامَ قدرتِهِ ، لأنَّه هو خالقٌ الموانعِ ، وهو القادرُ على خرقِ العاداتِ.

* الملائكةُ من عبادِ اللهِ ، وقد تُكَلِّمُ الأنبياءَ وغيرَهم من رجالٍ أو نساءٍ ، فقد خاطبتِ الملائكةُ سارةَ ومريمَ؛ وقد تظهرُ الملائكةُ بصورة بشر عند الحاجةِ كما في قصّة إبراهيم وسارة.

* * *

الفصل الرابع

أبناء يعقوب عليه السلام

* إنَّ أكثرَ من تسعينَ بالمئةِ منَ النَّاس ، من شتّى الأجناس ، ومن مختلفِ الدّيانات والاتّجاهات ، يعرفونَ قصّة نبي اللهِ يوسفَ مع أبيهِ يعقوب ومع إِخْوَتِهِ. وهذا ليس من بابِ المبالغةِ ، إذ إنَّ قصّةَ يعقوبَ مع أولادِه لا تَبْلى مع كثرةِ الرَّدّ ، وكلّما تلونا آياتِها تزدادُ الإشراقاتُ في النفوسِ المؤمنةِ ، لأنَّ قصَّةَ يوسفَ مع أبيهِ وإخوتهِ تدخلُ بأحداثها بين الخِلْب[1] والكبدِ ، وتستولي على رقيقِ المشَاعر ورقائقِ الأحاسيس.

* وقبل أن ندخلَ رياضَ الأُنْس ، وننعمَ مع سيرةِ الأبّوةِ والبنوةِ وألطافِ اللهِ وحكمته ، دعونا نغترفُ ونتعرَّف بعضَ المعلومات عن يعقوبَ وابنه يوسفَ ، ليطيبَ الحديثُ أكثر ، وتكونَ رحلةٌ أنْعَم ، وجولتنا في رياضِهما أغْزَرُ وأرحبُ.

* من المُسَلّماتِ أنَّ نبيَّ اللهِ يعقوبَ هو حفيدُ خليل اللهِ إبراهيمَ ، وابنُ إسحاقَ ، وأبو يوسف الصِّدّيق النّبيّ المُخلص ، وابن أخي نبيّ الله إسماعيل ،

---

(١) «الخِلْب»: بكسر الخاء وسكون اللام: هو حجاب ما بين القلب والكبد ، قال الشاعر: «يا هندُ هندٌ بين خلب وكبد». (لسان العرب: ١/ ٣٦٤) باختصار.
وقال الفيروز أبادي: «هي لُحيمة تصل بين الأضلاع والكبد» (القاموس المحيط؛ مادة: خلب» وقال أحمد بن زيدون الشاعر الأندلسي الشهير يخاطب المحبوبة من أبيات منها:

لما اتّصلتِ اتصالَ الخِلْبِ بالكبد ... ثمَّ امتزجتِ امتزاجَ الرُّوحِ بالجسَدِ
ساءَ الوشاةُ مكاني منك فاتّقدتْ ... في صدْرِ كلّ عدوّ جمرةُ الحسَدِ

ووارثُ جماله ، وبالجملةِ فإنَّ المكارمَ تحيطُ به من كلِّ جانبٍ ، وقد جَمَعَ الفضائلَ من جميعِ الأطراف ، وقد وردَ ذكْرهُ في مواطنَ متعددةٍ من الذّكْرِ والتّنزيلِ الحكيم ، ومنها : البشارةُ بوجوده قبلَ مولدِه ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] ؛ والمِنَّةُ إلى أبيهِ إبراهيم به وبكونهِ نافلةً ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : ٧٢] ، وفي موافقةِ الدعوةِ مع أبناءِ النّبوّة ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، وغير ذلك في مواضعَ من القرآن الكريم .

* وأمّا ابنهُ يوسفَ فقد أعطيَ شطْرَ الحُسنِ ، ومن المحاسنِ في قصَّتهِ أنَّ قصصَ الأنبياءِ قد تفرَّقَتْ في القرآنِ الكريم ، وجمعَ اللهُ عزَّ وجلَّ قصَّتَه كلَّها في سورةٍ واحدةٍ سميت باسمهِ ، وسمّاه في هذه السّورة بثلاثةٍ وثلاثين اسماً ، وهي : المجتبى ، والمُعَلَّم ، غلامٌ ، مُكْرَمٌ ، نافعٌ ، وَلَدٌ ، مُخْلَصٌ ، مُحسِنٌ ، رَاءٍ ، فتىً ، أَحَبُّ ، مَلَكٌ كريمٌ ، مُستَعصِمٌ ، صدِّيقٌ ، مُسْتخْلَصٌ ، حفيظٌ وعليمٌ ، أمينٌ ومكينٌ ، مُمَكَّنٌ ، مُرسَلٌ ، رسولٌ ، أَخٌ ، زعيمٌ ، عليمٌ ، رفيعٌ ، رافعٌ ، عزيزٌ ، مُتَصدِّقٌ ، تقي وصابرٌ ، صالحٌ ومسلم(١) .

* وقد وردت قصّتُهُ كاملةً في سورةِ يوسفَ ، وورَدَ اسمه فيها (٢٤ مرة) ، وردَ مرتَيْن أخريَيْن في سورتَيْن أُخْرَيَيْن هما : الأنعام آية (٨٤) ، وغافر آية (٣٤)(١) .

* مَحَنَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بعَشْر محنٍ ، وكافأهُ بعَشْرِ مِنَح ، ومنها : فراقُ أبيه ، وخُتِمَ بِمَسَرَّة ، وابتلي بجفاءِ الإخوة ، وخُتِمَ بِمَسَرَّةٍ ، وابتُلي بوحشةِ الجُبِّ ، وجُوزي بفرحةٍ ، وابتلي بحيلةِ نساءِ مصْرَ ، وخُتِمَ ببراءتِهِ من قولهنّ أنفسهنّ ، وابتليَ بالسَّجنِ والحبس ، وكوفىءَ بالمُلْكِ والسَّلْطنة ، وغير ذلك(٢) .

* ودعونا الآن نعش أرغدَ الأوقاتِ في رحابِ الأبوة الحقّةِ والبّنوةِ الصّافيةِ ، مع يعقوبَ النَّبيّ ، وابنه يوسفَ النّبيّ ، ومع إخوتهِ الذين سولّت لهم

---

(١) انظر : بصائر ذوي التمييز (٦/ ٤٧ و٤٨) مع التصرف والتصحيح .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٦/ ٤٩) باختصار وتصرف يسير .

أنفسُهم أمراً فصنعُوا ما صنعُوا بحقّهِ إلى أنْ فاؤوا في نهايةِ الشّوط إلى أمْر الله عزّ وجلّ وعرفُوا فَضْل يوسفَ عليهم.

* روي أنّ اليهودَ سألوا رسول الله ﷺ عن قصّة نبي الله يوسفَ ـ عليه السلام ـ فنزلتِ السُورة[1].

* وقصةُ نبي الله يوسفَ عليه السَّلام جاءتْ بالشّخصِ، وهو يوسف بن يعقوب عليهما السَّلام، وتدور حوله أحداثٌ كثيرةٌ ومثيرةٌ، ومن هذه الأحداث:

١ ـ أنَّه رأى الشَّمسَ والقمرَ والكواكبَ تسْجدُ له.

٢ ـ أنّه تآمر عليه إخوته وألقوه في الجبّ.

٣ ـ اشتراه السَّيَّارة بثمن بخس دراهم معدودة وباعوه للعزيز.

٤ ـ أعجبت به امرأة العزيز وراودته عن نفسه.

٥ ـ دخل السّجن من دون ذنب ارتكبه.

٦ ـ أصبح حاكماً لمصر وغدا عزيزها.

* فيوسفُ عليه السَّلام شخصٌ دارتْ حولَه أحداثٌ، وفي الوقتِ نفسه هي أحداثٌ دارتْ حولها أشخاصُ إخوته الذين فَعَلَ بهم الحقْدُ والحسَدُ فعلته النّكراء؛ امرأة العزيز وكيف كادته كيداً عظيماً، أبوه يعقوب وكيف تلقّى نبأ فَقْدِهِ وبُعْدِه، الصّراع حول السُّلْطة والنفوذ، هذا كلّه موجود في قصّة يوسفَ عليه السَّلام ذات الأحداث والأشخاص.

* وقصةُ يوسفَ عليه السَّلام قد تكلّمت عنْها الكتبُ التي سبقتِ القرآنَ الكريمَ بالزّمنِ، ولكنْ عندما جاءتِ القصّةُ اليوسفيةُ في القرآنِ الكريمِ، تركَ علماءَ اليهودِ كتُبَهم، وأخذوا يقرؤونها لأنَّ القصة في القرآن الكريم فيها إعجاز صياغةِ الأداء، والقدرةُ على هزّ ما هو داخل النَّفس، وإظهار المواقف المختلفة في النّفس البشريةِ، كل هذا في ذروة أداء البيان، فهي أحسن

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٧٩) بتصرف يسير جداً. طبعة بيروت.

القصص ، لأنَّ الكلَّ يعرف تاريخها وأحداثها ، لأنّها نزلت في الكتب السّابقة ، ثم إنّها أحسنُ القصص لأنّها اشتملت على عبر متعددة في الطفولة وفي الشّباب ، وفي الشيخوخة ، والحقد بين الإخوة ، والتمرد على الأب وخداعه ، ودخول السجن ، والعفو عن الإخوة؛ وهي أحسن القصص لأنها تزيحُ غطاء الصّدور ، وتعرفنا ما يدور في القلوب ، وتعرفنا على أطوار الإنسان حينما يكون مغلوباً على أمره ، وحينما يكون قوياً. . .

* قال سيّدنا سعدُ بن أبي وقاص ـ رضوان الله عليه ـ: «أُنْزِلَ القُرآنُ على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو قصصتَ علينا؛ فنزلَ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ . . . ﴾ [يوسف: ٣] ، فتلاهُ عليهم زماناً ، فقالوا: لو حدَّثْتَنا ، فأُنْزِل: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣][1].

* قال العلماءُ: «وذكرَ اللهُ أقاصيصَ الأنبياءِ في القُرآنِ وكرّرَها بمعنى واحدٍ في وجوهٍ مختلفةٍ ، بألفاظٍ متباينةٍ على درجاتِ البلاغةِ ، وقد ذكرَ قصّة يوسفَ ولم يكرْرَها ، فلم يقدر مخالفٌ على معارضةِ ما تكرّر ، ولا على معارضةِ غير المتكرّر ، والإعجاز لمن تأمّل»[1].

* بدأتْ قصّةُ يوسف مع أبيهِ برؤيا يوسف ، وانتهت بتأويلها ، وكان بين ثناياها صنوفٌ من المِحَنِ والابتلاءاتِ ، منها: محنةُ كيدِ الإخْوَةِ ، ومحنةُ الجبّ والخوفِ والتّرويع فيه ، ومحنةُ الرّق ، ومحنةُ كيد امرأةِ العزيز والنّسوة ، وَمِحْنَةُ السّجن بعد رغدِ العيش في قصْرِ العزيز ، ومحن أخرى صبرَ عليها يوسف منذ كان طفلاً إلى أنْ غدا حاكِماً لمصْرَ ، وخرجَ من هذه الابتلاءات متجرِّداً خالِصاً ناجحاً ، طلبَ منَ اللهِ أنْ يتوفّاه مُسلماً ، وأنْ يلحقَه بالصَّالحين.

* ونبدأُ الآن الرّحلةَ اليوسفيّة برؤيا يوسفَ لأحد عشَرَ كوكباً والشّمسَ والقمرَ وهم ساجدون له ، وناجى يوسفُ أباه برؤياه وبراءةُ الأطفالِ في عينَيْه ، إذ اعتَقَدَ بكمالِ عِلْمِ أبيه وشفقَتِهِ عليه ، بحيثُ لو كانت رؤياه تَسُؤْهُ لأمكنهُ

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٧٩).

صرفَها عنه؛ ولما سمعَ الأبُ رؤيا ابنه الأثيرِ عنده ، علمَ أنَّه ذو شأنٍ ، فهذه رؤيا شريفة لابنه يوسفَ.

* قال المفسّرون وغيرهم : «رأىٰ يوسفُ ـ عليه السّلام ـ وهو صغيرٌ قبل أنْ يحتلمَ؛ كأنَّ أحدَ عَشرَ كوكباً ، وهم إشارةٌ إلى بقيّةِ إخوته ، والشّمسَ والقمَر هما عبارةٌ عن أبويهِ ، قد سجدوا فَهَالَهُ ذلك؛ فلمّا استيقظَ قصّها على أبيهِ ، فعرفَ أبوهُ أنّه سينالُ منزلةً عاليةً ، ورفعةً عظيمةً في الدّنيا والآخرة ، بحيثُ يخضعُ له أبواهُ وإخوتُه فيها»[1].

* وأسرَّ يعقوبُ في أذنِ حبيبه يوسفَ بألاّ يحدّثَ إخوتَه برؤياه ، وأمرَهُ بكتمانِها عنهم ، إذ قد يعرفون تأويلَها[2] فيحسدوهُ ويبغوا له الغَوائلَ ، ويكيدوهُ بأنواعِ الحيلِ والمكْر ، وقد تلعبُ بأهوائهم مقدّماتُ الحَسَدِ ، فيعملُوا على إلحاقِ الضَّررِ بهِ؛ ولا عجبَ في هذا ، فابنُ آدمَ الأوّل حملَهُ الحسدُ على قَتْلِ أخيه فقَتَلَهُ ، فأصبح من النَّادمين؛ والحسدُ داءٌ عسيرُ العلاجِ ، وكلُّ الأدويةِ الرُّوحيةِ التي يصفُها الواصفون والدعاةُ لا تزيلُ هذا الدّاءَ القديمَ نعوذُ باللهِ من الحسدِ والحُسَّاد.

* وتمرُّ الأيامُ ، ويَنْبتُ الحسدُ في صدورِ إخوة يوسفَ الأحد عشرَ كما يُنْبِتُ الماءُ البقلَ ، وتنادوا ذاتَ يومٍ وقالوا فيما بينهم : «واللهِ إنّ يوسفَ وأخاه ـ يعنون بنيامين وكان شقيقهُ ـ أحبّ إلى أبينا منّا ، ونحنُ جماعةٌ أحقُّ منْ هذَيْن ، ألا تَرَوْنَ أنَّ أبانا قد ابتعدَ عن طريقِ الصَّوابِ بتقديمهِ حبّهما علينا؟!!! بل إنّه يقدّمُ يوسفَ علينا» ، وإنّما قالُوا هذا ، لأنَّ خبرَ رؤيا يوسفَ قد بلغَهم ، فحرّكَ الحسدُ أحقادهم ، وأثارَ كيد الشّيطان قلوبهم ، وتحرّكَ الشّرُّ لأخيهم في

---

(١) انظر : قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٢٤٦) ، وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً ، ذكرهم ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٢٤٢) ، فمن أراد اسماءهم فليرجع إلى المصدر المذكور.

(٢) يقول الشيخ محمد متولي شعراوي رحمه الله : «ورؤيا يوسفَ للشّمسِ والقمرِ والكواكبِ تتميّز بإعجاز ، لأننا جميعاً نرى الشّمسَ والقمرَ والكواكب ، ولكنّ الشيء العجيب في هذه الرؤيا أنّه رأى الشمسَ والقمر يجتمعان معاً! نقول : إنه لا القمر ولا النجوم نراها مع الشمس ، فالشّمس بضوئها الشّديد تحجب هذا كلّه عن أعيننا».

نفوسِ أكثرِهم. . . وظلّتْ هذه الأشياءُ تلعبُ بهم ذات اليمين وذات الشّمال ، حتّى دلَّهم شيطان حسدهم على أمرٍ. . . . ترى ما الأمرُ الذي وصلُوا إليه؟ وما الحل الذي زُيِّن لهم؟! .

* اجتمعَ الإخْوَةُ في ندوةِ كيدٍ عقدوهَا ، ثمّ اشتوروا فيما بينهم ، وائتمروا بقتلِ يوسفَ ، أو إبعادِهِ إلى أرضٍ لا يرجعُ منها ولا يعرفُها أبوهم ، وعندها تتمخَّضُ محبةُ أبيهم لهم ، ومن ثَمَّ أضمروا التَّوبةَ من فعلتهم تلك ، وأن يكونوا من القومِ الصَّالحين[1] .

* استقرَّ رأيُ الإخوةِ على هذه الجريمةِ الكبرى والمصيبة العظمى ، ولكنَّ الشَّفقةَ تحرّكَتْ في قلبِ كبيرِهم على يوسف ، وقال لإخوتهِ: «ويحكم ، ألقوا يوسفَ في غورِ الجبِّ يلتقطهُ بعضُ المارّة من المسافرين ، وبهذا تتخلّصون من ارتكابِ جريمةٍ لا تُغْتَفَرُ ، جَريمَةِ قَتْلِ نَفْسٍ بريئةٍ ، فهذا الحلُّ أقربُ حالاً من قَتْله أو نفيهِ أو تغريبه» .

* ويبدو أنَّ هذا الاقتراحَ الظَّالمَ قد وافقَ هواهَم، فأجمعوا رأيهم على هذا، وباتوا ينتظرون الفرصةَ السَّانحةَ ليغتنموها ، وبالتالي ترتاحُ نفوسُهم بزعمهم .

* ولما تواطؤوا على أخذِ يوسف ، وطرحه في البئر ، جاؤوا أباهم على توجّسٍ ، وطلبوا منه أنْ يرسلَ معهم أخاهم يوسفَ ، وأظهروا له أنّهم يريدون أنْ يرعىٰ معهم ، وأن يلعبَ وينبسطَ ، وقد أضمروا له ما بيّتوه بالأمسِ . فأجابهم يعقوب ـ عليه السلام ـ: «يا أولادي ، يشقُّ عليَّ أنْ أفارقَه ساعةً من النّهار ، وأخشى أنْ تشتغلُوا عنه في لَهْوكم ولعبِكم ، فيأتي الذئبُ فيأكله ، وَإِذْ ذاك لا يقدرُ على دفعهِ عنه لِصِغَرهِ ، ولغفلتكم عنه» .

* كان يعقوبُ يقول ذلك لفرطِ محبّتهِ ليوسفَ ، ولما يتوسمُ فيه من الخيرِ

---

(١) قصد إخوة يوسف من فعلتهم النكراء بأخيهم أن يتوبوا مما فعلوا ، وأنَّ اللهَ يتقبّل توبتهم ، ومنْ ثمَّ يَخْلُ لهم وجه أبيهم ، والمقصود بالوجه: المواجهة والابتسام والحنان ، والانفعال كله يظهر على الوجه فهم يريدون أن يقولوا: «إنَّ وجْهَ أبيهم سيصفو لهم بالحبِّ والحنانِ بعد ذلك ، وعندما ننتهي من قتل يوسف أو طرحه أرضاً ، نرتاح مع أبينا ، وينتهي كلّ شيء» .

العميمِ ، وشمائلِ النبوةِ ، ومحاسنِ الكمالِ في الخَلْقِ والخُلُقِ ، والصَّفاءِ الذي يرتسمُ على وجهِهِ البريء.

* ولم يزلْ فتيةُ يعقوبَ يقدّمون ويؤخِّرون لأبيهم ، حتّى أرسلَ يوسف معهم ، وما كان يوسف يعْلَمُ مِنْ مكْرِهم شيئاً ، وعندما ابتعدوا به عن عيني أبيه ، ظهرتْ غدراتُهم به ، وألقوهُ في قعرِ البئرِ على صخرةٍ كانت فيه ، ولكنَّ العليم الخبيرَ ينصرُ المظلومَ نصراً عزيزاً ، فأوحى اللهُ ليوسفَ بأنَّه لا بدّ لك من فَرَجٍ ومخرجٍ من هذا الضّيق الذي تعيشه ، وستنجو مما أنتَ فيه الآن ، ولتُخْبِرنّ إخوتك بصنيعهم هذا ، وذلك في حالٍ أنتَ فيها عزيزٌ ، وهم محتاجون إليك ، خائفون منك ، يرجون نوالَك ، ويستجدون عطفَكَ ، يفعلون كلَّ هذا وهم لا يشعرون بوحينا هذا إليكَ ، ولا يشعرون بشيءٍ آخر أيضاً ، ولا يعرفونك.

* وظنَّ الإخوةُ الكائدون أخاهم يوسفَ أنَّهم أحسنوا عَملاً ، ونجحُوا بفعلتِهم النّكراء بعد أنْ وضعوهُ في البئرِ ، وكانوا قد أخذوا قميصَه ، ومن ثمَّ لطَّخُوهُ بدمٍ مكذوبٍ فيه ، ولما كان المساءُ عادوا راجعين إلى أبيهم وهم يبكون ، أو يتباكونَ على أخيهم والليلُ مُرخٍ سدولَه ، ليكون ذلك أمشىٰ لِغَدرهم ، لا لعُذْرِهم ، وليكون الظلامُ مانعاً لأبيهم من تفرّسُهِ الكذبَ في وجوههم التي اشتبكتْ فيها الدّموعُ المصطنعةُ تفجّعاً على أخيهم ، وبالتّالي يرحمُهم ولا يغضبُ عليهم.

* وقفَ الفتيةُ أمامَ أبيهم ، وأخبروه بأنَّ الذئبَ قد أكل أخاهم ، وقالوا: «نحنُ نعلمُ أنَّك لا تصدّقنا الآن ، ولا تثقُ بقولنا».

* ثمَّ جاؤوا بدليلهم المزعوم ، أخرجوا القميصَ اليوسفيّ الملطّخ بالدمِ المكذوبِ ، ليراهُ يعقوب ، فكان القميصُ دالاً وفاضحاً لتآمرِهم وكذبهم ، فقد نسيَ الإخوةُ ـ الذين غلبَهم داء الحسدِ ـ أن يخرقوا قميصَ يوسف ، ومن المعروف أنَّ «آفةَ الكذبِ النّسيانُ».

* نظرَ يعقوبُ إلى قميصِ ابنه يوسفَ وتأمّلَه ، فلمْ يجدْ فيهِ خرقاً ، ولا أثراً

لجريمةٍ ، وقال لهم: «متى كان الذئب حكيماً يأكلُ يوسفَ ، ولا يخرقُ القميصَ!؟!».

* بكى يعقوبُ ـ عليه السلام ـ وأخذَ يشمُّ قميصَ ابنه ، وجعلَ يقلّبُه فلا يرى فيه شقّاً ولا تمزيقاً ، فقال لهم: «واللهِ الذي لا إله إلا هو ، ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحكم منه ، أكلَ ابني ، واختلسَهُ من قميصهِ ، ولم يمزِقْهُ عليه»[1].

* لم تنْطَلِ حيلةُ الأبناءِ على أبيهم ، وظهرتْ عليهم علائمُ الرّيبةِ ، وكان يعقوبُ يفهمُ عداوتهم ليوسفَ من قبل ، ويعرف حسدهم إيّاه على محبّته له من بينهم أكثر منهم ، ولِمَا كان يتوسَّمُ في يوسفَ من الجلالةِ والمهابةِ التي كانت عليه في صغره ، لما يريدُ اللهُ أنْ يخصَّه به من نبوّته ، ولذلك أخبرهم قائلاً: «لقد سولّت لكم أنفسكم صنيعاً قبيحاً ، وسأصبرُ صبراً جميلاً على ما فعلتم ، حتى يأتي اللهُ بالفرجِ ، فهو المستعانُ على ما تصفون وتذكرون من الكذبِ».

* ها هو ذا يوسف الآن في الجبّ وحيداً لا يؤنسهُ أحدٌ إلاّ اللهُ ، جلس يوسفُ ينتظر فرجَ اللهِ ولطفَه به ، فاللهُ لطيفٌ بعبادهِ المعلّقة قلوبهم به؛ وما هي غيرُ ساعاتٍ حتى مرّتْ قافلةٌ مسافرةٌ من قربِ البئر ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من البئرِ ، ولما أدلى دلوه تعلّق يوسفُ بالدلوِ ، فلمّا رآه الرّجلُ استبشرَ وفرح ، ثمّ باعوه لقافلة أخرى كانت متّجهة نحو مصر ، باعوه بدراهمَ معدودة وكانوا فيه من الزّاهدين الرّاغبين عنه ، ولم يعلموا منزلته عند اللهِ تعالى.

* وصلَ يوسفُ مصرَ فاشتراه عزيزُها ، وأوصى زوجته بيوسفَ في إكرامه والإحسانِ إليه ، فقد تفرَّسَ زوجها بيوسف فرآه ذا هيئة وشأنْ[2] ، ولذا فإنَّه

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ١٠٠) طبعة بيروت.

(٢) قالوا: «أحسن الناس فراسة ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: «أكرمي مثواه» ، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما» قال ابن العربي: «عجباً للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبر؛ فالصديق ولّى عمر بالتجربة في الأعمال ، والمرأة كان معها العلامة البينة على أمانة موسى ، وأما العزيز فيمكن أن يكون أمره فراسة» (تفسير القرطبي: ٩/ ١٠٦) باختصار.

قال لها: أكرمي مثواه عسى أنْ نتبنّاه؛ وبهذا قيّضَ اللهُ ليوسفَ هذا العزيز الذي أوصى امرأته بالإحسان إلى يوسف، والتّمكين له في أرض مصر المباركة.

* ومنذ ذلك الحين وهاتيكم الأوقات، بدأتِ الألطافُ الرَّبانية تصحبُ يوسف وتحوطُه، فعندما بلغَ أشدّه واستوى، آتاه اللهُ حكماً وعلماً وزاده فهماً وإحساناً، إذ إنَّه من المحسنين الصَّابرين.

* وحدثَ أنْ أُعْجِبَتْ به امرأةُ العزيز، وطلبتْ من يوسفَ الفاحشة، لكنّه استعاذَ بالله، فعصمَه ونزَّهَهُ عن الفاحشةِ، وحماهُ عنها، وصانه منها. واتّجه نحو الباب مسرعاً، فلحقته تريدُ منْعَه من الخروجِ، فوجَدا زوجها عند الباب، فبدرته بالكلام واتّهمت يوسفَ، وأشارت بحبسهِ أو بعذابهِ العذابَ الأليم...

* أُوْدِعَ يوسفُ في السّجنِ على الرّغم من ثبوتِ براءَتهِ، إذ شهد شاهدٌ من أهلِ زوجته ببراءةِ يوسف، وذكرَ بأنَّه إذا كان قميصُ يوسفَ قد انشقَّ من الخلف فقد صدقَ، وكذَبَتْ هي، وكان القيمصُ اليوسفيُّ قد انشقَّ من الخلفِ، ورآه العزيزُ، فأمرَ يُوْسُفَ بكتْمانِ الأمْرِ، وأمرَ المرأةَ بالاستغفارِ من ذنبها، لأنّها هي الخاطئةُ البادئةُ، وهو بريءٌ نزيهٌ عفيفٌ، سليمُ القلبِ والصَّدرِ.

* فشا أمْرُ امرأةِ العزيز وشاعَ في مصرَ، وعرفَهُ نسوةُ الأمراء [1]، وبناتُ

---

(١) انتقلَ الأمر إلى خارج قصْر العزيز، وفشا خبر امرأة العزيز في قصور الأمراء وبين نساء الكبراء، فلعلّ هناك عيوناً ترصدُ الأسرار، وتنشرها وترويها للناس، حتى لا يعتقدَ أحد انّه يمكن أن يحمي نفسه من الفضيحة لمجرّدِ كتمانها وسترها، فهناك عيونٌ تتبعُ ما يحدثُ وتنقلُهُ إلى النّاس.

وهاهنا قضية مهمة، إنها قصة امرأة العزيز التي تتناقلها النّسوة فيما بينهنَّ في بيوتهنّ ومجالسهنّ ونواديهنّ وأسمارهنَّ، وأن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه، وأنّها بفعلها هذا في ضلالٍ مبين.

والقرآن الكريمُ في هذا الموقف يريد أنْ يلفت الأنظار والأسماع والأفكار إلى أنَّ المرأة أكثر كلاماً في الأعراض، وأكثرُ علماً بالإشاعات من الرّجلِ، وأنَّ الخبر ينتقل من فمِ امرأةٍ إلى أخرى حتى يعرفنه جميعاً في وقت قصير، ومن الطبيعي في هذه الحادثة أنّ نسوةَ المدينة قد=

الكبراء ، ولعلَّ الذي تولّى إفشاء هذه الإشاعة نسوةُ الأكابر ، إذ كانتِ امرأةُ العزيز قد أسرَّتْ إليهنَّ سرَّها المكنون ، وطلبتْ منهنّ ألا يَبُحْنَ به ، وأنّى لامرأةٍ أنْ تحتفظَ بِسرّ!؟! ولما نُمِيَ إليها مكرُهُنّ وإذاعةُ الأسرارِ وإشاعتُها ، هيّأتْ لهنَّ مجلساً فاخراً ، وطرحتْ في جوانبهِ المطارفَ والحشَايا ، والأرائكَ والنّمارقَ ، وما رقَّ وراقَ من الأكوابِ الموضوعةِ ، والفواكه المتنوعةِ ، وآتت كُلَّ واحدة منهنّ سكّيناً ، ثم إنّها وجَّهتِ الدّعوةَ الأنيقةَ لنسوةِ الطَّبقةِ الرّاقية ، فجئْنَ وأخذن أماكنهنَّ ، واستمتعنَ بلذيذِ الطَّعام ، وباردِ الشّراب ، وجمال المجلسِ وأناقةِ الفرشِ والأكوابِ والصّحاف؛ وغرقْنَ في ذلك الجو الهامسِ اللطيف الذي يسرقُ الإعجابَ من بينِ القلوب . . . .

* في تلك اللحظاتِ الرّغيدة ، أشارت اِمرأةُ العزيز إلى يوسفَ أنْ يخرجَ عليهنَّ وهُنَّ في هذه الحالةِ وهذه الهالة ، فخرجَ وهو أحسنُ من البدرِ ، وهنا سقطَ الصَّمْتُ بينهنَّ فجأةً ، وبُهتْنَ من هذا الذي كأنهُ مَلَكٌ كريم .

* وقطعَ الصّمتَ صوتُهنَّ الذي عبَّرَ عن رأيهنَّ فقلْنَ: والله ما هذا من البشَر ، إنْ هذا إلاّ ملكٌ كريمٌ نزلَ إلى الأرضِ. وكما قطعَ الصمتَ صوتُهنّ ، فإنَّ السِّكاكِيْنَ قد أثّرت في أيديهنّ ، حيث جعلنَ يحززنَ أيديهنَّ ولا يشعرنَ بالجِراحِ. وهنالك تنفَّستِ امرأةُ العزيز الصُّعدَاءَ ، وقالت لهنّ: «هذا الذي لمتنني فيه ، هو والله عفيفٌ طاهرٌ امتنع عن الفاحشةِ ، وإذا لم يفعلْ ما آمرهُ بهِ سيكون السّجنُ مأواه» .

* سمع يوسفُ هذا التّهديد ، فرفضَ وآثر السّجن ، ونأى عن كيدها لأنّه من سلالةِ الأنبياءِ ، وطلب منَ اللهِ عزّ وجلَّ أنْ يحفظَه من كيدهنّ ، فاستجابَ

= عرفنَ الخبر وتحدثن به ، ولم يمضِ إلا وقتٌ قصيرٌ حتى وصل الخبر إلى امرأة العزيز نفسها بأن النسوة يقلن كذا وكذا.

أدركت أنَّ هذا المكْرَ بها ، وأن قول نسوة المدينة ما هو إلا إذلالٌ لكبريائها ، ونَشر فضيحتها بأنها امرأة الحاكم الأعلى لمصر ، تراودُ مَنْ يخدمها نفسه وهو يرفض ، إنها عملية صعبة ومهينة ، ولم تشغل نفسها بمن نقل الأخبار وأشاعها ، ولكنها بررتْ موقفها بدعوتهنّ إلى مجلسها الفاخر ؛ ومن ثم كادتْهنَّ بمثل ما كادوها به كما هو معروف في القرآن الكريم.

اللهُ دعاءه وعصَمه؛ ولكنّهم سجنوهُ بسببِها ظلماً وعدواناً.

* وفي السجنِ أوىٰ يوسفُ إلى ربّه الذي علّمه التّأويل، ودخلَ معه السّجن فتيان غضب عليهما فرعون مصْرَ، فَحلمَا في الرّؤيا بأنَّ أحدهما يحملُ فوقَ رأسهِ خبزاً تأكلُ الطّيرُ منه، والآخر يعصرُ عنباً، وطلبا من يوسفَ التّأويل، لأنّهما رأيا علائمَ الصَّلاح والإحسانِ عليه.

* من خلالِ هذا الحوار مع هذَيْنِ الغلامين راح يوسفُ يدعوهما إلى توحيدِ ذي الجلالِ والإكرام، وأخبر أنّه يعرفُ تأويل الرؤيا، وكان ممّا قال لهما: إنَّ هذا من تعليمِ اللهِ إياي، لأنَّني مؤمنٌ به، موحّدٌ له، متّبعٌ ملّةَ آبائي الكرام: إبراهيمُ خليل الله، وإسحاقُ، ويعقوبُ، وملّتنا تقومُ على توحيدِ اللهِ وعبادته وحده، وهذا من فَضْلِ اللهِ علينا.

* اغتنم يوسفُ ـ عليه السَّلام ـ هذه الفرصة، فدعا الغلامَيْن إلى التّوحيدِ، وذمَّ عبادة ما سوى اللهِ، وصغَّر أمْرَ الأوثانِ، وحقّرها، وضعَّف أمرها.

* وعلّقَ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ على هذه الدعوة اليوسفيّة في هذا الموقفِ فقال: «وكانَتْ دعوته لهما في هذه الحال في غايةِ الكمال، لأنَّ نَفْسَيْهِمَا معظّمةٌ له، منبعثةٌ على تلقّي ما يقولُ بالقبول، فناسَبَ أنْ يدعوهماإلى ما هو الأنفعُ لهما ممّا سألا عنه وطلبَا منه»[1].

* وبعد أنْ دعاهما إلى التّوحيد والإسلام شرعَ في تَفْسِيْرِ رؤياهما، وأخبرهما بأنَّ أحدهما يعودُ ساقياً للملكِ، وأما الآخر فسيُصْلَبُ، وهذا الأمرُ واقعٌ لا محالة.

* ثم قال يوسفُ للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما: «اذكرْ قصّتي عند الملكِ، وأنّي سجنتُ بغيرِ جرم»، ولكنَّ الفتى نسيَ أنْ يذكرَ عند الملك ما أوصاه به يوسفُ عليه السّلام، وهذا النّسيان كان من مكايدِ الشّيطان؛ لئلا يخرجَ نبيُ الله من السِّجنِ، ولبث يوسفُ في السّجنِ بضع سنين.

---

(١) قصص الأنبياء (ص ٢٥٨) طبعة دار ابن كثير الثالثة بدمشق ١٩٩٥ م.

* بدأت رحلةُ المِحَنِ تتوارى ، وجاءَ دورُ المِنَحِ الرّبانية ليوسفَ ، فقد هيّأَ له الله أسبابَ الخروجِ من السّجن على وَجْهِ الاحترامِ والإكرام والإنعام؛ وذلك أنَّ ملكَ مصر رأى رؤيا أزعجتْه ، ولما قصّهَا على أشرافِ قومه ، لم يكنْ فيهم من يحسنُ تفسيرها ، وقالوا له: هذه أَضغَاثُ أحلامٍ منَ الليلِ ، ولعلّه لا تفسيرَ لها. وفي هذه اللحظات تذكّر الفتى الذي وصَّاه يوسف بأنْ يذكرَهُ عند الملكِ ، ولما سمع الرّؤيا ، ورأى عجْزَ النّاس عن تَفْسِيرِهَا ، تذكّر أمْرَ يوسفَ بعد بضع سنين ، وهنا قال للملكِ ولقومه: أرسلوني إلى يوسفَ. فلمّا جاءه سأله عن تأويلِ رؤيا الملك الذي رأى سبعَ بقراتٍ سِمان يأكلهنّ سبعٌ عجاف هزيلات ، فَفَسَّرَ يوسفُ الرّؤيا وقال: «تزرعون سبْعَ سنين ، ثم تتركون الزَّرعَ في سنبله ، لأنّه سيأتي سبعُ سنين صعاب على النّاس ، ثمّ يأتي عام يكثر فيه الخصبُ».

* وأُعجبَ الملكُ بكمالِ علمِ يوسف وبتفسيره لرؤياه ، فأمرَ بإحضارِه إليه ، ولكنَّ يوسفَ لم يرضَ أنْ يخرجَ من السّجن حتى يعلمَ النّاسُ أنّه بريءُ السّاحةِ مما كادَهُ نسْوةُ المدينة [1]، فكان له ما أراد ، وشهدنَ ببراءته ،

---

(١) جمعَ الملكُ نسوة المدينة ، وخاطبهنَّ وواجههنَّ بأنهنَّ راودن يوسف عن نفسِهِ ، وكان المراد بالاتّهام امرأة العزيز ، ولكنّ الملك بناء على رغبةِ يوسف ، جمع كل نسوة المدينة وقال لهن: «ما خطبكن»؟
ولما رأى النسوةُ هذه اللهجة الشديدة من الملك ، أسرعن ينفين التّهمة عن أنفسهنّ ، قلن حاش لله ، إنّ يوسف كريمُ الخلقِ لا يفعل سوءاً أبداً وكانت امرأة العزيز جالسةً مع هؤلاء النّسوة، فقد أتى بها الملك معهنّ ولم يُشِرْ إليها القُرآنُ الكريمُ، إلا عندما تكلّمت وقالت: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ٥١]، قالت امرأة العزيز: «لم يعدْ هناك مجال للسّتر والتّمويه ، أنا راودت يوسف وهو صادق نزيه عيف طاهر».
وفي قول امرأة العزيز يتضح لنا أنَّ الجذوة الإيمانية تتوهج في الإنسان ، وأنَّه قد ينسى الله عز وجل ، ولكنْ عندما ينتهي الخاطرُ السَّيء يعود إلى توازنه الكمالي ، وربما جعل من الزّلة الأولى وسيلة الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، فالله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].
ولو أنَّ الإنسان اقترف سيئة ، فقد يضاعف من حسناته حتى يغفر الله له هذه السيئة ، ولذلك على الإنسان أنْ يكثر من عمل الخيرات والحسنات ، ليمحو الله عزّ وجلّ سيئاته التي سترَها عن الناس.

وخصوصاً امرأةُ العزيز التي أقرّتْ بأنّه بريءٌ ، وأنّه حُبِسَ ظلماً وزوراً؛ وعندها ثبتتْ براءةُ يوسفَ علانيةً أمام الملأ؛ وإذ ذاك جعله الملكُ من خاصّتهِ وأهلِ مشورته وقال له: «لقد أصبحتَ عندنا ذا مكانةٍ وأمانةٍ».

* فطلبَ يوسفُ ـ وهو الأمينُ المكينُ الصّدّيق ـ من الملكِ أنْ يجعلَه على خزائنِ الأرضِ والغلّات ، لأنّه عليمٌ بمثلِ هذه الأشياءَ ، يضبطُها ويعلمُ المصالح العامّة ، فوافقَ الملكُ وأصبح يوسفُ مكيناً في أَرْضِ مصرَ ، وتلك رحمةُ اللهِ وعنايته به ، فيوسفُ كان محسناً تقياً ، فاستحقَّ مُلْكَ مصرَ ، وسيكون عند الله من ذوي الأجْرِ والفوزِ في الآخرةِ.

* وصار يوسفُ بعد السّجن مطْلقَ الرّكابِ بديار مصرَ ، وغدا مكرماً معظّماً ، وأعقبه اللهُ بعد الشّدةِ فَرَجاً عَظِيمَاً ، وبعد الخوفِ أَمْنَاً ومَكَانَةً ، ولله درّ القائل؛ وقد كتبَ إلى صديقٍ له:

وَرَاءَ مَضيقِ الخَوفِ متَّسعُ الأَمن ... وأوّلُ مَفْروحٍ بِهِ آَخِرُ الحُزْنِ
فَلا تيأَسَنْ فاللهُ مَلَّكَ يوسُفاً ... خَزَائنَه بعْدَ الخلاصِ من السِّجنِ[1]

* وأنْشدَ أخر لَصَديقه:

أَمَا في رسول الله يوسُفَ أسوةٌ ... لَمثْلِكَ محبوساً على الظُّلْم والإفْك
أقامَ جميلَ الصَّبرِ في الحبسِ بُرهةً ... فآلَ بهِ الصَّبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ[1]

* هو ذا يوسفُ عليه السلام قد تسنّمَ عرشَ مصرَ ، وها هي ذي السَّنواتُ السَّبعُ العجافُ المجدبةُ قد طافت في البلادِ ، فأضحتِ الأرضُ مجدبةً في سائرِ مصرَ وما جاورها ، وجاء إخوةُ يوسفَ يشترونَ الطَّعام من مصرَ ، فلمَّا دخلوا عليه عرفَهم ، بيد أنّهم لم يعرفوهُ ، ولم يخطرْ ببالهم أنَّ من ألقوه منذ سنوات كثيرة في غيابةِ الجبّ ، هو هذا الذي يُغْضِي حياءً الآن ويُغضَىٰ من مهابتهِ ومكانَتهِ ، ولهذا فقد عرفَهم يوسف ، وهم له منكرون ، فقد فارقوه صغيراً لم يشبَّ عن الطَّوق بعد.

* وأعطاهم يوسفُ الطَّعام وجهزهم ، ومن ثمَّ سألهم عن حالهم ، وكم

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ١٤٤) طبعة بيروت.

هم ، ومن هم ، ومِنْ أين قدموا؟ فقالوا: «كنّا اثني عشرَ رجلاً ، فذهبَ منّا واحدٌ في البّرية وكان حبيباً إلى أبينا ، وبقي شقيقهُ عند أبينا».

* فقال لهم يوسف: «ائتوني بهذا الأخ الذي تدعون حتّى أعلمَ صدقكم ، وأطمئنَ على أنكم لَسْتُم بجواسيسَ ، وها قد أحسنتُ نُزُلَكم ، ولكنْ إذا لم تَأْتُوني بأخيكم هذا فليس لكم عندي مِيْرة ، ولا تَقْرَبُوني...».

* وبجانبِ النّبيّ يعقوب جلسَ أولاده يقصّون عليه نبأَ رحلتهم ، وأخبروه برغبةِ عزيز مصر في اصطحابِ أخيهم إلى مصر ليسهلَ عليهم شراء الطّعام؛ ولكنَّ يعقوبَ ذكّرهم بما صنعوه بيوسفَ من قبلُ ، فأكّدوا له أنّهم سيحفظون أخاهم ، وأخذ يعقوبُ عليهم العهود والمواثيق أنْ يحفظوا أخاهم ، ففعلوا ، وأوصاهم ألاّ يدخلوا مصر كلّهم من بابٍ واحد ، ولعلَّه خافَ عليهم من الحسدِ ومن العينِ [1] ، إذ العَيْنُ حقٌّ ، وتستنزلُ الفارسَ عن فرسِهِ.

* ودخل إِخْوَةُ يوسفَ من حيثُ أمرهم أبوهم ، وهنا آوىٰ يوسفُ شقيقه ، وأعْلَمه بأنَّه أخوه ، وأمَرَهُ أنْ يكتمَ ذلك عن بقيةِ إخوته ، وألاّ يحزنَ بما صنعوا في سَالِفِ الدهر بهما وبأبيهما ، ثم إنَّ يوسفَ عمل على أخْذِ أخيهم وأخيه منهم ، فقد أمرَ فتيانه أنْ يضعُوا سِقَايته في رحْلِ أخيهِ ، ثم أعلمهم بالسّرقة ،

---

(١) كان أولاد يعقوب آنذاك أحدَ عشَرَ رجلاً ، وربما خشيَ عليهم من الحسد ، وهو يستعيذ بالله من ذلك ، مما يدلّ على أنَّ البشَر لا يقي نفسه من الحسد ، إلا بالاستعاذة بالله عز وجل.
والحسدُ شيء لا نراه ، إنَّه إشعاعٌ يخرج من العين لا نراه ولا ندركه ، وهذا الإشعاع يُحدثُ ضرراً في جسد المحسود ، وعندما يمتلىء الإنسان بالحقدِ والحسدِ تخرجُ منه إشعاعاتٌ ، فتصيب جسَدَ إنسان آخر فيمرض بأمراضٍ لا يُعرف مصدرها ، يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله: «الحقد هو الذي يصنعُ الشَّرارة التي تنطلق منها أشعّةُ الحسد ، ولكنَّ النَّظَر بغير حقدٍ لا يحدثُ ضرراً».
وهكذا نجدُ أنَّ الحقدَ هو الذي يملأُ النّاس بانفعالات قوية ، تؤدي إلى خروج شرارة من العين تُصيبُ المحسود ، ولأنَّ هذه الشّرارةَ غير مرئية فهي فوق قوّة البشر ، ولهذا أمَرنَا اللهُ عزَّ وجل أنْ نستعيذَ بِهِ ليقينا من شرِّ الحسد ، لأن طاقة العبدِ الدفاعية لا تقوى على ذلك.
لذلك كان النَّبي ﷺ كلّما حَزَبَهُ أمرٌ قام إلى الصَّلاة ، وطلب من اللهِ أن يكشف عنه ما هو فيه.

وأشاع ذلك بينهم فقالوا: لم نأْتِ لنفسدَ في الأرضِ ولم نسرقْ ، فقال فتيان يوسف: فما جزاء مَنْ سرق؟

قالوا: يكون رقيقاً عند المسروق.

* فتّشَ الفتيانُ أمتعتهم وأوعيتهم قبل وعاءِ أخيه بنيامين شقيق يوسف ، ثمّ استخرجوا الصّواع مِن أوعيةِ شقيقه ، وهنا فُوجِىء الإخوةُ ونكسوا رؤوسهم ، وقالوا ليوسفَ: إنَّ أخاه الذي هلكَ كان سارقاً ، ولَسْنَا على طريقتهما ، فقال يوسف: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

* استبقى يوسفُ بنيامين بمقتضى فتواهم ، ثمّ إنّهم طفقُوا يتوسّلون إلى يوسفَ أنْ يأخذَ أحدهم مكانَ بنيامين ، لأنَّ له أبا شيخاً كبيراً يحبُّه ولا يقوى على فراقِهِ ، بيد أنَّ يوسفَ قال لهم: «أعوذُ باللهِ أنْ آخذَ بريئاً بمذنبٍ ، فهذا ما لا أفعلُه ولا أسمحُ به».

* وابتعدَ الإخوةُ يتناجون فيما بينهم ، فقال أخوهم الكبيرُ: «ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم موثقاً من اللهِ لتردنَّ بنيامين إليه؟ لقد أخلفتم عَهْدَهُ ، ولم يبقَ لي وَجْهٌ أقابله به ، ولن أبرحَ هذه البلدة حتى يأذنَ لي أبي في القدومِ عليه ، أو يقدرني الله على ردّ أخي إلى أبي. فارجعوا إلى أبيكم وأخبروه بالحقيقة».

* عاد الإخوةُ يحملون خبراً أليماً لأبيهم يعقوب ، ولما سمعَ مقالتهم لم يصدقهم لسابقتهم في يوسفَ ، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

* وأعرض يعقوبُ عن بنيه ، وتذكّر يُوْسُفَ ، ولازم الحزنَ والبكاءَ عليه ، حتى ابيضتْ عيناهُ من الحزنِ ، وحتّى خاف أولاده عليه من الهلاكِ لتذكره يوسفَ صباح مساءَ ، فقالوا له على وجه الرحمةِ والرّأفة به والحرص عليه: «لا تزالُ تتذكرُ يوسفَ حتى ينْحَلَ جسدُك ، وتضعفَ قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك».

* فقال يعقوبُ عليه السلام ورجاؤهُ غيرُ منقطعٍ من اللهِ: «لستُ أشكو إليكم ولا لأَحَدٍ من النّاس ما أنا فيه من الحزنِ والهمّ؛ إنّما أشكوه إلى اللهِ عزّ وجلّ ،

وأنا أعلمُ علمَ اليقين أنَّ الله سيجعلُ لي ممّا أنا فيه مخرجاً وفرجاً ، وأعلم أنَّ رؤيا يوسف لا بد أنْ تتحققَ ، ولا بد أنْ أسجدَ له أنا وأنتم ، وأعلمُ منَ الله ما لا تعلمون أنتم».

* لاحتْ بشائرُ الفرجِ الإلهيّ ليعقوب ، وهبَّتْ أنسامُهُ على روحِهِ ، فقال لبنيه: «يا بنيّ ، اذهبوا إلَى الأرضِ التي جئتم منها ، وتركتم أخويكم فيها ، والتمسوا أخبارَ يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من رحمةِ اللهِ وفَرَجه. . .».

* ورجع الإخوةُ إلى مصرَ ، ودخلوا على يوسفَ ، وقالوا: «يا أيّها العزيز ، لقد أضرَّ بنا الجدب ، فردّ علينا أخانا وأوفِ لنا الكيل ، واللهُ يجزي المتصدقين المحسنين».

* ولما رأى يوسفُ عليه السّلام حالَ إخوته ومآلهم ، وما جاؤوا به من فاقةٍ وتضرّع ، أدركته الرّقّةُ ، ولامستْ قلبَهُ الطّاهرَ أسبابُ المودّة ، ففاضَ بالعطف عليهم ، فَحَسرَ لهم عن جبينهِ الشّريف ، وصرّح لهم بأنّه يوسفُ ، وقال لهم وأنداءُ الحبّ والحنان والشّفقةِ تَقْطُرُ من فيه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

* وبصوتٍ واحدٍ يملؤه التّعجّبُ قالوا: «إنّك والله لأنتَ يوسفُ فقد عرفْنَاكَ. . .».

* فقال عليه السّلام بلسانِ الأدبِ الرّباني الذي تحلّى به: «أنا يوسفُ الذي صنعْتُم بهِ ما صنَعْتُم ، وفرطتْم به ما فرطتم ، وهذا شقيقي قد أحسنَ اللهُ إلينا ، وأعزَّنا ، وآنَسَنا ، وكلّ من يتّقي اللهَ ويصبرُ على الضّراء ، فإنَّ الله يجزيه ويحسن إليه».

* اعترفَ الإخوةُ بفضلِ يوسفَ عليهم كما أقرّوا بذنبهم ، وذكروا بأنّهم كانوا خاطئين ، وعندها فاضَ عليهم يوسفُ بحلمهِ ، وسامَحَهم ، ولم يعْد يوبّخْ فعلتَهم ، ثمّ دعا لهم بالمغفرةِ والرّحمةِ.

* ثم إنَّ يوسفَ عليه السَّلام أمرهم أنْ يذهبوا بقميصهِ ، فيضعوه على عيني أبيهِ ، فيرتدّ بصيراً بإذنِ الله ، وأمرهم كذلك أنْ يأتوا بجميع أهله.

* وبينما كان الإخوة عائدين من مصرَ ، كان يعقوبُ عليه السلام يقولُ لمن عنده : «إنّي واللهِ لأشمُّ ريح يوسف ، لولا أنْ تنسبوني إلى كِبر السِّنّ»! .

* فقال له أحفادُه من عنده : «تالله إنّك ما زلتَ في حبِّكَ القديم ليوسفَ ، فلا تَسْلُوه ولا تَنْسَاهُ» .

* وجاءَ البشيرُ يحملُ قميصَ يوسفَ ، فألقاهُ على وجْهِ يعقوب فارتدَّ بصيراً ، وقال لبنيه : «ألمْ أقلْ لكم بأنَّ اللهَ سيجمعُ شملي بيوسفَ ، وسيقرّ به عيني»؟! .

* وعندها طلبَ بنوه من أبيهم أنْ يستغفرَ اللهَ عزّ وجلّ لهم عما بدرَ منهم ، فأجابهم إلى ما سألوا .

* ثمَّ إنَّ آل يعقوب انطلقوا إلى مصر يتقدمهم يعقوب وأمّه ، فقد مضى قرابة ثلث قَرنٍ على فراقِ الحبيبِ العفيفِ الصّديق المُخلص يوسف ، ولم يروه ، ولما دخلُوا على يوسفَ ضمَّ أبويه واحتفى بهما وقال لهما ولمن معهما : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩] .

* وهنا تحققتْ رؤيا يوسف ، وسجدَ له أبواه وإخوته وكانوا أحدَ عشرَ رجلاً ، هنا قال يوسف : «هذا تعبيرُ ما كنتُ قصصتُه عليك يا أبي ، وقد جَعَلَها الله حقّاً ، وقد أكرمني اللهُ بإخراجي من الجبّ ثم السّجن ، ثم جاء بكم من البادية ، بعد أن أفسدَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي بالحسَدِ ، إنَّ اللهَ عزّ وجلّ إذا أرادَ شيئاً هيّأ أسبابه ، وهو العليمُ بكلِّ الأمورِ ، عليمٌ في خَلْقِهِ وشرعِهِ وقَدَرِه» .

* وعندما رأى يوسفُ عليه السلام أنَّ نعمة اللهِ قد تمت ، وأنّ شملَه قد اجتمعَ ، عرفَ بأنَّ الدنيا دارُ فناءٍ ، وأنَّ كلّ منْ عليها فان ، وما بعد التّمام سيؤول إلى النّقصان ، هنالك أثنى على ربِّه بما هو أهلُه ، واعترفَ بعظيم إحسانه وجليلِ فضْلهِ ، وسأله أنْ يتوفّاه على الإسلام ، وأنْ يلحقَهُ بعبادهِ الصَّالحين ، فقال : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] . وهذا النّجاحُ والفوزُ والسّعادة .

* وهكذا كانت إرادةُ اللهِ في هذه القصّة التي ظهرتْ فيها الأبوّةُ الجميلةُ الحانيةُ ، وأبوّةُ يعقوبَ مع بنيهِ حتى آخر حياته ، فعندما حضره الموتُ ، جمعَ بنيهِ ، وأوصاهم بالإخلاصِ وهو دِيْنُ الإسلام الذي بعثَ اللهُ الأنبياء عليهم السَّلام لنشرهِ وتَثْبيتِهِ ، قال تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

* وقبل أن نتعرَّف بعض الفوائد التّربوية للأبناء من قصّة يوسفَ ، تعالوا نَسْتَمْتِعْ بهذهِ الهمزّية التي تحكي قصّة يعقوب مع بنيه ، ويوسفَ مع إخوتهِ وأبيه ؛ فهذه أولاً قصة أبيه يعقوب :

أيـنَ مَـنْ واصَـلَ البكـاءَ حـزينـاً ... فَتَـوارىٰ عـن مُقْلتَيْـه الضِّيـاءُ
يـومَ جـاؤوهُ بـالقميـصِ عشَـاءً ... وعليـهِ لـلإفْـكِ تَجـري دِمَـاءُ
وادَّعُـوا كـاذبيـن أنَّ أخـاهـم ... خَـانَـه الـذِّئـبُ واعتـراهـمْ بُكـاءُ
قـالَ بـل سـوَّلَـتْ نفـوسُكـم الكَيْـ ... ـدَ فَصَبْـرٌ ورحمـةٌ ورجَـاءُ
كَظَـمَ الغَيْـظَ بـالتَّصبُّـر دَهْـراً ... وإلـى اللهِ حـقَّ منْـهُ التجـاءُ
ودعَـا اللهَ والهـاً مُستغيثـاً ... خـاشعـاً قـانتـاً فحـلَّ الـرِّضَـاءُ
يـا أَبـا الغـائـبِ العـزيـزِ سـلامٌ ... بَعْـدَ طُـولِ الفـراقِ آنَ اللقـاءُ
حيـنَ ردُّوا قميـصَ يـوسـفَ فـارْتَـ ... ـدَّ بَصيـراً وزالَ العَنَـاءُ

* وهذه قصّةُ يوسف مع أبيهِ وأخوته مستقاةٌ من القرآنِ الكريم :

وابنُ يعقوبَ إذْ رأىٰ الشَّمسَ والبد ... رَ منـامـاً وللـرؤى أفْيـاءُ
وبمـرآهمـا رأىٰ أحـدَ العَشْـ ... ـر ومَجْـلاهُ كـوكـبٌ لألاءُ
ونَهـاهُ عـن الإبـاحـةِ بـالسِّـرِّ ... وفـي الصُّبـحِ للـدُّجـى إفْشَـاءُ
هكـذا يجتبيـكَ ربُّـك بـالتَّـأ ... ويـل واللهُ فـاعـلٌ مـا يشـاءُ
ورأوهُ أحـبَّ منهـم إليـه ... فـأسـرُّوا كيـداً وضـاعَ الإخـاءُ
ورَأَوْا قَتْلَـه فقـالَ أخـوهُ ... إنَّمـا القَتْـلُ سُبَّـةٌ شَنْعـاءُ
قـالَ ألقـوهُ فـي غيَـابـةِ هـذا الجُـ ... ـبِّ حتّـى يُقْصيـهِ عنـه الـدِّلاَءُ
يـا صبيـاً رأىٰ الكـواكـبَ فـي النَّـو ... مِ سُجـوداً يشـعُّ منهـا الضِّيـاءُ

حكْمَـةُ اللهِ فـي القَضَـاءِ فـأكْـرِمْ بَصَبـورٍ تحـوطُـهُ الأَرْزَاءُ
إنَّ زوجَ العـزيـزِ أوسَـعُ عـذراً فيـكَ والنّفسُ صـرصـرٌ هَـوْجـاءُ
نَفْسُهـا سـوّلَـتْ وأسْبَـاطُنـاأَنْـ فُسُهَـمْ سَـوّلَـتْ وهـذا بَـلاءُ
وكفـىٰ نِسْـوَةَ المـدينـةِ عُـذراً فـي خضـابٍ تسيـلُ منه الـدِّمَـاءُ
حَسَمُـوا فتنـةَ الجمـالِ بِسِجـنٍ ضَـمَّ مَـنْ كُـلُّ أهلـهِ أنبيـاءُ
بِيْـعَ بَيْـعَ الـرّقيـقِ مِـنْ بَعْـدِ رؤيـا وإلـى السِّجْـنِ سِيْـقَ وهـو بَـراءُ
وبـرؤيـا النَّـديـم صـادفَ عَهْـداً بـدأَ الـوعـظُ فيـه والإلقـاءُ
وبـرؤيـا العـزيـزِ حطَّـم أصْفَـا دَ البـلايـا فـزالـتِ الـلأواءُ
وَدَعُـوهُ وللبـريءِ احتكـامٌ واحتجـاجٌ وهكـذا البُـرآءُ
قـال مـا بـالهـنَّ قطَّعْـنَ أيْـدِيْهـ ـنَّ مـنْ قَبْـلُ أيُّهـا الـوزَراءُ
قـالـتِ الآن حَصْحَصَ الحـقُّ إنّـي أنـا راودتُـه وَقُـدَّ الـرِّداءُ
ليس لـي أنْ أخـونَ بـالغيـبِ عَهْـداً ثـورةَ النَّفْـس فـي ابـنِ آدمَ داءُ
هـي نفسـي ومَـا أُبـرىءُ نفسـي إنّمـا النَّفْـسُ لـومُهـا إغْـراءُ
فتلقـوهُ طـاهِـرَ اليـد والـذَّيْـ ـلِ ولاحَـتْ بـأُفْقِـهِ الجـوزاءُ
وأحَلَّتْـهُ عنـد ذي العـرشِ حقّـاً مَقْعَـدَ الصِّـدقِ نَفْسُـه العَصْمـاءُ
واجتبـاهُ لنفسـهِ وخليـقٌ بـابـنِ يعقـوبَ عنـدهـا الاجتبـاءُ
هكـذا يصهـرُ النُّضـار ليصفـو والبـلايـا يتـمُّ فيهـا الصَّفَـاءُ

* والآن يحسنُ بالآباءِ والمربّين أنْ يستخلصوا كثيراً من الفوائدِ والإشاراتِ التّربويةِ ، ويصوغونها عقوداً لطيفةً يطوّقُون بها نفوسَ الأبناءِ والنّاشئة ، ويعلّمونهم المواقفَ الصَّحيحةَ ، ليكونوا ناجحين في حياتِهم ، وليكونوا راضين ربّهم عزَّ وجلَّ.

* ومن الفوائدِ المجموعةِ من قصَّة يوسف :

* أن يحذرَ الإنسانُ من شخصٍ معروفٍ بالكيدِ والحيلةِ ، وأنْ يحرصَ على كتمانِ الأمْرِ إذ إنَّ نجاحَ الأمورِ بالكتمان.

* أنْ يعلمَ الإنسانُ أنَّ الحسدَ من أُمّهاتِ الكبائرِ وآباء أمراضِ القلوب ، ويعمل عمله في ذرّ وبذرِ التّفرقةِ وقطيعةِ الرّحم بين الأقارب ، وربما يحمل

الحسدُ صاحِبَه على الكذبِ ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم مع أقربِ النّاسِ ، وهذا ما حملَ إخوة يوسف على ذلك ، حيث كذبوا ، وقطعوا الرّحم ، وعقّوا الوالدَ ، وعصوا الله ، فالحسدُ داءٌ عظيمٌ ، وليربي الآباءُ أطفالَهم على حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ ، وأنَّ اللهَ يفعلُ ما يريدُ ، وليهذّبُوا النّاشئةَ على محاسنِ الفضائلِ ، وليجنبوهم الرّذائل وفي مقدمتها الحسدُ والكذبُ والغيرةُ.

* أن يعلم الإنسانُ أنَّ الامتحانَ من اللهِ نعمةٌ وأنَّ العاقبةَ للتّقوى ، وللصابرين.

* يتعرفُ النّاشئةُ إلى شخصيّة يوسف ـ عليه السلام ـ في طفولتهِ وشبابه ، وأنَّ العفَّةَ كانت طريقَهُ ، والتّقوى هو السَّبيل الذي انتهجه حتّى وصل إلى مرحلةِ الصِّدِّيقيَّة ، ومرحلة الاصطفاء.

* أن يتعلّمَ الأبناء فضيلةَ العفو والمسامحة ، وأنْ يغرسَ الآباءُ والمربّون هذه السِّمة بنفوسهم ، وأنْ يعلّموهم على المسامحةِ والعفو عند المقدرة ، كما عفا يوسفُ وصفحَ عن إخوته وهو في ذِروةِ القوّةِ ، وهذا من تمامِ كمال الشَّخصيّة ومحاسنِها وفضائِلها.

* وهناك فوائد وعبر كثيرةٌ يستطيعُ المربّون استنباطها من خلالِ القصّة اليوسفيّة حسب ما يريدون[1].

* * *

---

(١) يستحسن الرجوع في هذا المضمار إلى كتاب «النُّبوَّة والأنبياء» (ص ١٠٠ ـ ١٠٨) ففيه بعض الفوائد المجموعة في هذا الشّأن.

الفصل الخامس
سليمان بن داود عليهما السلام

* نبيٌّ ابن نبي تكرّرَ ذِكْرُه في القُرآنِ الكريم ، هذا الابنُ النّبيّ هو سليمانُ بنُ داوود عليهما السلام.

* دعاهُ الله عزَّ وجلَّ في القرآنِ بِأكثرَ من اثني عشر اسماً تصريحاً وتعريضاً ومنها: مُفَضَّل ، مُعَلم ، ضاحك ، شاكر ، صالح ، ناظر ، مَلِك مُتَفَقِّد ، حاكم ، فهيم ، عبد أواب ، منيب ، موهوب وسليمان[1].

* ذكرهُ الله تعالى باسمهِ الصَّريح في القرآن في سبعةَ عَشَرَ موضعاً معظُمها في سورتَي «النمل» ، و«ص» ، وكثيراً ما قَرنَه القرآنُ باسمِ أبيه من مثل قوله عَزَّ وجلّ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] ، وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] ، وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [ص: ٣٠][2].

* تذكرُ بعض كتُب التَّفسير أنَّ سُليمانَ قد ورثَ عن أبيه داودَ نبوّته وعلْمَه وحكمتَه دون سائرِ أولادِه حيثُ كان لداود اثنا عشر ابناً ، وكان أبوهُ داود يشاورُهُ في كثيرٍ من أموره مع صِغَرِ سنِّهِ لِوفرِ عقْلهِ وعلْمِهِ.

* وسليمانُ بن داود ـ عليهما السلام ـ من ذرّية نبي الله يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيمَ عليهم السَّلام أجمعين.

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٦/ ٨٦) بشيء من التصرف مع التصحيح.

(٢) انظر: المصدر السابق (٦/ ٨٦ و٧٧) بتصرف يسير.

* ويذكرُ القرآنُ الكريمُ قصَّتَه في أكثرَ من سورة ، وذكرَ من خلالِ قصّتهِ علاقةَ الابن بأبيهِ في مواطنِ شرفِ العلمِ والطَّاعةِ والدُّعاءِ؛ وفي السُّطورِ التَّوالي نقتبسُ من مشكاةِ هذا النبي بعضَ الآدابِ التّربويةِ المفيدة لِلنَّشْءِ والأبناءِ وسائرِ طبقات النّاس.

* تعالوا أوّلاً نعطّر الأفواهَ والأسماعَ بقراءةِ آيِ من الذّكْر الحكيم ، قال ربّنا عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥ ـ ١٦].

* في هذه البدايةِ العطرةِ المباركةِ علينا أنْ نلحظَ بعين البصرِ والبصيرةِ ، أنَّ اللهَ عزّ وجلّ قد ذكرَ في هاتَيْنِ الآيتَينْ سليمانَ مرّتيْن مع أبيه ، فمّرة مع أبيه والعلْم ، ومرّة مع أبيه في وراثة الملْكِ والنّبوة.

* كما أنّه علينا أنْ نبصرَ ونتبصرَ في شرفِ العلْمِ ، وتقدُّمِ أهلهِ وحملتهِ على غيرِهم من سائرِ العبادِ ، إذ إنَّ العلْم نعمةٌ كبرى من أجلِّ نِعَمِ الإلهِ على العبادِ ، وإنَّ منْ يُؤتى العلْمَ والحكمةَ فقد أوتي خَيراً كثيراً على كثيرٍ من عبادِ اللهِ تعالى. وقد آتى الله داود وسُليمان عِلْماً عظيماً ، إذ إنَّ علمَهما كان ممّا يُستعظم ويُستغربُ ، ويُسْتَحلى فيُستجلى ، وتلذُّ له الأعين ، وتستمتعُ به الأسماعُ ، فمن العلم الكبير الغزير علم منطق الطّير ولغاته.

* عرفَ داود وسليمان فضْل هذه المنحة الإلهيّة لهما وعليهما ، وأنّهما فُضِّلا على كثيرٍ من عبادِ اللهِ المؤمنين ، فراحا يكثران الحمدَ والثّناءَ على اللهِ والواهبِ المنعم المُفَضّل والمُتَفضِّلِ بجلائلِ النّعم وعظائمِ الخِصالِ.

* الاعترافُ بنعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وفضله والتّحدثُ بنعمهِ الجليلةِ سمةٌ بارزةٌ من سمـاتِ سُليمان عليه السَّلام ، فعندما توفي داودُ ورثَ سُليمانُ مُلْكـه ومنزلتَه من النّبوة ، وليس المرادُ وراثته في المال ، لأنَّ داود كان له بنون غيره ، فما كان سليمان لِيُخَصَّ بالمال دونهم ، ولأنّه قد ثبتَ في الصَّحيحَيْن أنَّ

رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ ما تركْنَا فهو صدقةٌ»[1] ، وفي لفظ: «نحنُ معاشر الأنبياءِ لا نورث»[2]. فقد حسَمَ رسولُنا ﷺ هذه المسالةَ بأنَّ الأنبياءَ لا تورثُ أموالُهم عنهم كما يورثُ غيرهم ، وإنّما تكونُ أموالهم صدقةً من بعدهم على الفُقراء والمساكين.

* وها هو ذا نبيّ اللهِ سليمان عليه السَّلام يتابعُ رحلةَ التّحدث بنعمةِ اللهِ عليه ، فيذكرُ أنَّ الله قد علَّمه ما تتخاطبُ به الطيورُ بلغاتِها ، ومن ثم يعبّرُ للنّاسِ عن مقاصِدها وإرادتها.

* إنَّ نبيّ الله سليمان يذيعُ في النَّاس نعمةَ معرفةِ لغةِ الطَّير من بابِ التّحدث بآلاءِ اللهِ وأنعمه ، وإظهاراً لفضله ، لا مباهاةً واستعلاء على النّاس ، فاللهُ عزّ وجلّ هو مصدرُ هذه النّعم والفضائل.

* من المُتَعارفِ عليه بين أهلِ العلْم ، وبين العلماءِ في القديم والعصر الحاضر أن للطيورِ والحيوان والحشرات وسائلَ للتّفاهم فيما بينها ، واللهُ عزّ وجلّ هو خالقُ هذه العوالم وقد أخبرنا بأنّها أممٌ أمثالنا فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] ، ولا تكونُ هذه المخلوقاتُ وهذه العوالمُ أمماً حتّى تكون لها روابطُ معينة تحيا بها ، ووسائلُ معينة للتّفاهم فيما بينها. وقد أدرك العلماءُ الآنَ من خلالِ أبحاثِهم الدّقيقة مصداق ذلك عن طريقِ الحدس والظّنّ والتّجربة ، ويعرضون ما يتوصلُون إليه من أبحاث في كتبهم ، وأحياناً على شاشَاتِ التّلفزيون من خلالِ البرامجِ العلميّة أو تحت ما يسمّى: الإعجاز العلميّ في مخلوقاتِ الله ، وقد أسلمَ كثيرٌ من أولئكَ العُلماء الذين عرفوا قدرةَ الله من خلالِ أبحاثهم وتجاربهم.

* وإنّه لأيسرُ شيء وأهونُ على اللهِ الخالقِ لجميع هذه العوالم ، أنْ يُعلّمَ سُليمانَ عليه السَّلام لغاتِ الطّير[3] والحيوان والحشرات ، يُعلِّمه هِبةً وكرماً

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٢٦؛ ومسلم برقم (١٧٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٦١٠) بلفظ: «لا نورث ما تركنا صدقة».

(٣) قال الشّوكاني في تفسيره عن تعليم سليمان منطق الطير: «قال سليمان هذه المقالة مخاطباً=

وتفضّلاً ، يعلّمه منحةً لدنّيةً منه بلا محاولة ولا اجتهاد ، فللهِ المشيئةُ وهو على ما يشاءُ قدير.

* وقد كان سليمانُ عليه السّلام ممن فضَّل اللهُ عليهم مِنْ نعمائه ، فكان جنودهُ من الجنّ والإنسِ والطّيرِ ، وكان هذا الجيشُ المتنوعُ الأَجْنَاسِ جيشاً منظّماً ، يطيعُ أفراده جميعهم سليمانَ ، كلٌّ قد عرفَ عمله ومكانتَهُ ، وذات يومٍ ركبَ سُليمان في جيشهِ من الجنّ والإنس والطّير ، ومرَّ سليمانُ ومَنْ معه على وادي النّمل ، فقالت نملةٌ لجماعتها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل : ١٨].

* وسمع سُليمان هذا من النّملة ، فضحكَ ، وسُرَّ من بلاغةِ هذه النّملة ،

= للنّاس ، تحدّثاً بما أنعمَ اللهُ به عليه ، وشكر النّعمة التي خصّه بها ، وقدّم منطق الطير ، لأنّها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره.

قال الفراء: منطق الطير: كلام الطير ، فجعله كمنطق الرجل ، وأنشد قول حميد بن ثور:

عجبتُ لها أنْ يكون غناؤها فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما

ومعنى الآية: فهّمنا ما يقول الطّير ، قال جماعةٌ من المفسّرين: إنّه عُلّمَ منطقَ جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطّير؛ لأنّه كان جنداً من جنده يسيرُ معه لتظليله من الشّمس ، وقال قتادة والشعبي: إنّما عُلّمَ منطقَ الطّير خاصة ، ولا يعترض ذلك بالنّملة فإنّها من جملة الطّير ، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة فتطير ، وكذلك كانت هذه النّملة التي سمع كلامها وفهمه». (فتح القدير ٤/ ١٢٦).

ومنَ المُتعارفَ عليه بين علماء اللغة ، بأنّ اللغةَ هي ظاهرةٌ اجتماعيةٌ يتفاهمُ النّأس بها ، واللغةُ تُعرفُ عن طريق السَّماع ، فاللغةُ بنتُ المحاكاة ، فإذا سمعتَ لفظاً تستطيع أنْ تحاكيه أو تنطقه ، وإنْ لم تسمعْهُ لا تستطيع أنْ تنطقه ولو كان لفظاً عربياً.

إذن ، فللطير منطقٌ ولغيره من المخلوقات منطق أيضاً ، فقد سمَّعَ اللهُ سليمانَ صوتَ النّملةِ ففهِمَ عنها ، وتبسّم ضاحكاً ، وسمعَ من الهدهد وكلّمه ، فاللغةُ أنْ تفهمَ كلام غيرك وتُفهمِه كلامك ، فسليمان سمعَ النّملة وفهمَ كلامها ، وسمع الهدهد وكلّمهُ وأرسلَه ، فسليمان سمعَ النّملة وفهمَ كلامها ، وسمع الهدهد وكلّمهُ وأرسلهَ إلى ملكة سبأ ولما رجع قال لسليمان:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل : ٢٣].

وهذه منزلة عظيمة عالية لا يبلغها إلا مَنْ شاء الله له ذلك ، والله أعلم بخلقه وبما يصلحُ لهم ويصلحهم ، فهو العليم الخبير.

وأُعجِبَ بما دلَّ عليه قولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على ظهور رحمتهِ ورحمةِ جنوده ، فهم لا يحطمون نملة[1] .

* توجّه سليمانُ بالدّعاء إلى الله ، وطلبَ ضارعاً من الله أن يلهمَهُ شكْرَ نعمتِه التي مَنَّ بها عليه ، ومنها: تعليمُه منطقَ الطَّيرِ والحيوان ، والإسلام والإيمان الذي أنعم بهما عليه وعلى والديه؛ ثم سأله أنْ يلحقَه بالصَّالحين ، ويدخله الجنَّة برحمته وفضله .

* ويلاحظُ في دعاءِ نبي الله سُليمان عليه السَّلام: أنّه قد دعا ربّه أنْ يلهمَه شكر نعمتهِ التي أنعمَها عليه وعلى والديه ، لأنَّ الإنعامَ على الآباء إنعامٌ على الأبناءِ ، ولأنَّ انتسابَ الابن إلى أبٍ صالحٍ نعمةٌ من اللهِ تعالى على الابن يستحقّ الشكر .

* ويلاحظُ أيضاً في قولِ النّملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ إشعار باهتمامها بأمورِ جماعتها ، ونجاتِهم ، ودفعِ المكروهِ عنهم ، ووصْفِها سليمان بأنّه مؤمن رحيم .

* بالإضافةِ إلى كلّ ذلك أنَّ سليمان كان يعترفُ بفضلِ الله عليه ويتحدث بآلائه وأَنْعُمه التي لا تُحصى ، ومنها فضلُ اللهِ عليه بأنَّه قد ورثَ من أبيه داود العلْم والنّبوة والخلافة في الأرض ، كما أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد فهَّمه من أصواتِ الطَّير المعاني التي في نفوسها .

* وتذكرُ كتبُ التّفاسير طرائفَ ونوادرَ وقصَصاً عن هذا المجال الذي أكرمَ اللهُ عزّ وجلّ به النّبي سُليمان ، ومن ذلك ما أورده القُرطبي وغيره عن تعليمِ سليمان منطقَ الطّير ، فقالوا: «كان سليمانُ جالساً ذات يوم ، إذ مرَّ به طائرٌ يطوفُ ، فقال لجلسائه: أتدرون ما يقولُ هذا الطَّائر؟ إنّها قالت لي: السّلامُ

---

(١) من باب الفائدة أذكرُ هنا ما قاله بعض أهل التذكيرِ في تعليقه على قول النّملة: «إنها تكلّمتْ بعشرة أنواع من البديع: «يا» نادت؛ «أيها» نبّهت؛ «النمل» سمّت؛ «ادخلوا» أمرت؛ «مساكنكم» نعَتَتْ؛ «لا يحطمنكم» حذرت؛ «سليمان» خصت؛ «وجنوده» عمّت؛ «وهم» أشارت؛ «لا يشعرون» اعتذرت؛ (حياة الحيوان للدميري ٢/ ٣٧٨).

عليكَ أيّها المَلِكُ المُسلَّطُ والنَّبيُّ لبني إسرائيل! أعطاكَ اللهُ الكرامةَ ، وأظهركَ على عدوّك ، إنِّي منطلقٌ إلى أفراخي ، ثمّ أمرُّ بكَ الثَّانية؛ وإنّه سيرجعُ إلينا الثَّانية ، ثمَّ رجعَ ، فقال إنّه يقولُ: السّلامُ عليك أيّها المَلِكُ المُسلَّطُ ، إنْ شئتَ أنْ تأذنَ لي كيما أكتسبَ على أفراخي حتّى يشبوا ، ثم آتيك فافعلْ بي ما شئت ، فأخبرهم سليمان بما قال ، وأذنَ له فانطلق»[1].

* وقال فَرْقَدُ السَّبخي: «مرَّ سليمانُ على بُلبلٍ فوقَ شجرة ، يحرّكُ رأسَه وَيَميْلُ ذَنَبَهُ ، فقال لأصحابهِ: أتدرون ما يقولُ هذا البُلبلُ؟

قالوا: لا يا نبيّ الله!.

قال: إنّه يقول: أكلتُ نصْفَ ثمرة ، فعلى الدّنيا العَفَاء»[1].

* وذكروا قصّةً أخرى قالوا: «مرَّ سليمانُ بهدهدٍ فوقَ شجرة ، وقد نصبَ له صبيٌّ فخّاً ، فقال له سُليمان: احذرْ يا هدهد!.

فقال: يا نبيّ الله ، هذا صبيٌّ لا عقْلَ له ، فأنا أسخرُ به.

ثم رجعَ سُليمان فوجده قد وقَعَ في حِبَالةِ الصَّبي وهو في يده ، فقال: هدهد ما هذا؟!.

قال: ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبيّ الله.

قال: ويحك! فأنت ترى الماءَ تحتَ الأرض ، أما ترى الفخّ؟.

قال: يا نبي الله ، إذا نزلَ القضاءُ عَمِيَ البصَرُ»[2].

وما أجمل قول أبي عمر الزّاهد الشّاعر في هذا المضمون:

إذا أرادَ اللهُ أمـــراً بـــامـــرئٍ وكـــانَ ذا عقْـــلٍ ورأيٍ ونَظَـــرْ
وحيلـــةٍ يعملُهـــا فـــي دَفْـــعِ مَـــا يـــأتـي بـه مكـروهُ أسبـابِ القَـدَرْ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١١١) طبعة دار الكتب العلمية؛ والفتوحات الإلهية (٥/ ٤٣٤).

(٢) للمزيد من مثل هذه القصص والأخبار ، انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١١٠ ـ ١١٢) ، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ٥١١ ـ ٥١٤) مع الجمع بينهما ، وغير ذلك من كتب التفسير والأخبار.

غطَّى عليهِ سمعَه وَعقْلَهُ　　وسَلَّهُ منْ ذهنِهِ سَلَّ الشَّعَرْ
حتّى إذا أنفذَ فيهِ حكْمَه　　ردَّ عليهِ عَقْلَهُ ليَعْتَبِرْ

* ونتابع الآن رحلتنا المعطاءَ مع نبيّ الله سُليمان لننعمَ معه بنعم اللهِ التي أنعمَها عليه وعلى والديه ، ونرجو اللهَ أن يشملَنا بها أيضاً ، فقد راح سُليمان يتفقّد جماعةَ الطّيرِ عنده ، إذ كانت تصحبه في سفرِه ، وتظلُّه بأجنحتها ، فافتقدَ الهدهد ، فلم يجدْهُ ، فقال أين غابَ الهدد ومالي لا أراه ، لأعذبنَّه أو لأذبحنّه ، أو ليأتينّي بحجّةٍ وعذرٍ مقبولٍ عن سبب تغيّبه.

* وقد بحث العُلماء وأهلُ التَّفسيرِ في العذابِ الشّديدِ الذي توعّد سليمان به الهدهدَ ، فقالوا: «إنَّ الهدهدَ يتميز على باقي الطيور ويفاخرها بأنَّ شكلَهُ جميل ، إذ إنّ ألوانه جذابه ، وعرفه لطيف ، ومنقاره طويل ، وله تاج فوق رأسه ، فقال سليمان: هذا الرّيشُ الذي يتخايل به الهدهد سأنتفه وألقيه إلى النّمل والحشرات ، أو أنَّ العذابَ الشّديد للهدهد أنْ يرميه سليمان ، ليعيش مع غيرِ بني جنسه من الطيور الأخرى ، وهذا عذاب شديد له ، لأنّه لن يكونَ له إلْفٌ بحركتهم أو نظامهم أو التّعامل معهم ، فيكون غريباً طريداً بينهم ، ومن العذاب أيضاً أنْ يجعله يخدم أقرانَه من الهداهدِ الأخرى ، أو يجمعه مع أضداده ، لأنَّ هناك بعض الطّيور يضادّ بعضها بعضاً ، فساعة يرى طائرٌ طائراً من أضداده يتشاجر معه ، وتقوم بينهما معركة ، ولذلك يقولون في بعض الأمثال: «أضيقُ من السّجن عشرة الأضداد».

* ثمّ إنَّ الهدهد ـ وكنيته أبو الأخبار ـ قد غابَ غيبةً غير طويلة ، ثم قدمَ منها فقال لنبيّ الله سُليمان بأدبٍ واحترامٍ: «يا نبيّ الله ، لقد اطّلَعْتُ على أمْرٍ لم تطّلِعْ عليه»؛ وصَمَتَ الهدهدُ هُنيهة ثم قال لسُليمان هو مُصْغٍ له: «لقد جئتُك من سبأ بخبرٍ صادقٍ يقين ، إنّي وجدتُ امرأةً[1] تملكُ أهلَ سبأ ، وهي ذات

---

(١) قال بعض أهل العلم: «كانت تلك المرأةُ هي بلقيسُ بنتُ شراحيل» وقد أكثر بعضُ الناس في قصّتها ، وما كانت عليه في ملكها وحكمها ، بيد أنَّ الاكتفاء بما جاء في القرآن الكريم هو النّهج السَّديد، والذي يفهم ممّا وردَ في القرآن الكريم بشأنها: أنها كانت ملكة على سبأ في=

شَأنٍ ، ولها سريرٌ تجلسُ عليه مزخرف بأنواعِ الجواهرِ واللآلىء والذّهبِ والحلي الباهر».

* وراحَ الهدهدُ يذكرُ بقية القصّة ويصفُ حال سبأ وحال ملكتهم التي ملكَتْ إعجابَه بعرشِها وفرشِها ، يقول الهدهدُ: «يا نبيّ الله ، لقد وجدتُ هذه الملكةَ ذاتَ العرشِ العظيم ومعها قومها يعبدون غيرَ اللهِ الخالقِ البارىء ، وهم جميعاً يسجدونَ للشّمس من دونِ الله ، وقد زيَّنَ لهم الشَّيطانُ سُبَل الغوايةِ والضَّلال ، وجعلَ الغواية حسنة في أعينهم، وصدهم عن سبيلِ التّوحيد صدوداً عجيباً، فهم لا يَهْتَدون إلى الله تعالى وتوحيده، والله وحده الذي يعلمُ السَّرائرَ والظَّواهر»[1].

* وسمعَ سُليمان مقالةَ الهدد الغائب ، فقبلَ عذْرَهُ ، حيث كانت سياستُه في رعيته من الإنسِ والجنِّ والطَّيرِ تقومُ على العدلِ والحزم والسَّهر الدائم على شؤونهم ، ومن ثم بعث كتاباً مع الهدد إلى هذه الملكةِ ، ويتضمنُ الكتابُ دعوةَ الملكةِ ومَنْ معها إلى طاعةِ اللهِ عزّ وجلّ ، وطاعةِ رسولهِ ، والإنابةِ والإذعان إلى الدّخول في الخضوعِ لملكهِ وسلطانهِ.

* فلمّا جاءها الكتابُ السُّليماني الكريمُ مع الهدهدِ ، ذلك الطائر السَّامعُ المطيعُ الفاهم بما يقولُ ويُقال له ، قرأَتْهُ ، ثم جمعَتْ أمرهَا ووزراءَها وأكابرَ دولتها إلى مشورتها ، وذكرت كما قصَّ علينا القرآنُ العظيم: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١].

* قال الماوردي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]: «وفي صِفَتِها الكتاب أنَّه كريم ، أربعة أوجه:

= بلاد اليمن ، وكان لها ملك عظيم ، وتتمتع بطاعة الناس وكبرائهم ، وأنها كانت كافرة من قوم كافرين.

(١) من الواضح في مقالة الهدهد بأنّه كان يعرفُ قضية العقيدة وقضية الإيمان ، وأنَّ الخلقَ أجمعين ينبغي أن يعبدوا اللهَ وحده ، المنعم عليهم بكلّ النّعم.
وإنّ الذي أحزنَ الهدهد أنَّ قومَ المِلكَةِ في سبأ يسجدون للشّمْسِ من دون الله عزَّ وجلَّ الذي خلقهم وسخّر لهم جميع مقومات الحياة ، وأخرج لهم رزقهم ، وهو يعلم سرّهم وجهرهم.

أحدها: لأنّه مختوم.

الثّاني: لحسْنِ ما فيه.

الثّالث: لكرم صاحبه وأنّه كان ملكاً.

الرّابع: لتسخير الهدهد به لحمله.

ويحتمل خامساً: لإلقائه عليها عاليا من نحو السَّماء».

وقال الماوردي في معنى قوله تعالى: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]:

«فيه أربعة تأويلات:

أحدها: مستسلمين.

الثّاني: موحّدين.

الثّالث: مخلصين.

الرّابع: طائعين»[1].

* ومن الواضح في هذا السّياق أن هذه الملكة كانت تعرف حكاية سليمان وأنّه ملكٌ ونبيٌ، وكان خطابه لها عبارة عن رسالة موجزة تأمرهم بألّا يتغطرسوا، وألا يتأخروا عن الاستجابةِ لدعوته. وعندما أُلقي الخطابُ إلى الملكة وقرأته جمعت الملأ وقالت لهم: لقد وصل إليَّ كتاب من سليمان ونصّه كذا وكذا...

* وبعد حوار دامَ طويلاً مع قومها، علمتْ بخبرتها وحنكتها وعقْلها وتعقّلها أنَّ الملأ من حولها لا يعصون أمْرهَا وهنا أرادت أَنْ تصانعَ عن نفسِها، وعن أهلِ مملكتِها بهدية ترسلها، وتُحَفٍ ثمينةٍ تبعثُها إلى سُليمان حتى يتبينَ لها حقيقة الأمرِ السّليماني، ولم تعلم أنَّ سليمانَ ـ عليه السلام ـ لا يقبل منهم والحالة هذه صِرفاً ولا عدلاً، لأنّهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون، ومع هذا كله كانت بلقيسُ هذه حكيمة في تصرّفها؛ قال قتادةُ ـ رحمه الله ـ

---

(١) تفسير الماوردي (٤/ ٢٠٦ و٢٠٧) بشيء من الاختصار.

عنها: «يرحمها الله إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها ، قد علمت أنَّ الهدية تقعُ موقعاً منَ النَّاس»(١).

* وقال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ : «وقالت بلقيسُ لقومها: إنْ قَبِلَ ـ سُليمان ـ الهدية فهو مَلِكٌ ، فقاتلوه ، وإن لم يقبلْها فهو نبيّ فاتّبعوه».

* ورفضَ سُليمانُ الهديَّةَ البلقيسيّة ، ولم يقبلْ شيئاً من نفائسِ النّفائسِ التي أرسلَتْها ، بل قال: «لا أرضى منكم بشيء ، ولا أفرحُ بهِ إلا بأنْ تسلموا ، فالإسلامُ وحده هو الذي أقبله منكم ، ولا أقبلُ شيئاً سواه».

* وقال سليمانُ عليه السَّلام لرئيسِ الوفدِ البلقيسيّ الذي قَدِمَ بهديّةِ مولاته بلقيس: «ارجعْ بالهديةِ ، وسنأتي بجنودٍ لا طاقة بقتالِهم ، وسنُخْرِجُ بلقيس ومَنْ معها من أرضهم وهم صاغرون مدحورون ، إنْ ظلُّوا مقيمين على شِركِهم ، دائبين على كُفْرِهم».

* لمّا رجعَ الوفدُ البلقيسيّ بهديتها ، أخبروها بما قال سليمانُ ، وبما توعّدهم إنْ عزمُوا على البقاءِ على الكُفر ، وعندها عزمتْ بلقيسُ على الاستجابةِ للدعوةِ السُّليمانية ، ومن ثمّ بادرت وقومها بالطّاعةِ ، واقبلت تسيرُ إليه في جنودها وَهم سامعون مطيعون خاضعون ، ومعظّمون لسُليمان؛ فلمّا علمَ بقدومهم عليه ، ووفودهم إليه ، قال للملأ من حوله من جماعةِ الإنسِ والجنّ: «مَنْ يُحْضرُ لي عرشَ بلقيس قبل قدومها علينا؟ وقبل أنْ يأتوني مسلمين؟»(٢) فانبرى عفريتٌ ماردٌ من الجنّ وقال: «أنا آتيكَ بالعرشِ قبل أنْ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٣٣)؛ وقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقبل الهديَّة ، وفيه الأسوة الحسنة؛ ومن فضل الهدية مع اتّباع السّنّة أنها تنزل حزازات النّفوس عند الكرام ، وعند ذوي الأصل الطّيّب ، وتكسب التّواصل بينهم ، إلا اللئام فلا يفيد معهم شيء ، قال الشّاعر:

هدايا النّاس بعضُهم لبعضٍ ... تولّدُ في قلوبهمُ الوِصَالا
وتزرعُ في الضمير هوىً ووِدّاً ... وتكسبُهم إذا حضروا جَمَالا

وقال آخر:

إنّ الهدايا لها حظٌّ إذا وردَتْ ... أحظى منَ الابن عند الوالد الحَدِبِ

(٢) قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: «هذه من إلهامات النّبوّة ، فكأنّ الله أعلمه أنّ القوم بعد=

تقومَ من مجلسكَ هذا ، وإنّي قوي على حملِهِ أمينٌ على ما فيه من النَّفائس» .

* ولكنَّ نبيَّ الله سُليمان عليه السَّلام استبطأَ ذلك ، فتقدَّمَ غيرهُ ممّن عنده علْمٌ وقال لسُليمان : «يا نبيّ اللهِ أنا آتيك بهِ قبلَ أنْ تفتحَ عينيكَ وتغمضَهما» .

* ولما جيء بالعرشِ البلقيسيّ العظيم ، واستقرَّ عند سليمانَ ، قال : «إنَّ هذا من فضلِ الله عليَّ ليختبرَني أأشكرُ أمْ أكفرُ» بَيْدَ أنَّ سليمان كان من أئمةِ الشّاكرين .

* وعندما جيء بعرشِها قبل قدومها ، أحبَّ سُليمان أنْ يختبر ذكاءَها وعقْلَها قبل وفودِها عليه ، فأمرَ أنْ يُنكَّرَ عرشُها ؛ فلمّا جاءَتْ ووصلَتْ إلى سُليمانَ عُرِضَ عليها عرشُها وقد غُيِّرَ ونُكِّرَ ، وقيل لها أهكذا عرشُك؟

* صمتَتْ بلقيس هُنَيْهَةً ، فلمْ تَقُلْ : إنّه هو ؛ لِعِلْمها أنّها تركَتْ عرشها في بلدِها ، وهو بعيدٌ عن سُليمان ، وتركت عليه حرّاسها ، فكَيْفَ جيءَ به!! بل مَنْ سيأتي به على بُعْدِ المسافةِ وبعد الشُّقَّة ، وشدّةِ الحِرَاسةِ عليه؟! ولم تقلْ كذلك : إنّه غيرُهُ ، وإنْ كان يشبِهُ عرشها ، وهنا هَداهَا عقلُها إلى جوابٍ أريبٍ ذكي دلَّ على فطنتها وغزارةِ فهمها فقالت : كأنّه هو ، فلم تَنْفِ ، ولم تثْبِتْ ، فدلَّ جوابُها اللطيفُ على فراستِها ، وكمالِ بديهتها في مواجهةِ تلك المفاجأةِ العجيبةِ مُفاجَأةٍ مُتوَّجَةٍ بالمفاجأةِ أنْ ترى عرشَها أمامَها قبل قدومها ؛ وعندئذٍ عَلِمَ سُليمانُ كمالَ عقلِها ، وبديعَ بداهتها ، فنجحت في هذا الاختبارِ الجميل الذي جَعَلَها تنطقُ وتهتفُ بلسان التّوحيد : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤]. وهكذا انجلتِ الحقيقةُ أمامَها ، وبالتّالي أعلنتْ إسلامها مع سُليمان لله ربّ العالمين لا شريكَ له ، وكُتِبتْ في زمرةِ السعداءِ. . . نعم في زمرة السّعداء :

وَإِذَا سَخَّـرَ الإلـهُ سَعيـداً   لأُنَـاسٍ فَـإِنَّهـم سُعَـداءُ

= أنْ ردّ إليهم هديتهم سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه ، فكأنّه قد علم أنّهم سيأتون إليه ، فأراد أنْ يرسلَ مَنْ يذهب إلى سبأ ، ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه ، ولأنَّ هذا الأمرَ صعب التحقيق ويتطلّب قدرات خاصة لذلك لم يتكلّم إنسان عادي ، لأنّ هذا ليس في استطاعته ، لأنَّ القوم في طريقهم إلى سليمان» .

* وقصّةُ سُليمان طويلةٌ وجميلةٌ ، غير أنَّنا اخترنا هذا الجانبَ التّربويَ الجميل ، ليكونَ مادّة غَنيّةً للمربّين ، ليبيّنُوا من خلالهِ علاقةَ سليمان بأبيه ، ويبيّنوا أدبَ البُنوّةِ كما ينبغي أنْ يكون ، ويبيّنوا كذلك عاقبةَ التّقوى والشّكر لِنِعَمِ الله على عبادهِ ، وما أجملَ أنْ نترنّمَ بهذه الأبياتِ:

أعْطَى سُلَيمانَ في دنياهُ مَملكةً ... لَمْ يُعْطِ قطُّ كَما أعطاهُ إنْسانَا

طَيرٌ بأجنِحةٍ ظَلَّت مِظَلّتَه ... ريحٌ رخاءٌ أتتْهُ حيثُما كانَا

آتاهُ منْ كُلِّ شيءٍ ما يلائمهُ ... حتّى لمنطقِ طَيرٍ زادَ تبيانا

فصَار ينصرُهُ يوماً ويذكرُه ... ليلاً ويشكرهُ قلْباً وقُربانا

أفديهِ من مَلكٍ أقوالُه حكمٌ ... واللهُ قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَٰنَ﴾

* قال إسماعيلُ صَبْري من همزيةٍ طويلةٍ:

أينَ مَنْ سُخّرتْ لهُ الجِنُّ والإنْـ ... ـسُ وغنّتْ بملكِهِ الجوزَاءُ

يأمرُ الريحَ حيثُما شاءَ تجري ... مَلِكٌ صَدْرُ تاجِهِ الزَّهْراءُ

زادهُ اللهُ منْطِقَ الطَّيرِ عِلْماً ... وتباهَتْ بملكهِ الشُّعراءُ

وَرِثَ المُلْكَ عن أبيهِ ومُلْكٌ ... شادَهُ الحمدُ طابَ فيه الثَّناءُ

يا بنَ داودَ قد ظفِرتَ بحكْمٍ ... كمْ تمنَّتْ منَالَهُ الأكْفَاءُ

كنْتَ في الأرضِ خيرَ مَنْ حازَ مُلْكاً ... يا سليمانُ تمَّ فيه العَطَاءُ[1]

* * *

---

(١) ديوان إسماعيل صبري (ص ٩٦) طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

الفصل السادس

يحيى بن زكريا عليهما السلام

* هذا نبيٌّ كريمٌ ابنُ نبي كريم ، سيرتُه إمتاعٌ للأسماع ، وقوتٌ للقُلُوب ، ونورٌ للأبصار ، وثمرٌ للألبابِ ، وحليةٌ للأولياء ، ورحيقٌ مختومٌ ، خيرٌ في خيرٍ في خيرٍ ، إنَّه نبيّ الله يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ.

* ويحيى عليه السلام نبيّ أوتيَ حناناً من لدنِ اللهِ عزّ وجلّ، ولعلّ الحنانَ هو نسيجٌ من الشَّفقةِ والعطْفِ والرّحمةِ والمحبَّةِ وما عظُم منَ الأمورِ في ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأحسبُ أنَّ هذا الحنانَ اللدني ليحيى هو درجةٌ قيمةٌ ولطيفةٌ من درجاتِ العلم ، ولمساتِ الحبّ للكائناتِ؛ أليسَ هذا الحنانُ من عندِ الله!؟ إذن فكلّ ما فيه جمالٌ في جمالٍ في جمالٍ ، ونورٌ على نورٍ على نورٍ من نورٍ؛ وانسُبْ إلى ذلك ما شئتَ من شرفٍ ، ومن فضلٍ ، ومن مكارم فلن تجدَ إلاّ الخيرَ وإلاّ الحنان.

* ويحيى هذا هو الذي أوتيَ زكاةً أيضاً ، والزّكاةُ هنا: طهارةُ الخُلُقِ وسلامتُه من النَّقائص والرذائلِ؛ والزّكاة أيضاً: التّطهيرُ والبركةُ والتّنميةُ في وجوه الخيرِ والبرِ ، ومن معاني زكاة يحيى هنا: أنْ جعلَه الله مباركاً للنّاسِ يهديهم ، وزكَّاهُ بحُسْنِ الثَّناءِ عليه ، وبالإضافةِ إلى أنَّه كانت تقيّاً ، مغرماً بامتثَالِ أمرِ الله عزّ وجلّ وتَرْكِ زواجره.

* وقد سمّاه الله عزّ وجلّ بأسماءَ كثيرة في القرآنِ الكريمِ ومنها: طيّبٌ ، ومُصدِّق ، وسيّد حصور ونبيّ وصالح ، وهبَةُ الله ، ووليّ ، ووارث ،

ورضي ، وغلام، وزكيّ ، وتقيّ ، وقويّ ، وحَكَم صبيّ ، وبارّ[1]؛ كما ذكره الله باسمهِ صريحاً في مواضعَ منها: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] ، ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] ، ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٥] ، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢][1].

* وقصّةُ يحيى عليه السَّلام تشيرُ إلى الابنِ البار بوالديه ، والابن التّقي النّقي ، والابن الذي جمع خَصَائلَ الخيراتِ من خَصَائلِ المكرمات.

* فتعالوا ـ أحبائي ـ نعشْ أرقَّ اللحظات ، وأسعدَ الأوقاتِ مع هذا النّبيّ الابنِ البارِ الكريم.

* فقد ذكر ربّنا عزَّ وجلَّ أنَّ زكريا عليه السَّلام ، دعا ربّه بأنْ يهبَهُ غلاماً رضياً ، وكان زكريا قد عاركَ السِّنين وعاركَتْه حتى وهَنَ العظمُ منه ، وشابَ رأسُهُ ، وبدأَ الضَّعف يتمشَّى في جسمِه ، بالإضافةِ إلى ذلك أنَّ امرأته كانت عاقراً؛ وكبيرةَ السنّ ، ولكنَّ طَمَعَه في رحمةِ اللهِ جعله يَتَوَجَّهُ إليهِ بالدّعاء ، حيثُ عوَّده الإجابة.

* وكان الباعثُ له والمشجّعُ الكبير على هذه المسألة ، أنّه لما كَفِلَ سيّدةَ نساءِ العالمين في زمانِها مريم بنة عمران ، وكان كلمّا دخلَ عليها محرابَها ، وجدَ عندها فاكهةً في غيرِ أوانها ، وهذه من كراماتِ الأولياءِ ، فعلمَ أنَّ الرّزاقَ للشّيء في غيرِ أوانهِ ، قادرٌ على أنْ يرزقَه ولداً وإن كان قد وهنَ العظمُ منه ، واشتعلَ رأسُه شيباً ، وغدا في عمر الشّيوخ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] ، وكذلك قوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]. فخافَ من عصبتهِ أنْ يتصرفوا بعده في بني إسرائيل بما لا يوافقُ شرعَ الله وطاعته ، فسأل الله عزّ وجلّ أنْ يهبه ولداً من صلبه يكون برّاً تقياً مرضياً حتَّى يرثَه في النّبوّة

---

(١) انظر: بصائر ذوي التميز (٦/ ٩٤ و٩٥) مع التصرف والاختصار والتّصحيح.

والحُكم[1]، كما كان آباؤه وأسلافُه من ذريّة يعقوب أنبياء، وسأل الله أنْ يجعلَه مثلهم في الكرامةِ التي أكرمهم بها من النُّبوة والوحي[2].

* وظلّ زكريا يبسطُ يديه ضارعاً إلى اللهِ حتّى استجابَ اللهُ دُعاءَهُ، وبُشِّرَ بغلام ذكرٍ، وهذا الغلامُ اسمه يحيى، وقد ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا في قوله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقوله أيضاً: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧].

* لقد قال الله عزَّ وجلَّ لزكريا عليه السلام: سأعطيك ما طلبت وزيادة، وسيكون اسم الغلام يحيى، وسيكون مصدقاً بكلمة الله، وهذا معناهُ أنّه سيعيش بمنهج الله عزَّ وجلَّ، وأنّه سيعمل الطاعات وهو مصدّق، وسيأتي بكلمة من الله، فهو عليه السَّلام أولُ مَنْ آمَنَ برسالة عيسى عليه السلام.

* وعندما بُشِّر زكريا بالولدِ، وتحقَّقتِ البشارةُ الرَّبانيّةُ عن طريق الملائكة، شرع يستعلم على وجه التّعجّب وجود الولدِ، وهو شيخٌ كبيرٌ، وامرأته عاقرٌ، فجاءته الإجابةُ الرّبانية: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٧][3].

* ثم إنّ زكريا طلبَ من الله عز وجل آيةً وعلامةً على حملِ زوجه بهذا الولد الذي بُشِّرَ به، فكانتِ العلامةُ كما ذكرَ الله عزّ وجلّ: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٠]؛ وقد أُمِرَ بكثرةِ الذّكر في هذهِ الحالِ بالقلبِ، واستحضارِ ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار.

* وكانتِ الأيّام تدورُ، وموعدُ وضعِ زوجِ زكريا يقتربُ وزكريا يلهجُ بالذّكر والدّعاء صباحَ مساءَ، إلى أنْ جاءتْ همساتُ البشيرِ تداعبُ سَمْعَ زكريا

---

(١) المعنى: أنْ يكون هذا الولـدُ وعاءً لإرثِ النّبوة، وإرث المناهج، وإرث القيم، فقد طلب زكريا الولد لمهام كثيرة وكبيرة، وقد طلَبَه هِبةً من اللهِ عزّ وجلّ؛ وطَلَبُ الهِبةِ من اللهِ بهذا الخصوصِ وهو طلَبُ الولدِ الصَّالح، هو من سُنَّةِ المرسلين والصّدّيقين والصَّالحين.

(٢) انظر: قصص الأنبياء (ص ٥٥٨) بتصرف.

(٣) انظر في تفسير القرطبي وابن كثير والألوسي والقاسمي للآية (٩) من سورة مريم.

بأنَّ يحيى قد وضعتْهُ أمّه ، وها هي دعوتك قد تحقَّقت. فقد وُلدَ يحيى ، وكان ميلادُه معجزةً ربّانيةً ، إذْ جاء لأبيهِ بعد أنْ مضى من عمره أكثر من تسعينَ ربيعاً[1] . . و:

قال النَّبيُ المُستجابُ دعاؤُهُ   ما كنْتُ ربّي بالدّعاءِ شَقيّا
هَبْ لي بفَضْلِكَ وَارثاً متعبّداً   واجعلْه يا ربَّ العباد رضيّا
فأجابَ دعوتَه وانجزَ وعْدَه   بفَتَاهُ أعنِي عبْدَهُ زكريّا

* هو ذا يحيى صبي صغيرٌ ، وها هو ذا زكريا يمتّع ناظريه به ، فقد كانت طفولةُ يحيى تنعشُ القلوبَ بجمالِها ونضارتها ونقائها ، فلقد علّمه اللهُ الكتابَ والحكمةَ وهو صغيرٌ في حالِ صباه.

* وها هو زكريا لم يَذَرْهُ ربُّه فرداً ، وسمعَ دعاءه ، وأكرمَه بحيى وقد نال يحيى مالم ينلْهُ أحدٌ في عصره ، و:

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٦/ ٩٥). ومن الجدير بالذكر أنَّ لله عزَّ وجلَّ سرّاً في تسمية «يحيى» عليه السلام بهذه التّسمية ، لأنَّ النّاسَ يضعون الأسماء بمسمياتها ، وكلُ واحد حرٌّ في أن يضعَ اسماً لأي مسمى، فالناسُ أحرارٌ في تسميةِ ما يريدون ، فالاسم يخرجُ من معناه الأصلي إلى أنْ يصيرَ علماً على هذا المسمى وإن حادَ عنه المعنى ، فمثلاً تسمي واحداً «سعيداً» وهو شقي ، وتسمّيه «فاضلاً» وليس عنده شيء من الفضل، لأنَّ النّاس يسمّون هذه الأسماء تفاؤلاً أنْ يكون المولود كذلك، فأنت إذا سميتَ ابنكَ «يحيى» لا تملكُ له أن يحيا أو يعيشَ، ولكنْ إذا سمّاه مَنْ يملكُ الموتَ والحياة فلابدّ أنْ يحيا، والذي يقوله الله فيه لابدّ أنْ يظلَّ ذِكْرَهُ حتى بعد موته، ولذلك شاء الله عزَّ وجلَّ لنبيّه «يحيى» أن يموت شهيداً حتى يظلَّ حياً وقديماً قال الشَّاعر:

وسمّيته يحيى ليحيا فلم يكنْ   لـردّ قضاء الله فيه سبيل

فالله أراد لهذا الابن الموت لأن المُسمّي من البشر وليس الذي هو يُحيي ، إنَّ الذي سمّىٰ هو إنسانٌ قدرتُه عاجزة ، ولكنَّ اللهَ المحيي له طلاقة القدرة ، فلذلك سماه الله يحيى ليحيا من خصومه ومن أعدائه ، وليكون شهيداً.

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله: «وهو بالشهادة يصير حياً ، فكأنه يحيا دائماً ، وما دام مات شهيداً ، فالشّهداء أحياءٌ عند ربهم ، وهو يحيا حياةً كحياة الناس ، ويحيا حياةً أطول من حياتهم إلى أن تقوم السَّاعة».

أَيــنَ مَــنْ قــالَ لا تَــذَرَنــي فَـرْداً وهَــنَ العَظْــمُ واضْمَحَــلَّ البنــاءُ

يــا سميــعَ الـدُّعــاءِ هَـبْ لـي وليّـاً يــرثُ النُّــورَ كــي يـدومَ الضّيــاءُ

هَــدّىءِ الـرَّوعَ وابتهــجْ زكــريّــا يــا كفيــلَ العــذراءِ آنَ الــوفــاءُ

رحمــةُ اللهِ أكــرمَتْــكَ بيَحْيــى نــالَ حُكمــاً مــا نَــالَــهُ أبنــاءُ

* كان يحيى طفلاً بريئاً ، ولكنّه كان حكيماً ، تبدو عليه مخايل الجدّ ، وكان معظمُ الصِّبيان من أترابهِ يقطعون أوقاتهم باللهوِ والبراءةِ ، واللعبِ ، أمّا يحيى فكان يختلفُ عنهم؛ قال عبدُ الله بنُ المبارك: قال معمرُ: «قال الصِّبيانُ ليحيى بن زكريا: اذهبْ بنا نلعبُ ، فقال: ما للعبِ خُلقنا. قال: وذلك قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]»[١].

* نشأ يحيى نشأةَ الابنِ البّارِ ، فكان من البررةِ بوالديه ، مطيعاً لهما أمراً ونهياً ، وتركَ عقوقهما قولاً وفعلاً ، وقد رسَمَتْ كلماتُ القرآنِ الكريم معالمَ برّهِ هذا فقال تعالى ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤] ، ولبر يحيى بوالديه ، فقد نال وسام السَّلام من السَّلام ، ونال الأمانَ والتَّحية والشّرف من الله ، إذ حيّاه الله وسلَّم عليه ثلاثَ مّرات في آيةٍ واحدة فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

* قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تعليقه على هذه الآية: «هذه الأوقاتُ الثّلاثة أشدّ ما تكون على الإنسان ، فإنّه ينتقل في كلّ منها من عالَم إلى عالَم آخر . فيفقد الأوّل بعد ما كان أَلِفَه وعرفه ، ويصيرُ إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يستهلّ صارخاً إذا خرجَ من بين الأحشاءِ ، وفارقَ لينها وضمّها ، وينتقل إلى هذه الدّار ليكابدَ همومها وغمّها. وكذلك إذا فارق هذه الدّار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدُّور والقصور إلى عَرَصَةِ الأمواتِ سُكّانِ القبور ، وانظر هناك النّفخة في الصّورِ ، ليومِ البعثِ والنشورِ ،

---

(١) انظر: قصص الأنبياء (ص ٥٦٠) ، وتفسير القرطبي (١١/ ٥٩).

فمن مسرورٍ ومحبورٍ ، ومن محزونٍ ومثبور ، وما بين مجبور وكسير ، وفريق في الجنّة وفريق في السَّعير . ولما كانت هذه المواطنُ الثلاثةُ أشقّ ما يكون على ابنِ آدم؛ فقد سلّم الله على يحيى في كلّ موطن منها . . . »[1] .

* * *

(1) انظر : قصص الأنبياء (ص ٥٦١) بتصرف يسير جداً.

الفصل السابع

ابن لقمان عليه السلام

* قال بعضُهم:

لُقْمــانُ أُلقِــمَ حِكمــةً محكيّــةً عنـهُ إلـى يـومِ القيـامـةِ فـي الأُمَـمْ

اللهُ فــي القُــرآنِ عظَّــمَ شــأْنَــه ويقــولُ قــد آتيــتُ لقمــانَ الحِكَــمْ

و:

هَيَّــا نَقْــرأُ فــي القــرآن قِصّــةَ سيِّــدنــا لقْمَــان

كــانَ عظيمــاً كــانَ حكيمــاً يــدعــو النَّــاس إلــى الإيمــان

* منَ المثيرِ حقّاً أنْ نجدَ اسمَ لقمان يتصدّر فُصوصَ الحكَم، وعنوان النّصائح، وإذا ما ذُكرَ اسمُه فإنَّه يقترنُ بالحكمةِ وبالموعظةِ، وقد أوردته هنا في هذا الباب لشهرته وإن لم يكن نبياً.

* ومن اللطيفِ أنَّ القرآنَ العظيمَ قد أثبتَ سورةً كاملةً باسمه، وفي ثنايا السُّورةِ نجدُ إنعامَ الله عليه بالحكمةِ والمعرفةِ والموعظةِ الموقظةِ لابنه.

* وتنبعثُ من المصادرِ القديمةِ ـ على اختلافِ مشاربها ـ أنَّ لقمانَ كان دائمَ النَّصحِ لأولاده وزوجه ومَنْ حولَه، وكان يستعملُ الأدبَ والموعظةَ وَالتَّوجيه سلاحاً فكريّاً للإقناع والحجّة؛ وبالتّالي دوّى اسمُ لقمانَ في سماءِ الحكمةِ، وغدتِ الحِكَمُ اللقمانيّة تتناقلُها الألسنةُ على مدى الأعصرِ والأوقات، وينتفعُ لها الآباءُ والأبناءُ والأمّهات والبَنات.

* وذكرتْ كتبُ التَّفاسير والتّواريخ وبعضُ المصادر أنَّ لقمانَ كان مُفتياً،

وذكروا أنَّه كان قاضياً ، وأفادَ بعضُهم بأنَّه كان نجّاراً أو خيّاطاً أو راعياً. بَيْدَ أنَّ روحَ الآلوسيّ لا تطمئنُّ إلى هذهِ الأخبارِ المُتَضاربة ، فيقولُ في تفسيره «روح المعاني» بعد أنْ جمعَ ونقلَ هذه الأخبارَ عمّنْ سبقَهُ من المفسّرين . . «ولا وثوقَ لي بشيءٍ من هذه الأخبار ، وإنّما نقلتُها تأسِّياً بِمَنْ نقلَها منَ المُفَسّرين الأخيار»[1] .

* ولكنّ كثيراً من المصنّفين ذكروا صفاتِه وأحوالَه ، ومنهم ابنُ كثير حيثُ قال : «كان ـ لقمان ـ رجُلاً صالحاً ، ذا عبادةٍ وعبارةٍ ، وحكمةٍ عظيمة»[2] .

* وقال القُرطبيُّ عنه : «كان حكيماً بحكمةِ الله تعالى ، وهي الصَّواب في المُعتقدات والفقْه في الدِّين والعَقْل»[3] .

* ونقل القُرطبيّ أيضاً عن صفةِ لقمان فقال : «وروي من حديثِ ابن عمر قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «لم يكنْ لقمانُ نبيّاً ولكنْ كان عبداً كثيرَ التّفكُّر ، حسنَ اليقين ، أحبَّ الله تعالى فأحبّه ، فَمَنَّ عليهِ بالحكْمةِ ، وخيّرهُ في أنْ يجعلَه خليفةً يحكمُ بالحقّ؛ فقال : ربّ ، إنْ خيرتني قبلتُ العافيةَ وتركتُ البلاء ، وإن عزمتَ عليَّ فَسَمْعاً وطاعةً ، فإنّك ستعصمُني . . . »!![4] .

* وقال عنه إسماعيل حقّي مصطفى في «روح البيان» : «كان عبداً كثيرَ التّفكّر ، حسنَ اليقين ، أحبَّ الله فأحبَّه ، فمنَّ عليه بالحكمةِ ، وهي إصابةُ الحقّ باللسانِ ، وإصابةُ الفكرِ بالجنَان ، وإصابةُ الحركةِ بالأركانِ ، إنْ تكلَّم تكلَّم بحكْمَة ، وإن تفكّرَ تفكَّرَ بحكمةٍ ، وإنْ تحرّكَ تحرّكَ بحكمةٍ»[5] .

* وذكروا أنّ أوّلَ ظهورِ حكمته العقليّة كانت مع سيّده؛ عن خالد الرَّبَعي قال : «كان ـ لقمان ـ نجّاراً فقال له سيّده : اذبح لي شاةً وائتني بأطيبِها

(١) انظر : روح المعاني (٢١/ ٨٣).
(٢) البداية والنهاية (٢/ ١٢٤).
(٣) تفسير القرطبي (١٤/ ٤١) طبعة دار الكتب العلمية.
(٤) المصدر السابق عينه.
(٥) انظر : روح البيان في تفسير القرآن (٣/ ٤٨).

مضغتَيْن؛ فأتاه باللسان والقلْب. فقال له: ما كان فيها شيءٌ أطيبَ من هذَيْن؟ فسكتَ. ثمّ أمرهُ بذبحِ شاةٍ أخرى، ثم قال له: ألْقِ أخبثها مضغتَيْن؛ فألقى اللسان والقلْب، فقالَ له: أمرتُك أنْ تأتيني بأطيبِ مضغتَيْن فأتيتني باللسانِ والقَلب، وأمرتك أنْ تُلقيَ أخبثَها فألقيتَ اللسانَ والقلب؟! فقال: إنّه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خبُثَا»[١].

* وتذكرُ كتبُ الوعْظِ والأسمار: «بأنَّ لقمان كان يطيلُ الجلوسَ وحده[٢]، فكان يمرُّ به مولاه فيقول: يا لقمان، إنّك تديم وحْدَتَكَ، فلو جلسْتَ مع النَّاس كان آنَسُ لَكَ، فيقول لقمان: إنَّ طولَ الوحدةِ أفهم للفكْر، وطول الفكر دليلٌ على طريقِ الجنّة»[٣].

* ولقد أجمعَ السَّلف أنَّ لقمان كان حكيماً وليّاً أسودَ اللون[٤]، ولم يكن نبيّاً[٥]، وله حِكَمٌ مشهورة، ووصايا مأثورة، جاء تفصيل بعضها في القرآن

---

(١) انظر: تفيسر القرطبي (١٤/ ٤٢) وعلّقَ القُرطبيُ على هذه القصة فقال: «قلتُ: هذا معناه مرفوعٌ في غيرِ ما حديث، منْ ذلك قوله ﷺ: «ألا وإنّ في الجسدِ مضغة إذا صلحَتْ صلُح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسَدَ الجسدُ كلّه ألا وهي القلب». وجاء في اللسان آثارٌ كثيرة صحيحة وشهيرة، منها قوله عليه الصّلاة والسّلام: «مَنْ وقاه شرّ اثنتين ولجَ الجنّة: ما بين لحييه ورجليه....» الحديث. وحكم لقمان كثيرة مأثورة هذا منها».
وقيل له: أيّ النّاس شرّ؟ قال: مَنْ لا يبالي أنْ رآه الناس مسيئاً قلت: «وهذا أيضاً مرفوع معنى، قال ﷺ: «كلّ أمتّي مُعافى إلاّ المجاهرون وإنَّ من المجاهرة أنْ يعملَ الرجلُ بالليلِ عملاً، ثم يصبحُ وقد سترهُ اللهُ، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد باتَ يستره ربّه، ويصبح يكشفُ سِتر الله عنه». وقال وهبُ بنُ منبه: قرأتُ من حكمةِ لقمان أرجح من عشرة آلاف باب». تفسير القرطبي (١٤/ ٤٢).

(٢) من أقوال لقمان: «الصّمت حكمة، وقليل فاعله». تفيسر القرطبي (١٤/ ٤٢).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٤ و٤٢٥) طبعة دار المعرفة ببيروت.

(٤) قالوا: إنَّ سادةَ السُّودانِ أربعةُ رجال وهم: لقمان، والنّجاشي، وبلال، ومِهْجع مولى النّبي ﷺ، وقد نظمهم أحدُ فضلاء العُلماء فقال:

سادَةُ السُّودانِ أرْبع ... هكذا قالَ المشفّع
النّجاشي وبلالٌ ... ثم لقمانٌ ومهْجَع

(٥) نظم السّيوطي من اختلف في نبوته فقال: =

الكريم في سورة لقمان وفي معرضِ الحديثِ عن وعْظِ لقمانَ لابنه ، حتى ضُربتِ الأمثالُ به فقيل : «أحْكَمُ منْ لُقْمَان» .

* وينظرُ لقمانُ إلى ابنهِ نظرةَ رحمةٍ وعطفٍ وإشفاقٍ ، لكيلا يتردّى في مهَاوي الرَّدى والضَّلالة ، ينفحُه بمواعظ جامعاتٍ نافعاتٍ ، تخرجُ من مكنونِ فكْره ، ومهجةِ فؤاده ، ويرسمُها القرآنُ الكريم بأسلوبهِ الرّائق في صورةٍ عظيمةٍ نافعةٍ للآباءِ والأبناءِ والأدباءِ والمتأدّبين .

* ورحلةُ الموعِظَةِ القُرآنيّةِ اللقمانية رحلةٌ ممتعةٌ شائقةٌ مفيدةٌ ، تصقلُ طباعَ الآباءِ والمربّين ، وتهذّبُ طبائعَ الأبناء ، وتجعلُ بناءَ الأُسَر بناءً سليماً ، فنصيحةُ لقمانَ لابنهِ ، هي نصيحةُ حكيمٍ خَبِرَ الحياةَ وتَجَارِبَها ، وقد أُوْتِيَ صاحبها الحكمةَ ، وهي نصيحةٌ غيرُ متّهمة ، نصيحةٌ خالصةٌ مبرّأَةٌ من العيب ، يبدأُ لقمان موعظتَه لابنه بقوله : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان : ١٣] .

* نلمحُ من خلالِ هذه الموعظةِ أنَّ لقمانَ ينهى ابنَه عن أعظمِ الكبائرِ ، عنِ الشِّرْكِ بالله عزَّ وجلَّ ، فلقمانُ حكيمٌ وذو قلبٍ رحيمٍ ، وما يحبُّ لابنهِ إلاَّ الخيرَ وإلاّ النَّجاة .

* ولا شكَّ في أنَّ أحبَّ النَّاسِ إلى لقمانَ ابنه الذي منَحهُ خالِصَ الودّ ، وصافيَ الشَّفقَةِ ، فهو حقيقٌ أَنْ يَمْنَحَهُ أفضلَ ما يعرف ، ويرشدُه إلى سبيلِ الرَّشاد ، وطريقِ النَّجاة ، وذلك بالابتعادِ عن أعظمِ الظُّلم؛ الشّرك بالله .

* وفي أفياءِ النَّصيحةِ اللقمانيّةِ الأبويّةِ الحانية نتوقّف مع الأنسامِ العطرة في تلكم اللمسَاتِ التي تعرضُ العلاقةَ بين الآباءِ والأبناءِ ، وكيف يعاملُ الابنُ

= واختلف في خضر أهل النّقول ... قيل نبيٌّ أو وليٌّ أو رسول
لقمانُ ذي القرنين حوَا مريم ... والوقف في الجميع رأي المعظم

وأكّدَ سراجُ الدّين الفرغاني بأن ذا القرنين ولقمان لم يكونا نبيّيْن فقال :

وذو القَرنَيْنِ لم يُعْرَفْ نبيّاً ... كذا لقمانُ فاحذَرْ عن جدالِ
كراماتُ الوليّ بدارِ دُنيا ... لها كونٌ فَهُمْ أهلُ النّوالِ
ولم يفضُلْ وَليٌّ قطُّ دهراً ... نبياً أو رسولاً في انتحالِ

والدَيه ، وكيف يبرّهُما ويحسنُ إليهما ، لنقرأْ هذه الهَمْسَة الرّبانيّة في هذا الأسلوبِ الهامسِ الحاني التّربوي ، يقولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].

* إنَّ التَّوصيةَ بالوالدَيْن قد تكررّتْ مِراراً في سُورٍ كثيرةٍ من القرآنِ الكريمِ ، ومنها سورةُ الإسراء ، وسورةُ العنكبوت ، وسورةُ البقرة ، وسورة لقمان ، وغير ذلك؛ فالوالدان يبذلان لابنهما كلّ ما يقدران عليهِ وما يملكانِهِ من أجْلِ سعادةِ هذا الابنِ الذي لا يشعرُ بما يبذلانه من أجله ، بل نجدهما سعيدَيْن بما يبذلان ، كأنَّهما هما اللذانِ يأخُذان ما يبذلان ، لذا جاءتِ التَّوصيةُ الرّبانيّةُ للابن كيما يتذكَّرَ ويعترفَ بفضلِ أبويه اللذين سكَبَا عُصَارةَ روحَيْهما من أجلِ روحِ ابنهما.

* وترسمُ الآيةُ فَضْلَ الأُم خاصّةً تلك الأمُّ التي تعبتْ من أجلِ ابنها و ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤]؛ الأمُّ التي بذَلَتْ بذلاً نبيلاً جليلاً ، قد لا يقدرُ عليه الأبُ ، فهي بطبيعةِ فطرتها تحتملُ النَّصيب الأكبر ، وتجودُ بما تملكُ من عواطفَ وحنانٍ لرعايةِ ابنها. فالأمُ تضعفُ ضعفاً فوقَ ضَعْفٍ ، لأنَّ الحمْلَ بابنها كلّما ازداد وعظُمَ ازدادتْ ثقلاً وضعْفاً.

* ونلاحظُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يذكرُ ما تكابِدُهُ الأمُّ وتعانيه ، من المشاقّ والمتاعبِ في حَمْلهِ وفصَالِه وتربيته ، ليذكِّر الابن بإحسانِها المتقدّم إليه ، وإيجاباً للتّوصية بالوالدة خصوصاً ، وتذكيراً بحقّها العظيمُ مُفْرداً. ومن هنا أمرَ النَّبيُّ ﷺ لمن سأله: مَنْ أبَرُّ ، فقال: «أمك ثمّ أمّك ثمّ أمّك ، ثمّ أباك».

* بل ذكروا أنَّ رجلاً كان في الطَّواف حاملاً أمّه وهو يطوفُ بها ، فسألَ الحبيبَ المُصْطَفى ﷺ فقال له: يا رسول اللهِ ، هل أدّيتُ حقَّ أمّي؟ فقال: «لا ، ولا بزَفْرةٍ واحدة». نعم ولا بزفرةٍ واحدة أيام الحملِ والوهن والضّعف في أيام الحرّ ، أو البردِ القارس.

* وروي أيضاً أنَّ رجُلاً سألَ الحبيبَ المُصطفى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ أمّي قد هرمَتْ، فأطِعمُها بيدي، وأسقيها وأوضِّئها واحملُها على عاتقي، فهل جازيتُها حقَّها؟

فقال له النَّبيُّ ﷺ: «لا ولا واحدة مِنْ مئة».

قال: ولم يا رسولَ الله؟

قال: «لأنَّها خدمَتْكَ في وقتِ ضَعْفِكَ مريدةً حياتك، وأنتَ تخدمُها مريداً مماتَها، ولكنَّكَ أحسنتَ، واللهُ يثيبكَ على القليل كثيراً»[1].

* ولقد أبدعَ الشُّعراءُ والأدباءُ قديماً وحديثاً في تصوير حقّ الأم وفضلِها وحضّوا على لزومِ برّها، ومن أبدعِ ما قيل في هذا المضْمَارِ هذه الأبيات الرّائية الرّائعة:

لأُمِّـكَ حَـقٌّ لـو علمـتَ كبيـرُ	كثيـرُكَ يـا هـذا لـديـهِ يَسيـرُ
فكَـمْ ليلـةٍ بـاتَـتْ بثِقلـكَ تشتكـي	لهـا مـنْ جـراهَـا أنَّـةٌ وزفيـرُ
وفي الوضعِ لو تدري عليها مشقَّةٌ	فمـنْ غَصـصٍ لهـا الفـؤادُ يطيـرُ
وكـم غَسَلـتْ عنـك الأذى بيمينهـا	ومـا حجـرهـا إلاّ لـديـكَ سـريـرُ
وتفـديـكَ ممّـا تشتكيـه بنفسِهـا	ومـن ثَـدِيهـا شـربٌ لـديـك نميـرُ
وكم مرّة جاعَتْ وأعطتْك قوتها	حنـوّاً وإشفـاقـاً وأنـتَ صغيـرُ
فـآهـاً لـذي عَقْـل ويتّبـعُ الهـوى	وآهـاً لأعمـى القلـبِ وهـو بصيـرُ
فدونَكَ فارغبْ في عميم دعائِها	فـأنـتَ لمـا تـدعـو إليـه فقيـرُ

* وعلى الرغم ممّا قرأناه آنفاً عن برِّ الأبوَيْن وبرّ الأمّ خاصة، إلاّ أنّ هذا يتوقّفُ في حالٍ واحدة، ويسقطُ واجبُ حقّهما إذا أمَراهُ بالشِّرْكِ، وأغرياهُ بكلِّ الوسائلِ أنْ يتركَ دِيْنَ الفطرة، فها هنا يرفضُ الابنُ كلّ ما يدعو إلى الشّرك، ولكنَّه لا يسقط حقّهما في المعاملةِ الكريمةِ الطّيبّةِ والصُّحبة الجيدة[2]، لأنَّ

---

(١) انظر روح البيان (٣/ ٥٢) بتصرف يسير جداً.

(٢) قال إسماعيل حقي مصطفى: «فيجبُ على المُسْلم نفقةَ الوالدَيْن ولو كانا كافرين، وبرّهما=

الحياةَ أيام؛ وسنواتٌ معدودةٌ ثمّ تنقضي ، ويعودُ جميعُ الخلقِ إلى الخالقِ الباري ، وعنده يجزي الذين أساؤوا بما عملُوا ، ويجزي الذين أحسنُوا بالحُسنى.

* إذاً ، فالرَّابطةُ مع الأبوَيْن تتحقّقُ تماماً في طاعةِ اللهِ ، وسلوكِ طريقه ، وعملِ ما يحبُّه ويرضاه.

* ومنَ الملاحظِ أنَّ الآيةَ الكريمةَ تحضُّ على الإحسان إلى الوالدَيْن ، وهي دليلٌ أيضاً على صِلَةِ الأبَوَيْن الكافرَيْن بما أمكنَ منَ المالِ إذا كانا فقيرَيْن لا يملكان شيئاً ، وقد استأذنتْ أسماءُ بنتُ أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ النَّبيَّ ﷺ في صِلَةِ أمّها ـ وكانت مشْركة ـ ، فَأَذِنَ لها.

* وللقرطبيّ ـ رحمه الله ـ تعليقٌ نفيسٌ على قولهِ تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤] ، فيقول ما نصُّهُ: «وجملةُ هذا الباب أنَّ طاعةَ الأبوَيْن لا تُراعى في ركوبِ كبيرة ، ولا في تَرْكِ فريضة على الأعيان ، وتلزمُ طاعتهما في المُباحات ، ويستحسنُ في تركِ الطَّاعاتِ النّدب ، ومنه أمْرُ الجهادِ بالكفاية ، والإجابة للأمّ في الصَّلاة مع إمكان الإعادة ، على أنَّ هذا أقوى من النَّدب ، ولكنْ يعللُ بخوفِ هلكة عليها ، ونحوه مما يُبيح قَطْعَ الصَّلاة ، فلا يكونُ أقوى من النَّدب ، وخالف الحَسَنُ في هذا التَّفْصيل فقال: إن منعتْه أمُّه من شهودِ العشاء شفقةً فلا يطعْهَا»[1].

* ويحسنُ بالمربّين ألاّ يغفلُوا هذه الأمور ، بل يعلّموها للأطفالِ والنَّاشئةِ ، ويعوّدوهم العاداتِ الطّيبة وصالح الأعمال ، ويذكّرهم دائماً بحقّ الأبوين والإحسان إليهما ، والبرّ بهما ، وبأصدقائهما ، فإنَّ ذلك يغرسُ في نفوسهم حبّ الفضائل ، ومعرفة الحقوق والواجبات للأبوَيْن وللأسرة وللمجتمع الكبير فيما بعد.

= وخدمتهما وزيارتهما ، إلاّ أن يخافَ أنْ يجلباه إلى الكفرِ ، وحينئذ يجوزُ ألا يزورهما». روح البيان (٣/ ٥٢).

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٤٤) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت عام ٢٠٠٢ م.

* وتأتي نصيحةُ لقمان لابنهِ ـ بعدَ برِّ الوالدَيْن ـ لِيَلْفِتَ نظرَهُ إلى سَعَةِ علْمِ اللهِ ودقّةِ خلْقِهِ وحسنِهِ ، فلنقرأْ هذه الوصيّة التي افتتحها بقولهِ يا بنيّ فيقول: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

* وهنا يُعلِّمُ لقمانَ ابنهَ ويذكّره بقدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، حيثُ إنَّ الخردلة لا ترجّحُ ميزاناً ، ولا يُدرِكُ الحسُّ لَها وزناً ولا ثِقلاً ، ومع هذا فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحضرُهَا ويُحَاسِبُ عليها يومَ القيامةِ ، ولا يعسرُ عليه إحضار شيء.

* ثم يستطردُ لقمان في مواعظهِ التّربويّة لابنه ، تلك المواعظ التي يذكرُهَا القرآنُ الكريم ، وفيها دعوةٌ إلى إقامةِ الصَّلاة ، والبُعدِ عن المنكرِ ، والصَّبرِ ، وعدم التّكبّر والاختيال ، والتوسّطِ في المشي ، وعدمِ رفعِ الصَّوت؛ لأنَّ في ذلك ضرراً وخَسَارةً.

* والآن دعونا نقرأ هذه الوصايا اللقمانيّة التي ذكرها القرآنُ الكريمُ بأسلوبهِ المُعْجز ، وبيانِه الآسرِ للقلوبِ والعقولِ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٧ ـ ١٩].

* من خلال الوصايا اللقمانيّة لابنهِ يمكنُ لنا أنْ نستخلصَ كثيراً من الفوائدِ والعظاتِ التي تصلحُ للمربّي والأديبِ والمتعلّمِ ، ولكلِّ من يحبُّ الفضائلَ والمكارم.

* وإذا ما تأمّلنا هاتيكم الوصايا ، ألفينا أنَّ لقمانَ لم يتركِ ابنَه بلا رعايةٍ ولا توجيهٍ ، وإنَّما علَّمه بطريقةٍ أدبيّةٍ وعظيّةٍ ، ووعَظَه بما يحتاجُه في حياتِه وبما ينتفعُ به في مجتمعهِ الكبير ، إذْ إنَّ تربيةَ الآباءِ وتوجيههم لأبنائهم من الواجباتِ الشَّرعيةِ والاجتماعيةِ عليهم. وقد شملتْ وصايا لقمان لابنهِ أموراً متنوّعة ، ومنها أمورُ العقيدة ، والعباداتُ ، والحرصُ على الأخلاقِ وألوان

الفضائل ، ثم أمور المعاملات والتّعامل مع الآخرين من أداء حقوقٍ إلى أهلها ، وما شابَهَ ذلك.

* إنَّ على المربّين ـ رجالاً ونساءً آباء وأمّهات ـ أنْ يدركوا ضرورةَ العناية بالأبناءِ والنّاشئةِ ، ولأنَّ الأولاد أولى النَّاس وأحقّهم بعنايةِ ذويهم وآبائِهم ، فالآباءُ يعلّمونهم ما يحتاجونَه من أمورِ الدِّيْن وأحكامِه ، وذلك حتّى يَقُوْهُم منَ النَّار، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦]، وتكون وقايةُ الأهلِ والأبناءِ من النّارِ بتعليمهم ما يحتاجونَه من أمورِ الدِّين ، وحثّهم على تطبيقهِ ، وحبذا وصايا لقمان يجعلُها الآباءُ نبراساً أمامَ أعينهم في تعليمِ أطفالِهم.

* إنَّ تعليمَ الآباء لأبنائهم ـ ذكوراً كانوا أو إناثاً ـ يشملُ أمورَ العقيدةِ ، والعباداتِ التي أمرَ بها الإسلام ، وكذلك الأخلاق التي أمرَ بالتَّحلّي بها ، ونَبْذ الأخلاق الشّائنة التي أمرَ بالتَّخلّي عنها.

* هذه أهمُ الآدابِ والدّروسِ التي اشتملَتْ عليها قصّة لقمان في القُرآن ، وفيها من الأدبِ للعبادِ ما يجعلُهم من السُّعداء إنْ طبَّقُوا مضَامينَها.

* ومن الطَّريف أنَّ قصَّة لقمانَ قد صاغَها شعراً كثيرٌ من الأدباء والبُلغاء في مشرقِ الأرضِ ومغربها ، وممن نسجَها شعراً يرفلُ بحللِ الجَمالِ الأستاذ «صبحي نديم المارديني» حيث تَرسَّمَ قصَّة لقمان كما جاءتْ في سورةِ لقمان ، وجاءت قصيدتُه جميلةً تميسُ بقافيتها الرّائية التي زادَتْها ألَقاً ورقّةً ، فيقول:

لُقْمانُ عبدٌ صالحٌ آتاه ربّـ	ـهُ حكمةً في طيِّها عِلْمٌ غزير
نادى ابنَه يوماً وقامَ بنُصحِهِ	كي يهتدي بالنُّصح والعلْمِ المُنير
بالعِلْمِ يسمو المرءُ في هذي الدُّنى	ويفوزُ بالأخرى بجنّاتٍ وحُور
إذا قالَ لقمان يعلِّم نَجْلَه	عِلْماً أتاهُ منْ لَدُنْ ربٍّ خبير
أبنيَّ لا تشركْ بربِّكَ مُطلقاً	فالشّركُ باللهِ بهِ ظلمٌ كبير
واشكرْ لربِّكَ فَضْلَه لا يجحدِ	الفضلَ العميمَ لخالقٍ إلاّ الكَفُور
أفلا ترى ما سخَّرَ اللهُ لَكَا	ما في السّما والأرضِ من خيرٍ كثير
فغدوتَ تنعُمُ في الحياةِ بفضلهِ	بالأمْنِ والإيمانِ والخيرِ الوفير

فــي جنَّــةٍ أرضيّــةٍ خــلّابــةٍ مُزدانةٍ بـالـزَّهْـر والعُشْـبِ النَّضير

لا تعـصِ أمَّـكَ أو أبـاك بحـاجـةٍ إلاّ إذا أمَـرا بمعصيــةِ القــديـر

فـاللهُ قـد أوصـى ببـرّهمـا فـلا تَنْهـرهُمـا بـالقـولِ والفعْـلِ النّكيـر

ابنـيَّ إنْ تـكُ حبّـةٌ مـنْ خـردلٍ فـي صخـرة يعلـمْ بهـا ربٌّ بصيـر

فـالله يعلـمُ كـلَّ شـيءٍ ظـاهـر أو بـاطـنٍ أو مـا تخبئـهُ الصُّـدور

ويـراكَ فـي الليـلِ البهيـمِ مُصليّـاً أو نائِماً خَلفَ السَّتائر في القُصور

أقـمِ الصَّـلاةَ ولا تكـنْ متـردّداً عـن فعـلِ معـروفٍ ونبـذٍ للفُجـور

واصبرْ على ما قَدْ أصابكَ إنَّ ذا لكَ منكَ عزمٌ في الحوادثِ والأمور

لا تمـشِ مغـروراً ولا متكبّـراً فـاللهُ لا يـرضـى التكبُّـرَ والغـرور

لا ترفعِ الصَّوتَ الجهير مُجعجِعاً ومقلّداً في القُبحِ أصواتَ الحمير

واقصدْ بصوتك واعتدلْ في سَيْرَتك فالعدلُ خيرٌ في الكلامِ وفي المسير

ودع التّمسُّـك بـالحيـاةِ مـؤمّـلاً بالخلدِ في الدّنيا على مرِّ الدُّهور

فغـدَاً تصيـرُ إلـى الفَنـاءِ مُطـأطئـاً تخطو وتمشي خائفاً مثل الصَّغير

فـارجـعْ إلـى ربِّ الـورى مُستغفـراً إلـى الإلـه المنتهـى ولـهُ المصيـر[١]

* وما دمنا في رحابِ الوصايا اللقمانيّة والحكم الأبويّة ، فلا بأسَ أنْ نتعرَّفَ الحكمةَ وصفةَ الحُكماء ، ونستجلي بعضَ الحكم والوصايا التي أُثِرتْ عن لقمانَ من كتُبِ الأدَبِ والتَّراجم ، وذلك لنثريَ هذا البحث بمادّةِ الأدبِ لِتَحْلُوَ به المَجَالِسُ ، ويكون أُنْساً للمُجَالس.

* فالحكمةُ مصدرٌ من الإحكامِ ، وهو الإتقانُ في قولٍ أو فعل ، وأصلُ الحكمةِ ما يُمْتَنَعُ به منَ السَّفَه.

* وقد جاءتْ تعريفات كثيرةٌ للحكمةِ ومنها: الورعُ ، والفَهْمُ في القرآن؛ والحكمةُ طاعةُ اللهِ والفِقْهُ في الدِّين والعملُ بهِ ، والحكمةُ التّفكّير في أمْرِ اللهِ والاتّباع له ، أو الإصابةُ في القول والفعل ، والحكمةُ العقلُ في الدِّين[٢].

---

(١) انظر: كتاب لقمان الحكيم وحكمه (ص ١٧٢ و١٧٣) لمحمد خير رمضان يوسف ، طبعة دار القلم الثانية ١٩٩٤ م.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٢١٣ و٢١٤) بتصرف.

* ويعلّقُ القرطبيُّ على هذهِ الأقوال بما مفادُه وملخّصه: «وهذه الأقوال كلُّها قريبٌ بعضُها من بعض، فكلُّ ما ذُكرَ فهو نوعٌ منَ الحكمةِ التي هي الجنْسُ؛ فكتابُ اللهِ حكمةٌ، وسنّةُ نَبيّه حكمةٌ، وكلُّ ما ذكرَ من التّفضيل فهو حكمةٌ... وقيل للعِلْم حكمة، وكذا القرآن والعقلُ والفَهمُ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ذكرَ الدّارميّ في مسندهِ بسندٍ عن ثابتٍ بن عجلانَ الأنصاريّ قال: كان يُقال: إنَّ الله يريدُ العذابَ بأهلِ الأرض، فإذا سمعَ تعليم المعلّم الصّبيان الحكمةَ صرَفَ ذلك عنهم. ويعني بالحكمةِ القُرآن»[1].

* وللحكماءِ وأهلِ الوصايا صفاتٌ باهرةٌ، ومنها أنَّهم يتّصفون بالحِلْم ويتخلّقُون به، وهم معروفون بالتّفكير العميق، والصَّبرِ، والتّجارِبِ، وصفاء النَّفس ونقاءِ القَلْب، وحبِّ الخير، ووصفُوا الرّجلَ الحكيمَ فقالوا: «لا يكونُ الرجلُ حكيماً حتّى يكونَ حكيماً في قولهِ وفعلهِ ومعاشرتِه وصحبتهِ».

* ولا بأس الآنْ أن نُورِدَ بعضَ حِكمِ لُقمانَ لابنهِ وفيها كثيرٌ من الفوائدِ التي تنفعُ المربّين والنّاشئة.

* يقول لقمان لابنه: «يا بنيّ، إنَّ الحكمةَ أجلستِ المساكينَ مجالسَ المُلوك».

* وقال لقمان لابنه: «يا بنيّ، إنّي قد ندمتُ على الكَلامِ ولم أندمْ على السّكوت»[2] وقال له: «إذا افتخرَ النَّاسُ بحسنِ الكلامِ، فافتخر بحسنِ الصَّمْت».

* وفي طلبِ العلْم يقولُ لقمانُ لابنه: «يا بنيّ، جالسْ قوماً يذكرونَ الله،

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢١٤) بتصرف واختصار.

(٢) وقد أخذَ أحدُ الشعراء هذا المعنى فقال:

ما إنْ ندمتُ على سكوتي مرّةً ... ولقد ندمتُ على الكلامِ مرارا

فإنْ كنتَ عالماً نفعَكَ علمُكَ ، وإنْ كنتَ جاهلاً علّموك ، وإنْ نَزَلَتْ عليهم رحمةٌ أو رزقٌ شركْتَهم فيه».

* ومن حكمتهِ لابنه في التّحذير منَ الدّنيا وزُخْرفها يقول: «أي بُنيّ ، إنَّ الدّنيا بحرٌ عميقٌ ، وقد غرقَ فيها ناسٌ كثير ، فاجعلْ سفينَتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوهَا الإيمان ، وشراعها التّوكّل على اللهِ ، لعلّك أنْ تنجو ، ولا أراكَ ناجياً».

* وفي التّمسُّك بمحاسنِ الأخلاق ومكارمها يقولُ لقمانُ لابنه: «يا بنيّ ، لا تضحكْ من غيرِ عجب ، ولا تمشِ من غيرِ أرَب ، ولا تسألْ عمّا لا يعنيك ، ولا تضيّعْ مالَكَ وتصلح مالَ غيرك ، فإنَّ مالَكَ ما قدَّمْتَ ، ومالَ غيرِك ما تركتْ. . يا بنيّ ، إنَّ مَنْ يَرحَمْ يُرْحَمْ ، ومَنْ يصمتْ يَسْلَم ، ومَنْ يَقُلِ الخيرَ يَنْعَمْ ، ومن يقلِ الشَّرَّ يأثم ، ومَنْ لا يملك لسَانَه يندم».

* ومن روائعِ حكمته لابنهِ قوله: «يا بنيّ ، إذا امتلأتِ المعدةُ نامتِ الفكرةُ ، وخرستِ الحكمةُ ، وقعدتِ الأعضاءُ عن العبادةِ».

* يقول: «يا بنيّ ، إنْ تأدبْتَ صغيراً انتفعتَ كبيراً».

* وعن علاماتِ الحاسدِ يقولُ لابنه: «يا بنيّ ، للحاسدِ ثلاثُ علامات: يغتَابُ صاحِبَه إنْ غابْ ، ويتملّقُ إذا شهد ، ويشمتُ فيه بالمصيبة»[1].

* * *

(١) هذه الحكم والوصايا منقولة باختصار عن كتاب: لقمان الحكيم وحكمه (ص ١٠٥ ـ ١٣٢) ومَنْ أراد الاستزادة ، فليرجع إلى الكتاب المذكور ، حيث جمع فيه مؤلفه كثيراً من الحكم والآثار المنقولة عن لقمان ، وفي هذا الكتاب فوائد جليلة ، فجزى الله مؤلّفه خيراً. كما نقلتُ بعضها عن كتاب «بصائر ذوي التمييز» للفيروز أبادي.

الباب الثالث

الأبناء وأمور الوالدين

الفصل الأول

الأبناء وبرّ الوالدين

* البِرُّ اسمٌ جامعٌ للخير ، وقد يجيءُ بمعنى الإحسان إلى الوالدَيْنِ من قِبَلِ الأبناءِ. والإنسانُ البارُّ يتميَّزُ بأنَّهُ عطوفٌ مخلصٌ وفيٌّ ، وأكثرُ ما يظهرُ أثرُ برّهِ في تعاملهِ مع والدَيْهِ ، وإيثارِ رضاهُما على كلِّ شيءٍ بعد مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومرضاةِ رسولهِ ﷺ.

* العقوقُ صورةٌ بشعةٌ ، وهو يمثّلُ نكرانَ الجميلِ للأبوَيْن اللذين بذلا ما يملكان ليكونَ أَبناؤُهما سُعداءَ في دِيْنهم ودنياهم ، ولكنَّ بعضَ الأبناءِ ينسى تَعَبَ أبويه ، ويركبُ رأسَهُ ، ويركبُهُ الشّيطان ، وينفخُ إبليسُ في أنفهِ وعطفيه نفخةَ الغرورِ ، فيظنُّ كلَّ الظَّنِّ أنَّه فوقَ مستوى أبويه ومَنْ حولَه ، وبالتَّالي لا ينتفعُ بِدُنيا ولا آخرة ، وغاب عن ذِهنهِ أنَّ مرضاةَ اللهِ في رضاءِ الأبوين.

* وفي هذا الفصل سنتحدَّثُ عن بِرِّ الأبناءِ لأبويهم ونتائجِ هذا البِرِّ الذي يجعلُ صاحِبَه من السُّعداء كما سنتكلَّمُ عن العقوقِ ونتائجه وسلبياته ، والذي يجعلُ صاحبَهُ يَرِدُ مواردَ البوار والدَّمار في فصل آخر بإذنِ الله.

* ففي الذّكْرِ الحكيم وقفاتٌ تربويةٌ جليلةٌ تنطقُ عن عظمة برِّ الأبوين المقرونِ بعبادة ربّنا جلَّ وعلا ، ومنها قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]؛ قال الإمامُ القُرطبيُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيرِ هذه الآية: «قال العُلماء: فَأَحَقُّ النّاسِ بعْدَ الخالقِ المنَّان ، بالشّكر والإحسان؛ والتزام البر والطاعة له والإذعان ، مَنْ قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره ، وهما الوالدان ، فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي

﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وروى شُعبةُ وهُشَيم الواسطيّان عن يَعْلَى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «رضا الرّبّ منْ رضا الوالدَيْن وسُخْطه في سخط الوالدين»[1].

* وقد يتوقّعُ بعضُ الأولادِ أنَّ برّ الوالديْنِ إنّما هو من خصوصياتِ ديْنِ الإسلام، بيد أنَّ الأمرَ خلافُ ما يحسبونه، حيثُ إنَّ بِرَّ الوالدين أمرٌ ربّاني كتبَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على مَنْ سبقنا من الأمَم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

* ومن المُطْربِ، والمثيرِ للغرامِ السَّاكن بين الجوانح أنَّ ربَّنا جلَّ وعلا قد ذكرَ في كتابِه العزيز عدداً من الأنبياء الذين كانوا بارّين بأبويهم أحدهما أو كلاهما، ومنهم نبيُّ اللهِ يحيى بن زكريا ـ عليهما السَّلام ـ الذي اشتهرَ في شدّةِ برّهِ بوالديه اللذين وهَنَ العظم منهما، واشتعلَ رَأسُهما شيباً، وأمسيا من المُعمَّرين، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]؛ كما قال عن عيسى عليه السلام ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

* كما أنَّ ربَّنا ـ تباركَ في عُلاه ـ قد ضَربَ مثلاً لجمالِ البِرِّ بالأبِ وكمالِهِ، فذكر قصَّة نبيّ اللهِ إسماعيل وبرّه بأبيه خليلِ اللهِ إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ في قصَّة استوفتها سورة الصَّافات؛ وسنتحدّثُ عنها بعد قليل بإذن الله.

* إنَّ الأبناء غراسُ الأبوَيْن، فهما أحقُّ النَّاس بالانتفاع من هذهِ الغِراس وخصوصاً إذا أثمرت وأينَعَتْ، ولهمـا الحق أيضاً أنْ يذوقَا حلاوةَ جهدِهما في تربيـةِ أبنائهما، وعلى الأبناءِ أنْ يقدّمُوا لهما كلَّ ما يرغبانِ فيه عن طيْبِ نَفْسٍ وعرفانٍ بالجميلِ، مع رفْقٍ وخَفْضِ جناحٍ لهما، وملاطفةٍ وليْنٍ في القولِ، والإيناسِ في المعاملةِ، بل والدّعاء بالرّحمةِ، وبالمغفرة لهما، واسمعوا واحفظوا قول الله عزّ وجلّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ١٢٠) طبعة دار الكتب العلمية.

صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]. واسمعُوا وعُوا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في صِفَة الابنِ البارّ بأبويه حيثُ يقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨].

* ولا يُشَكُّ إذاً في أنَّ منزلةَ الأبوين عظيمةٌ، فقد دلَّتِ الآياتُ والأحاديثُ على ذلك، حتى لقد قُدِّمَ برهما على الجِهادِ، فَبِرُّ الأبوين فرضُ عَيْن، أمّا الجهادُ فهو فرضُ كفايةٍ، إلاّ في حالاتٍ خاصّة جداً؛ إنَّ مرضاةَ الأبوين خيرُ تجارة يتعاطَاها الأبناءُ، إنْ عرفُوا كيفَ يربحون.

* فمن طرقِ الرّبحِ والبركةِ برُّ الأبوين بعد موتها، فلا ينْسَاهُما منَ الدُّعاءِ والاستغفارِ، وطلبِ الرّحمة لهما، وإكرامِ صديقهما وبرّه، ولقد برَّ عبد الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ أحدَ أصدقاء أبيهِ عمرَ بنِ الخطاب، وأعطاه عمامةً كانت على رأسهِ، وقال لأصحابه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أبرَّ البِرِّ صِلةُ الولَدِ أهلَ ودِّ أبيهِ»[1].

* وإذا كان لِبرِّ الأبوين منزلةٌ كبرى بعد وفاتِهما، فكيف إذا كانا يعيشان ويمشيان على الأرض؟! إنَّ برهما مقدَّمٌ على كلّ شيء، حتّى على قِتالِ الأعداء والجهادِ ضدهم، ولقد صنَع سيّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ هذا، وردَّ أحدَ الفرسانِ الأبطالِ إلى أبويه من ساحاتِ القتال كي يتابعَ برّه بهما. وهذا الفارسُ العابدُ البارُّ البطلُ هو كِلابُ بنُ أميّة الذي كان يؤثرُ رضا والديه على كلّ شيء، وبلغَ من برِه بأبيهِ أنَّه كان يحلبُ له أفْضَلَ ناقةٍ ويسقيه حتى تعوَّدَ أبوهُ على ريح يدهِ.

* أمّا قصّةُ كلاب هذا فقد أوردتْهَا المصادرُ المتنوعةُ على اختلافِ مشاربها، وها نحنُ أولاءِ مرسلو القولَ في ذِكرِهَا، وَلَمِّ أشتاتِها ونظْمِها في

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٥٢)، وفي رواية: «إنَّ مِنْ أبرِّ البِرِّ صِلَةُ الرّجُلِ أَهْلَ ودِّ أبيه بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ».
وفي هذا الحديث: فَضلُ صِلَةِ أصدقاءِ الأبِ والإحسانِ إليهم وإكرامهم، وهو متضمّنٌ لِبرِّ الأبِ وإكرامه لكونِهِ وُجِدَ بسببه، وتلتحقُ به أصدقاءُ الأم والأجداد، والمشايخ، والزّوجة، والزّوج، وكان النّبي ﷺ يكرمُ خلائل خديجة رضي الله عنها وحشرنا في معيتها.

هذا المقام ، لما فيها من عِظَةٍ وفائدةٍ لأبنائِنا وأحبابنا ، ولكلّ مَنْ يريدُ البِرّ بأبويه .

* ذكرتِ المصادرُ الموثوقةُ وكتبُ الأخبارِ والتَّراجم قصّةَ أميّةَ وابنِهِ فقالت ما مفادُهُ : «كان أميّةُ بنُ الأشكرَ ـ وقيل الأسكَر ـ بن حرثان الكناني أحدَ مشاهيرِ قومهِ ، وكان شاعراً فارساً مخضرماً ، وأدركَ الجاهليّةَ والإسلام ، وكان من ساداتِ قومهِ وفرسانِهم المعدودين ، وله أيّامٌ مأثورةٌ مذكورةٌ. وابنُه كلابُ بنُ أميّة أيضاً ، أدركَ النَّبيَّ ﷺ فأسلمَ مع أبيهِ ، ثمَّ هاجرَ إلى النَّبيِّ ﷺ .

* وفي عهدِ سيِّدنا عمرَ بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه وحشَرنا في معيّته ـ هاجرَ كلابُ إلى المدينةِ ، فأقامَ بها مدّة ، ثمّ إنّه لقيَ ذات يومٍ طلحةَ بن عُبيد الله ، والزُّبير بن العوام فسألهما : أي الأعمالِ أفْضَلُ في الإسلام؟

* فقالا له : الجهادُ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

* فسأل كلابُ سيّدنا عمر أنْ يجعلَه في عدادِ الجنودِ الغازين في سبيل الله تعالى ، فاستجابَ عمرُ لرغبتِهِ.

* ولما وجَّه عمرُ ـ رضي الله عنه ـ الجيشَ إلى قتالِ الفرسِ ـ أو الرّوم ـ أغزى كلاباً ، فقام أميّةُ بنُ الأشكر الكناني فقال لِعمر : يا أميرَ المؤمنين ، هذا اليومُ من أيّامي لولا كِبرُ سِنّي. فقامَ إليهِ ابنُه كلاب بن أمية ، وكان عابداً زاهداً قانتاً ، فقال لعمر : لكنّي واللهِ يا أمير المؤمنين أبيعُ اللهَ نفسي ، وأبيعُ دنياي بآخرتي ، وأوثرُ مرضاةَ الله على كلِّ شيء . .

* فتعلَّقَ به أبوه أميةُ ، وقال : يا بني لا تدعْ أباكَ وأمّك شيخَيْن ضعيفَيْن وهَنَ العظمُ منهما ، واشتعلَ رأسُهما شيباً ، وقد ربّياكَ صغيراً ورعياك كبيراً ، حتّى إذا كانا في حاجةٍ إليك تركْتَهُما ! !

* فقال كلاب : نعم يا أبتِ ، أتركُ ذلك لما هو خيرٌ لي في دِيني ودنياني ـ وظنَّ كلاب أنَّ الغزوَ أفضلُ له من خدمتهما ـ فخرجَ إذْ ذاك غازياً بعد أنْ أرضاهما.

* أبطأَ خبرُ كلاب وهو في الغزو عن أبويه ، وصادفَ أن كان أبوه ذات يوم

في ظلِّ نخلٍ له ، وإذا حمامةٌ تدعو فرخها ، فرآها أميّةُ فبكى ، ورأَتْهُ زوجُه أمُّ كلاب يبكي فبكَتْ بكاءً حارّاً ، وعندها أنشأَ أميةُ يقولُ هذه الأبيات المؤثّرة :

لمـنْ شَيْخـانِ قـد نَشَـدا كِـلاَبـا ... كِتـابَ اللهِ لـو قَبِـلَ الكِتـابـا

أُنـاديـهِ فَيُعـرِضُ فـي إبـاءٍ ... فَـلا وأبـي كِـلابٍ مَـا أصَـابَـا

إذا هَتَفَـتْ حَمـامَـةُ بطـنِ وَجٍّ ... علـى بيضـاتِهـا ذَكَـرا كِـلابَـا

أَتَـاهُ مُهـاجِـران تكنَّفَـاهُ ... فَفَـارقَ شيخَـه خَطِئـا وخـابـا

تـركـتَ أبـاكَ مـرعَشَـةً يَـدَاهُ ... وأمَّـكَ مـا تسيـغُ لهـا شَـرابَـا

تُمَسِّـحُ مَهْـدَهُ شَفقـاً عليـه ... وتجنُبُـه أبـاعِـرهَـا الصِّعَـابـا

فَـإنَّـك قـد تـركـتَ أبـاك شيخـاً ... يطـارقُ أينُقـاً شُـزُبـاً طِـرابـا

طـويـلاً شـوقُـه يبكيـكَ فَـرْداً ... علـى حُـزْنٍ ولا يُـرجـو الإيـابَـا

فَـإنَّـك والتمـاسُ الأَجْـرِ بعـدي ... كَبـاغـي المـاءِ يتبَّـعُ السَّـرابـا

* وطارتْ شهرةُ هذه الأبيات الرّقيقةِ الرائقةِ النّابغةِ من ضمير أمية بنِ الأشكر ووجدانه ، والمتفجّرة من ينبوع قلبه الثّر بعطف الأبّوة ، والممزوج بحنان الشّوقِ وشوقِ الحنان إلى ابنه كلاَب ، ولامست أنسامُ همساتِها سَمْعَ عمرَ بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ولكنّه شُغِلَ ولم يردُدْ كلاباً ، وطالَ مقامه ؛ فخلَط جزعاً عليه ، ثم إنّ أميّة أتاه يوماً وهو في مسجدِ رسول الله ﷺ ومن حولهِ عددٌ من المهاجرين والأنصار ، فوقف عليه ، ومن ثمّ أنشأَ يقولُ وهو يتشوّقُ إلى ابنه ويتفجّعُ عليه :

أعـاذِلَ قـد عَـذلـتِ بغَيْـرِ علْـمٍ ... ولا تَـدْريـنَ عَـاذِلَ مَـا أُلاقـي

فـإمّـا كُنْـتِ عَـاذِلَتـي فَـردّي ... كِـلابـاً إذْ تـوجَّـه لِلْعِـراقِ

ولـمْ أقْـضِ اللُّبـانـةَ مـن كـلابٍ ... غـداةَ غـدٍ وآذنَ بـالفـراقِ

فتـى الفتْيـانِ فـي يُسْـرٍ وعُسْـرٍ ... شـديـدُ الرّكـنْ في يـومِ التّـلاقـي

فـلا وأبيـكَ مـا بـاليـتُ وجْـدي ... ولا شفَقِـي عَلَيْـكَ ولا اشتيـاقـي

وإبْقـائـي عليـكَ إذا شتَـوْنـا ... وضمَّـكَ تحـتَ نَحْـري واعتِنَـاقـي

فلـو فَلَـقَ الفـؤادَ شـديـدُ وجْـدٍ ... لَهَـمَّ سـوادُ قَلْبِـي بـانْفِـلاق

ساستَعْدي على الفَاروقِ ربّاً ... له دُفعَ الحجيجُ إلى بُسَاق[1]
وأدعو اللهَ مُجتهداً عليهِ ... ببطنِ الأخشَبَيْنِ إلى دُفَاقِ[2]
إنِ الفاروقُ لم يردُدْ كلاباً ... إلى شيخَيْنِ هامهما زَوَاقِ[3]

* وتأثّر عمر ـ رضي الله عنه ـ لهذه الأبياتِ التي تحرّكُ سواكنُ القُلوب، وبكى بكاءً شديداً، وكتبَ إلى سعدِ بنِ أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ يأمره بردِّ كلاب إلى المدينة، فلمّا قدمَ دخل إليه، وسلّم عليه، فسأله عمرُ عن أحوالهِ، ثمَّ قال له: أخبرني يا كلاب ما بلغ من برّك بأبيك؟

* قال كلابُ: يا أميرَ المؤمنين، كنتُ أوثرهُ وأكفيه أمْرَهُ، كنتُ أعتمدُ إذا أردتُ أنْ أحلبَ له لبَناً أغْزَرَ ناقةٍ في إبلهِ وأسمنِها، فأريحها وأتركُها حتى تستقرَّ، ثمّ أغسل ضرَعَها حتى تبردَ، ثم أحْتَلِبُ له فأسقيه.

* فبعثَ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ إلى أبيه أميّةَ مَنْ جاء بهِ إليه، فأدخله يتهادى وقد ضعُفَ بصره وانحنى.

فقال له عمر: كيف أنتَ يا أبا كلاب؟

قال: كما تراني يا أمير المؤمنين.... قد كبرتُ وضعفتُ.

فقال: فهل لكَ من حاجةٍ نَقْضيْها لك؟

قال: نعم يا أميرَ المؤمنين، كنتُ أشتهي أنْ أرى ابني كلاباً فأشمَّه شمّةً وأضُمَّه ضمّةً من قبل أنْ أموتَ.

* فذرفَتْ عينا عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال لأميةَ: يا أبا كلاب ستبلغ منْ هذا ما تحبُّ إن شاء الله تعالى... ثم إنَّ عمرَ أشارَ إلى كلاب وأمرَهُ أنْ يحتلبَ لأبيه ناقةً كما كان يفعل، ويبعثَ إلى أبيهِ بلبنها ففعل، فناوله عمرُ الإناء وقال لأمية: دونك هذا يا أبا كلاب. فلمّا أخذهُ وأدناه إلى فمهِ قال: لَعَمْرُ الله يا أميرَ

---

(١) «بساق»: جبل بعرفات.
(٢) «الاخشبين»: الأخشبان: جبلان بمكة. و«دفاق»: موضع قرب مكة.
(٣) «زواق»: أي دنا أجلهما.

المؤمنين، والله إنّي لأشمُّ رائحةَ[1] ابني كلاب من هذا الإناء لولا أن تسفّهوني!

* فقال له نسوةٌ كُنَّ عنده: يا أبا كلاب، قد كبرتَ وخرفتَ وذهبَ عقْلُك، ابنك كلاب بظهرِ الكوفةِ، وأنت تزعمُ أنّكَ تَجِدُ رِيْحَه..

* ولكنَّ حَدسَ أميّة كان صحيحاً، وبكى عمرُ ـ رضي الله عنه ـ وقال لأمية: هذا ابنُكَ كلاب حاضر عندك، قد جئناك به من العراق، فنهضَ أمية إلى ابنه وضمّه إليه وشمّه وقبّله، وجعلَ عمرُ يبكي ومَنْ حضره، ثمّ قال لكلاب: الزمْ أبويك، فجاهدْ فيهما ما بقيا، ثم شأنك بنفسِك بعدهما، وأمرَ له بعطائه، وصَرفَه مع أبويه، فلزمهما وطفِقَ يخدمها.

وتغنّت الرّكبانُ بِشِعْر أبيه، فبلغ كلاباً ذلك فقال:

لَعمـركَ مـا تـركْـتُ أبـا كـلابٍ   كبيـرَ السِّـنِّ مُكتئبـاً مُصَـابـا
وأمّـاً لا يـزال لهـا حنيـنٌ   تنـادي بعـد رقـدتهـا كِـلابـا
لِكَسْـبِ المـالِ أو طلَـبِ المعـالـي   ولكنّـي رجـوتُ بـهِ الثّـوابـا

* وكان كلابٌ من خيارِ المسلمين، ولم يزلْ مع والديه حتّى ماتا»[2].

* وقد أحببتُ أنْ أوردَ قصّةَ كلابِ بن أميّة كاملةً لجمالها وكثرة فوائدِها، فقد رجعَ هذا الفتى إلى أبويه الكبيرين وأحْسَنَ صحبتهما، ولزمَ خدمتهما، وأطاعَ أمرهما، وأدخلَ السُّرورَ على قلبهما، حتى قضيا نحبَهما؛ وبذلك كان مثالَ الابنِ البارِ بالأبوين، وكان أميةُ وزوجهُ أمّ كلاب أيضاً مثال الأبوين اللذين

---

(١) ثبت الآن علمياً أنَّ لكلِّ إنسانٍ رائحةً مميزةً، لا يشترك فيها مع إنسانٍ آخر، ونحن لا نستطيع أن نميزَ هذا الرائحة.
ومن الواضح أنَّ نبي الله يعقوب عليه السلام قد عرفَ من رائحة قميص يوسفَ أنَّ يوسف ما زال حيّاً، وقد شعر أمية هذا برائحة ابنه عندما حَلَبَ له.

(٢) انظر: الوافي بالوفيات (٩/ ٢٢٤/ ٢٢٥) طبعة دار إحياء التراث العربي، والمحاسن والمساوىء للبيهقي (ص ٦١١، ٦١٣)، والإصابة (١٠٢ ـ ١٠٥) مع الجمع والتصرف.
وقد آلفنا بين أجزاء القصة حتى غدت على ما هي عليه الآن. وانظر: نكت الهميان (ص ١٢١)، والمعمرون والوصايا ص ٨٥ ـ ٨٧)، وأمالي القالي (٣/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، والأغاني (٢١/ ٩ و١٠)، وخزانة الأدب (٦/ ١٩ ـ ٢٢)، وغيرها من المصادر الكثيرة.

أحْسَنَا تربية ابنهما الذي برَّ بهما وهُما في أرذلِ العمر.

* وأودُّ ـ وأنا في أفياءِ هذه القصّةِ الآسرة المؤثّرة ـ أنْ أهديَ إلى الأبناءِ في أركانِ المعمورة هذه القصيدةَ الجميلةَ التي تأخذُ بمجامعِ القلوب، وتهذّبُ النّفوس، لِما تحملُ في أكمامها من وردِ المعاني، وزهْرِ الأفكار، وأقاحي النَّصائح، وروحِ وريحانِ مكارمِ الأخلاق الممزوجِ بالوفاءِ للأبوين اللذين أوقَفَا كلَّ ما يعرفان ويملكان من أجلِ سعادة أطفالِهما منذ ولادتهم إلى أن يبلغوا أشدهم.

* وهذه القصيدة للشّيخ محمد القصّار القَيسيّ الفاسي الغَرناطيّ الأصل، وفيها يحضُّ على زيارةِ الأبوين بعد موتهما، وهذهِ القصيدة ادّعاها كثيرٌ من الشُّعراء، وكلّهم يزعمُ أنّها من نظمهِ ورسمهِ وبناتِ أفكاره:

وكُــلٌّ يــدّعــي وصْــلاً بلَيْلَــى ... ولَيْلَــى لا تقــرُّ لَهــمْ بــذاكــا

* بل إنَّ ليلى الفِكْر أقرّت بأنَّ الشَّيخ محمد القصَّار[1] هو الذي نظمَ هذه الأبيات، وهي:

زُرْ والـدَيْـكَ وقـفْ على قبـريْهمـا ... فكـأنّنـي بـكَ قـد نُقِلْـتَ إليهمـا
لـو كُنْتَ حيثُ هُمـا وكـانَـا بـالبَقَـا ... زَاراكَ حبـواً لا علـى قَـدَمَيْهِمَـا
أَنسيـتَ عَهـدهُمَـا عشيـةَ أُسْكِنَـا ... دارَ البِلـى وسكنْـتَ فـي داريْهمـا
مـا كـانَ ذنبُهُمـا إليـكَ وإنّمـا ... منَحـاكَ مَحْضَ الـودّ من نفسَيْهمـا
كـانَـا إذا مَـا أبْصَـرا بـكَ علّـةً ... جَـزَعـا لمـا تشكُـو وشـقَّ علَيْهمـا
كـانَـا إذا سَمِعَـا أنينَـكَ أسْبَـلا ... دمعَيْهمـا أسَفـاً علـى خَـديْهمـا
وتَمَنَّيَـا لـو صَـادفـا لـكَ راحـةً ... بجميـعِ مـا يحـويـهِ مُلْـكُ يـديْهمـا
فَلَتَلْحقَنْهُمَـا غـداً أوْ بعـدَهُ ... حتْمـاً كمـا لِحقَـا هُمـا أبـويْهمـا
ولَتنـدمَـنَّ علـى فعـالـكَ مثلمَـا ... نـدِمَـا هُمـا أيضـاً علـى فعلَيْهمـا
بُشْـراكَ إنْ قـدَّمْـتَ فعـلاً صـالحـاً ... وقضيـتَ بعـضَ الحـقِّ مـن حقّيْهمـا

---

(١) الشيخ محمد القصار من مشايخ الأديب الشهير أبو العباس أحمد المقّري صاحب كتاب نفح الطيب.

وقـرأتَ مـن آي الكتـابِ بِقَـدْرِ مَـا تَسْطِيْعُـــهُ وبعثـــتَ ذاكَ إليهمـــا
فاحفظْ بُنيَّ وصيّتي واعملْ بهما فَعَسـى تنـالُ الفـوزَ مـن بـرّيْهمـا[1]

* إنَّ برَّ الأبوين ذو آثارٍ حسانٍ في حياةِ الناس ، وفي حياةِ الأبناءِ عموماً؛ وقد فرضَ اللهُ عزَّ وجلَّ على الأولاد الإحسانَ إلى الأبوين ، وجعلَ طاعتهما واجبةً ، بل أبرزَ حقَّ الأمِّ فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

* إنَّ طاعةَ الأبوين واجبةٌ في المباحاتِ ، وقد خصَّ ربّنا عزَّ وجلَّ الأمَّ بدرجةِ ذِكْر الحَمْل ، والرَّضاع ، وأشار إلى أنَّ لها ثلاثَ مراتب وللأبِ واحدة ، وقد فسَّر الحديثُ المشهور ذلك بأنْ ذكرَ النبيُّ ﷺ لرجلٍ سأله مَنْ أبرُّ ، فأجابه ثلاث مرّات للأمّ والرّابعة للأب ، فجعل للأب الرّبع من المبّرةِ والباقي للأمّ ، لأنّها ضعيفةُ الخلْقَة أصلاً ، ثم يضعفُها الحملُ ويوهنها ، ثم ترضعُه قرابة عامين وهي تتحلّى بالصَّبر ، ولا تريد إلا أنْ يكبر رضيعها ويغدو رجلاً كبيراً ، ولا تزالُ منصرفةً إلى خدمتهِ ليلاً ونهاراً ، تقوي وليدها بضعفها وهي تخافُ عليه من رقيقِ الأنسامِ ، وتحوطُه بلطيفِ الأنفاس ، وتؤثرهُ في نفسِها في كل شيء.

* إنَّ في تقديم الأمّ على الأبِ حكمةً عظيمةً ، فهي ضعيفةُ الجسم ، عديمةُ الكسب ، فابنُها أولى وأحقّ بخدمتها ، يقول الحسنُ البصريُّ ـ رحمه الله ـ: «حقُّ الوالدِ أعظم؛ وبرُّ الوالدة ألزم». نعم ، برُّها ألزمُ ، لأنَّها تقومُ بما لا يقوم به الأبُ من الأعمال ، فهي تنظّفُ ولدَها وأطفالَها ، وتزيلُ عنهم الأقذار بنفسٍ راضيةٍ مسرورة ، فلا تتأفّفُ ولا تَشْمَئِزُّ ولا تتبرّمُ؛ وإذا ما غدت عجوزاً وهَنَ عظمُها ، واشتعلَ رأسُها شيباً ، واضطر الابنُ إلى تنظيفها يوماً رأيتَ في وجههِ عَلاَماتِ النُّفور ، واستقذرتْ نفسُه تنظيفَها ، فأين عطفه من عطفِها؟!!!

* جاء رجلٌ إلى سيّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقال له: «يا أمير

---

(١) انظر: كتاب أدب الفقهاء لعبد الله كنّون (ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥) طبعة دار الكتاب اللبناني. دون تاريخ.

المؤمنين ، إنَّ لي أمّاً بلغَ مِنْهَا الكِبَرُ أنَّها لا تقضي حاجتها إلاّ وظهري مطيّةٌ لها ، فهل أدّيتُ حقَّها»؟ قال عمر: «لا ، لأنَّها كانت تصنعُ بك ذلك ، وهي تتمنّى بقاءك ، وأنت تصنعُهُ وتتمنّى فراقَها».

* ما أجملَ ما ربّى عليه النّبيّ ﷺ أصحابَهُ ـ نساءً ورجالاً ـ على ذلك ، فهذا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ كان إذا دخلَ أرضاً له بالعقيق نادى بأعلى صوته: «السلام عليك ورحمة الله وبركاتُه يا أمّاه». فتقول: «وعليك السَّلامُ ورحمةُ الله وبركاته» فيقول: «رحمك الله كما ربيتني صغيراً».

فتقول: «يا بني وأنتَ فجزاكَ الله خيراً، ورضيَ عنك كما بررتني كبيراً»[1].

* وهذا حارثةُ بنُ النّعمان الأنصاري بُشِّرَ بالجنَّةِ لبرهِ بأمّه جعدةَ بنتَ عُبيد الأنصاريّة[2] ، فقد كان حارِثَةُ أبرّ الناس بأمّه ، فقد أخرجَ الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ في المسندِ عن أمِّنا أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبيّ ﷺ قال: «دخلتُ الجنَّةَ فسمعتُ قراءةً فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقيل حارثة بن النّعمان؛ فقال النبي ﷺ: كذاكم البِرّ». وكان برّاً بأمّه رضي الله عنه[3].

* وكان سيّدُ التّابعين اليمانيين ذو المناقب الشّهيرة ، والأخبار الغزيرة ، أويسُ بنُ عامر القرنيّ ـ رحمه الله ـ بارّاً بأمّه ، وقد أوصى النّبي ﷺ عمرَ بنَ الخطاب إنْ لقيَهُ أنْ يطلبَ منه الاستغفار؛ ففعل عمر ، والتقى أُويساً ، وطلبَ منه أنْ يستغفرَ له ، فاستغفرَ له ، ولأنَّ أويساً كان له والدة وهو برٌّ بها ، ولو أقسم على الله لأبرّه[4].

* ويذكرُ الأبشيهي في «مستطرفهِ» قصّةً عن برِّ أحدِ النُّسَّاكِ بأمّه فقال: «كان

---

(١) انظر: الأدب المفرد للبخاري (١/ ٦٧). واقرأ سيرة السيدة الجليلة أميمة بنت صُبيح أم سيدنا أبي هريرة في موسوعتنا الشهيرة «نساء من عصر النبوة (ص١٢٣ ـ ١٢٩) طبعة دار ابن كثير الثانية بدمشق عام ٢٠٠٠ م.

(٢) اقرأ سيرة هذه الصحابية الكريمة جعدة بنت عبيد في موسوعتنا الممتعة الخصبة «نساء من عصر النبوة (ص ٤٢٢ ـ ٤٢٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣١٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠).

(٤) للمزيد من أخبار أويس القرني انظر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير (٣/ ١٦٠ ـ ١٧٧).

رجلٌ من النّسّاكِ يقبّلُ كل يومٍ قدمَ أمّه ، فأبطأ يوماً على إخوانه ، فسألوه فَقَالَ: كنتُ أتمرغُ في رياضِ الجنّة ، فقد بلغنا أنَّ الجنَّة تحت أقدامِ الأمّهات»[1].

* إنّ لبرّ الأمّهات شأناً عظيماً ، وإنَّ لدعائهن أثراً واضحاً في حياةِ البنين إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ ، وأودّ أنْ أذكّرَ المربّين هنا بقصة جُريج العابد التي جاءت في الصَّحيحَيْن ، كي يرووها دائماً لأحبابنا الأبناءِ ، لأنَّ بها عظاتٍ وعبراً ، ولأنَّ راويها هو سيّد البشَر حبيبنا ومولانا وسيدنا وشفيعنا مُحَمّدٌ رسول الله ﷺ ، ولأنّها تسهم في تقويمِ النّفوس ، وتهذيبِ الطّباع ، وإثارةِ الفكْرِ والتّفكير فيما يصلحُ للمعَاش والمعاد ، ونحن نقرأ ونعرفُ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أمرَ سيّدَنا رسول الله ﷺ أنْ يقصَّ على النَّاسِ ما يعلمه من القصص ، لعلَّ النَّاسَ يتفكّرون في أحوالِ الغابرين ، فيعتبروا ويستفيدوا ، قال تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

* ومن قصص برّ الأمّهاتِ الشّهيرة قصة جُريج العابد ، الزّاهد ، الذي لم يستجبْ لنداءِ أمّهِ وهو يصلي في صومعتهِ ، فدعَت عليه ألا يموتَ حتى يبتليه اللهُ ببلاءٍ صعب؛ وكان ذلك ، ـ كما سنقرأ ـ فقد تكون أحياناً في ضيقٍ أو شدّة ، أو عسر ، وقد تنادي ابنها أو تسغيثُ به ، فلا يُجِيْبُها ، وإن كان يصلّي النّافلة ، وعندها يُعتبرُ الولدُ عاقّاً.

* إنَّ بعضَ الناشئة والأبناءِ قد تناديهم أمّهاتهم ، فيسمعون صوتَها ، ولكنّهم لا يجيبون ، كأنَّ في آذانهم وقْراً ، أو يعرضون إعراضَ المستهزىء.. بيد أنَّ جريجاً لم يكنْ من هؤلاء ، وإنّما كان مشغولاً بعبادته عندما نادته أمّه ، ترى كيف كانت قصّة جُريج ، وكيف رواها النّبيّ ﷺ لأصحابه... هذا ما ستفصح عنه السُّطور التّاليات..

* أخرجَ الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحه ، في كتاب البرّ والصِّلة والآداب ، باب تقديم برّ الوالدين على التّطوّع بالصَّلاة وغيرها ، قال: حدثنا شَيبانُ بن فرُّوخ ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، حدثنا حُميدُ بن هلالٍ عن

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (٢/ ٩) طبعة مصر.

أبي رافع ، عن أبي هُريرةَ؛ أنَّه قال: «كان جريجُ يتعبّدُ في صومعةٍ ، فجاءت أمُّه.

قال حُميد: فَوَصَفَ لنا أبو رافعٍ صِفَةَ أبي هُريرةَ لصفةِ رسول الله ﷺ أمّه حين دعته؛ كيف جعلَتْ كفّها فوقَ حاجبها ، ثمّ رفعَتْ رأسَها إليه تدعوه ، فقالت: يا جُريج! أنا أمُّك كلِمني ، فصادفَتْه يصلّي.

فقال: اللهمّ أُمّي وصلاتي؛ فاختارَ صلاتَه. فرجعتْ ثم عادتْ ثمّ الثّانية ، فقالت: يا جُريج ، أنا أمُّكَ ، فكَلِمْنِي.

قال اللهمّ أمّي وصلاتي؛ فاختار صلاتَه.

فقالت: اللهمّ إنَّ هذا جريج ، وهو ابني ، وإنّي كلمتُه فأبى أن يُكَلِّمَنِي؛ اللهم فلا تمتْهُ حتّى تريه المُومساتِ.

قال: ولو دعت عليه أنْ يُفْتَنَ لَفُتِن.

قال: وكان راعي ضأنٍ يأوي إلى ديره؛ قال: فخرجتِ امرأةٌ من القريةِ ، فوقعَ عليها الراعي ، فحملَتْ فولدَتْ غلاماً ، فقيل لها: ما هذا؟

قالت: مِنْ صاحبُ هذا الدَّير.

قال: فجاؤوا بفؤوسهم ومساحيهم، فنادوهُ فصادفوه يصلّي، فلمْ يكلّمْهم.

قال: فأخذوا يهدمون ديرَهُ، فلمّا رأى ذلك نزلَ إليهم؛ فقالوا له: سَلْ هذه.

قال: فتبسَّم ثمّ مسحَ رأسَ الصَّبي ، فقال: مَنْ أبوكَ؟

قال: أبي راعي الضَّأْن.

فلمّا سمعُوا ذلك منه قالوا: نَبْنِي ما هدمنا من ديرِك بالذَّهبِ والفضَّة.

قال: لا ، ولكنْ أعيدوه تُراباً كما كان ، ثمّ علاه»[1].

---

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في صحيحه برقم (٢٥٥٠) ، كما أخرجه البخاري في مواضع من صحيحة برقم (٣٤٣٦) و(٣٤٦٦) و(١٢٠٦).
ومعنى «الصَّومعة»: بناء مرتفعٌ محددٌ أعلاه ، ووزنُها فوعلة ، من صمعت ، إذا دققت لأنّها دقيقةُ الرّأس.
=

* يتبيَّنُ لنا من هذا الحديثِ النَّبوي الشَّريف أنَّ جُريْجَاً كان أحدَ العُبَّاد الصُّلحاء ، وقد اتَّخذ صومعةً له يعبدُ الله عزَّ وجلَّ فيها ، وكان له أمٌّ صالحة ، تزورهُ في بعضِ الأحايين والأوقات ، وتحادثُه وتطلبُ منه بعضَ ما تحتاجُ من أمورِها.

* وصادف أنْ جاءته يوماً على استعجالٍ من أمرِها ، فنادته وكان قائماً يصلّي ويتعبّدُ ، فلم يجبْ نداءَ أمّه ، وآثر أن يستمرَّ في صلاته ، وقد مثَّلَ لنا سيّدنا رسول الله ﷺ هيأة أمّ جريج عندما نادت ابنها ، كيف وضعت كفَّها فوقَ حاجبيها وهي ترفعُ رأسها حين مناداتها جُريجاً ، والنَّاس يفعلون ما فعلته أمُّ جُريج عندما يكون الذي ينادونه في مكانٍ مرتفع ، وهم يريدون تدقيقَ النَّظرِ حتى يروا مَنْ يناديهم وهو يطلُّ عليهم ، ولعلَّ أشعّة الشَّمْس كانت تقعُ على عيني أمّ جريج وقتَ مناداتها ابنها ، فكانت تضعُ كفَّها فوقَ عينيها ، لِتحجبَ أشعةَ الشّمس عن عينيها ، ومن ثم ترى ابنها بوضوح.

* قالت العلماءُ: «كان الصَّوابُ في حقِّ جريج إجابةَ أمّه ، لأنّه كان في صلاة نَفْل ، والاستمرار فيها تطوعٌ لا واجب ، وإجابةُ الأم وبرها واجبٌ ، وعقوقُها حرامٌ ، وكان يمكنه أنْ يخفف الصَّلاة ويجيبها ثم يعود لصلاته . . ».

* ولعل جُريجاً كان موصولَ القلبِ في عبادته مع خالقهِ ، أو لعلّه كان يَجِدُ

= و«أمّي وصَلاتي»: أي هل أجيبُ أمّي ، أو أستمر في صلاتي؟! ولعلّه خشي أنْ تدعوه إلى مفارقةِ صومعته والعودِ إلى الدنيا ، ومتعلقاتِها وحظوظها ، وتضعفَ عزمه فيما نواه ، وعاهد عليه.

و«المومسات»: هنّ الزّواني البغايا المتجاهرات بذلك ، والواحد مومسة ، وتجمع على مياميس.

و«ديره»: الدّير كنيسة منقطعة عن العمارة ، تنقطعُ فيها رهبان النّصارى لعبادتهم ، وهو بمعنى الصّومعة. وهي نحو المنارة ، ينقطعون فيها عن الوصول إليهم والدخول إليهم.

و«فجاؤوا بفؤوسهم ومساحيهم»: وهو مهموز ممدود ، جمع فأس بالهمزة ، وهي هذه المعروفة كرأس ورؤوس. و«المساحي»: جمع مسحاة: وهي كالمجرفة ، وتصنع من حديد ، ويستخدمها الزارعون في أعمالهم الزراعية.

في الصَّلاةِ حلاوةً وطلاوةً لروحهِ وقلبهِ تغريه بعدم ترك الصَّلاة ، ولو استجابة لنداءِ أمّه.

* وقد عادت أُمُّهُ في اليومِ الثاني ، فنادته فلم يجبْ ثمّ في اليوم الثالث ، فكان السّكوتُ شعارَهُ ، والهدوءُ دثارَهُ ، إذ كان في صلاة ، فغضبتْ ، فدعَتْ عليه ، فاستجاب اللهُ عزَّ وجلَّ دعاءها فيه ، وابتلي ثمّ نجا.

* فقد جاءه أهلُ القرية ، وقلوبهم كالمراجلِ تكاد تميَّزُ من الغيظِ والغضبِ ، ونادوه فلم يسمعْ نداءهم لأنَّه كان ماضٍ في صلاته ، متَّصِلٌ في عبادته ، لا يشعرُ بما حوله ، ولما أيسوا من إجابته راحو يهدمون صومعتَه بفؤوسهم ومساحيهم ، فلما رأى فعلتهم نزلَ إليهم ، وراحوا يصيحون به ، فسألَهم عن السَّبب ، فأشاروا إليه أن اسألْ هذه المرأةَ التي زعمَتْ ما زعمت.

* وتبسَّم جريجٌ ، فقد كان ساكنَ النَّفس ، مستقيماً ورعاً ، عفيفاً ، وأنَّ دعوى هذه المرأة الفاجرة محضُ افتراء ، ثم جاء الغلام ، ومسحَ رأْسَه خاطبه ـ والنّاسُ ينظرون صَامِتِيْنَ وينتظرون الحقيقةَ مرهفين ـ: من أبوك؟

* وكانت آيةٌ من آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الدّالة على عظيمِ قدرتهِ سبحانه ، حيث نطقَ الغلامُ بصوتٍ مسموعٍ واضحٍ مفهوم وقال: إنَّ أبي فلانٌ راعي الضّأن.

* وهناك أدركَ الناسُ سوءَ ما ارتكبوه في حقّ العبدِ العابدِ والرّجلِ الصَّالح جريج ، وعلموا سوءَ ظنّهم الذي أرداهم أو يكادُ يُرديهم في قَتْل هذا العبد الصَّادق. فأحبُّوا أنْ يعيدوا له ما أفسدوا من صومعته ويجعلُوا مكانه الذَّهب والفّضة ، بيد أنّه أصرّ على إعادتها من الطّين كما كانت ، ففعلوا وعاد جُريج إلى صومعته يعبدُ الله ويرجوه.

* وهكذا رأينا كيف استجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ في جريج دعاءَ أمّهِ ، فحَقَ ما طلبَتْه ، غير أنَّ الله سبحانه نجّاهُ وخلّصَه لِصَلاحه وتَقْواه وصدقه.

* وعلى المربّين أن يوضّحوا العِبرةَ المستفادةَ من قصَّةِ هذا العابد ، ويعلّموها الأبناءَ ليعرفوا ويتذوقوا حلاوةَ برِّ الأمّهات وهم صغار قبل أنْ يشتدَّ عودهم.

* ونستطيع بدورنا أن نسجِّلَ بعضَ الفوائدِ المهمةِ حتىٰ يتعلَّمها الأبناءُ ، ولا ينساها الكبار .

* فمن عبرِ هذه القصَّةِ وفوائدها :

* عدم برِّ الوالدين وخاصّةً الأمّ قد يكونُ سبباً لمصائبَ تحلُّ بالإنسان ، كما وقعَ لجريج العبد الصَّالح .

* اللهُ عزَّ وجلَّ ينجّي العبدَ بصلاحهِ وصدقهِ ، كما نجّى جُريجاً وبرّأَهُ من التُّهَمَةِ التي كادت تودي به وترديه .

* الله عزَّ وجلَّ قادرٌ على كلّ شيءٍ ، فقد أنطقَ هذا الغلام الصَّغير ، فبرّأَ جريجاً المُفترى عليه .

* على الابنِ الصالحِ أنْ يتركَ صلاةَ النَّافلةِ إذا ما دعاه أحدُ والديه لغَرضٍ مشروعٍ مسموحٍ به .

* الابتلاءُ ذو عاقبةٍ خيّرة ، وخاصة إذا صبرَ العبدُ واتّقى ، فقد صار جريجٌ أفضلَ عند الله وعند الناس بُعيد الابتلاء .

* في هذه القصة إثبات كراماتِ الأولياء والصُّلحاء .

* يحسنُ التّحقّقُ والترّيثُ في الأمورِ قبل وقوع النّدم ، ولا يجوز تصديق التُّهمة من غير دليل ولا برهان . .

* برُّ الأبوين سببٌ في كشفِ الغمّة ، وخاصة برّ الأم الصّالحة .

* ولا يقلُّ برّ الأبِ منزلةً عن برِّ الأمّ ، وخصوصاً إذا كان الأبُ عالماً صالحاً ، أسَّسَ أبناءه على العِلْمِ والتّقوى . ونحن نعلم أنَّ آياتٍ في القرآن العظيم تحضُّ على برّ الأبوين معاً ، وآيات أُخر تفردُ كلَّ واحد منهما بالبرّ والطاعة وكذلك في الأحاديثِ النبويةِ الشريفة نجدُ الاهتمام بالأبوين ، فمرة نجدُ برّ الأب ، ومرةً برّ الأمّ ، وكذلك في وصايا الصَّحابةِ رضوان الله عليهم .

* ومن صور برّ الأبِ الجميلة التي تربّي في النُّفوس الوفاءَ والحبَّ للأب ، قصّة نبي الله إسماعيل عليه السَّلام ، وهي من مشاهيرِ قَصَص القرآن العظيم في

البِرّ الحقيقي ، برّ الابنِ بالأب ، ومَنْ الابن؟ إنّه مِنَ الصَّالحين؛ ومَنِ الأب؟ إنّه إبراهيم خليلُ الله الذي دعا ربّه أن يهبَ له ولداً صالحاً يأنسُ به ، ويكونَ هذا الغلام حليماً. . . . وتعالوا نتلو هذه الأياتِ التي أوجزتْ قصّة هذَيْن النَّبيين الكريمَين؛ قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠٧].

* هذه قصّةُ الابن إسماعيل ذي الوعد الصَّادق لأبيه ، وكان عمرهُ في تلك الحادثة قرابة ثلاث عشرة سنة ، وهي سِنٌّ خَطرةٌ عند الأولاد ، إذ تغلِبُ على حياةِ معظمهم حياةَ اللهو والتّمّرد أحياناً. . . ولكنَّ إسماعيل ـ عليه السلام ـ كان عاقلاً حليماً حكيماً ، لم يفْتِنْهُ الشَّيطانُ ، ولم يزحزحْهُ عنِ امتثالِ أمرِ ربّه عزَّ وجلَّ حينما أخبره أبوه بالرّؤيا، فاستسلمَ إسماعيل لأمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأمرِ أبيه الذي امتثل لأمْرِ الله أيضاً. ولما أسلما إلى الله أمرهما ، وتلاشيا في حُبّ الله، وطابت نفسهما بِحُكمِهِ، ورضيتْ بقضائه ، جاء الفرجُ ، وفداه اللهُ بذبحٍ عظيم. وظلّ نبيُّ الله إسماعيل مثلاً كريماً في حُسنِ البِرّ بوالده ، والصَّبرِ على طاعةِ اللهِ ، وطاعةِ والده ، فما أجملَ برّ الأب! وما أحلاه وأعذبه في النّفوس والقلوب التي تعرفُ وتدركُ بالبر حُسنَ العاقبة! وتعالوا نقرأ هذه النّفحة وهذه الهمزية التي تحكي بِرَّ إسماعيل بأبيه ـ عليهما السلام ـ:

حَيِّ إسماعيلَ عُنوانَ الوفَاءْ	أيّها الشِّعْرُ وصُغْ فيهِ الثَّناء
وَارْوِ للأيّامِ مِنْ تَاريخِهِ	عِبَراً كُبرى وأمثالاً وِضَاءْ
يومَ أنْ وافى أبَاهُ هاتِفٌ	بلسانِ الوحيِّ في حُلْمِ المسَاءْ
يا خَليلَ اللهِ ما مِنْ حيلةٍ	غَيْرَ أنْ تهديْ لنَا خيرَ الدِّماء
يا خليلَ اللهِ هذا أمْرُنا	ليسَ يجدي الآنَ عذْرٌ أو رجَاءْ
قامَ إبراهيمُ مرتاعاً يرى	إنَّ حُسْنَ الكونِ في عينَيهِ سَاءْ
لم يكنْ في الأرضِ ما يحلو له	غيرُ إسماعيلَ مُخْتَارَ القضَاءْ

إنَّــه فــي الليــلِ بــدرٌ نَيِّــرٌ ... يلهــمُ السُّمَّــارَ أضــواءَ الصَّفَــاءْ
إنَّـه فـي الصُّبـحِ طَلْـقٌ بـاسِـمٌ ... مثـلُ طيـرٍ شَـاقَـهُ زَهْـرٌ ومَـاءْ
إنَّــه دُنيــاهُ لا دُنيــا لــه ... مثْلَهـا يلقـىٰ بهـا مـا قَـدْ يشَـاءْ
قـالَ إبـراهيـمُ يـا ربَّ الـوَرَىٰ ... يـا رحيمـاً فـوقَ كُـلِّ الـرُّحمـاء
إنَّ إسمـاعيـلَ لا يقْـوىٰ علـى ... أنْ يُـلاقـي مـا يَهـدُّ الأقـويـاءْ
غيـرَ أنَّ الطِّفْـلَ لمـا أن وعـىٰ ... مـا يَـرومُ الـوحـيُ أذكـاهُ انتِشَـاء
قـالَ فَلتَفْعَـلْ أبـي مـا ينْبَغـي ... سـوفَ تلقـانـي صبـوراً لِلبَـلاءْ
إنَّ روحــي بــل وجُــودي كلّــهُ ... لَقَليــلٌ فــي مُــراضـاةِ السَّمـاءْ
ورأىٰ الـرحمـنُ تصـديـقَ الـرُّؤىٰ ... فــي وفــاءٍ لا يُــدانيــهِ وفَــاءْ
فـافتـدى بـالـذِّبـح نَفْسَـاً خَلَّـدتْ ... فـي سجـلِّ الـدَّهـر آيـاتِ الفـداء[1]

* لقد كان إسماعيلُ ـ عليه السلام ـ إبّان نشأته قدوةً للبررةِ بآبائهم، وسيظلُّ الصَّورةَ الوضيئةَ والنّبراسَ الواضح لكلّ مَنْ يريدُ أن يترسَّمَ خُطاه وخطواتِهِ المباركةَ في برِّ الآباء، وفي حسنِ الطَّاعةِ والامتثالِ لهم.

* ومن المُثير والمُعجِب أنْ نجدَ في تاريخنا الوضيءِ أبناءً بررةً ساروا علىٰ نهج البرِّ فربحوا وكتبوا في سجلّ السُّعداء. فقد ذكر ابنُ قتيبةَ ـ رحمه الله ـ شيئاً من برِّ الأبناءِ بالآباءِ، ومن ذلك ما أورده في «عيون الأخبار» قال: «قيل لعمرَ بن ذرّ: كيف كان برّ ابنك بك؟ قال: ما مشيتُ نهاراً قطّ إلا مشى خَلْفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقى سَطْحاً وأنا تحته»[2].

* وقال أبو عبيدة معمر بن المثنّى: «كان لأعشى سُليم[3] ابنٌ بارٌ به، فغاب في بعضِ حوائجهِ، فأنشأ الأعشى يقول:

نَفْسِــي فِــداؤُكَ مِــنْ غــائــبٍ ... إذا مَــا البُيــوتُ لبسْــنَ الجَليــدا

---

(١) انظر: مجلة القافلة (ص ٤٤) عدد ذي الحجة ١٤٠٣ هـ، والشعر من نظم يوسف زاهر.
(٢) انظر: عيون الأخبار (٣/ ٩٧).
(٣) أعشى بني سليم، كان معاصراً لبشار بن برد، واسمه سليمان، وكنيته أبو عمرو، له أخبار وأشعار في «الأغاني» في مواضع متفرقة.

كفيتَ الذي كنتَ تُرجى له ... فصرتَ أباً لي وصرتُ الوليدا[1]

* وقال رجلٌ يَشْكُرُ برَّ ابنهِ به ، ويشيرُ إلى أنَّه من البررةِ الذين يغلبون الهموم برحابةِ صدورهم:

جَزَى ابني الله خيرَ جزاء برّ ... فقد فَرَغَ الهمومَ بِرُحْبِ صَدْرِ
كفَى ما كنتُ آمُلُه صغيراً ... له من نائبٍ وملمٍّ دهرِ[2]

* وكان الضِّبَابُ بن سدوس الطُّهَويّ قد أسنَّ وبلغَ من الكبرِ عتياً ، فَبَرَّه بنوه ، وأحسنوا إليهِ ، فقال:

لَعمري لقد برَّ الضَّبابُ بنُوهُ ... وبعضُ البنين حُمَّة وسُعَالُ

* إنَّ حقَّ الأبِ عظيمٌ، ولا يفيه ابنٌ مهما بذل في سبيلِ ذلك، وعلى المربّين الأفاضل والدُّعاة الأماثل ، أنْ يرشدوا الأبناءَ إلى برِّ الآباءِ ، حتى يكونوا من السُّعداء ، وأن يذكروا لهم ويذكّروهم بقصصِ البررةِ وأحوالهم ومآلهم ، لعلَّهم يهتدوا بهداهم ، ويسيروا على طريقهم فيرشدوا ، ويكونوا من الأخيار.

* إنَّ مهمةَ المربّين عظيمةٌ ، فعليهم أنْ يغرسوا بنفوسِ الأبناءِ حبَّ طاعةِ الوالدَيْن ، وأنّ لهما حقوقاً ينبغي أنْ يؤدوها ليَسْعدوا في الدّنيا والآخرة ، والمربّون النّاجحون هم الذين يقومونَ بأداءِ هذه المهمّة ، وتنميتها في نفوس النّاشئةِ، فالأبُ والأمُّ صنوانٌ في الاحترام، وبرّهما واجبٌ ، وقد تسابق الأدباء فنظمُوا ما يَسرُّ الخواطر في هذا المضْمَار، ومنهم الأديبُ الفاضل علي فكري[3]

---

(١) انظر: نوادر المخطوطات (٢/ ٣٩٦) كتاب: العفقة والبررة.

(٢) المصدر السابق عينه.

(٣) علي فكْري ابن الدكتور محمد عبد الله يتّصل نسبهُ بالحُسين بن علي رضي الله عنهما ، وُلِدَ علي فكري في مصر عام (١٨٧٩ م) ، وهو أحدُ الفُضلاء ، كان فاضلاً كثيرَ المصّنفات ، عملَ في التّدريس ثمّ كان أحدَ الكتاب بوزارةِ المعارف ، وصنّف عدداً من الكتبِ منها: آدابُ الفتى ، وآداب الفتاة ، وعظة النّساء ، ومُسَامرات البنات ، والتّربية الاجتماعية ، وسبيل النّجاح ، وتربية البنين ، السّمير المهذب ، وغير ذلك. وله منظومات كثيرة في الأخلاقِ والتربية وهي تخصّ الأطفال ، وقد أبدعَ فيها وحفظها كثيرٌ من النّاشئة. توفي علي فكري في القاهرة عام (١٩٥٣ م) وعمره (٧٤ سنة).

الذي نظم أنشودةً رائيةً جميلةً بعنوان «طاعة الله والوالدين» أحسَنَ في عرضِها وأسلوبِها فقال:

أَطِــعِ الإلـــهَ كَمَــا أَمَــرْ ... وَامْــلأْ فُــؤَادَكَ بِــالحَــذَرْ
الــدِّيــنُ حَــقٌّ وَاجِــبٌ ... نُــورُ البَصِيــرةِ والبَصَــرْ
حَــافِــظْ عَلَيْــهِ فَــإِنَّــهُ ... نِعْــمَ السَّعَــادَةُ تُــدَّخَــرْ
وَأَطِــعْ أَبَــاكَ فَــإِنَّــهُ ... رَبَّــاكَ مِــنْ عَهْــدِ الصِّغَــرْ
وَاخْضَــعْ لأُمِّــكَ أَرْضِهَــا ... فَعُقُــوقُهَــا إِحْــدَىٰ الكُبَــرْ
حَمَلَتْــكَ تِسْعَــةَ أَشْهُــرٍ ... بَيْــنَ التَّــأَلُّــمِ وَالضَّجَــرْ
فَــإذا مَــرِضْــتَ فَــإِنَّهــا ... تَبْكِــي بِــدَمْــعٍ كَــالْمَطَــرْ
فَــأَطِعْهُمَــا وقِّــرْهُمــا ... كَيْــلاَ تُعَــذبَ فِــي سَقَــرْ

* ولبرِّ الوالدَيْن مساحةٌ جميلةٌ في وجدانِ الشَّاعرِ الدكتور محمد منير الذي نظَم هذه الأهزوجةِ المُطربة، والتي تصلُح أنْ يحفظَها الأبناء، وأنْ يردّدها المربّون والآباءُ أمامَهم، لَمَا تحملُه من معانٍ كريمةٍ، وتوجيهٍ لطيف يحثُّ الأبناء على برِّ الوالدَيْن وإطاعتهما، فمع «برِّ الوالدَيْن» وهذه الهمسَة العَذْبة:

تَسْــأَلُنِــي عَــنْ أُمِّــي وَأَبِــي ... فَــأَقُــولُ هُمَــا مَــنْ رَبَّــانِــي
مَــنْ عَلَّمَنِــي مَــنْ غَــذَّانِــي ... مَــنْ جَــاءَ بِعَطْــفٍ وَكَسَــانِــي
أُمِّــي وَأَبِــي لَكُمَــا عِنْــدِي ... فَيْــضٌ مِــنْ حُــبٍّ بِجَنَــانِــي
أَنْتُــم يَــا أَهْــلَ الإحسَــانِ ... يَــا أَهْــلَ البِــرِّ وإِيمَــان
حُبِّــي لَكُمَــا بــاقٍ أَبَــداً ... فــي طُــوْلِ الــدَّهْــرِ وَأَزْمَــانِ
عَلَّمَنِــي رَبِّــي حُبَّكُمَــا ... لأَفُــوْزَ بِجَنَّــةِ رِضْــوَانِ
وَأَقُــولُ السَّمْــعَ إِذَا نَــادَى ... أَحَــدُكُمَــا لــي بَعْــدَ الثَّــانــي
إنِّــي مُصْــغٍ لَكُمَــا قَــوْلاً ... وَأُلَبِّــي أَمْــراً بِتَــوَانِــي
أنتــم يــا أهــل الإحســان ... يــا أهــل البــر وإيمــان
حبــي لكمــا بــاق أبــداً ... فــي طــول الــدهــر وأزمــان

والله نَهَـانَـا عَـنْ أُفٍّ لَهُمَـا فَـالـزَمْ أَمْـرَ اللهِ
وإِذَا أَغْنَـاكَ اللهُ فَـزِدْ وَصْـلاً مِـنْ مَـالٍ وَرَفَـاهِ
لا تَمْنَـعْ أَبَـدَاً بِـرَّهُمَـا لَـنْ تَشْكُـوَ أَبَـداً مـنْ آهِ
أنتـم يـا أهـلَ الإحسـان يـا أهـل البـر وإيمـان
حبـي لكمـا بـاق أبـداً فـي طـول الـدهـر وأزمـان
فَـالبـر طَـريْـقٌ لجِنَـانٍ هَـذَا مِـنْ بَعْـدِ الإِيْمـانِ
فَـالجَنَّـةُ لَـنْ تَفْتَـحَ بـابـا لِعُقُـوْقِ الـوَلَـدِ وَعِصْيَـانِ
بـالبِّـرِ تُبَـارَكُ أَعْمَـارٌ وَبِـذَلِـكَ ربّـي أَوْصَـانِـي
أنتـم يـا أهـل الإحسـان يـا أهـل البـر وإيمـان
حبـي لكمـا بـاق أبـداً فـي طـول الـدهـر وأزمـان
أُمِّـي يَـا مَـنْ قَـدْ حَمَلَتْنِـي لِشُهُـورٍ فَـرْحَـى بِـرِضَـاءِ
غَـذَّتْنِـي مِـنْ صَـدْرٍ حَـانٍ سَهِـرَتْ وَأَنَـا فِـي إِغْفَـاءِ
وَأَبِـي رَبّـانـي عَلَّمَنِـي وَرَعَـانـي حُبّـاً لِهَنَـائـي
أنتـم يـا أهـل الإحسـان يـا أهـل البـرِّ وإيمـان
حبـي لكمـا بـاق أبـدا فـي طـول الـدهـر وأزمـان

* * *

الفصل الثاني
الأبناء وعقوق الوالدين

* إذا كان البِرُّ يولّدُ البِرَّ ، فلا شكَّ أنَّ العقوقَ يولّدُ العقوقَ ، ومن العجيبِ أنَّ العاقَ يرى نتيجةَ عقوقهِ في حياته وقبل الممات.

* ومن المؤكّد أنَّ ساداتِ الأكابرِ من العُلَماء والزّهّاد وأهل الحلّ والعقد ، وأهل الصيانة ، قد أوصوا بعدم مصاحبةِ العقَقَةِ ، لأنَّ في صحبتهم الخسران والخسارة. قال عمر بنُ عبد العزيز لابن مهران: «لا تصحبنَّ عاقاً فإنَّه لن يقيلك وقد عقَّ والديه»[1].

* إنَّ أكبرَ الكبائر بعد الإشراكِ بالله عزّ وجلّ هو عقوقُ الأبوين ، كما ذكر ذلك النّبيّ ﷺ ، فلا ينفعُ عملٌ لعاقٍ مع عقوقهِ ، إذ العقوقُ من الكبائر ، وكم من ابن أبكى والديه! ونسيَ أو تناسى أنّهما سَهِرا الليالي ذوات العدد حتى يكون ضاحكاً مسروراً.

عن طيسلةَ أنَّه سمعَ ابنَ عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: «بكاءُ الوالدين منَ العقوقِ والكبائر»[2].

فيا مَنْ أبكى أبويه وأحزنهما ، وأسهرَ ليلهما ، وحمّلهما أعباءَ الهموم ، وجرعهما غُصصَ الفِراقِ ، ووحشةَ البعادِ ، هلاّ أحسنتَ إليهما ، وأجملْتَ في معاملتهما.

---

(١) المستطرف (٢/ ٩).

(٢) انظر: الأدب المفرد (١/ ١٠٣).

* عندما كنتَ صغيراً كانا يبكيان عليك إشفاقاً وحذراً ، ولما غدوتَ كبيراً صارا يبكيان منك خوفاً وفَرَقاً ، فهما أليفا حزن ، وحليفا همٍّ وغمٍّ.

* ولطالما بكيا وحزنَا إنْ تأخرتَ عنهما ، فكيفَ إذا تركتهما وهما في أشدّ الحاجةِ إليك؛ فما حالهما؟!.

يتباكيانِ ويشكوان جواهُما ... بمدامعٍ تنهلُّ من بُرَحائِهِ
يتجاوبان إذا الرّياحُ تناوحَتْ ... علّ الرياح هَبَبْنَ مِنْ تلقائِهِ

* إنَّ الابنَ الذي يتركُ أبويه وهما يتجرّعان الألَمَ لعقوقهِ أو استهتاره هو ابنُ سيندمُ لا محالة في وقت لا ينفعُه النّدم ، لأنّه جرع أبويه غصصَ الإهمالِ واللامبالاة ، فترى الأبَ باكياً ، والأمَّ حيرى لا تعقلُ ما حولها ، فإذا استطاع الولد أنْ يعودَ إلى جادةِ الحقِّ كان فرحُ أبويه عظيماً ، وما أجملَ أنْ يُدخِلَ الابنُ السَّرور إلى قلبِ والديه! وما أجمل أنْ نقرأ هذه الأبياتَ ونعلّمها الأبناء:

لو كان يدري الابنُ أيةَ غُصّة ... قد جرّعَتْ أبويهِ بعد فراقهِ
أمٌّ تهيمُ بوجدةٍ حيرانَةً ... وأبٌ يسحُّ الدمع من آماقه
يتجرّعانِ لِبيْنِه غُصَصَ الرّدى ... ويبوحُ ما كتماهُ من أشواقهِ
لَرنَا لأمّ سُلَّ منْ أحشائِها ... وبكى لشيخٍ هامَ في آفاقهِ
ولبدّلَ الخُلُقَ الأبيَّ بعطفِهِ ... وجزاهما بالعَذْبِ من أخلاقِهِ

* إنَّ الأبوين بحاجةٍ إلى اللينِ من الابنِ ، خصوصاً إذا بلغا من الكبرِ عتياً ، قال عروةُ بنُ الزّبير رحمه الله : «لِنْ لهما حتّى لا تمنعَ من شيء أحبّاه». فالأبوانِ قدّما كلّ ما يملكان من أجلِ الابن ليفرحَ ويضحكَ ويُسرّ ، فإذا بلغَ أشده نسيَ فضلهما وعصاهما ، ومن ثم عملَ على إزعاجهما.

* فالأبوان لا يبكيان من ابنهما إلاّ إذا لقيا منه ما لا يُحْتَمَلُ ، أو قاسا من سوءِ صلفهِ ومعاملتهِ ما لا يُعقَلُ ، وما لا يُتوقَّع ، وكمْ من ابنٍ أبكى أبويه يوماً ، فأبكاهُ بنوهُ دهراً. وكلُّ واحدٍ منّا إذا نظرَ إلى ما حوله لرأى مِصْداق ما قُلناه ، فليعتبرْ مَنْ أرادَ الاعتبار.

* وقد حفظتْ لنا ذاكرةُ التّاريخ الواعية أخبارَ بعضِ العَقَقَةِ الذي عقُّوا

أبويهم ، فماتُوا ولكنَّ قصصَ عقوقهم ما زالت تقرعُ الأسماعَ ، كلّما قلّبْنا أوراقَ تاريخِ العققةِ وأنباءَ البررةِ ، فكلٌّ واحدٍ من الفريقَيْن يُذكرُ بفعله.

* فمن العققَةِ الذي أجرموا بحقِّ آبائِهم عيسى بن يحيى بن سعيد أبي عمران الأعمى مولى آل طلحة بن عبيد الله ، فقد كان عيسى هذا يعيبُ شِعْرَ أبيه ، ويُماريهِ في رأيهِ ، ويثبُ على عثراته ، ويعيبُ أباه بسوءِ خُلُقه ، ويصفُه باللؤمِ ، والعبوسِ ، وكانَ ممّا قال فيه من أبيات :

زَوَى وجْهُه أنْ لاكَه فُوهَ حنظلٌ ... قَطُوباً فَمَا تلْقَاهُ إلّا كأنَّما
وجانبكَ البَسَّامةُ المتهللُ ... فحسبُك إنْ صاحبتَ ذا من بليةٍ

ولما سمعَ أبوه يحيى ما يقولُه ابنه ، أنشأَ يعاتبه في قصيدةٍ لاميّةٍ طويلةٍ يلومُه فيها على عقُوقه ، وعلى ما يعيبه عليه ، وعلى حبّه للخلافِ والجدالِ ، ويذكّرهُ بماضيه الطُّفولي ، وكيف رعاه وهو لا يزالُ مولوداً ويافعاً ، وكان إذا اشتكى ليلةً بات كأنَّه هو المريضُ ، ولكنْ عندما بلغَ يحيى أرذلَ العمرِ أخذَ ابنهُ يظهرُ كلَّ غِلْظةٍ وجفاءٍ ، ولمْ يرعَ حقَّ الأبوّةِ. . ترى ماذا في قصّةِ القصيدةِ أيضاً؟ حسناً تعالوا نقتطفُ منها أزاهرَ ووروداً نُذكِّرُ بها الأبناءَ والمربّين لتكونَ عظةً وتذكرةً. . . يقول يحيى بن سعيد يعاتبُ ابنه عيسى عتاباً مريراً يأخذُ بالألبابِ؛ حيث أنشأَ قصيدةً تزيد عن ثلاثين بيتاً منها :

ومنْ خَبَري أنّي مُنيتُ بِصَاحبٍ ... يلُومُ وإنْ لمْ أجْنِ ذنباً ويعذِلُ
إذا قُلتُ قولاً عابَهُ بِجهالةٍ ... وفيما يقولُ العيبُ لو كانَ يعقلُ
تراهُ معدّاً لِلْخلافِ كأنَّه ... بِرَدٍ على أهلِ الصَّواب موكَّلُ
وهيهاتَ منّي تلكَ حينَ يردُّني ... إليها منَ العُمرِ الذي هُوَ أرذَلُ
وإنَّك إذ ترجُو لِحاقي مُوائماً ... برأيكَ رأياً بالمُنى لَمقَلِّلُ
وما كَادني والحمدُ للهِ كائِدٌ ... فيرجعُ إلّا نَابَهُ المُتَفَلِّلُ
وقدْ رامَها منّي سواكَ معاشِرٌ ... بُغَاةٌ فلْم يفلل صَفاتيَ مِعْوَلُ
وكنتُ إذا أبصرتُ للقولِ موضعاً ... يعرِّبه عضبٌ بما شئتُ مِقْوَلُ
وأصمتُ في النَّادي لغيرِ جَهالةٍ ... بما نطقُوا حتّى يُقالَ مغفَّلُ
وما بيَ من عِيٍّ ولا أنْطقُ الخنَا ... إذا جمعَ الأقوامُ لِلْخطبِ محفِلُ

ولكِنّنـي لِلْقَـومِ عنـد اشتِجـارِهـم ... رضىً غيرُ مردودِ الحكُومةِ مِفْصَلُ
فقُلْـتُ لـهُ يـومـاً لأسمـعَ قـولَـهُ ... ويعلَـمَ بـالتَّعليـمِ مـن كـانَ أجهَـلُ
غَـذَوتُـك مَـولُـوداً وعُلْتُـكَ يـافعـاً ... تُعَـلُّ بمـا أجنـي إليـكَ وتَنْهـلُ
إذا لَيلَـةٌ آبَتْـكَ بـالشّكـو لَـمْ أبـتْ ... لِشَكْـوِكَ إلا خـائفـاً أَتَملمـلُ
كَأَنِّي أنا المَطروقُ دونَك بالذي ... طُـرِقْـتَ بـه دُونـي وعَينِـيَ تَهْمِـلُ
تخـافُ الـرَّدى نفسـي عليـكَ وإنَّهـا ... لَتَعْلَـمُ أنَّ المـوتَ وقـتٌ مـؤَجَّـلُ
وأنْ ليسَ عـن وِرْدِ المنايا مؤخّـرٌ ... لِعِـزٍّ ولا عنهـا لِـذلٍّ معجّـلُ
فلَمَّا بلغتَ السِّنّ في الغَايةِ التي ... إليهـا مَـدى مَـا كُنتُ فيـكَ أؤمِّـلُ
جَعلْتَ جَزائي منْكَ جَبْهاً وغلْظَةً ... كـأنَّـكَ أنـتَ المُنْعِـمُ المتطَـوِّلُ
وسمَّيتَنـي بـاسْـمِ المُفنَّـد رأيُـهُ ... ولمْ تَمضِ لي في السِّنِ ستّونَ كُمَّلُ
فلَيْتـكَ إذ لـم تـرعَ حـقَّ أُبـوتـي ... كمـا يفعَـلُ الجَـارُ المُجـاوِرُ تَفْعَـلُ
وإنْ كُنتَ شيئاً فالتمِسْ لكَ والِداً ... أبـاً لـكَ تـدعـوهُ أبـاً حيـن تُسْـأَلُ
فـإنّـي أرى فيمَـنْ رأيـتُ معَـاشِـراً ... بِـآبَـائِهـم آبـاءَ سَـوءٍ تَبـدَّلُ[1]

* ومنَ العقَقَةِ الذين سطَّرتْ أناملُ آبائِهم قسوةَ عقوقهم لَبَطَةُ بن الفرزدق ، الذي كان ألعوبةً في يدِ امرأتهِ ، وكان يسارّها وتسارّه ، ويشاورها ويصدرُ عن رأيها ، وخصوصاً عندما كبرَ أبوهُ وأصبحَ بحاجةٍ إليه ، بيد أنَّ عقوقَ لبطة هذا كان مبكّراً ، وقد أينعَ قبل أوانه ، ولذا فإنَّ الفرزدقَ قال في ابنه لبطةَ[2] هذه الأبياتَ حيث كان ابنُه يطيعُ امرأتهُ ، وكانت تُحرِّضُهُ على أبيه :

أَأَنْ أُرعشَـتْ كفَّـا أبيـكَ وأصبحَـتْ ... يـداكَ يَـديْ ليـثٍ فـإنَّـكَ حَـارِبُـه
إذا غَلَـبَ ابـنٌ بـالشَّبـابِ أبـاً لـه ... كَبيـراً فـإنَّ اللهَ لا بـدَّ غـالِبُـه
رأيـتُ تَبـاشيـرَ العُقـوقِ هـي التي ... مـنِ ابـنِ امـرىءٍ ألّا يـزالَ يُغـالُبـه

---

(١) انظر: نوادر المخطوطات (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٢) بشيء من الاختصار. ومن الجدير أنَّ ثمانيةَ أبيات من هذهِ القصيدة وأولها: غذوتك مولوداً. . . منسوبة إلى أميّة بن أبي الصلت وتُروَىٰ لابن عبد الأعلى ، ، تروى لأبي العبّاس الأعمى. والله أعلم.

(٢) يظهر أنّ الفرزدقَ قد سمى أولاده على سبيل السخرية وهم: لبطة ، وسبطة ، وحبطة ، وكلطة ، وجلطة ، وركضة ، وزمعة ، وغيرهم ، وكان لبطة قد اشتهر بالعقوق ، وفي رأينا أنّ الفرزدق عقّ أبناءه في أسمائهم.

ولمّـا رآنـي قـد كَبِـرتُ وأنّـه أخو الحيِّ واستغنَى عن المَسْحِ شارِبُه
أَصَـاخَ لِعُـريـانِ النَّجـيِّ وإنّـه لأَزْوَرُ عن بعضِ المَقَالَةِ جَانِبُه[1]

* وهذه قصّة أخرى فيها عبرةٌ لكلِّ مَنْ أرادَ أنْ يعتبرَ ، ولكلٍّ من ألقى السَّمعَ وهو شهيد ، وهذه القصةُ ترسمُ صورةً واضحةً لسلْسلَة من العققَةِ ، فالابنُ يعقُّ أباه ، فيعقُّه ابنه ، ثمّ يأتي الحفيدُ فيعقُّ أباهُ ، وهكذا نَجِدُ هذه الأسرةَ العجيبةَ عريقةً في فنّ عقوقِ الآباءِ ، حيث إنَّ كلَّ واحدٍ من الأولاد يعقّ أباه. وفي السُّطور التَّوالي سَنتكشفُ قصَّةَ هذه الأسرةِ العجيبةِ المتفرّدةِ في ميدان العقوقِ ، ومجال نكرانِ التَّربيةِ ، ونسيانِ عَهْد الطُّفولةِ وعطف الآباءِ ورعايتهم للأبناءِ.

* ذكرتِ المصادرُ أنَّ رجُلاً في عهد الخليفةِ عبدِ الملكِ بن مروان كان يقال له: فُرغان أو فَرغان أو فرعان بنُ أصبحَ بن الأعرف؛ وكان له ابنٌ يُدعى مُنَازِل بن فرغان ، وكان منازلُ عاقّاً لأبيه ، أخذَ ماله واعتزلَه ونسيَ الأبوة وحنانَها ، فقال في ذلك فرغان بنُ الأعرف أبياتاً منها:

جَـزَتْ رحِـمٌ بينـي وبيـنَ مُنـازِلٍ جزاءً كما يستنجزُ الدَّيـنَ طالِبُه
ومـا كنتُ أخشى أنْ يكونَ مُنازِلٌ عـدوّي وأدنـى شـانـىءٍ أنـا راهِبُه
حَملتُ على ظَهري وفدَّيتُ صاحِبي صغيراً إلى أنْ أمكَنَ الطَّرَّ شارِبُه
وأطعمتُـه حتّـى إذا آضَ شَيْظَمـاً طُوَالاً يُساوي غاربَ الفحلِ غاربُه
فلمّا رآني أحسبُ الشَّخصَ أشخُصاً بعيـداً وذو الـرّأي البعيـدِ يقـاربُـه
تَظَلَّمَنِـي مَـالـي كـذا ولـوىٰ يـدي لَـوى يـدَهُ الله الـذي لا يُغـالبُـه
وكـانَ لـه عنـدي إذا جَـاعَ أو بكـى مَـنَ الـزَّادِ يـومـاً حُلْـوُهُ وأطـايبُـه
أيظلمُنـي مـالـي ويحنـثُ أَلْـوتـي فَسَـوْفَ يُـلاقـي ربَّـه فُيَحـاسِبُـه
وإنّـي لـداعٍ دعـوةَ لـو دعـوتُهـا على جَبَـلِ الـرَّيـانِ لانقضَّ جَـانِبُـه

* وقصَفَتِ الأبياتُ هذه سَمْعَ منَازِلَ ، فانتفضَ كما ينتفضُ العصفورُ بلَّلَهُ القَطْرُ ، فقال يردُّ على أبيه ، ويزعمُ بأنَّ ما يفعلُه ليسَ عُقُوقاً:

(١) انظر نوادر المخطوطات (٢/ ٣٨٣) ، وانظر: ديوان الفرزدق (١/ ١٧٥) طبعة دار الكتاب اللبناني الأولى ببيروت عام ١٩٨٣ م ، مع خلاف يسير في بعض الألفاظ.

وكُنْـتَ كَمـنْ وَلَّـوهُ أمْـرَ كتيبـةٍ   فَفَـرَّ بهـا فَـارفَـضَّ عنـهُ كتَـائِبُـه
ومَـا ذَاكَ مِـنْ جَـرًّا عقـوقٍ تعـدُّهُ   ولا خُلُـقٍ منّـي بـدا أنـتَ عـائِبُـه

* فقال فرغان لمَّا سمعَ قولَ ابنهِ:

وَوَجْـهِ حَـرامٍ قَـدْ لَطَمْـت ولِحْيـةٍ   نَتَفْـتَ بيـاضَ مشيبِهـا بشِمـالِكـا

* وبلغت أنباءُ هذه المحاوراتِ أميراً كان عليهم، وعلمَ شدَّةَ عقوقِ الفتى مُنَازِل، فبعثَ جماعةً من رجالهِ ليأخذوا الفتى؛ فبلغَ أباهُ خبرَ ذلك، فلم تسمحْ نفسُهُ بابنِهِ على الرّغمِ من عقوقهِ وفظاظَتِه، فقال لابنه: أُخْرُجْ من خلفِ البيتِ، وانجُ بنفسِكَ، قبل أنْ يصِلَ إليكَ رسلُ الأميرِ فيوثقوكَ؛ فسبقَ الفتى رسلَ الأمير ونجا بنفسه.

* ودارتِ الأيّامُ، ومرتِ السُّنونُ والأعوامُ، فسلَّطَ اللهُ عزَّ وجلَّ على منازل بن فرغانَ ابنه خليج بن منازل، فعقَّه كما عقَّ هو أباه من قبل، وفزِعَ منازلُ إلى الشّعر ينفثُه لعلَّه يخفّفُ عنه حرَّ قلبه من عقوقِ ابنه خليج، وأنشأَ يقولُ لابنه:

تَظَلَّمَنـي مَـالـي خَليـجٌ وعقَّنـي   على حيـنَ كـان كـالحَنِـيِّ عظَـامي
تخيّـرتُـه وازددتُـه لِيـزيـدَنـي   ومـا بعـضُ مـا يـزدادُ غيـرَ عُـرامِ
لَعمـري لقـد ربيتُـه فَـرِحـاً بـه   فـلا يفـرحَـنْ بعـدي أبٌ بِغُـلامِ

* وقبضَ الوالي على خليج بن منازل، وأرادَ أنْ يوجعَهُ ضرباً، فقالَ الابنُ للوالي: يا هذا لا تعجلْ عليَّ، وأنظرني قليلاً، فهذا أبي هو منازلُ بن فرغان الذي كان يقولُ فيه أبوه:

جـزَتْ رحـمٌ بينـي وبيـنَ منـازل   جَـزَاءً كَمـا يَسْتَنجزُ الـدَّيـن طـالبُـه

وأسمَعهُ باقي الأبياتِ، فقال الوالي لمنازل: يا هذا لا تحزنْ ولا تعتبْ، قد عققتَ أباك فعقَّك ابنُكَ[1].

* ومن الأبناءِ الذين عقُّوا آباءهم ابنُ حنظلةَ النُّميري، كان يعارضُ أباه في

---

(١) انظر: نوادر المخطوطات (٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩)، وعيون الأخبار (٣/ ٨٦ و٨٧)، ومحاضرات الأدباء (١/ ٢٢٨) مع الجمع والتصرف.

السَّبّ ، ولا يقيمُ للأبّوةِ وزناً ، بل كان يردُّ لأبيهِ الصَّاع وافياً ، وقد ذكر الأصفهاني في محاضراته قصّته ومعارضته لأبيهِ فقال: «كان لحنظلةَ النُّميري ابنٌ عاق يقالُ له مُرّة ، فقال له يوماً: يا مرّة إنّك لمرّ.

فقال: أعْجَبَتْني حَلاَوتك يا حنظلة!.

فقال: إنّك خبيثٌ كاسمِكَ.

فقال: أخبثُ منّي مَنْ سمّاني به.

فقال: كأنَّك لستَ منَ النَّاس.

فقال: مَنْ أشبهَ أباه فَما ظَلَم.

فقال: ما أحوجكَ إلى أدبٍ.

فقال: الذي نشأتُ على يديهِ أحوجُ إليه منّي.

فقال: عقمتْ أمٌّ ولدتْكَ.

فقال: إذْ ولدَتْ من مثلك.

فقال: لقد كنتَ مشؤوماً على إخوانِكَ؛ دفنتُهم وبقيتَ.

فقال: أعجبني كثرةُ عمومتي.

فقال: لا تزدادُ إلا خُبثاً.

فقال: لا يُجْتَنى من الشَّوكِ العنب»[١].

* وذكروا أنّه كان لعبد الله بن صفوان ابنٌ يعارضه ، فقال لابنه يوماً: «يا لُكَع».

فقال له ابنُه: «أَمَا يُشْبِهُ الرجُلُ أباه؟ فمهما كان من حَسَنٍ وقبيحٍ فمنك تولّده وفعلُك جالبُهُ»[٢].

* وقال رجلٌ لابنه: «ما أطيبَ الثّكل يا بني».

---

(١) محاضرات الأدباء (١/ ٣٢٩).

(٢) المصدر السابق عنيه.

فقال الابن: «اليُتْمُ أطيبُ منه يا أبتِ».

* ولكي يكون الرجلُ موفّقاً في الأولاد، عليه أنْ يختارَ أمّهاتهم، لأنَّ كَيْسَ الأُم ونجابتَها يُعرفُ في البنين، ولهذا قال أبو الأسود الدّؤلي لبنيه: «أحسنتُ إليكم قبل أنْ ولَدتُم وبعده».

قالوا: «كيف أحسنتَ قبل الولادة»؟.

فقال: «لأنّي اتّخذتُ أمّهاتِكم من حيثُ لا تُعابون به».

* إنَّ العقوقَ للآباءِ داءٌ عظيمٌ، وخطبٌ جسيمٌ، وغصّةُ الدَّهر، ومصيبةٌ عسيرةُ الحلّ.

* بيد أنّنا نجدُ في صفحاتِ التَّاريخ وأوراقهِ وقفاتٍ وصوراً غير ناصعةٍ، تحكي أخبارَ أبناء عُصاة أغرقُوا في لجج العقوق، ونسوا الأيامَ الخوالي التي تعبَ الأَبوانِ خلالها؛ ولكن المثير هنا أنْ نجد أبناء يعقّونَ أمّهاتهنّ، علماً بأنَّ عقوقَ الأمّهاتِ نادرٌ؛ بيد أنَّ ريشةَ المؤرخين لم تتركِ الحياةَ الاجتماعيةَ هملاً، وإنّما رسمتْ لوحاتٍ خالدةً في ذاكرةِ التاريخِ لتحكيَ لنا نصيباً مفروضاً من عقوق الأمّهاتِ.

* والحديثُ عن عقوقِ الأمّهاتِ شائقٌ ومثيرٌ، ويستحقُّ التَّسجيل، لأنَّه من أرضِ الواقعِ الذي يعيشُه النَّاسُ فيما مضى من الزَّمن، وكذلك في الزَّمن الحاضر، ولأنَّه ينفعُ الأبناء الذين سيغدون في يومٍ منَ الأيّام رجالَ وأزواجَ وآباء المستقبل.

* ولكنْ منْ أينَ وكيفَ يأتي عقوق الأمّهات؟!.

سؤالٌ طريفٌ يفرضُ نفسهُ علينا؛ وللإجابةِ عن هذا السؤال القصيرِ الطّريفِ نقول: «ليس أجْلَب لعقوقِ الأمّهاتِ ـ خصوصاً الحموات منهنّ ـ من زوجةِ الابنِ الماكرةِ التي عششتِ المشاكسةُ وحبُّ الخصوماتِ في قلبِها، بل تلك التي يغلبُ عليها النُّفور من حماتِها من رأْسِها إلى أخمصِ قدميها على الرَّغم من حبِّ الحماة لها بادىء الأمر، ولكنَّ العداوةَ مستحكمةٌ على ما يبدو بين الحماةِ

والكنّة ، وقد ذكرت كتبُ الأمثال هذا العداء التّاريخي بين الحماةِ والكنّة ، فاسمع إلى قولهم:

إنَّ الحمـــاةَ أُولعَـــتْ بـــالكِنَّـــة   وأُولعَـــتْ كنَّتُهـــا بـــالظَّنَّـــة[1]».

* فعندما تدخلُ الكنّةُ عشَّ الزّوجية ، فإنّها تريدُ أنْ تستأثرَ بزوجها ، وتنتزعَهُ من حماتِها ، كما استأثرت أمّها ـ من قبل ـ بأبيها ؛ أو تحاول أنْ تغرسَ في ذهنِ زوجها المثلَ الشّهير: «قُلِ النّادرةِ ولو على الوالدة»[2]!!!!! ، ونسيتْ هذه الكنّةُ المسكينةُ المتمسْكِنَةُ أنَّه عَزيزٌ على الأمّ الرّؤومِ التي حملتْ وأرضعتْ أكثر من ثلاثين شهراً ، ثمّ ربَّتْ ابنَها وأمّلَتْ فيه الأمل الكبيرَ ، وكانت في حياتها معه قبل زواجه الصَّديق الأوفى ، فكانت تناجيه ، وتفزعُ له إذا ساءَهُ سوءٌ ، وكان هو ريحانة نفسها ، وسرّ سعادتها وسَعَادَةَ سرّها وجهرِها ، نسيت الكنّة هذا كلّه ، وأحبَّتْ أنْ تنتزعَ هذا الغرس من جذورِه انتزاعاً لا يبقي له أثراً ، ولا يذر له خيالاً ؛ وهنا يقعُ الابنُ في حيرة وبين حدَّيْن فاصلَيْن قاطعين ، وتصطرع في داخله عاطفتان قويّتان أحلاهما مُرَّةٌ ، وخصوصاً إذا كان ضعيفَ الهيئةِ والشّخصيةِ أمام زوجتِه المتسلّطة ، فإذا ما كان حصيفاً لبقاً استطاع أنْ يحسمَ الخلاف ، ويحصده بحسنِ تدبيرِه وسياسته ، ويحاول أن يخمدَ نار الشّجار بينهما كلّما بدا من خَلَلِ رمادها وميضٌ ، أو أن يميل إلى ناحية من إحدى النّاحتين.

* فإذا مال إلى جانب زوجته كان عاقاً لأُمّه ، وتركها تتصارعُ مع الحسرات والهموم ، وتتذكّرُ الأوقاتِ الذّهبية التي أعطته إيّاها ليغدوَ رجلاً أمامها تفرحُ به وتفزعُ إليه.

* وقد حملَتْ لنا أردانُ الآدابِ صورةً تحكي موقفاً من مواقفِ عقوقِ الأمّهات الممثل في نكران الجميل ، وقبل أنْ نقرّبَ الصُّورةَ هذه إلى الأذهانِ ،

---

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/٨) ، والمستقصى في الأمثال للزمخشري (ص ١٦٣) وجمهرة الأمثال للعسكري (١/١٠٧) ، وأمثال المرأة عند العرب لصلاح الدين المنجد (ص ٤٠).

(٢) انظر: أمثال المرأة عند العرب (ص ١٠٤) ، طبعة دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٨١ م.

نود أنْ نذكّرَ أنَّ عقوقَ الأبناءِ للأمّهاتِ معروفٌ منذ أقدم العصورِ ، وقد رسَمَه الشُّعراءُ في قصائِدهم ، فهذا عروةُ بنُ الورد العبْسي[1] يذكرُ في شكواه من أصحابه الذي بدرَ بالإحسانِ إليهم ، فأساؤوا إليه ، بأنَّه وإياهم كالأم وولدها العاق ، حَمَلَتهُ وهْناً على وهنٍ ، وَفَدَتْهُ بالغالي والرَّخيصِ ، وربَّتْه وناطَتْ به آمالَها وآلامَها ، فلما أنْ كبرَ وشبَّ عن الطَّوقِ وآن لها أنْ تنتظرَ نفعَه وشكره ورعايته تزوَّج ، ومن ثمَّ قرَّب دونها فتاةً تتزيّنُ وتتكحلُ ، وتميسُ كيما تجتذبَه وتخلبَ لُبَّه ، وتنسيَهُ يومَه وأمْسَه ، وإذْ ذاك هلعتْ أمّه ، وأمستْ تتألم؛ وتصيحُ مما أَلَمّ بها دونَ احتشام ، وها هي ذي حيرى بين أمرَيْن شديدي المرارة ، وما من أحدهما بدّ ، وما في أحدهما هناء ولا راحة ، فإمّا أن تفقدَ ولَدَها وتستغنيَ عنه وهذا مرُّ الطَّعم والمذاقِ لا يُطاقُ ولا يُحتملُ ، وإما أنْ تتجلّدَ وتصبرَ لريبِ الدَّهرِ وَرِيْبَةِ الكنّة ، وهذا أيضاً شديدُ الوطأةِ لا يُطاق ، بيد أنّه مرّ المذاقِ؛ يقول عروةُ من قصيدة قوامها (١٥ بيتاً):

فَـإنّـي وإيّـاكـم كَـذِي الأُمِّ أَرْهَنَـتْ ... لَـهُ مـاءَ عينَيْهـا تُفَـدِّي وتَحمِـلُ

فَلَمَّـا تــرجَّــتْ نَفْعَــهُ وشَبَــابَــهُ ... أَتَـتْ دونَهـا أُخـرى جَـديـدٌ تكَحَّـلُ

فبــاتَــتْ لحَـدِ المِـرفَقَيْـنِ كلَيْهمـا ... تُـوَحْـوحُ ممّـا نـابَهـا وتُـوَلْـوِلُ

تَخَيَّـرُ مِــنْ أمـرَيْـن ليْسَـا بِغِبْطَـةٍ ... هـو الثّكـلُ إلاّ أنّهـا قـد تَجَمَّـلُ[2]

* فهذه ابنةُ ثواب الهِزَّانيّة ـ وهي شاعرةٌ من شواعرِ العَرب ـ تذكرُ في أبياتٍ بائيةٍ لها تربيتَها لابنها الذي كان كالطّيرِ الضَّعيفِ ، ترعاه وتُحيطه بحنانها ، ولكنه عندما شبَّ ، عقَّها ، فهي تتوجَّعُ من عقوقهِ لها ، وإساءته إليها ، ومع هذا تنظر إليه بقلب الأمّ وبصرِها وبصيرتها ، فترى طفولَتَه البريئةَ وتتذكرها ، وتعجبُ من لحيته وَشَعْرِهِ ، ثم تشيرُ إلى أمْرٍ تكتمُه في نَفْسِها ، أو أنَّ ابنها

---

(١) اقرأ سيرة عروة بن الورد العبسي في موسوعتنا «فرسان من التاريخ» تحت عنوان فرسان من العصر الجاهلي (ص ٤٣ ـ ٧٩) طبعة دار اليمامة الأولى عام ٢٠٠١ م.

(٢) انظر شعر عروة بن الورد العبسي (ص ٥٨ ـ ٦٢) صنعة ابن السكيت وتحقيق د. محمد فؤاد نعناع ، طبعة الخانجي الأولى بالقاهرة ١٩٩٥ م ، وشرح الحماسة للتبريزي (٩/٢) ومصادر أخرى كثيرة.

ينفلتُ منها على غير إرادة ، ذلك أنَّ كنَّتها هي التي أولعت بالظِّنَّة ، وهي التي أوغرتْ صدرهُ ، وزيَّنَتْ له أنْ يمزّق ثوبَ أمّه ، وأنْ يضربَها ولا يرحمَها ، وفي الوقتِ نَفْسِه تتظاهرُ هذه الكنّةُ الخبيثةُ بالعطفِ عليها وهي تودُّ إهلاكَها ، فكانت تغريه في السِّرِّ بأمِّه ، وتسمعُها في العلانية : «مهلاً عن أمِّنا فإنَّ لها فيها حاجة» ولكن هذا الأسلوبَ المطاطي الخبيث لم يَنْطَلِ على أم ثواب فراحت تنفثُ هذه الأبيات ؛ الممزوجة بِحَرّى العَبرات :

رَبَّيتُهُ وهو مثلُ الفَرخِ أَعْظَمُهُ ... أمُّ الطَّعامِ تَرَى في جِلْدِهِ زَغَبا
حتّى إذا آضَ كالفُحّالِ شَذَّبَهُ ... أبّارُهُ ونفَى عن متْنِهِ الكَرَبا
أنْشا يمزّقُ أثْوابي ويضْرِبني ... أبَعْدَ شَيبيَ عندي يَبْتَغي الأَدَبا
إنّي لأبصرُ في ترجيلِ لِمَّتِهِ ... وخَطِّ لحيتِهِ في وجهِهِ عَجَبا
قالتْ له عِرسُه يوماً لِتُسمِعَني ... رفْقاً فإنَّ لنا في أُمِّنا أرَبا
وَلو رأَتنيَ في نارٍ مُسَعَّرةٍ ... ثمّ استطاعَتْ لزادتْ فوقَها حَطبَا[1]

* وكان الحطيئةُ الشّاعر المخضرمُ المشهورُ مثلاً شروداً ولكنْ في هجائهِ لأبويه ، ولأمّهِ خاصّة ، وزوجته ، وكان لا يبالي أين وقعَ مقالُه ، أو تقعُ كلماتُه ، ولا يرعى حرمة نفسهِ ، ولا حرمةَ غيرِه ، فطارَ منه الحياءُ ، وطفقَ يقولُ ما يشاء ، ويقذعُ في الهجاء ، وألوان المنكرِ والفحشاء.

* وتذكرُ المصادرُ الأدبيةُ من كتبِ النَّوادرِ والأسمار ، أنَّ أمَّ الحطيئة تزوجَتْ برجلٍ مجهولِ النَّسب ، ليس له شأنٌ بين ذوي الشَّأْن من القبيلةِ ، فَشَعَرَ بالخزي من فعلتِها ، فاحتقرَها ، فهجَاهَا وهجَا زوجها الخسيس ؛ ولم يجدْ في ذلك حَرجاً فقال :

ولقد رأيتُكِ في النِّساءِ فَسُؤْتني ... وأَبا بنيكِ فَساءَني في المجلسِ

* وقال في هجائِها :

جَزَاكِ اللهُ شرّاً منْ عجوزٍ ... وَلقّاكِ العُقُوقَ منَ البنينِ

---

(١) شرح الحماسة للتبريزي (٢/١٤٣) ، وثمار القلوب (١/٢٠٥) ، ونوادر المخطوطات (٢/٣٩٠ و٣٩١) والكامل للمبرد (١/٢٣٩) ، وشاعرات العرب (ص ٤٠).

فَقَد مُلّكتِ أمرَ بنيْكِ حتّى ... تَركْتِهم أدقَّ من الطَّحينِ
لِسَانُكِ مبرَدٌ لا خيرَ فيهِ ... ودَرّكِ دَرُّ جَاذِبةٍ دَهينِ[1]

* ويقولُ في هجائها وبهذا يظهر في ذورةِ العقوقِ:

تنَحيَّ فاجْلسي منّي بعيداً ... أراحَ اللهُ منكِ العَالَمينا
أَغِرْبالاً إذا استُودعتِ سرّاً ... وكانوناً على المُتحدّثينا
حياتُكِ ما علمتُ حياة سوءٍ ... وموتُكِ قد يسرُّ الصَّالِحينا

* ويوردُ التّبريزي بضعةَ أبياتٍ في شرحه للحماسة ، وتحكي هذه الأبياتُ عقوقَ أحدِ بني جذيمة لأُمّه ، ولم يتوقَّفْ عقوقه عند هذا الحدّ ، بل هجاها ، فلنستمعْ إلى هجاءِ سعدِ بن قرظ لأمّه:

يا ليتَ ما أمّنا شَالَتْ نَعامَتُها ... إمّا إلى جنّةٍ إمّا إلى نارِ
تلتهمُ الوسقَ مشدوداً أشظّتَهُ ... كأنّما وجهُهَا قد طُلْى بالنَّارِ
لَيسَتْ بشَبْعى ولو أوردتُها هَجَراً ... ولا بريّاً ولو قاظَتْ بذي قار

* * *

---

(١) انظر: نوادر المخطوطات (٢/ ٣٩٤) ، ومجمع الأمثال (١/ ٤٨٠) ، وديوان الحطيئة طبعات مختلفة ، مع الجمع والتصرف.

الفصل الثالث

وصايا الأمهات والآباء إلى الأبناء

* يُغَطِّي أدبُ الوصَايا للناشئةِ والأبناءِ مساحاتٍ كثيرةً في أدبِنا العربّي وتراثِنا الإسلاميّ ، فلا يكادُ يمرُّ عصرٌ من عصورِ الأدبِ إلاّ نجدُ فيه نَثْر الدُّرّ منَ الوصايا التي تُوازي الدُّرّ ، لأنّها خلاصةُ تجارب خَاضَها أولو الرّأي والبصيرةِ من أهلِ العِلمْ والفَضْل .

وقد حفلَتِ المعاجمُ وكتبُ اللغةِ بتعريفِ الوصّيةِ؛ ومجملُها: أوصى الرّجلُ ووصّاه ، أي عَهدَ إليه. والوصّيةُ: ما أَوْصَيت به ، والوصيّ: الذي يُوصي والذي يُوصى له ، والوصيّةُ والإيصاءُ بمعنى واحد ، تقول: أوصيتُ لفلانٍ بكذا ، أو: أوصيتُ إليهِ بكذا بمعنى: عهدتُ إليه .

* أمّا الوصيةُ والوصَايا ومشتقّاتُها فقد وردتْ في القرآنِ الكريم مراراً قرابةَ ثلاثين موضعاً ومنها قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]. وقوله: ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١]. وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣]. وقوله عزّ وجلَّ في هذه الوصايا الإلهية النّافعة: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

* والوصيةُ والوصايا ثرّةٌ وغنيةٌ في الحديثِ النّبويّ الشّريف، حيث صدرتْ عن سيّدنا رسول الله ﷺ وصايا تحملُ بين طياتِها الأدبَ والتّربيةَ والنُّصح والموعظةَ والرحمة وكلّ المكارم، من ذلك حديثُ العرباض بن سارية السُّلمّي ـ رضي الله عنه ـ فيما أخرجه الإمامُ أحمد في مسندهِ بسندهِ عن خالد بن معدانَ قال: حدّثنا عبد الرحمن بن عمرو السُّلمّي وحُجْرُ بن حُجر قالا: أتينَا العرباضَ بن ساريةَ وهو ممّن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]، فَسلمنا عليه وقُلنا: أتيناكَ زائرينْ وعائدَيْن مقتبسَيْن، فقال عرباض: صلّى بنا رسول الله ﷺ الصُّبح ذاتَ يوم، ثمَّ أقبلَ علينا، فوعظنَا موعظةً بليغةً، ذرفَتْ منها العيون، ووجلَتْ منها القُلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأنَّ هذه موعظة مودّع، فماذا تعهدُ إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطّاعة وإن كان عبْداً حبشياً، فإنَّه مَنْ يعشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفاءِ الرّاشدين المهديين، فتمسّكُوا بها، وعضُّوا عليها بالنّواجذ، وإيّاكم ومحدثاتِ الأمور، فإنّ كلّ محدثةٍ بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة»[١].

* ونلاحظُ أنَّ الوصيّةَ تعني الإرشادَ والنُّصحَ والتَّوجيهَ نحو ما هو واجب من فضائلِ النّفس ومحاسن السُّلوك.

* والوصايا في الأدب تعني فنّاً منَ النَّظم أو النَّثر فيه تجارِبُ وآراءُ يخصُّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٢٦ و١٢٧) برقم (١٧٢٧٥)، وانظر أيضاً المسند رقم (١٧٢٧٤)، وأخرجه أبو داود في السّنّة برقم (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم برقم (٢٦٧٨)، وقال عنه: «حديث حسن صحيح»؛ وابن ماجة في المقدمة برقم (٤٢)، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة أيضاً (٦/ ٥٤١).

بها المُوصي ابنَه ، أو أحدَ أصدقائه ، أو عامَة النّاس ، ولها تأثيرٌ كبيرٌ في وجدان السَّامع .

* ولما كانتْ مرحلةُ الطُّفولةِ ثم الشَّباب من أهمّ مراحلِ حياةِ الإنسان ، لذا فالابن النّاشىء بحاجةٍ إلى توجيهٍ ورعايةٍ ليسلكَ السَّبيل السَّوي في حياته .

* وتأتي الوصايا بأدبِها الدّافىء ونفعِها الغزير لتنيرَ الدَّرب أمامَ النَّاشئة ، ليكونَ مستقبلُهم زاهراً مشرقاً ، لأنَّ الآباءَ والأمّهاتِ والمربين يجسّدون صادقَ مشاعرِهم ، وصافي ودهم ، وخلاصةَ تجاربهم لأبنائِهم من خلالِ الوصايا التي تتسمُ بالصِّدق والموضوعيّة والبساطةِ واليُسْر .

* ولما كان الأبناء والذّرية هم زينةُ الحياةِ الدّنيا ، وهم كذلك زهرتُها وبهجتُها ، وأملُ المستقبل ، ومستقبلُ الأمل ، وأملُ الدنيا ، ودنيا الأمل ، وهم كذلك أمانةٌ في أعناقِ الآباءِ والأمّهاتِ ، فإنَّ هؤلاءِ مسؤولون عنهم ، ينصحون لهم ، ويوفّرون سُبلَ الاستقرار النّفسي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، لتكون حياةُ الأولاد خاليةً من الاضطراباتِ قدرَ الإمكان ، ويحاولون أن يراعوا مصَالحَ الأبناءِ بالنُّصحِ والوصيّة والتّوجيه بما يناسبُ ويتناسبُ مع الأبناء دون تفرقةٍ أو تقديم لأحدهم ، فهذا قد يسّبب النُّفور ، وساعتئذٍ لا تنفعُ الوصايا ، وقد تعملُ عملَها المرجو ، وربما ينقلبُ الدّواءُ داءً ، ولله درّ أبي الطّيّب إذ يقول :

وَوَضْعُ النَّدى في مَوضعِ السَّيفِ بالعُلا   مُضِرٌّ كوضْعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدى[1]

* لذا فالنّاصحون لأبنائهم مسؤولون في فنّ بناءِ شَخصيّات الأولاد ، بما يقدمونه منْ وصَايا ونصائحَ لهم ، بحيث إذا كبروا وشبُّوا وغدوا رجال المُستقبل وأمّهات الغد ، أدُّوا رسالتهم كما ينبغي ، وكم هو سهلٌ إذا اعتنى الآباءُ بالأبناء وراحوا ينصحونَ لهم ، وهم في سنّ البراءة ، وحتّى لا يأتي اليوم الذي يشبُّ فيه هؤلاء ، فتصبحَ الوصايا عسيرةَ المنال :

---

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي (٢/ ٩) طبعة دار الكتب العلمية الأولى ببيروت ٢٠٠١ م ، وهو من قصيدة عدد أبياتها ٤٢ بيتاً مطعلها : لكل امرىء دهره ما تعودا . .

إذا المـرءُ أعيَتْـه المـروءةُ نـاشئـاً فمطْلَبُهـــا كَهْـــلاً عَلَيْـــهِ عَسيـــرُ

* وما أجملَ أنْ نتذكَّر دوماً قولَ الآخر:

إنَّ الغُصـونَ إذا قَـوَّمْتَهـا اعتـدلَـتْ ولا يَليْـــنُ إذا قـــوّمتَـــه الخشـــبُ

* ومما تجدرُ الإشارةُ إليه، وتذكير المربّين به، أنَّ الوصايا النّابعة من أعماقِ الآباءِ والأمّهاتِ والمربّين ليستَ كلاماً فصْلاً أو قانوناً ثابتاً لا يتغيرّ؛ لا، فيجب عليهم أنْ يكُونوا فَطِنين لما ينصحون بهِ أبناءَهم بما يتناسبُ مع ظروفِ الأبناءِ الاجتماعيّة، لأنّهم عاشُوا في زمنٍ يختلفُ عن أزمانهم، بيد أنَّه تُوجَدُ هناك نصائحُ ثابتة، ومنها: القِيمُ الإسلاميّة ومحاسنُ الفضائل، وكريمُ الشَّمائل.

* ومن ناحيةٍ أخرى فيجبُ على المربّين أنْ يعطُوا أولادهم ـ حين الوصيّة ـ شيئاً من الثّقةِ الممزوجةِ بعبيرِ الحبِّ وأنداء الحنان، كي يستجيبوا إلى النُّصح وإلى الوصيّة.

وفي الصفحات التالية نستمعُ ونستمتعُ بهذه الوصايا النّبيلة التي تحملُ في أكمام زهرِها التّأديب والإرشاد، وتنفحُ النَّاشئة بالأدبِ والحكمةِ، والتّربيةِ والعِظَة، والتّقوى والوفاء، والتّوفيق والسَّداد.

* * *

أولاً: وصايا الأمهات إلى الأبناء

* ليست الوصايا مقْتَصرةً على الآباءِ فحسب ، بل حملتْ إلينا كتبُ الأدبِ والأَسْمار كثيراً من أدبِ وصايا النِّساءِ منذ القديم إلى عَصْرِنا الحاضر؛ ونلمحُ في وصايا النّساءِ تنوّعاً ، فحيناً نسمعُ الأمّ تُوصي ابنتهَا ، وطوراً توصي ابنهَا ، ومرة نسمعُ وصايا للأبناءِ جميعاً .

* وكانت لنساءِ القومِ قِدْماً مواقفُ فَضْلٍ مشهورة في تاريخنا الوضيء ، وأثِرتْ عنهنّ كلماتٌ حفظَها الدهرُ ووعتْها أذُنُهُ الواعيةُ ، وخصوصاً في مجالِ الوصايا وميادين الحكْمة .

* تمتازُ وصايا النّساء والأمّهات بتدفّقِ العاطفة ، وتوهجِ الأمومة ، وسهولةِ الكلمات ، وقِصَرِ الجمل التي تعتمدُ على السَّجع البسيطِ العفويّ ، وتنوع الأفكار ، والتّركيز على صفات الخير ، ورسم الأخلاق لأبنائهنّ .

* ومن أجملِ الوصايا التي تحملُ أنفاسَ الأمومة العذبة ، الوصية «الأُمَاميّة» تلك الوصية الخالدة التي رسمتْها أمامةُ بنتُ الحارث لابنتها أمّ أناس ، وكانت أمامةُ زوجةً لعوف بن محلِّم الشّيباني المشهور بالحلم والوفاء في عالَم رجال العَصْر الجاهلي .

* أمّا زوجتُه السَّيدةُ أمامةُ بنتُ الحارث فهي من نساءِ عَصْرِ ما قبل الإسلام ممّن اشتهرن بالحكمةِ وفَصْل الخطابِ ، وعُرفْنَ بسدادِ الرّأي ، وقوة العَقْل ، وتألّق الوصيّة ، وكمالِ الفضيلة ، وقد ارتقت بسمو بصيرتها فوق كثيراتٍ منْ مشاهيرِ الأمّهاتِ ممّن عاصرنَها .

* وكانت أمامةُ منَ الأمّهاتِ الحصيفات ، ومن ذواتِ الأدب الجمّ ، والفصاحةِ والرّأي والتّجربةِ وحسنِ الأُحْدوثةِ ، ربّتِ ابنتَها على شريفِ الخصالِ

وكريمِ الخصائل ، فكانت ابنتُها صورةً كريمةً ومثالاً طيّباً لِبَنَاتِ العاقلات .

* تروي المصادرُ المتنوعةُ وصيةَ أمامة لابنتها ، تلك الوصية التي اشتهرتْ في السَّماءِ كشهرةِ الجوزاء ، وكالواسطَةِ في عقدٍ فريدٍ على صَدْرِ حسناءَ حَصَان رَزَان .

* فما أجمل أنْ نحفظ هذه الوصيّة ، وما أجمل أنْ تعيَها الأمّهاتُ من جديدٍ ، وأنْ تستظهرهَا البناتُ أيضاً ليكُنَّ أمّهاتِ المستقبل النّاجحات . .

* تقول أمامةُ بنتُ الحارث لابنتها أمّ أناس في ليلةِ زفافها لملك اليمن هذه الوصية : «أي بُنية ، إنَّ الوصيّة لو تُركت لفضلِ أدبٍ لَتركتُ لك ذلك ؛ لكنّها تذكرةٌ للعاقِل ، وتوعيةٌ للغافِل ، ولو أنَّ امرأةً استغنَتْ عنِ الزَّوجِ لِغَنى أبويها ، وشدّة حاجتها إليهما ، كُنْتِ أغنى النَّاس عنه ، ولكنَّ النساءَ للرّجال خُلِقْنَ ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرّجال .

* أي بُنيّة ! إنّك فارقتِ الجوَّ الذي منه خرجتِ ، وخَلّفْتِ العُشَّ الذي فيه درجْتِ ، إلى وكْرٍ لم تعرفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فأصبحَ بملكهِ عليك رقيباً ومليكاً ، فكُوني له أمةً يكنْ لكِ عبداً وشيكاً .

* يا بُنَية ! احملي عنّي عشْر خِصَالٍ تكنْ لكِ ذُخراً ، واحفظيها له تكنْ لكِ ذِكْراً

* أمّا الأولى والثّانية : فالصّحبةُ بالقناعة ، والمعاشرةُ بحسنِ السَّمْعِ والطّاعة .

* أمّا الثّالثة والرّابعة : فالتَّعهُّدُ لمواضعِ عينَيه ، والتّفقُّد لموقعِ أنفهِ ، فلا تقعُ عينُه منكِ على قبيح ، ولا يشمُّ منك إلا أطيبَ ريْح ، والكَحلُ أحسنُ الحسنِ ، والماءُ أطيبُ الطّيب المفقود .

* أمّا الخامسةُ والسَّادسة : فالتّعهّدُ لوقتِ طعامهِ ، والهدوءُ عند منامهِ ، فإنَّ حرارةَ الجوعِ ملهبةٌ ، وتنغيصُ النَّوم مغْضَبَةٌ .

* وأما السَّابعةُ والثَّامنةُ : فالاحتراسُ ببيتهِ ومالهِ ، والإرعاءُ على نفسِه

وحشمهِ وعيالهِ ، وملاكُ الأَمْرِ في المالِ حُسْنُ التقديرِ ، والإرعاءُ على العيالِ والحشمِ جميل حسن التّقدير .

* وأمّا التاسعة والعَاشرة : فلا تَعْصِي له أمراً ، ولا تُفْشِي له سِرّاً ، فإنّك إنْ خالفتِ أمرهُ أوغرتِ صَدْرهُ ، وإنْ أفشيتِ سرّه لم تأمني غدره ، ثمّ اتّقي مع ذلك الفرحَ بين يديه إنْ كان تَرِحاً ، والكآبةَ عنده إنْ كان فرحاً ، فإنَّ الخصلةَ الأولى منَ التَّقصير ، والثَّانية من التّكدير ، وكوني أشدَّ ما تكونين له موافقة ، يكُن أطول ما تكونين له مُرافقة ، واعلمي أنّكِ لا تَصِلِيْنَ إلى ما تحبّين حتى تُؤثري رضاهُ على رضاكِ ، وهواه على هواكِ ، فيما أحببتِ وكرهتِ ، والله يخيرُ لكِ»[1] .

* ومن أجملِ التَّعليقاتِ على الوصايا «الأُمَامية» تعليقٌ نفيس للكمَال المقدسي ، فعندمَا قرأهَا قال : «للهِ ما أحسنَها من وصيّةٍ جامعةٍ لكلّ أسبابِ الهناءِ والرّخاءِ ، والسَّعادةِ بين الزَّوجين ، لو عملا بها ما حَصَل خلافٌ على وجْهِ الأرضِ أصْلاً» .

* ومن الوصايا الأدبيةِ الجامعة لمحاسنِ الفضائلِ ، وصيّة لأعرابيةٍ لم نعرف اسمَها ، ولكنّا نعرفُ رسمَ وصيّتها النَّافعة لابنها الذي يريدُ أنْ يسافرَ ، فمن خلال وصيّتها نلمحُ الوعيَ النّسوي في نسائِنا المُسلمات في القرونِ الأولى للإسلام ، حيثُ كانت هذه الأمُّ الواعيةُ تسعى لكي تغرسَ الفضائلَ في ابنها ، لأنَّ الفضائلَ تكونُ له سِلاحاً ماضياً في غربته ، ومنهجاً يسيرُ عليه في تعاملهِ مع الآخرين . وضمّنتْ وصاياها بنصائحَ وإرشادات مهمّة ومنها أنّها حذَّرتْه منَ العُيوبِ والنَّقائص ، كالبُخل والغَدْرِ ؛ ثم تعودُ لتأخذَ بيده إلى حُسْنِ الشَّمائلِ كما سنقرأُ وصيتها الآن .

* قال أبانُ بنُ تغلب : «شهدتُ أعرابيةً توصي ولداً لها أرادَ سَفراً وهي تقولُ : أيّ بُني! اجلسْ أَمنَحْكَ وصيّتي ، وبالله توفيقُك . قال أبانُ : فوقفْتُ

---

(1) انظر : التذكرة الحمدونية (٣/ ٣٤٣) ومجمع الأمثال (٣/ ٢٤) ، وبلوغ الأرب (٢/ ١٩) مع الجمع بينها .

مُستمعاً لكلامِها ، مُستحسناً لوصيتها ، فإذا هي تقول أي بُني! إيّاكَ والنّميمة ، فإنّها تزرعُ الضَّغينة ، وتفرّقُ بين المحبّين ، وإيّاكَ والتّعرض للعيوب ، فَتتَّخذُ غرضاً ، وخليقٌ ألا يثبتَ الغرض على كثرة السّهام ، وقلّما اعتورتِ السِّهامُ غرضاً إلاّ كَلَمَتْهُ ، حتّى يَهِيَ ما اشتدَّ من قوّته ، وإيّاكَ والجود بديْنك ، والبخلَ بمالِكَ ، وإذا هززْتَ فاهززْ كريماً يَلِنْ لِهَزتِّك؛ ولا تهززِ اللئيمَ ، فإنّه صخرةٌ لا يتفجرُ ماؤهَا ، ومثّل بنفسكَ مثال ما استحسنتَ من غيركَ فاعملْ به ، وما استقبحتَ من غيركَ فاجتنبْهُ ، فإنَّ المرءَ لا يرى عيبَ نَفْسِه ، ومَنْ كانت مودّتُه بشَرِّهِ ، وخالفَ منه ذلك فعله ، كان صديقُه منك على مثل الريح في تصرّفها».

ثم أمسكتْ ، فدنوتُ منها ، فقلتُ لها: «بالله يا أعرابية ، إلاّ ما زِدْتهِ في الوصيّة».

قالت: «أوَ قد أعجبكَ كلامُ العربِ يا حضَريّ»؟

قلتُ: «نعم»!.

قالت: «الغَدْرُ أقبحَ ما تعاملَ به النّاس بينهم ، ومَنْ جمَع الحِلْمَ والسَّخاءَ ، فقد أجادَ الحُلَّة: رَيْطَتها وسِربالها»[1].

* وذكر الحُصْرِيُّ في «زَهْرِهِ» وصية أخرى جميلة لأعرابية توصي ابنها ، وهذه الوصيةُ موجزة في ألفاظها ، كبيرةٌ في معانيها ، فقد جمعتْ بين خيرَيْ الدُّنيا والآخرة.

* قال الحصري: «أوصتْ أعرابيّةٌ ابنَها في سَفَر ، فقالت: يا بني! إنّكَ تجاوِرُ الغرباءَ ، وترحلُ عن الأصدقاءَ ، ولعلّكَ لا تلقى غيرَ الأعداء؛ فخالطِ النّاسَ بجميلِ البِشْر ، واتّقِ الله في العَلانية والسِّرّ»[2].

* ومن الوصايا الرّائقةِ ، هذه الوصيّةُ الحماسيّةُ التي صدرتْ عن امرأةٍ من

---

(١) انظر: زهر الآداب (١/ ٣٨٥) بتحقيق علي محمد البجاوي طبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٦٩ م. وانظر: التذكرة الحمدونية (٣/ ٣٣٧) ، ونثر الدر (٤/ ٨٨) وغيرها كثير.

(٢) زهر الآداب (١/ ٣٨٤).

بني خثعم في عَصْرِ الخلافةِ الرّاشدة ، وبالتّحديد في معركةِ القادسيةِ ، حيثُ أوصَتْ أولادَهَا الأربعة وزرعتْ فيهم الحماسَ وهم في مَيْدَانِ المعركةِ فقالت: «أيّ بني! إنّكم أسلمتَم فلم تبدلوا ، وهاجرتُم فلمْ تثوبُوا ، ولم تَنْبُ بكم البلاد ، ولم تقحمكم السَّنة ، ثمّ جئتُم بأمّكم ، عجوزٌ كبيرة ، فوضعتموها بين أيدي أهلِ فارس ، والله إنّكم لبنو رجُل واحد ، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، انطلقُوا فاشهدوا أولَ القِتالِ وآخره وموتُوا كِراماً». فأقبلوا يشتدّون فلمّا غابُوا عنها ، رفعَتْ كفَّيْها إلى السَّماءِ ، وهي تدعو الله عزَّ وجلَّ وهي تقول في دعائِها: «اللهمَّ ادفعْ عن بنيّ ، ولاتجعلْ يومَهم قَبْلَ يومي». فرجعُوا إليها بعد أنْ أبلوا بلاءً حسناً ، وأحسنوا القتالَ ، ما كُلِمَ رجُل كَلْماً واحداً[1].

* ومن الملاحظِ في وصيّةِ هذه المرأةِ الخثعميّة أنّها تذكّرُ أولادها بإسلامهم وثباتِهم على الإيمانِ ، وهجرتهم إلى الله ، ثم تفتخرُ بأنَّهم بنُوها وأبوهم واحدٌ ، وتبُثُّ في نفوسِهم روحَ الشَّجاعةِ ، فإذا بوصيتها تعملُ عملها ، فيقاتلون الفرسَ ، ثم يعودون سالمين، فتقرّ عينها ، وتُسَرّ بحسن صنيعهم.

* هذا وبابُ الوصايا النّسويّة من الأبوابِ الطَّريفةِ في أدبنا العربيّ وتراثنا الإسلاميّ ، ولَعلَّ فيما أوردناه من الأدب القديم ما يبلّ الصَّدى ، ويشفي الغلّة ، ويزيدُ هذا البحثُ جمالاً ومعرفة.

* وفي الأدبِ النّسوي الحديثِ همساتٌ دافئاتٌ من الوصَايا التي تحملُ بين جنْبَيْها العطفَ والخوفَ على الابنِ ذكرَاً كان أم أُنثى ، ومن بين الوصايا الجميلةِ التي تحملُ روحَ نصيحةِ الأمّ لابنتها هذه النّصحيةِ الغالية التي شَدَتْ بها الشَّاعرةُ عفيفة الحصْني في هذه البائيةِ الجميلةِ فقالت:

ماجنٌ يسعى لنيلِ الأربِ
عابثٌ مثلُ الوليد الطّربِ

---

(١) انظر كتابنا: نساء من المشرق العربي (ص ٢٢٣ وم ٢٢٤) ، وقد نُسبت هذه الوصية للخنساء الشّاعرة ، ولكنّنا صححنا هذا المفهوم في سيرتها في كتابنا المذكور (ص ١٦٨ ـ ٢٥٧) فليراجع من أراد الحقيقة.

إنْ رأى روضاً غزاهُ عَنوةً

بشرارِ من شواظِ اللهبِ

لا يبالي بذبولِ الزّرعِ

إن أضرم النّارَ بحقلٍ قشبِ

يرشفُ الزّهرَ رحيقاً مثمِلا

غارقاً في عرفهِ المنسكبِ

فإذا ما ملَّ عطراً غزلَتْ

مقلتاهُ قطراتِ السُّحب

يتجنَّى كيفما يحلو له

في دُعاباتٍ كبرقٍ خلّب

تحسبُ الغيدَ سناهُ وابلاً

وتُشيدالصّرح فوق الشُهب

فإذا بالصّرح يهوي كلّه

لاحَ نجمٌ آخرٌ عن كثَبِ

فاتّقيه يا بنتي . . .

إن جاءَ يطفو في خضمٍ لجبِ

إنّه لصٌ يواري غدَرهُ

بقناع قرمزيٍ عجَبِ

إنّه ثعلبُ كرمٍ ماكر

يهدمُ الكرمَ لسلبِ العنبِ

حصنِّي الكرمَ بسورٍ شائكٍ

فجلالُ الخُلقِ أسمى نسبِ

وثمارُ اللوزِ تحمي لُبّهَا

بدروعٍ وغلافٍ خشبي

وثمينُ الدرِّ لا يدركهُ

غيرُ غوّاصٍ بقاعِ صخَب

فليكنْ مغناك برجاً شامخاً
في حِمى الشمسِ وأفْقِ العربِ[1]

* وهذه وصيةٌ ممزوجةٌ بدفءِ الأمومةِ ، تدفَّقَت من عوطف امرأة عَرفَتْ معنى الأمومة ، وقدّرتْ قيمة البُنوّة ومكانتها العظمى ، فإذا بها تنصَحُ ابنّها بألاّ يسلكَ جادّةَ مَنْ انحرفَ مِنَ الشَّباب ، ممّن مالَ إلى االخلاعةِ والميوعةِ ، وتزيّا بزيّ النّساءِ ، وخُدِعَ بالحضارةِ المجلوبةِ المخلوطةِ بِسُمّ التّصنُّع والتكسُّر والكسَل ، وهذه الأمّ كأي أمّ تحبُّ لابنها الهديَ وسلوك طريقِ الأخلاق ، لينفَعَ نفسَه ووطنَه وأمّته ، فلنقرأ ما أفصحتْ عنه الشّاعرة «صابرة محمود العزّي» في هذه النَّفحة المُوقظة :

وَلَـدي إليـكَ نصيحَتـي فيهـا الحنَـانُ مـع المـودَّةْ
إنَّ الحيـاةَ ينـالُهـا شَهـمٌ بنـى بـالعِلْـمِ مَجْـدَهْ
وَلَدي تَرى بعضَ الشَّبابِ قد استكَانُوا إلى المُيوعَةْ
وتجلْبَبُـوا زيَّ النِّسَـاءِ وكَـوَّنُـوا زُمَـراً خَليْعَـةْ
لا تَـركَنَـنَّ إليهُـم وتَجَنَّبَـنْ تلـكَ الخَـديعَـةْ
إنّـي أعيـذُكَ أنْ تحيـدَ وتنبُـذَ المثـلَ الـرَّفيعَـةْ[2]

* وهذه دعوة ووصية ونفحة محبة بالله لكل فتاة تؤمن بالله ، وتود أن تسير على هداه ، دعوة ونصيحة خرجت من قلب أنثى تحمل صدق الكلمة ، وكلمة الصدق ، وعمق الفكرة ، وجمال التعبير ، وطلاوة الجمل المنسكبة في ثوب الإشفاق والود ، كلمة نشوى بعبير الإيمان ، وأنداء الفضيلة ، تنشرها الشاعرة المصرية المتألقة بأدبها «سهام إسماعيل حجي» هذه التي ملأ الإيمان والصدق قلبها ، فقد صاغت هذه الأبيات «الرائية» الفاتنة فتون الزهر في الأكمام ، وقصدت من خلالها تقديم النصيحة إلى البناتِ ليكُنَّ على بصيرة وبَصَر من أمرهن ، وكيما يلتزمن بالإخلاص والذكر والبر والاستقامة ، ومراقبة الله عز

---

(١) ديوان : عازفة الليل (ص ٧٨ و٧٩) لعفيفة الحصني . المطبعة العمومية بدمشق .
(٢) ديوان نفحات الإيمان (ص ١٤٩ و١٥٠) لصابرة العزي ، منشورات وزارة الثقافة العراقية ١٩٨٠ م .

وجل في السر والعلانية ، ومداومة الاستغفار بالغدو والأسحار . . .

* ترى ماذا خبأت لنا الجعبة «السهامية الحجية» من سهام أدبية ووصايا للبنات؟! هذا ما ستجلوه لنا هذه الأبيات!! :

وَحَلاَكِ فَرْطُ تَزَيُّنٍ بِفَضَائِلِ ... فَاضَتْ عَلَيْكِ بِهالَةِ الأَنْوارِ
فَالقَلْبُ بِالإخْلاَصِ لله انْتَشَى ... كَمْ يَطْمَئِنُ بِحَومَةِ الأَذكَارِ
والصِّدقُ للشَّفَتَيْنِ خَيْرُ تَجَمُّلٍ ... هَذا طِلاءٌ ثَابِتُ الآثَارِ
وبَهَاءُ صَوْتِكِ فِي تِلاوَةِ مُصْحَفٍ ... بِنَوَاشِىءِ الأَسْحَارِ وَالأَبْكَارِ
والبرُّ والإحْسَانُ لِلْيَدِ حِلْيَةٌ ... أَسْمَى وأجْدَى مِنْ نَفيْسِ سِوَارِ
أَمَّا القَوَامُ فَالاسْتِقَامَةُ دِرْعُهُ ... بِتَرَيُّضٍ في مُسْدَلِ الأَسْتَارِ
والعَيْنُ فِي الإشْفَاقِ كُحْلُ لِحَاظِهَا ... تَأْسَى لِمَنْ قَدْ بَاتَ فِيْ أَكْدَارِ
والخيرُ كلُّ الخيرِ بَعْدَ تَحَجُّبٍ ... فِيْ تَرْكِ مَعْصيةٍ وفي اسْتِغْفَارِ[1]

* * *

(١) انظر : الصورة الفنية في الشعر الإسلامي عند المرأة في العصر الحديث (ص ٣٤٦) للدكتور صالح الخضيري مكتبة التوبة ـ الرياض ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م. والقصيدة في مجلة: منبر الإسلام ، العدد (١١) عام ١٤٠٧ هـ.

ثانياً: وصايا الآباء إلى الأبناء

* في هذه الصَّفحات بعضُ وصايا الآباء النّافعة ، منها ما هو قديمٌ جدّاً ، ومنها ما قيل في عَصْر الإسلام وما تلاهُ من عصور.

* فمن قديم وصايا الآباء؛ وصيةُ يَعْرُبَ بنِ قحطانَ ، حيث ضمَّنها عشر خصالٍ تذخر بالنَّفع ، ومنها: طلبُ العلْم ، وتركُ الحسد ، وتجنّبُ الشّرّ ، وحبُّ الإيثار ، واصطناعُ الرِّجال ، وغيرُ ذلك ممَّا نطّلعُ عليه في وصيّته الجامعة عندما جَمَعَ بنيه وأوصاهم وقال لهم: «يا بنيّ احفظُوا منّي خِصَالاً عشْراً ، تكنْ لكم ذكْراً وذُخراً:

يا بنيّ ، تعلّمُوا العلمَ واعملُوا به.

واتركُوا الحسَدَ عنكم ولا تلتفتُوا إليه فإنَّه داعيةٌ إلى القطيعةِ فيما بينكم.

وتجنّبوا الشّرَّ وأهلَه ، فإنَّ الشَّرَّ يجلبُ إليكم الأشْرارَ.

أنصفُوا النَّاسَ من أنفسِكم لينصفوكم من أنفسهم.

وإيّاكم والكبرياء ، فإنّها تبعدُ قلوبَ النّاس عنكم.

وعليكم بالتّواضع فإنّه يقرّبكم من النَّاس ويحبّبكم إليهم.

واصفحوا عن المسيء ، فإنّ الصّفح عن المسيءِ يحسمُ العداوة ، ويزيدُ مع السُّؤدد سؤدداً ومع الفضل فضلاً وافراً.

وآثروا الجارَ الدَّخيلَ على أنفسكم ، فإنَّ جمالَه جمالكم ، ولأنْ يسوءَ حالُ أحدِكم خيرٌ له منْ أنْ يسوءَ حالُ جارِه ، لأنَّ تفقُّدَ النَّاس للمقتدي أكثرهم من تفقدهم للمقتدى.

وانصُروا الموالي فإنّهم مواليكم في الحرب والسلم ، وحقّهم عليكم مثل

حقّ أحدكم على سائركم ، وإذا استشاركم أحدٌ فأشيروا عليه بما تشيرون به على أنفسكم ، فإنّها أمانة ألقاها في أعناقكم ، والأمانة ما قد علمتم.

وتمسّكوا باصطناع الرّجال ، فإنّه أجدرُ أن تسودوا به غيركم ، وأحرى أنْ يزيدكم ذلك شَرفاً وفخَراً إلى آخر الدّهر»[1].

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ يعربَ بن قحطانَ قد صاغ وصاياه هذه في أحد عشرَ بيتاً فقال ملخّصاً موجزاً إيّاها شعراً:

بُنـيَّ أبـوكـمُ لـم يَغـدُ عمَّـا ... بـه وصّـاهُ قَحطـانُ بـن هُـودِ
فـوصَّـاكـمْ بمَـا وصَّـى أبـاكُـم ... أبـوهُ عـن أبيـهِ عـن الجُـدودِ
أذيعـوا العِلْـمَ ثـمّ تعلّمـوه ... فمـا ذو العِلْـمِ كَـالْكَـلِّ البليـدِ
ولا تصغُـوا إلـى حَسَـدٍ فتغـووا ... غـوايـةَ كـلّ مختبـلٍ حسُـودِ
وكـونُـوا منصفيـنَ لكـلِّ دانٍ ... لينصفَكـم مـع القَـاصـي البعيـدِ
وذودوا الشَّـرَّ عنكـم مـا استطَعْتُـم ... فليـس الشَّـرُّ مـن خُلُـقِ الـرّشيـدِ
وبـابُ الكِبْـرِ عنكـم فـاتـركـوهُ ... فـإنَّ الكبـر مـن شيـمِ العبيـدِ
عليكـم بـالتّـواضُـعِ لا تـزيـدوا ... على فَضْـلِ التَّـواضـعِ مـن مـزيـدِ
وإنَّ الصَّفـحَ أفضـلُ مـا ابتغيتـم ... بـه شـرفـاً مـع الملْـكِ العتيـد
وحـقّ الجـارِ لا تنسـوه فيكـم ... فـإنَّ الجـارَ ذو الحـقِّ الـوكيـدِ
عليكـم بـاصطنـاعِ الخيـرِ فيكـم ... تنـالـوا كـلَّ مكـرمـةٍ وجـودِ[2]

* وفي ديوان وصايا الآباءِ لأبنائِهم تبرزُ وصيّةٌ أدبيةٌ جميلةٌ ، لشاعرٍ فارسٍ من قدماءِ الشُّعراءِ في الجاهلية ، وله أخبارٌ وأحداثٌ ووقائعُ مذكُورةٌ مشهورةٌ ، هذا الأبُ الحكيم هو ذو الإصبع العدوانيّ ، واسمه حُرثانُ بن الحارث بن مُحرِّث العَدْوانيّ ، وذو الإصبع هذا أحدُ مشاهيرِ الحكماءِ الذين سطَّر الزمانُ وصيايِهم لأبنائِهم لما تحتويه من فوائد عظاتٍ ، ترفعُ من مكانةِ الأبناءِ إذا وَعَوْهَا ، كما تحتوي على كثيرٍ من مكارمِ الأخلاق ، وهذه الوصيةُ القديمةُ

---

(١) وصاياالملوك وأبناء الملوك (ص ٢٧ ـ ٢٩).

(٢) المصدر السابق ، ويساورنا الشّكّ في نسبةِ هذه الأبيات ليعربَ بن قحطان ، ونظنُّ أنها مصنوعة.

تشبِه سابقتها ، إذ جمعتْ بين أدبِ النَّثر وفنِّ الشّعر .

* وفي السُّطور التَّاليات نمتعُ الأسماعَ بحسنِ هذه الوصيَّة الحكَميّة اللطيفة التي تجرّرُ أذيالَ الفصاحةِ ، وتميسُ بمعانيها الآسرةِ المؤثرةِ .

* في «أغانيه» تكفَّلَ أبو الفرج الأصفهانيّ بنقلِ هذه الوصيّة عن أبي عمرو حيثُ ذكرَ أنَّ ذا الأصبع العَدْوانيّ لما احتُضِرَ دعا ابنَه أسِيْداً ـ وأوصاه بهذه الوصيّةِ المفعمةِ بإخلاصِ الحبّ الأبويّ ، وعمقِ العاطفة ، وذِرْوَةِ التَّجرِبة التي اكتسبَها من عمرهِ المديد ، إذ عركَتْهُ الحياةُ وعركها ، وعلمتْه السُّنون ، وحنكَتْه التّجارِبُ ـ فقال له: «يا بنيّ ، إنَّ أباكَ قد فَنِي وهو حيٌّ؛ وعاشَ حتّى سئمَ العَيْشَ ، وإنّي موصيكَ بما إنْ حفظتَه بلغتَ في قومكَ ما بلغتُه ، فاحفظْ عنّي: أَلِنْ جانِبكَ لقومكَ يحبّوك ، وتواضعْ لهم يرفعُوك ، وابسطْ لهم وجْهَك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيءٍ يسوّدوك؛ وأكرمْ صِغَارهم كما تكرمْ كبارهم يكرْمك كبارهم ويَكبُر على مودّتكَ صغارُهم ، واسمحْ بمالِكَ ، واحْمِ حريمَك ، وأعزِزْ جارك ، وأعِنْ مَنِ استعانَ بكَ ، وأكرم ضيفَك ، وأسرع النَّهضة في الصَّريخ ، فإنَّ أجلاً لا يَعْدُوكَ ، وصُنْ وجهكَ عن مسألةِ أحدَ شيئاً ، فبذلك يتمُّ سؤْدُدُكَ؛ ثم أنشأ يقول:

أأُسيَــــدُ إنْ مَـــــالاً ملكْـ ـــتَ فَسِـرْ بِـهِ سَيـراً جميـلا
آخِ الكـــــرامَ إنِ استطعـ ـــتَ إلـى إخـائِهــمُ سبيـلا
واشـــرب بكــأسِهـــمُ وإنْ شــربُـوا بــه السُّـمّ الثّميـلا
أَهِــنِ اللئـــامَ ولا تكُـــنْ لإخــائِهــمْ جَمَــلاً ذَلُــولا
إنَّ الكـــرامَ إذا تُـــوَا خِيْهــم وجــدْتَ لَهـم فُضُـولا
ودعِ الــذي يَعِـــدُ العِشيْـ ـرةَ أنْ يسيـلَ ولـنْ يَسيـلا
أبنــيّ إنَّ المـــالَ لا يبكــي إذا فَقَــدَ البخيــلا
أأُسيــدُ إنْ أزمعــتَ مــنْ بلَــدٍ إلــى بلــدٍ رحيــلا
فــاحفــظْ وإنْ شَحــطَ المَــزا رُ أخَــا أخيــكَ أو الــزّميـلا
وصِــلِ الكــرامَ وكُــنْ لِمَــنْ تــرجــوا مــودَّتَــه وَصُـولا
وابْســط يمينَــك بــالنَّــدى وامــدُدْ لَــه بــاعــاً طـويـلا

وابسط يديك بما مَلكـ ـت وشيِّد الحَسَبَ الأثيلا
وابْـذلْ لضيفك ذاتَ رحْـ ـلِك مُكرِماً حتّى يزولا
وانزِل إلى الهيجا إذا أبطالُها كرهوا النُّزولا
وإذا دُعيتَ إلى المُهِـ ـمِّ فكُنْ لِفَادِحِهِ حَمُولا[1]

* وهذه وصيةٌ تتسربَلُ بِحلَى الحكمةِ ، وتزدانُ بالحضِّ على مكارمِ الأخلاقِ العربيّةِ ذات الأَصالةِ والعُمق ، فهي كالشّجرة المثمرةِ المُثْقَلةِ بالثّمار اليانعة ، وصاحبُها غيرُ مشهورٍ في عَالمِ المشاهير ، بَيْدَ أنَّ بعضَ أبياتِ قصيدته مشهورةٌ في عالَم الأدبِ كشُهرة الثُّريا بين نجومِ السَّماء.

* فأمّا الأبُ المُوصي فهو عبدُ قَيْس بن خُفَاف البرجميّ ، من شُعراء العَصْر الجاهليّ ، كان مُعَاصِراً للنَّابغةِ الذّبيانيّ ، وله هذه الوصيّة الشّعرية اللامية ، وهي من الأدب الرَّفيع ، والخلقِ السَّامي ، فهي من أوّلها إلى آخرِها نموذجٌ نبيلٌ في أدبِ التّربيةِ ، رسَمَهُ الشَّاعرُ بكلماته لابنه جُبيل وقد حملت روح الحكمة والتجربة ، اقتبسها الشاعر من خُلُقِ العربيّ الصَّافي ، ومن حنكتِهِ هو ، ودُرْبَتِهِ ، فهي بذلك أنموذجٌ للمثَلِ الأخلاقيّ العالي عند العرب في عَصْر الجاهليّة ، وهي كذلك أكبرُ دليلٍ على أدبِ هؤلاء القوم ، وعنايتهم بتربيةِ أولادِهم ، وحرصِهم على السّمو بها إلى مدارجِ الشَّرف والكمالِ ، كما أنَّ هذه القصيدة ترسمُ أشكالَ الحياةِ عصر ذاك والتي تتمثّل في أدبِ القيم وأدب العادات التي عاشَها العربُ ، فمع هذه الوصيّة البديعة المؤثّرة:

أَجُبيلُ إنَّ أباكَ كاربُ يومِهِ فإذا دُعيتَ إلى العظائمِ فاعْجَلِ
أُوصيكَ إيصاءَ امرىءٍ لكَ ناصحٍ طَبِنٍ بريبِ الدَّهْرِ غيرِ مغَفَّلِ
اللهَ فاتَّقهِ وأوفِ بنذرِه وإذا حلفْتَ مُمارياً فتحلَّل
والضَّيفَ أكْرمهُ فإنَّ مبيتَهُ حقٌّ ولا تَكُ لُعْنَةً للنُّزَّلِ
واعلمْ بأنَّ الضَّيفَ مخبرُ أهلهِ بمَبيتِ ليلتِهِ وإنْ لم يُسْأَلِ
ودعِ القوارصَ للصَّديقِ وغيرِه كي لا يَرَوْكَ من اللئامِ العُزَّلِ

(١) انظر الأغاني (٣/ ٩٥ - ٩٧) باختصار يسير في الأشعار. طبعة دار الكتب العلمية الثانية ببيروت عام ١٩٩٢م.

وصِلِ المُواصِلَ ما صفَا لك وَدُّهُ ... واحـذرْ حبالَ الخـائـنِ المُتبـدِّلِ
واتـركْ محـلَّ السُّـوءِ لا تحلـلْ بـهِ ... وإذا نَبـا بـكَ منـزلٌ فتحـوَّلِ
دار الهـوانِ لمـن رآهـا دارهُ ... أَفـراحِـلٌ عنهـا كَمـنْ لـم يَـرْحَـلِ
وإذا هممـتَ بـأمـرِ شـرٍّ فـاتَّئِـدْ ... وإذا هممـتَ بـأمـرِ خيـرٍ فـافعَـلِ
وإذا أتتـكَ مـنَ العـدوِّ قـوارصٌ ... فـاقْرُصْ كـذاكَ ولا تقـلْ لـم أفْعـلِ
وإذا افتقـرتَ فـلا تكُـنْ متخشِّعـاً ... ترجو الفواضِلَ عند غيرِ المُفْضِلِ
وإذا لقيـتَ القـومَ فـاضـربْ فيهـمُ ... حتّـى يـروكَ طِـلاءَ أجـربَ مُهمِـلِ
واستغْـنِ مـا أغنـاكَ ربُّـكَ بـالغنـى ... وإذا تصِبْـكَ خصـاصَـةٌ فتجمَّـلِ
واستـأنِ حلمَـكَ فـي أمـورك كلِّهـا ... وإذا عـزمـتَ علـى الهـوى فتـوكَّـلِ
وإذا تشَـاجـرَ فـي فـؤادِكَ مـرّةً ... أمْـرَانِ فـاعْمِـدْ لـلأعـفِّ الأجْمَـلِ
وإذا لقيـتَ البـاهِشِيـن إلـى النّـدى ... غُبْـراً أكفُّهـمُ بِقَـاعٍ مُمْحِـلِ
فَـأَعِنْهُـم وايْسِـرْ بمـا يَسَـروا بـهِ ... وإذا هُـمُ نـزلـوا بِضَنْـكٍ فـانـزِلِ[1]

* وتحفلُ كتبُ التّراث بكثيرٍ من الوصايا في عَصْر المخضرمين ، ومن بدائعِ وصايا الآباء للأبناءِ وصيّةُ قيس بن عاصم بن سنان المنقريّ وقيسٌ هذا شاعرٌ فارسٌ ، شجاعٌ حليمٌ ، مظفَّرٌ في غزواتهِ ، أدركَ الجاهليّةَ والإسلامَ فَسَادَ فيهما ، وأسلمَ وحَسُنَ إسلامُه ، وأتى النَّبيَّ ﷺ ، وصحِبَهُ في حياتِه ، وعُمِّرَ بعده زمَاناً ، وروى عنه عدّة أحاديث ، وكان يُضْرَب المثلُ بحلْمِهِ ، وحكْمَتِهِ ، قال عنه النّبي ﷺ لما وفَدَ عليه : «هذا سيّدُ أهلِ الوبَر» ، وكان ﷺ يرّحبُ به ويُدنيهِ[2] .

---

(١) انظر : المفضليات (ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥) . ومعنى «جبيل» : ابنه . و«كارب» : بوزن اسم الفاعل : أي قريب . و«الطبن» الحاذق الفطن . و«ممارياً» : مجادلاً . و«لُعْنة» : بسكون العين : يلعنه الناس كثيرا . و«القوارص» الكلام القبيح . و«العزل» : جمع عازل ، قد اعتزل الناس . و«بنا به منزله» : لم يوافقه . و«الخصاصة» : الفقر والحاجة . و«التجمل» : التجلد وتكلف الصبر . و«استأن» : من الأناة . و«الباهش» : الفرح ، يريد الذين يأتونه يلتمسون جداه ونائله . و«وايسر بما يسروا به» : أسرع إلى إجابتهم . و«الضّنك» : الضّيق ، أي آسهم في ضيقهم .

(٢) ترجم لقيس عدد كبير من العلماء والأدباء في كتبهم ، ومنهم النووي في «تهذيب الأسماء=

* ولقيسٍ هذا وصيةٌ شهيرةٌ لأبنائهِ ، ترشحُ بتعاليم الإسلام ، وقيمهِ ومُثُلِهِ ، ومن خلالها يحثُّ بنيهِ على التّمسُّك بفحواها فيقول: «يا بنيّ ، خُذوا عنّي فلا أحد أَنْصَحُ لكم منّي ، إذا دفنتموني فانصرفُوا إلى رحالِكم ، فسوِّدوا أكْبَركم ، فإنَّ القومَ إذا سَوَّدوا أكبرهم أخلفُوا آباءهم؛ ولا تسوِّدوا أصغركم ، فإنَّ القومَ إذا سوّدوا أصغرهم أزرى ذلك بهم في أكفائِهم ، وإيّاكم ومعصيّة اللهِ تعالى وقطيعةُ الرّحم ، وتمسّكوا بطاعةِ أمرائكم ، فإنّهم مَنْ رفعوا ارتفَعَ ، ومَنْ وضعُوا اتَّضَعَ ، وعليكم بهذا المال فأصلحوهُ ، فإنّه مُنْبَهةٌ للكريم ، واستغناءٌ عن اللئيم ، وإيّاكم والمسألة فإنها آخِرُ كسبِ الرَّجُل ، وإنَّ أحداً لم يسأل إلاّ تركَ كَسْبَ؛ وإيّاكم والنّياحة فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ ينهى عنها؛ وادفنوني في ثيابي التي كنتُ أصلّي فيها وأصوم؛ وخذوا عنّي ثلاثَ خصالٍ:

إياكم وكلَّ عرقٍ لئيم أنْ تُلابسوه ، فإنَّه مهما يسرُّكم يوماً ، فسوفَ يسوءُكم يوماً.

واكظمُوا الغَيْظَ.

واحذروا بني أعداء أبائِكم ، فإنَّهم على منهاجِ آبائِهم لآبائِكم ، وقال:

أحْيَا الضَّغائنَ آباءٌ لنا هلكُوا فَلَنْ تبيدَ وللآباءِ أبناءُ

ثم جمعَ ثمانين سَهْماً فربطَها بوتَرٍ، ثمّ قال لِبَنيه: اكسِروها، فلم يستطيعوا، ثمّ قال: فرّقوا ، فَفَرّقوا ، فقال: اكْسِروها سَهْماً سَهْماً ، فكَسَروها ، فقال: هكذا أنتم في الاجتماعِ وفي الفُرقةِ.

ثم قال:

إنّما المجدُ ما بَنَى والدُ الصِّدْ قِ وأحيا فِعَالَه المولُودُ

وتَمامُ الفَضْلِ والشَّجاعةُ والحِلْـ ـمُ إذا زانَه عفَافٌ وجودُ

وثلاثونَ يا بنيَّ إذا مَا جَمَعَتْهُمْ في النَّائباتِ العُهود

كَثلاثين منْ قداحٍ إذا ما شَدَّها للزَّمانِ قِدْحٌ شديدُ

= واللغات» وقد توسع الأصفاني بأخباره في «الأغاني» انظر الأغاني (٧/ ٩٢).

لـمْ تَكَسَّـرْ وإنْ تفـرقَـتِ الأسْـ ـهُـمُ أودى بجمعِهـا التّبـديـدُ
وذَوو الحِلْـم والأكـابـرِ أولـى أنْ يُـرى منكُـمُ لهـم تسـويـدُ»[1]

* ومنَ الوصايا النَّافعةِ التي ينبغي أنْ تُحْفَظ وتُكتَبَ بأجملِ الخطوطِ ، تُحْفَظَ في الصُّدور من بين ستور السُّطور ، وصيّة ابن سعيد المغربيّ المتوفى سنة (٦٤٠ هـ) ، إذا أوصى ابنه وقد أراد السَّفر وصيةً جامعةً افتتحها ببضعةِ وعشرين بيتاً من الشعْر ، ذكرَ له خلالَها خلاصةَ حنكته وتجربته؛ حيث ذكرَ له خلالها أشياءَ مهمّة منها: أنْ يمشيَ الهُوينى وأن يكونَ عفيفاً ، وأنْ يتكلّم حينما يكونُ الكلامُ نافعاً ، ثم يجتهدُ في طلَبِ الرّزق ، ويعطي كُلاً حقَّه ، ويَصْحبُ الأخيار ، ويتجنَّبُ من يترقّبُ الخطأ ويترصَّدُ ويرصدُ العَثَرات ، ويغتنمُ الزَّمنَ فلا يضيعُ عمرَه سُدى.

* ثمَّ يتبعُ وصيّته الشِّعرية بفرائد الحكمةِ المنثورة ، وقواعد التّربيةِ الأدبيّةِ الحقّةِ ، وزيَّنَ ذلك بفرائد الأبياتِ الشعرية الجميلة ، ولن أذهبَ ببهاءِ هذه الوصيّة على الرّغمِ من طُولها بل سأتركُ المربّين والآباء ، والأمّهات يَهْصُرون أغصانَها ، ويتمتّعون بجَنيّ ثمارها ، ويتفكّهُون بما طابَ من شَذَاها ، حتى يعلمونها أبناءنا الذين يمشون على الأرض مشيةَ نقَاءٍ وصفَاءٍ حتّى يشِبُّوا على الصَّفاء والنَّقاء ، ليكونُوا من سُعداءِ الأبناء ، في زمنٍ كادتِ السَّعادةُ تتلاشَى بينَ وَهْمِ الماديّاتِ ، وأوهامِ الحضَارة المجلوبةِ بِتَطْرِيَةِ الدِّعايات التي نأملُ ألاّ تسيطرَ على الحقائقِ والمُثُل الطّيبة التي تلقّيناها عن ديننا الحنيفِ الذي ارتضاه اللهُ عزَّ وجلَّ لنا. والآن دعونا نستمتعُ بأطايبِ هذه الوصيّةِ الأدبيّةِ الجميلةِ.

* قال ابن سُعيد المغربي لابنِه وقد أرادَ السَّفر:

أُودعُـكَ الـرَّحمـن فـي غُـربتـك مُـرتقبـاً رحمـاهُ فـي أَوْبتـك

---

(١) انظر: التّذكرة الحمدونية (٣/ ٣٤٧) والأغاني (١٤/ ٨٢) مع الجمع والتّصرف والاختصار اليسير.

ولما مات قيسُ بنُ عاصم قال عبدةُ بنُ الطَّبيب يرثيه:

عَلَيـكَ سَـلامُ الله قيـسَ بـن عـاصـم ورحمتُـه مـا شـاءَ أنْ يَتَـرحَّمـا
فمـا كـانَ قيـسٌ هلكُـه هُلْـكُ واحـدٍ ولكنّـهُ بنيـانُ قـومٍ تهـدَّمـا

فلا تُطِلْ حَبْلَ النَّوى إنّني ... واللهِ أشتاقُ إلى طلْعَتِك
واختصرِ التَّوديعَ أخْذاً فَما ... ليْ ناظِرٌ يقوى على فُرقَتك
واجعلْ وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ ولا ... تبْرَحْ مدى الأيّام في فِكْرتك
خُلاصةُ العُمرِ التي حنكَتْ ... في ساعةٍ زُفَّتْ إلى فِطْنَتِك
فللتّجاريبِ أُمُورٌ إذا ... طالَعْتَها تَشْحَذُ منْ غفْلَتِك
فلا تَنَمْ عن وعْيها ساعةً ... فإنَّها عونٌ إلى يقظَتِك
وكلُّ ما كابدتَهُ في النَّوى ... إيّاكَ أن يكسرَ منْ همَتِك
فليسَ يُدرى أصلُ ذي غُربةٍ ... وإنّما تُعرفُ منْ شيمتِك
وامشِ الهُوينى مُظْهِراً عفّةً ... وابْغِ رضا الأعين عن هيئتِك
وانطقْ بحيثُ العيُّ مُسْتَقْبَحٌ ... واصْمُتْ بحيثُ الخيرُ في سكتتِك
وَلجْ على رزقكَ منْ بابهِ ... واقْصدْ لهُ ما عشْتَ في بكْرتِك
وَوَفِّ كُلاً حقَّه وَلْتَكُنْ ... تكْسِر عن الفخرِ من حِدّتك
وحيثُما خيَّمْتَ فاقْصُدْ إلى ... صحبةِ مَنْ تَرجُوه في نُصرتك
وللرّزايا وثبةٌ ما لَها ... إلاّ الذي تذخرُ منْ عدّتك
ولا تقلْ أسْلَمُ لي وحدَتي ... فقد تُقاسِي الذّلّ في وحدتك
ولتجْعَلِ العقْلَ مِحَكّاً وخُذْ ... كلاً بما يظهرُ في نَقدِتِك
واعتبرِ النَّاس بألفاظِهم ... واصْحَب أخاً يرغبُ في صُحْبَتِك
كمْ مِنْ صديقٍ مُظْهِرٍ نُصْحَهُ ... وفكرهُ وقفٌ على عَثْرتِك
إيّاكَ أنْ تَقْرَبَه إنَّه ... عونٌ معَ الدَّهْرِ على كُرْبتِك
وانْمُ نموَّ النَّبت قَدْ زَارهُ ... غِبُّ النَّدى واسْمُ إلى قُدرتك
ولا تُضيّعْ زمناً مُمكِناً ... تذكَارهُ يذكي لظَى حرّتك
والشَّرُّ مَهَما استطَعْتَ لا تأتِهِ ... فإنّه جورٌ على مُهْجَتِك

* يا بنيّ الذي لا ناصحَ له مثْلي ، ولا منصوحَ لي مثْلُه ، قد قدّمتُ لكَ في هذا النَّظمِ ما إنْ أخطرتَه بخاطرتكَ في كلّ أوانٍ رجوتُ لكَ حُسْنَ العاقبةِ إن شاءَ اللهُ تعالى ، وإنَّ أخفَّ منه للحفْظِ ، وأعْلَق بالفكرِ ، وأحقَّ بالتّقدُّم قول الأوّل:

يَـزِيـنُ الغـريـبَ إذا مـا اغْتَـرَبَ ثـلاثٌ فمنهـن حُسـنُ الأَدَبِ
وثـانيـةٌ حُسْـنُ أخـلاقِـهِ وثـالثـةٌ اجتِنَـابُ الـرِّيَـبِ[1]

* واصْغ يا بنيّ إلى البيتِ الذي هو يتيمةُ الدَّهرْ ، وسُلّمُ الكَرمِ والصَّبر :

ولـو أنَّ أوطَـانَ الـدِّيـارِ نَبَـتْ بكـم لَسَكَنْتُـم الأخـلاقَ والآدابـا

* إنَّ حُسْن الخُلق أكْرمُ نزيل ، والأدب أرحبُ منزلٍ ، ولتكنْ كما قال بعضُهم في أديبٍ متغرّبٍ ، وكانَ كلّما طَرأَ على مَلَكٍ ، فكأنّه معهُ وُلِدَ ، إليه قَصَدَ ، غيرَ مُسْتريب بدهرِه ، ولا منكرٍ شيئاً من أمرِهِ.

* وإذا دعاكَ قلبُكَ إلى صحبةِ مَنْ أُخِذَ بمجامعِ هواه ، فاجعلِ التّكلُّف له سُلّماً ، وهُبَّ في روضِ أخلاقِه هبوبَ النَّسيم وحُلَّ بطرفِه حُلولَ الوسن ، وانزل بقلبِه نزولَ المسرّة ، حتّى يتمكّن لكَ ودَادُه ، ويخلصَ فيك اعتقادُهُ ، وطهِّرْ من الوقوعِ فيه لسانَك ، وأغلِقْ سمعَك ، ولا ترخَّص في جانبِه لحسودٍ لكَ منه ، يريدُ إبعادَكَ عنه لمنفعةٍ ، أو حسود له يغارُ لِتَجمُّله بصحبتكَ ، ومع هذا ، فلا تغترَّ بطولِ صحبتِه ، ولا تتمهَّدْ بدوامِ رقدتِه ، فقد ينبِّههُ الزَّمانُ ، ويتغيّرُ منه القلبُ واللسانُ ، إنّما العاقلُ مَنْ جَعَلَ عَقْلَه معياراً ، وكانَ كالمرآةِ يلقى كلّ وجه بمثالهِ.

* وفي الأمثالِ العامة: «مَنْ سبقَكَ بيومٍ سبقَك بعَقْلٍ» فاحْتَذِ بأمثلةِ مَنْ جرّبَ ، واستمعْ إلى ما خلّدَ الماضون بعد جهدهم وتعبهم منَ الأقوالِ ، فإنّها خلاصةُ عمرهم ، وزُبْدة تجاربهم ، ولا تتكِلْ على عقلِكَ ، فإنَّ النَّظر فيما تعبَ فيه النَّاسُ طولَ أعمارِهم ، وابْتاعوه غالياً بتجارِبهم ، يُرْبحكَ ويقعُ عليكَ رخيصاً ، وإنْ رأيتَ مَنْ له عَقْلٌ ومروءةٌ وتجربةٌ ، فاستفدْ منه ، ولا تضيّعْ قولَه ولا فعلهُ ، فإنَّ فيما تلقاه لِعَقْلكَ ، وحثاً لكَ واهتداءً.

* وليس كلُّ ما تسمعُ من أقوالِ الشُّعراء يحسنُ بك أنْ تتبعَهُ ، حتّى تتدبَّره ، فإنْ موافقاً لِعَمِلكَ ، مُصْلِحاً لحالِكَ ، فَرَاعِ ذلك عندَكَ ، وإلاّ فانبذْهُ نَبْذَ

---

(١) تذكرني هذه المعاني الجميلة بهذا البيت الجميل:

فَمـنْ تخلّـقَ بـالآدابِ ظـلَّ بهـا رئيـسُ قـومٍ إذا مـا فـارقَ الـرُّؤسَـا

النَّواةِ ، فليسَ لِكُلِّ أحدٍ يُبتسم ، ولا كلّ شخصٍ يُكلّم ، ولا الجودُ ممّا يعُم به ، ولا حُسْنُ الظّنّ وطيبُ النّفس ، مما يُعامَلُ به كلُّ أحدٍ ، ولله دَرُّ القائل:

ومَـالـي لا أُوفـي البـريّـة قِسْطَهـا على قَدْرِ ما يعطى وعَقْلي ميزان

* وإيّاك أنْ تعطي منْ نفسكَ إلاّ بقدرٍ ، فلا تعاملِ الدُّونَ بمعاملةِ الكُفء ، ولا الكفء بمعاملة الأعلى ، ولا تضيِّع عمرك فيمن يعاملك بالمطَامِع ، ويثيبُكَ على مصلحةٍ وحاضرةٍ عاجلةٍ ، بغائبةٍ آجلةٍ ، ولا تجفُ النَّاسَ بالجملة ، ولكن يكونُ ذلك بحيث لا يلحقُ منه مَلَلٌ ، ولا ضجرٌ ، ولا جفَاءٌ ، فمتى فارقْتَ أحداً ، فعلى حُسنى في القولِ والفعل ، فإنَّك لا تدري هل أنتَ راجعٌ إليه! فلذلك قالَ الأوَّلُ:

عَتِبْـتُ علـى سَلْـمٍ فلمّـا فَقَـدْتُـهُ وجرّبْتُ أقواماً بكيتُ على سَلْمِ

* وإيّاك والبيت السَّائر:

وكنـــتَ إذا حَلَلْـــتَ بـــدارِ قـــومٍ رحلْـتَ بِخـزْيـةٍ وتـركْـتَ عَـارا

* واحرصْ على مَنْ جَمَعَ قولَ القائل: «ثلاثةٌ تُبْقي لكَ الوُدَّ في صَدْرِ أخيك: أنْ تبدأه بالسَّلام ، وتوسعَ له المجلس ، وتدعوه بأحبِّ الأسماءِ إليه»؛ احذرْ كلَّ ما بيّنهَ لكَ القائل: «كلُّ ما تغرسُه تجنيه ، إلاّ ابن آدم؛ فإذا غرسْتَه يقلعُك» ، وقول الآخر: «إنَّ ابنَ آدم ذئبٌ مع الضَّعف ، أسدٌ مع القوّة»؛ وإيّاك أنْ تثبتَ على صحبة أحدٍ قبل أن تطيلَ اختباره؛ ويحكى أنَّ ابن المقفَّع خطبَ من الخليلِ صُحْبَتَه ، فجاوبه: «إنَّ الصُّحبةَ رِقّ ، ولا أضعُ رقّي في يَدَيْكَ حتّى أعرفَ كيف ملكْتُكَ».

* واستَمِلْ منْ تعاشره ، وتفقّدْ في فلتاتِ الألسُن ، وصفحاتِ الأوجُهِ ، ولا يحملك الحياءُ على السُّكوت عمّا يضرُّك أن لا تُبيّنه؛ فإن الكلامَ سلاحُ السّلم ، وبالأنينِ يُعْرفُ ألَمُ الجرحِ ، واجعلْ لكلّ أمْرٍ أَخَذْتَ فيه غاية تجعلُها نهايةً لك:

وخُـذْ مـنَ الـدَّهْـرِ مـا أتـاكَ بـهِ مَـنْ قَـرَّ عَينـاً بِعَيْشــةٍ نَفعـه

* إنَّ الأفكار تجلبُ الهموم ، وتضاعفُ الغموم؛ وملازمة القطوب عنوانُ

المصائبِ والخطوبِ ، يستريبُ به الصَّاحب ، ويشمتْ العدو والمجانب ، ولا تضرّ بالوساوس إلا نفسك ، لأنَّكَ تنصرُ بها الدَّهرَ عليك ، الله دَرُّ القائلِ :

إذا مَا كُنْتَ لِلأَحْزَانِ عوناً عَليكَ مع الزَّمان فمَنْ تلومُ

* مع أنَّه لا يردّ عليك الغائبُ الحُزْنُ ولا يرعوي بطولِ عتبك الزَّمن.

* ولقد شاهدتُ بِغَرناطةَ شَخْصاً قد ألفَتْه الهُموم ، وعشقَتْهُ الغُمومُ ، ومن صِغَره إلى كِبرهِ ولا تراهُ أبداً خليّاً من فكرة ، حتّى لُقّبَ بِصَدْرِ الهمِّ. ومن أعجبِ ما رأيته منه أنَّه يتنكَّدُ في الشِّدَّة ، ولا يتقللُ بأنْ يكونَ بعدها فَرَج ، ويتنكّدُ في الرخاءَ خوفاً من ألاّ يدوم ، وينشدُ :

تــوقَّــعْ زَوالاً إذا قِيْــلَ تــمّ

وينشدُ

وعنــدَ التَّنــاهــي يقْصُــرُ المُتَطــاوِلُ

* وله من الحكاياتِ في هذا الشَّأن عجيب ، ومثل هذا عمره مَحْسُور يمرُّ ضياعاً.

* ومتى رفعَكَ الزّمانُ إلى قومٍ يذمّون منَ العلْمِ ما تحسنُه حَسَداً لكَ ، وقصداً لتَصْغير قَدْرِكَ عندك ، وتزهيداً لكَ فيه ، فلا يحملْكَ ذلك على أنْ تزهدَ في علْمِكَ ، وتركنَ إلى العْلمِ الذي مدحوه؛ فتكونَ مثل الغرابِ الذي أعجبَه مشيُ الحَجَلةِ ، فرامَ أنْ يتعلَّمَه ، فصعُبَ عليه ، ثم أرادَ أنْ يرجعَ إلى مشيته ، فبقيَ مُخَبَّل المشي كما قيل :

إنَّ الغــرابَ وكــانَ يمشــي مِشْيــةً فيمــا مضــى مــن ســالــفِ الأجيــالِ
حَسَـدَ القَطـا وأرادَ يمشــي مشْيَهــا فــأصــابــهُ ضَــربٌ مــن العُقَّــالِ
فــأضــلَّ مشيتَــهُ وأخطــأَ مشْيَهــا فلــذاكَ كَنَّــوهُ أبــا مِــرقَــالِ

* ولا يُفْسِدْ خاطركَ مَنْ جَعَلَ يذمّ الزَّمان وأهلَه ، ويقول: ما بقيَ في الدُّنيا كريمٌ ولا فاضِلٌ ، ولا مكانٌ يُرتاحُ فيه ، فإنَّ الذين تراهُم على هذه الصِّفَةِ أكثر ما يكونون ممّن صحبهم الحرمانُ ، واستحقَّتْ طلعتهم للهوانِ ، وأبرموا على النَّاس بالسُّؤال فمقتوهم ، وعجزوا عن طلبِ الأمور من وجوهها ، فاستراحوا

إلى الوقوع في النّاس ، وأقاموا الأعذار لأنفسِهم بقطع أسبابِهم ، ولا تُزِلْ هذين البيتَيْن من فكرِك :

لِـــنْ إذا مَـــا نِلْـــتَ عـــزّاً فـــأَخُـــو العِـــزّ يَلِيْـــن
فـــإذا نَـــابَـــكَ دهْـــرٌ فَكَمَـــا كُنْـــتَ تَكُـــون

* والأمثالُ تُضرَب لذي اللُّبِّ الحكيم ، وذو البَصَر يمشي على الصِّراطِ المستقيم ، والفَطِنُ يقنعُ بالقليل ، ويستدلُّ باليسير ، والله سبحانه خليفَتي عليك ، ولا ربَّ سِواه»[1].

* ومن الوصايا الرّائدةِ الجميلةِ التي تفيضُ رقّةً ودلالاً ، هذه الوصيةُ الأبويّةُ الرَّائعةُ من الدّكتور «عزيز فهمي» حيثُ صاغَ وصيّتَه على شَكْلِ مناجاةٍ شعريةٍ للابن ضَمَّنَها سِلْسلةً مفيدةً من النَّصائح والتَّوجهات العامّة .

* بدأ الشّاعرُ عزيز فهمي مناجاته للابن بدايةً لطيفةً ، إذْ خاطبَ الطِّفلَ ونَاغَاهُ وطلَبَ منه أنْ يتوسَّدَ مضجعَه ، ثم بعد ذلك بدأ يدلي نصائِحه ومنها أنْ يستشير أهلَ المشورةِ ، وأنْ يتكبَّرَ على المتكبّر ، ويتواضعَ للفقير ، وأن يضعَ المعروفَ ويصنعه مع أهلهِ ، ويحسنَ إلى الضُّعفاء ويرحمهم ، ويعفو عمن ظلَم وجَارَ ، ثم ينهي هذه السّلسة من النّصائح والوصايا بأنْ يعملَ مجاهداً في الحياةِ ويجدَّ ويكافحَ ، تُرى ماذا قال :

أيّهـــا الطِّفـــلُ تـــوسّـــد مضجعـــك سبّـــح الكـــون لـــربٍ أبـــدعـــك
أطلـــع البـــدرُ فنـــاغـــى مخـــدعـــك يـــا أخـــا البـــدرِ إلـــه أطلعـــك
لا يـــرعْـــكَ الليـــلُ فـــالله معـــك
لا يُـــرعْـــكَ الليـــلُ يـــا طفـــلُ ولا شبـــحُ الجـــنِ ولا وحـــشُ الفـــلا
واحـــذرِ الإنســـان مهمـــا أَقبـــلا إنمـــا أخشـــى ريـــاءً وطـــلا
فتفـــرّسْ فيـــه واعلـــم مـــوقعـــك
وإذا رابـــكَ أمـــرٌ فـــادخـــر لغـــدٍ رأيـــك فـــالـــرأي الحـــذر

---

(١) انظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٣/ ١١٥ ـ ١٢٣) طبعة دار الفكر ، ومن الجدير بالذكر أن هناك وصية جميلة لعبد الله بن شداد ، أوصى بها ابنه ، ولعل ابن سعيد المغربي قد اقتبس فحواها من وصية عبد الله بن شداد المتوفى سنة ٨٣ هـ .

واستشـــرْ نفســـكَ أو لا تستشـــر   قبـل أنْ تــأخــذَ فيــهِ أو تــذر
كــم تمنـــى نــاصــحٌ أنْ يخــدعــك

وتكبَّـــرْ كعـــزيـــزٍ مُقتـــدر   أنْ تحـــدّاك قـــويٌ ذو خطـــر
وتـــواضـــعْ لصغيـــرٍ مفتقـــر   ليـس يغـريـهِ التّـدانـي بـالبطـر
وتجـاهـل عـارفـاً مَـنْ صـانَعك

وضعِ المعروفَ في وضع النّدى   وانْسَ مـا أخفيـتَ منـه أو بـدا
أنــتَ أحسنــتَ فمـاذا لـو عـدا   لا تــؤمــلْ منـه خيـراً أو يـدا
ضيّـــعَ الخيـــرَ خـــؤونٌ ضيَّعـــك

وارحـــمِ المجنـونَ لا تهـزأ بـه   وتــرفــقْ مشفقــاً مــن خطبــهِ
أفتـدري أنـتَ مـا فـي قلبـه؟   إنَّ فـي عينـهِ مـا فـي لبّـهِ
لـــو أزيـــحُ السّتـــرُ عنـــه روعـــك

وسـلِ المجـرمَ مـاذا اجتـرحـا   أي شيطـان بـه قـد جمحَـا
واعـفُ عمَّـن جـار ثـمّ انتَصحـا   رُبّ جـانٍ تـابَ ثـمّ انصلحـا
زحـــزحِ الغشيـــة حتّـــى يسمعـــك

لا تفـرقْ بيـن ديـنٍ ووطـن   ليـس للهِ حـدودٌ وزمـن
ضـلَّ فيمـن ضـل عُبَّـاد الـوثـن   وأرى النّـاس عبيـداً للسنـن
فتجـــردْ وتعـــرف مـــرجعـــك

كلنـــا نســـلٌ لأمٍ ولأب   لا تفـرِّقْ بيـن جنـس ونَسَـبْ
أمّنـا الأرضُ ومهمـا نغتـربْ   نحـن منهـا وإليهـا المُنقلـب
يستـــردُ الله مـــا قـــد أودعـــكَ

إنّمـا الـدِّيـنُ ضميـرٌ شـاعـر   ليـس يخلـو منـه إلاّ سـادر
والضّميـر الحـي قلـبٌ عـامـر   وَحْيُـهُ الصّادق أمـرٌ قـاهـر
فتحـــرزْ وتخيـــرْ مشـــرعـــك

وابتسـمْ للـدهـر وافـرحْ للمحـن   ميِّـتُ الأحيـاءِ مَـنْ لـم يُمتحـن
وإذا نـالـك سهـمٌ فـاستهـنْ   وتلقـفْ ثـانيـاً لا تستكـن
لا تقـلْ أوّاهُ مهمـا أوجعـك

واقتحمْ دنياك في عزمِ الأسد ... إنّما المجدُ كفَاحٌ وجَلدَ
عاندِ الدهرَ إذا الدهرُ عَنَدْ ... وابلغِ الشَّوطَ وإنْ طالَ الأمد
لا يرعك الليل فالله معك[1]

* ويتحفُنا شاعرُ الأبوّةِ والبنوّة «عمر الأميري» بكثيرٍ من الوصايا النّافعة التي هَمسَ بها في أُذنِ أولاده، وأطفال الدّنيا، فقد كان ـ رحمه الله ـ حريصاً على تربيةِ أبنائهِ وأبناءِ النّاسِ تربيةً صالحةً، تربيةً مضمّخةً بعبيرِ المُثُل العالية، ورحيقِ العلْمِ والأدبِ والدِّين، وروحِ التّعاون والحُبّ والصَّفْو والسَّعادة، وها هو ذا يرسلُ طاقةَ نصْحٍ من نَصُوحٍ شفيقٍ محبٍّ لأبنائه، يرشدهُم من خلالها إلى سلوكِ الخِلالِ الحميدة قَولاً وفعلاً، ويأمرهم بالتزامِ هدي الله عزَّ وجلَّ وسنّةِ الحبيبِ الأعظم سيّدنا رسول الله ﷺ، كما يأمرهم بالحبّ واجتنابِ الهوى لأنَّه يجعلُ صاحبَه في مهَاوي الرّدى، بل إنَّ الهوى عقباهُ مرّة، ثم إنّه بعد ذلك كلّه يستسلم للعزيزِ الحميدِ حيث سلّمه أبناءَه، فمعَ الهمسَات الأميريّة والنّصائح الغالية نعيشُ هذه الومضَات؛ وهذه الكلمات المُوحية المؤثّرة النّابضة بنبضِ الأبوة الرّحيم:

أَبَنِيّ... لا تتذمّروا
وتدبّروا قصدي وغَوْرَهْ
وَدَعُوا التلَفُّتَ يَمنةً
في درب مَحياكم ويَسْرَه
وخذوا الصِّراطَ المستقيمَ
وبادِروا الأهدافَ عَبْرَهْ
وتمسكوا بحبالِ ربّكُمُ
فثَمَّ المرءُ يَبْرَهْ
وبِسُنَّةِ الهادي الأمينِ
وإنَّهُ في الخلق مِدْرَهْ

---

(١) ديوان عزيز فهمي (ص ٨٢ و٨٣)؛ وقد نشرت هذه القصيدة في مجلة الثقافة العدد (٢٦٥) بتاريخ ٢٥/ ١/ ١٩٤٤ م.

إنّ الصلاةَ عمادُ هذا
الدين شدّ الله أزرهْ
وعلوُّ همّتكم من الإيمان
والبَرَكات بُكْرَهْ
والحبُّ بينكمُ حِجا
وعلى عوادي الدّهر نُصرهُ
سيروا جيمعاً في مَحَجَّتهِ
وكونوا خير أُسْرَهُ
وأبوكُمُ ما بينكم
ضيفٌ وفيمن مات عِبْرَهْ
يسعى لخيركُمُ نصوحاً
فاغنموا ما عاش خَيْرَهْ
قد لا يسارعُ في هواكُم
فالهوى عُقباهْ مُرَّهْ
يُرخى لكم حَبْلُ التدرُّجِ
في التفتُّحِ دون طفرْه
حتّى تصونَ نِجاركُمْ
بين الورى تقوى وخبره
أبَنِيّ. . . لا تستثقلوا
نُصحي. . طريقُ الحقِّ وَعْرَهْ
إني لَمجتهدٌ لكمْ وُسْعي
ولستُ دَعيَّ قُدْرَهْ
سَلَّمتُ للهِ الذي
فَطَرَ البريّةَ خيرَ فطرهْ
وإليه قد أسْلَمتُكُم
ودعوتُهُ في كلِّ زفرهْ

أملي بكم ما زال وَفْراً
والهمومُ لديَّ وَفْرَهْ
وستذكرون غداً مقالي
والدّموع تشوبُ ذِكْرَه[1]

* ومعَ هذهِ الوصيّة الأميريّةِ النّابعةِ من الوجدانِ ، سُدَاهَا النَّصيحة ، ولُحمتُها المحبّة للأبناء بدأها بالأملِ ، وختَمها بالدُّعاء ، فهل ننصتُ إلى عمر الأميري ونسمعُ هذا الهُتاف الأبوي؟!

ولدي وآمالي بكُم
تحبوكُمُ أمسى نُعوتْ
لا تجعلوها واهياتِ
مثل بَيْتِ العنكبوتْ
شَرَدتْ بكمْ نزواتُ
أنفسكمْ وأمزجةٌ شَتوتْ
وَرَمَيْتُمُ حبّاتِ قلبي
في رحى نَزَقٍ عَنُوتْ
فالعُمْرُ . . . مِنْ لأواءِ
حُبِّكُمْ ، وَجَوْركمُ يَفُوتْ
تَحْيَونَ بي وأنا بكمْ
في كلِّ شاردةٍ أموتْ
ولدي فثوبوا واستبينوا
الرُشْدَ والتزموا القُنوتْ
أرضى فأدعو جَأْرَةً
لكُمُ ومَوْجِدَتي صَمُوتْ
وأنا على الحالَيْن أدعو

---

(١) ديوان أب لعمر الأميري (ص ١١٠ ـ ١١٤) دار القرآن الكريم.

في الكلامِ وفي السّكوتْ[1]

* وهذا الشَّاعرُ المتألقُ محمد محمود عثمان ، تطلبُ منه ابنتُه «مَيْسَم» أنْ ينفَحها بوصيةٍ في مذكّراتها الخاصّة ، فكانتْ من وصاياهُ هذه الدّاليةِ الدّانية من القُلوب إذْ قال :

كُـونـي مـعَ اللهِ العَلِـيِّ فتسْعَـدي ... وَتَمَسَّكـي أَبَـداً بِشِـرْعَـةِ أَحْمَـدِ
وَتَعلَّمـي فـالعِلْـمُ يـرفـعُ أهلَـهُ ... وَبـهِ يُطِـلُّ المَـرْءُ مثـلَ الفَـرْقَـدِ
وَتَجمَّلـي بمكـارِمِ الأخـلاقِ كـي ... تمضـي بِـأَمـنٍ وَاحتـرامٍ للغـدِ
إنَّ الحيـاةَ قصيـرةٌ أَيَّـامُهـا ... كـالصُّبـحِ نُـوْراً أو كَـداجٍ أسـودِ
سَيَمُرُّ صُبْحٌ فاشكري المَوْلى بهِ ... وَيمـرُ داجٍ فـاصبـري وَتَجَلَّـدي
وَدَعـي المظـاهِـرَ وَالقُشـورَ فـإنَّهـا ... داءٌ إذا مـا فـارَ لَمَّـا يَبْـرُدِ
يا ميسمَ الزَّهَراتِ... ظَلّي بَسْمَةً ... كالشَّمْسِ في يومٍ صَبوحٍ عَسْجَدي
يـا ربِّ واحفظْهـا فـأنـتَ وَلِيُّهـا ... واجعـلْ خُطـاهـا خَطْـوَ عَبْـدٍ مُهْتَـدِ
واستُـرْ جميـعَ المـؤمنـاتِ كـرامـةً ... للفـاطِـمِ الـزَّهْـراءِ بنـتِ مُحَمَّـدِ
أُبنَيَّتـي هَـذي الحـروفُ كتَبتُهـا ... شِعْـراً لِتبْقَـى نـورَ مـا ملكَـتْ يَـدي
وَوَصيَّتـي منـكِ الـدُّعـاءُ لِـوَالِـدِ ... فَعَسَـى بـه أَجـدُ السَّـلامَ بمَـرْقَـدي

وقبل أنْ نقول وداعاً أيّها الأبناء ، وأيها الآباء ، وأيتها الأمّهات ، تعالوا نقرأ جميعاً قولَ اللهِ عزّ وجلّ :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* * *

(١) المرجع السابق عينه (ص ٧١ ـ ٧٣) .

المصادر والمراجع

١ ـ القرآنُ الكريم وعلومه.
٢ ـ الصَّحيحان [البخاري ومسلم].
٣ ـ السّننُ الأربعة.
٤ ـ المسانيد، وكتُب الفقه.
٥ ـ الآدابُ الشّرعية: لابن مفلح المقدسيّ ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعمر القيّام ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.
٦ ـ أخبار النّساء: لابن قيم الجوزية ـ مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان ـ دون تاريخ.
٧ ـ أدبُ الدنيا والدِّين: للماوردي ـ تحقيق ياسين السّوّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
٨ ـ أدبُ الفقهاء: لعبد الله كنون ـ دار الكتاب اللبناني ـ دون تاريخ.
٩ ـ أدبُ المرأةِ في الجزيرة والخليج العربي: للَيْلى محمد صالح ـ مكتبة ذات السّلاسلِ ـ الكويت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
١٠ ـ أستاذُ المرأةِ: لمحمد سالم البيحاني ـ مطبعةُ المدني ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ دون تاريخ.
١١ ـ الاستبصارُ في نسبِ الصّحابة من الأنصار: لابن قدامة المقدسي ـ تحقيق علي نويهض ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ أو رقم الطبعة.
١٢ ـ أسد الغابة: لابن الأثير ـ طبعة دار الفكر المصورة عن طبعة دار الشعب المحققة بالقاهرة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.

١٣ ـ الإصابة: لابن حجر وبهامشه الاستيعاب لابن عبد البر ـ تحقيق د. طه الزّيني ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.
١٤ ـ الأعلام: لخير الدِّين الزّركلي ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط٨ ـ ١٩٨٤ م.
١٥ ـ أعلام النّساء: لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٩ ـ ١٩٨٩ م.
١٦ ـ الأغاني: للأصفهاني ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٢ م.
١٧ ـ الأمالي: للقالي ـ طبعة مصر ـ ١٩٥٣ م. وطبعات أخرى متنوعة.
١٨ ـ أمثال المرأةِ عند العرب: لصلاح الدّين المنجّد ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.
١٩ ـ أناشيدُ البراعم المؤمنة: لمحمّد شريف الصَّوَّاف ـ دار السَّنابل ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.
٢٠ ـ البدايـةُ والنّهاية: لابن كثير الدّمشقي ـ دار الفكر ـ طبعة مصورة ـ دون تاريخ.
٢١ ـ بصائر ذوي التّمييز: للفيروز أبادي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٢ ـ بلوغُ الأرب: للآلوسي ـ تحقيق محمد بهجة الأثري ـ المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٢٤ م.
٢٣ ـ بهجةُ المجالس وأُنْسُ المجالس: لابن عبد البر ـ تحقيق مرسي الخولي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٤ ـ البيان والتبيين: للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.
٢٥ ـ تاجُ العروس من جواهر القاموس: للزَّبيدي ـ المطبعة الخيريّة ـ القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ. وطبعة الكويت.
٢٦ ـ تاريخُ مدينةِ دمشق (تراجم النِّساء): لابن عساكر ـ تحقيق سكينة الشّهابي ـ دمشق ـ طبعة مصورة بدار الفكر.
٢٧ ـ تاريخ مكة: للأزرقي ـ المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة ـ ط١ ـ ١٤١٦ هـ.

٢٨ ـ **التّذكرة الحمدونية**: للحمدوني ـ تحقيق د. إحسان عبّاس وبكر عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

٢٩ ـ **تغريدةُ السّيرة النّبوية**: لمحمد عايش عبيد ـ دار التراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

٣٠ ـ **تفسير الرازي**: للرّازي ـ [تفسير الكبير أو مفاتيح الغيب] ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

٣١ ـ **تفسيرُ القاسمي**: للقاسمي ـ علق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٧٨ م.

٣٢ ـ **تفسيرُ القرطبي**: للقرطبيّ ـ دار الكتُب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

٣٣ ـ **تفسيرُ المراغي**: للمراغي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

٣٤ ـ **تهذيبُ الأسماء واللغات**: للنّووي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.

٣٥ ـ **ثقافة الأطفال**: د. هادي الهيتي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ـ رقم (١٢٣).

٣٦ ـ **ثمارُ القلوب في المُضاف والمنسوب**: للثّعالبي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصر ـ ١٩٦٥ م.

٣٧ ـ **الجليسُ الصّالح الكافي**: للنّهرواني ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي ود. إحسان عباس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.

٣٨ ـ **جمهرةُ الأمثال**: للعسكريّ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

٣٩ ـ **جمهرةُ أنسابِ العرب**: لابن حزم ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٥ ـ دون تاريخ.

٤٠ ـ **جواهرُ الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**: للهاشمي ـ مؤسسة المعارف ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٤١ ـ **حصادُ الدّمع**: [ديوان شعر] د. محمد رجب البيومي ـ دار الأصالة ـ الرّياض ـ ط ٢ ـ ١٩٨٤ م.

٤٢ ـ حَصَادُ الظِّلال: [ديوان شعر] د. عبد الكريم اليافي ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠١ م.
٤٣ ـ الحضرةُ الأنسيةُ في الرحلةِ القدسية: لعبد الغني النابلسي ـ تحقيق أكرم حسن العلبي ـ دار المصادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٤٤ ـ حليةُ الأولياء: لأبي نعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٦٧ م.
٤٥ ـ حياةُ الحيوان: للدميري ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٥ ـ ١٩٨٠ م.
٤٦ ـ حياةُ الصَّحابة: للكاندهلوي ـ بعناية نايف العبّاس ومحمد دولة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٦ م.
٤٧ ـ خزانةُ الأدب: للبغدادي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.
٤٨ ـ دائرةُ المعارف الإسلامية: نقلها إلى العربية إبراهيم خورشيد ورفيقيه ـ كتاب الشّعب ـ مصر ـ ١٩٣٣ م.
٤٩ ـ الدرُّ المنثورُ في طبقاتِ ربّات الخدور: لزينب فواز ـ طبعة مصورة ـ الكويت ـ دون تاريخ.
٥٠ ـ دلائل النُّبوَّة: للبيهقي ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م.
٥١ ـ ديوانُ أب: لعمر الأميري ـ دار القرآن الكريم.
٥٢ ـ ديوانُ أبي تمام: لأبي تمام ـ بشرح الخطيب التّبريزي ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف ـ مصر.
٥٣ ـ ديوانُ إسماعيل صَبْري: لإسماعيل صبري ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٥٤ ـ ديوان امرىء القيس: لامرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٢ ـ دون تاريخ.
٥٥ ـ ديوان حافظ إبراهيم ـ تحقيق أحمد أمين ورفيقه ـ دار الجيل ـ طبعة مصورة عن طبعة مصر عام ١٩٣٧ م.

٥٦ ـ **ديوانُ حمام**: لمحمد مصطفى حمام ـ الهيئةُ المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ م.
٥٧ ـ **ديوانُ عاتكة الخزرجي**: د. عاتكة الخزرجي ـ (المجموعة الشعرية الكاملة) ـ الكويت ـ ١٩٨٦ م.
٥٨ ـ **ديوانُ عازفةِ القيثار**: لعفيفة الحصني ـ المطبعة التعاونية ـ دمشق.
٥٩ ـ **ديوانُ عازفة الليل**: لعفيفة الحصيني ـ المطبعة العمومية ـ دمشق.
٦٠ ـ **ديوانُ عزيز فهمي**: د. عزيز فهمي ـ مصر.
٦١ ـ **ديوان الفرزدق**: للفرزدق ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م.
٦٢ ـ **ديوانُ النَّار والطين**: لراضي صدوق ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٦٦ م.
٦٣ ـ **روحُ البيان**: [تفسير] لإسماعيل حقي البروسوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠١ م.
٦٤ ـ **روحُ المعاني**: للآلوسي ـ درا الفكر ـ بيروت.
٦٥ ـ **روضةُ العقلاء**: للبُسْتي ـ مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
٦٦ ـ **الرّوض الفائق**: لشعيب الحريفيش ـ دار الفكر ـ طبعة مصورة ببيروت ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.
٦٧ ـ **الروضةُ الفيحاء في تواريخ النساء**: لياسين العمري ـ تحقيق د. رجاء السّامرّائي ـ الدار العربية للموسوعات ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
٦٨ ـ **زادُ المسير**: لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ـ ط ١ ـ ٢٠٠٢ م.
٦٩ ـ **زادُ المعاد**: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق شعيب أرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٦ ـ ١٩٨٤ م.
٧٠ ـ **زهرُ الآداب**: للحصري ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٥٣ م.

٧١ ـ سبُل الهدى والرشاد: للصَّالحي ـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد وآخرون ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ م.

٧٢ ـ سيرُ أعلام النّبلاء: للذّهبي ـ تحقيق مجموعة من العلماء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٢ م.

٧٣ ـ السّيرةُ الحلبيةُ: لعلي بن برهان الدين الحلبي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط١ ـ ١٩٦٤ م.

٧٤ ـ السيرةُ النبوية: لابن هشام ـ تحقيق السَّقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٥٥ م.

٧٥ ـ شاعراتُ العرب: جمع عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٦٧ م.

٧٦ ـ شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٦ م.

٧٧ ـ شرحُ ديوان المتنبي: للبرقوقي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠١ م.

٧٨ ـ شعر عروة بن الورد: صنعة ابن السّكيت ـ تحقيق د. محمد فؤاد نعناع ـ مطبعة الخاني ـ القاهرة ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

٧٩ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: للفاسي ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م.

٨٠ ـ الصورة الفنيّة في الشّعر الإسلاميّ عند المرأة: د. صالح الخضيري ـ مكتبة التّوبة ـ الرّياض ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.

٨١ ـ صيدُ الخاطر: لابن الجوزي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ .

٨٢ ـ الطبقاتُ الكبرى: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٨٣ ـ الطّفل في ضوء القُرآن والسّنّة والأدب: د. أحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠١ م.

٨٤ ـ **العقدُ الفريد**: لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين ورفقيه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٢ م.
٨٥ ـ **عيونُ الأخبار**: لابن قُتيبة ـ مصورة عن دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.
٨٦ ـ **الغيثُ المسجم في شرح لامية العجم**: للصفدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٠ م.
٨٧ ـ **فتحُ القدير**: للشّوكاني ـ دار الفكر ـ بيروت دون تاريخ أو رقم الطبعة.
٨٨ ـ **الفتوحاتُ الإلهيةُ بتوضيح تفسير الجلالين للدّقائق الخفية**: لسليمان الجمل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
٨٩ ـ **في رحاب الأنبياء والرسل**: د. عبد الحليم محمود ـ كتاب اليوم ـ العدد (٢٩٤) أيار ـ ١٩٨٩ م.
٩٠ ـ **القاموس المحيط**: للفيروز أبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٧ م.
٩١ ـ **قصصُ الأنبياءِ**: لابن كثير ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
٩٢ ـ **قصص العرب**: لمحمد جاد المولى ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.
٩٣ ـ **قصصُ القُرآن**: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ طبعة مصورة دون تاريخ.
٩٤ ـ **الكاملُ في التّاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩٥ ـ **الكاملُ في اللغةِ والأدب**: للمبرد ـ تحقيق محمد الدالي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.
٩٦ ـ **الكشّاف**: للزمخشري ـ دار المعرفة ـ بيروت دون تاريخ أو رقم الطبعة.
٩٧ ـ **لسانُ العرب**: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٩٨ ـ **لقمانُ الحكيم**: لمحمد خير يوسف ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٤ م.
٩٩ ـ **مجمعُ الأمثال**: للميداني ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ م.

١٠٠ ـ **مجمعُ الزوائد**: للهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت دون تاريخ.

١٠١ ـ **مجمل اللغة**: لابن فارس ـ حققه شهاب الدين أبو عمرو ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.

١٠٢ ـ **مجموع مهمات المتون**: لعدد من العلماء ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٤ ـ ١٩٤٩م.

١٠٣ ـ **المحاسنُ والمساوىء**: للبيهقي ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨م.

١٠٤ ـ **محاضراتُ الأدباء**: للراغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ ـ وطبعة دار الأرقم المحققة.

١٠٥ ـ **مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: لابن منظور ـ تحقيق عدد من الأساتذة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.**

١٠٦ ـ **المستطرف**: للأبشيهي ـ دار الفكر ـ طبعة مصورة عن طبعة بولاق.

١٠٧ ـ **المعارفُ**: لابن قتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٤ ـ ١٩٧٧م.

١٠٨ ـ **معجم البلدان**: للحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٠٩ ـ **المعمرون والوصايا**: لأبي حاتم السجستاني ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦١م.

١١٠ ـ **المغازي**: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ أو رقم الطبعة.

١١١ ـ **المفضّليات**: للمفضل الضَّبِّي ـ تحقيق وشرح أحمد شاكر، وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر ط ٧ ـ دون تاريخ.

١١٢ ـ **المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج**: للنووي ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

١١٣ ـ نساء أهل البيت د. أحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط٥ ـ ٢٠٠٢ م.
١١٤ ـ **نظرات في أحسنِ القصص**: د. محمد الوكيل ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٤ م.
١١٥ ـ **نفحاتُ الإيمان**: لصابرة العزي ـ وزارة الثقافة العراقية ـ ١٩٨٠ م.
١١٦ ـ **نفحُ الطِّيْب**: للمقري ـ حققه يوسف البقاعي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.
١١٧ ـ **النّبوّة والأنبياء**: لمحمد علي الصَّابوني ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٩ م.
١١٨ ـ **نهاية الأرب**: للنّويري ـ طبعة مصورة عن دار الكتب ـ مصر ـ دون تاريخ.
١١٩ ـ **نوادرُ المخطوطات**: تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٢ م.
١٢٠ ـ **الوافي بالوفيات**: للصّفدي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠ م.
١٢١ ـ **وفاء الوفا**: للسّمهودي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٤ م.
١٢٢ ـ **وفيات الأعيان**: لابن خَلّكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

وهناك مئات المصادر والمراجع والمجلات التي وردت في ثنايا الكتاب

* * *

فهرس الموضوعات

الباب الثاني: آباء وأبناء

الباب الثالث: الأبناء وأمور الوالدين